الكاتب الفلسطيني

العدد ١٤ - شتاء ١٩٨٩ - كانون ثاني - شباط - آذار



الكاتب الفلسطيني

العدد ١٤ ـ شتاء ١٩٨٩ ـ كانون ثاني ـ شباط ـ آذار

مجلة فصلية تصدر عن
الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين
لجنة العمل النقابية

الاشتراكات السنوية

للأفراد: ـ سوريا ولبنان ١٥٠ ل.س
ـ بقية الاقطار العربية ٢٥٠ ل.س
ـ اقطار العالم ٢٥ دولار
للمؤسسات: ٥٠ دولار

الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين
لجنة العمل النقابية

الفهرست

كلمة الكاتب

ـ القضية الفلسطينية تدخل مرحلة جديدة .... هيئة التحرير -٤-

مقالات ودراسات سياسية

ـ حول مهمات المرحلة القادمة .... عبد الجواد صالح -١٣-
ـ ملاحظات في اشكالية الدولة القطرية .... سلامة كيلة -٤١-
ـ البيروسترويكا ونحن وأفغانستان .... نزيه أبو نضال -٥٤-
ـ الانتفاضة الفلسطينية: خصائصها.. قواها الاساسية .... عبد الهادي النشاش -٦٢-
ـ الانتفاضة... استمرارها.. تطورها .... ماجد كيالي -٧١-
ـ الدكتور عبد الوهاب الكيالي مؤرخ القضية الفلسطينية .... د. خيرية قاسمية -٨١-
ـ حديث الانتفاضة.. ومقولة الدولة المستقلة .... عوني الصادق -٩٣-

ثقافة

ـ أبو سلمى ابن منظمة التحرير في شعره .... د. حسام الخطيب -١٠٢-
ـ هادي العلوي والانزياح .... عبد الكريم الناعم -١٠٦-
ـ مناقشات حول الفرد القامع والمقموع .... أمين مازن -١١٧-
ـ الروائي أم الروائيون ـ محاولة للتقرب من عالم غالب هلسا الكتابي .. خيري الذهبي -١١٩-
ـ مدن فلسطين في رحلات الاقدمين .... خير الله سعيد -١٣٠-
ـ خريطة فلسطين ووسائل ايضاح على أرض الواقع .... جان الكسان -١٤٢-

تراث

ـ فكرة الصراع في الاغنية الشعبية .... محمود مفلح البكر -١٤٥-

فن تشكيلي

ـ المقاومة في الحركة الفنية في سورية .... خليل صفية -١٥٦-

شعر

ـ انفض رمادك وانهض .... سليمان العيسى -١٦١-
ـ مدينة الرماد .... علي سليمان -١٦٧-
ـ العوديسا .... خالد أبو خالد -١٧٠-

ـ أناديك من جمرة الذاكرة .... صالح هواري -١٨٠-
ـ قصائد .... محمد لافي -١٨٢-
ـ أنت الجذر والتاريخ .... طلعت محمود سقيرق -١٨٧-
ـ الانكسار .... محمد الكيش -١٨٩-
ـ الارض مداي الصغير .... محمد وحيد علي -١٩١-

ملتقى أبو سلمى الاول للشعراء الشباب -٢-

ـ فلسفة مهترئة .... سليم مصطفى النفار -١٩٨-
ـ أحجار كريمة .... اياد عاطف حياتله -٢١٠-
ـ الشفق .... كمال سحيم -٢٠٥-

اشعار مترجمة

ـ فيتنام الدم والزهور .... توهوو -٢٠٧-
ـ قصائد تحت القمر .... لوي فانغ -٢١٠-

قصة

ـ سونيا والجنرال .... اعتدال رافع -٢١٢-
ـ التهمة .... ليلى العثمان -٢١٧-
ـ البلاد .... ابراهيم صموئيل -٢٢٤-
ـ ثلاثة أيام في مطار القاهرة .... عبد الكريم عيد -٢٢٧-
ـ الرهان .... زكريا شريقي -٢٣٨-
ـ الشنفرى .... أحمد عادل أحمد -٢٤٢-
ـ لحظة بين دمعتين .... وجيه عمر مطر -٢٤٥-

شخصيات فلسطينية

ـ الدكتور اسحق موسى الحسيني .... نصري الجوزي -٢٥٠-

مذكرات

ـ من مذكرات محمد عزة دروزة .... -٢٥٥-

كتب

ـ الانتفاضة الفلسطينية في ثلاثة كتب .... عوني الصادق -٢٧١-
ـ اسماعيل.. الرواية التي تفجر الخطاب .... سهيل الخالدي -٢٧٦-

وثائق وتقارير .... -٢٨٠- -٣٠٢-

كلمة الكاتب

القضية الفلسطينية تدخل مرحلة جديدة

- ١ -

نستطيع أن نقول الآن ان القضية الفلسطينية تدخل مرحلة جديدة. فماذا يعني ذلك؟ وماهي الاعتبارات التي تجعلنا نطلق مثل هذا الحكم؟

ان الاعتبارات التي تجعلنا نطلق هذا الحكم هي مايلي:

اولاً: إن القيادة الفلسطينية التي حملت لقب الممثل الشرعي والوحيد فلسطينياً وعربياً ودولياً، أقرت بوجود الكيان الصهيوني حسب القرار ٢٤٢ وكرست هذا الاعتراف بقرارات المجلس الوطني الفلسطيني في منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨. ولم تكتف القيادة الفلسطينية بذلك، بل أخذت تتصرف عملياً على هذا الاساس. وها هي تجري الاتصالات، وتحاول عقد الصفقات انطلاقاً من القناعة بالاعتراف بالعدو الصهيوني، واعتبار حكومة الولايات المتحدة طرفاً رئيساً في حل المشكلة، يرجى منه ان يكون محايداً.

وتعمل القيادة الفلسطينية الآن لترتيب الوضع الفلسطيني على هذا الأساس، ولترتيب علاقاتها العربية والدولية، ضمن هذا الاطار.

وهي المرة الأولى التي تقبل فيه قيادة فلسطينية بهذاالدور، وهي في قيادة العمل الوطني الفلسطيني. لان القيادات الوطنية الفلسطينية تجنبت الانجرار الى هذا الموقف، كما فعلت قيادة الحاج امين الحسيني. أما القيادات الأخرى التي تبنت مثل هذا الموقف، منذ ١٩٢٠ حتى ١٩٦٤ فقد اعتبرت قيادات معادية للعمل الوطني، وحرمت من ممارسة أي دور باسم العمل الوطني. ولذلك، فان هذه القيادة نجحت في تسلم كرسي القيادة الرسمية، باسم الثورة والتحرير والجماهير، ثم مالبثت ان تحولت الى مهاوي التصفية، وهي ماتزال متلفعة بالكاكي وممسكة بالبندقية.

ان القيادة التي تحمل لقب الممثل الشرعي والوحيد، اتخذت قرار القبول بالكيان الصهيوني، واعتبار التسوية على أساس القرار ٢٤٢ حلاً وطنياً، والمطالبة بدولة على جزء من الوطن بديلاً عن التحرير.

ثانياً: ان الانظمة العربية الاستسلامية، وهي اغلبية الانظمة العربية الآن، تبحث عن حل لمشكل الصراع العربي ـ الصهيوني. ورغم ان الصيغة السياسية لهذا الحل، تبلورت في قمة فاس، سنة ١٩٨٢، وضمن اطار قرارات قمة فاس، فان هذا الحل العربي، كان يحتاج الى بعده الفلسطيني. وكانت قيادة م. ت. ف. قد وافقت على هذه القرارات، رغم اعتراض اطراف في المنظمة.. الاّ ان الموافقة الفلسطينية لم تعتبر كافية. وجاءت قرارات المجلس الوطني في دورته التاسعة عشرة، لتعبّر عن الاعتراف الكامل.

ان الانظمة العربية الاستسلامية، تستهدف حل مشكلة الصراع العربي ـ الصهيوني. الآن، في ظل تراجع المد القومي الثوري العربي، وفي ظل الظروف الدولية التي تبدو مواتية.

وكانت الانظمة العربية بحاجة الى الموقف الفلسطيني هذا، لان التمسك الفلسطيني بالارض، منذ ١٩١٧، كان العائق الرئيسي في وجه المبادرات الرسمية العربية الاستسلامية.

وفي ظل غلبة الاتجاه الاستسلامي العربي مؤقتاً، كما لم يحدث، منذ ١٩٤٧، تتقدم الانظمة الاستسلامية العربية بمشروع التصفية، تزكيها موافقة رسمية فلسطينية.

ان هذا الوضع: شبه اجماع عربي. موافقة رسمية فلسطينية، ضعف عام في الحركة الثورية والحركة الشعبية العربية، يجعل قوى الاستسلام العربي تتقدم بلا احتراز. ويجعل القيادة الاستسلامية الفلسطينية، تتنازل جهاراً عن القضية الوطنية، وتتخذ المواقف الرسمية التي اعتبرت في كل تاريخ النضال العربي «مواقف خيانية» حتى لدى قيادة فتح عبر وثائقها، مابين ١٩٥٩ ـ ١٩٧٤.

ثالثاً: إن سياسة الانفراج الدولي التي عكستها السياسة السوفياتية في ظل قيادة الرئيس الامين العام غورباتشيف، تجعل القوى الاستسلامية، تستثمر الفرصة، لتدرج مشاريعها

الاستسلامية، ضمن اطار مشاريع السلام العالمي. ورغم وجود فوارق مابين الحالتين، فان القيادات الاستسلامية، ترى في الحوار السوفياتي ـ الاميركي مناسبة لتمويه مشاريع الاستسلام، وايجاد المبررات لها.

وضمن هذا الاطار، تعيش القضية الفلسطينية وضعاً جديداً يستحق أن نقف عنده.

ـ ٢ ـ

ان تطورات الموقف الرسمي الفلسطيني، تتضمن دلالات مهمة، تستلزم الوقوف عندها بجدية كبيرة. لان التحوّل ليس تحولاً عادياً، ولان التنازل عن الوطن، واعتبار الكيان الاستيطاني دولة عادية، تقام معها العلاقات، انقلاب في المفاهيم السياسية، لم يسبق له مثيل على الصعيد العالمي، في التاريخ الحديث. وهذه هي الدلالة الاولى لهذا التحول.

ففي التاريخ الحديث وقع الاحتلال الاجنبي لمناطق واسعة من العالم، ووقع استعمار استيطاني، كما في جنوب افريقيا، والجزائر وفلسطين، ولكن حركة الشعوب اتجهت الى مقاومة الاحتلال، ومحاربة الاستيطان، ولم يرض شعب من الشعوب بالاحتلال، ولاسلّم شعب من الشعوب للاستيطان. وهذه حرب التحرير في الجزائر، لاتنهي الاحتلال الفرنسي فحسب، بل الكيان الاستيطاني الفرنسي في الجزائر أيضاً. ومازال الكفاح مستمراً في جنوب افريقيا.

ان اعلان الكيان الصهيوني دولة شرعية على ارض فلسطين واقعة جديدة في التاريخ الحديث، لاتوجه ضربة لقضية العرب القومية، ولاتسدد طعنة لمفاهيم سيادة الشعب، وارتباط الشعب بالارض فقط، بل تقدم مفهوماً جديداً لامكانية تنازل قيادة وشريحة اجتماعية مرتبطة بها عن الوطن والقضية.

ان هذا الانقلاب في المفاهيم، من التحرير الى التسوية، ومن المطالبة بالوطن الى قبول مشروع دويلة على جزء صغير منه، انقلاب كبير وخطير لم يسبق له مثيل في التاريخ العربي أو العالمي الحديث.

لقد «خُوّنت» قيادات طبقات او شرائح اجتماعية، لانها قبلت المساومة على حدود أو أطراف، على أساس ان مبدأ السيادة متكامل، وأن المساومة على الاطراف مساومة على مبدأ السيادة.

أما في الحالة الفلسطينية، فان المساومة لم تكن على الاطراف، ولا على السلطة السياسية، بل على الوطن. وجرت المساومة على الارض والسيادة كلها بمشروع دولة على الجزء الاصغر.

ومثل هذه المساومة، قد يقبلها «ولاة أجانب» وعدوا بولاية، ثم أعطوا نصفها أو ربعها، ولكن ان تقبل طبقات وشرائح اجتماعية وطنية، فهذا غير طبيعي، لان ممثلي اية طبقة، يعتبرون الوطن وطنهم، ولايعتبرون للاعداء حقاً فيه، ولايسلمون للعدو بجزء أو كل. وقبول القيادة الفلسطينية مبدأ الاقتسام والاعتراف المتبادل، يخرجها خارج اطار مبادىء الوطنية والقومية،

وخارج اطار الشعب، لان ممثلي الشعب، لايسلمون للاعداء باقامة دول على أرض شعبهم.

أما الدلالة الثانية، التي تستحق الاهتمام الشديد، فهي ان القيادة الفلسطينية، انتقلت بعملها من التحرير الى التسوية، واعتبرت ان القضية الفلسطينية قابلة لان تحل بأساليب الحوار السياسي، لا بالقتال.

ان هذا النقلة، تمثل تطوراً نوعياً في النظر الى القضية الفلسطينية. فاسقاط مسألة التحرير في الوقت الراهن، واعتماد سياسة الحل السياسي، تعني مايلي:

اولاً: ان العدو الصهيوني، تحول من استعمار استيطاني، ومن اداة امبريالية، الى جار طبيعي، لم يعد الخلاف معه، خلافاً على الوجود بل خلاف على الحدود. والقيادة الفلسطينية، لاتطرح قضية احتلال أراضي ١٩٤٨، وهي حوالي ثمانين بالمائة من أرض فلسطين، ولا تهتم بقضية لاجئي ١٩٤٨، والواقعين تحت الاحتلال، منذ ١٩٤٨، بل تعنى بالاراضي المحتلة، سنة ١٩٦٧، اي الضفة الغربية وغزة.

ثانياً: ان الحصول على الدولة في الضفة الغربية وغزة، سيتحقق بالوسائل السياسية، وليس بالقتال، والوسائل السياسية، تعني الضغط على العدو بوسائل مختلفة، تشمل أشكال الاحتجاج المعروفة، والوسائل الديبلوماسية، وكان مسألة الصراع العربي الصهيوني، لاتختلف عن اية مسألة أخرى، كالاحتلال البريطاني للكويت، او الاحتلال الفرنسي لجيبوتي.

ثالثاً: ان التحول من التحرير الى الحل السياسي، يجعل حكومة الولايات المتحدة الاميركية، تنظر الى الطرف الفلسطيني المصمم على الحل السياسي نظرة رضا، ويدفعها الى تبني الحل السياسي.

ان هذه النظرة تحاول تجاهل طبيعة الاستعمار الاستيطاني، وطبيعة دور هذه القاعدة الصهيونية، ودورها ضمن اطار المخطط الامبريالي الاميركي.. كما ان هذه النظرة، تتجاهل مصير «المشاريع السلمية» منذ مؤتمر بال، سنة ١٨٩٧ ...

والقيادة الفلسطينية، في كل ذلك، تتكيف مع المشروع الصهيوني ـ الامبريالي، وتعد لاخراج هذا التكيف ضمن اطار حل، يضمن أمن الكيان الصهيوني والاعتراف الراهن به، انطلاقاً من شرعية وجوده، ووجود واقٍ فلسطيني الى جانبه، وفي حمايته.

وبذلك تكون القيادة الفلسطينية التي حسمت خياراتها السياسية، منذ تبني خط الحل المرحلي في الكواليس، في ايلول سنة ١٩٧٠، قد أعلنت انتماءها الرسمي والقانوني للانظمة والطبقات العربية المستسلمة، الباحثة عن حلول لمشاكلها ضمن اطار المشروع الامبريالي.

ولقد اخرج هذا الانقلاب اخراجاً جيداً، بحيث يُغطى التنازل الكبير الخطير عن الوطن والقضية، ليبدو اعلان استقلال وقيام دولة، وليكرس في الاعلام انتصاراً وهذه ثالث الدلالات المهمة. اذ ان السادات الذي استعاد سيناء ضمن اطار التنازل عن السيادة القومية والامن

القومي اعتبر خائناً، وتمت مواجهته شعبياً ورسمياً مواجهة واسعة. وكان السادات في ذلك، يقول للجماهير في مصر، لقد استعدت لكم كل سيناء، وانهيت الحرب خارج مصر ومع ذلك، فان اوسع الجماهير خارج مصر وداخلها، لم تقبل بهذا التنازل ، ومات السادات قتلاً على منصة عرضه العسكري. أما القيادة الفلسطينية المنطلقة من رؤية قطرية فلسطينية، فقد اسبغت شرعية على الحل الساداتي، الذي اعترف بوجود الكيان الصهيوني، وقبل بحكم ذاتي للفلسطينيين، واقرت هذه القيادة بوجود الكيان الصهيوني، على معظم فلسطين، مقابل حلم بدولة فلسطينية على الجزء الباقي. واعتبرت هذه القيادة، رغم ذلك، ماحدث انتصاراً، وطبلت وزمرت له، وكأنّ صلاح الدين الايوبي قد دخل القدس.. وذلك يعني ان هذه القيادة لاتكتفي بالتنازل عن الصراع العربي ـ الصهيوني، بل تجعل من هذه التنازل انتصاراً كبيراً.

إنّه لعب بالقضايا القومية الكبرى، واستخفاف بالمنطق والقيم، وتجرؤ على المقدسات.

وهو لعب واستخفاف، يجد تغطيته العربية، وهذه هي الدلالة الرابعة، من كل القوى الاستسلامية العربية. لان هذه القوى، تستهدف التخلص من الصراع العربي ـ الصهيوني، والتكيف مع المخطط الامبريالي الاميركي. وفلسطين، بالنسبة لهذه القوى، ليست جزء من خرائط اقطارها. لان لكل قطر خريطته. وليس هناك أمن قومي ولامصالح قومية، توجب استمرار الصراع. والعدو الصهيوني ليس عدواً، ان العدو هو القومية والشيوعية والثورات الاجتماعية. واستمرار الصراع مع العدو الصهيوني، يفجر الصراع مع الامبريالية عامة والاميركية خاصة، ويطلق عنان الصراعات الاجتماعية، ويخلخل السلام الاجتماعي والأمن القطري الخ..

ـ ٣ ـ

فلماذا يحدث ذلك كله؟ لماذا يحدث هذا الانقلاب في المفاهيم؟ وتتنكر القيادة الفلسطينية للتراث الوطني كله، ولميثاق المنظمة، وميثاق النضال الشعبي منذ ١٩٢٠؟

ان ذلك، يعود في رأينا الى مايلي:

اولاً: ان القيادة الرسمية الفلسطينية لاتمثل الالتزام بالشعب والأرض والقضية، بل تمثل الارتباط بالانظمة العربية المستسلمة، وبالاجهزة الدولية. ولذلك، فان هذه القيادة،تبنت الحل الساداتي ـ الاميركي، بلا تردد، ولم تفعل مافعلته قيادة الحركة الوطنية، سنة ١٩٤٧، عندما رفضت الحل الاميركي ـ الصهيوني ـ العربي الاستسلامي، وقبلت المصير الذي آلت اليه.

ولو كانت هذه القيادة مرتبطة بالشعب والارض، لقررت مواصلة المقاومة، وأصرت على محاربة نهج التسوية الاستسلامي. ولكن ارتباط هذه القيادة ببرامج الانظمة العربية الاستسلامية، جعلها تقبل الحل الساداتي الاميركي ـ الصهيوني.

ثانياً: ان هناك قسماً من البرجوازية الفلسطينية الذي ارتبط بالتجارة الدولية، والذي

استفاد من قيام المستوطنات الصهيونية، اتخذ من البدء موقفاً غير معادٍ للمشروع الصهيوني. كان هذا الشق من البرجوازية الفلسطينية، مرتبطاً برأس المال العالمي من جهة، وبالانظمة الاستسلامية العربية من جهة اخرى. ولقد قاتل هذا الشق من البرجوازية الفلسطينية الحركة الوطنية، قبل ١٩٤٨. وكان «حزب الدفاع» ممثل هذا الشق من البرجوازية.

ان «حزب الدفاع» نما وترعرع، بعد ١٩٤٨، لان البرجوازية الكمبرادورية الفلسطينية اتسعت، نتيجة تكثيف خضوع السوق الفلسطينية لرأس المال الصهيوني والعالمي، وبسبب نمو قطاع من البرجوازية الفلسطينية في ظل الانظمة العربية عامة، والنفطية منها خاصة.

وهذا الشق من البرجوازية الذي يخشى، ويكره النضال، اكثر مما كان، قبل ١٩٤٨، ويعادي القومية، كما يعاديها اسياده، سواء كانوا من البرجوازيين القطريين العرب، أو من ممثلي الشركات المتعددة الجنسيات.

ان هذا الشق، كان يعمل مع الانظمة العربية والقوى الدولية المؤيدة لوجود المشروع الصهيوني، من أجل تحول المقاومة، الى المساومة، على حل سياسي.

ولما كانت قيادة فتح قيادة المنظمة، منذ ١٩٦٨ مستعدة للقيام بهذا الدور، فقد حدث تزاوج في الموقف، فربطت قيادة المنظمة نفسها بهذا الشق من البرجوازية، وايدت البرجوازية المشار اليها هذا الشق من القيادة، وايدت الانظمة العربية الاستسلامية كلها هذا «الزواج غير المبارك» ليقوم الحل على أساس وجود قيادة فلسطينية، ارتبط اسمها بالعمل الوطني، ووجود قاعدة اجتماعية لهذه القيادة.

وهذا ماكان: غلبة موقف الشق الانهزامي الاستسلامي من البرجوازية المرتبط بموقف الانظمة العربية الاستسلامية، ورأس المال العالمي..

ثالثاً: ان الانظمة العربية الاستسلامية، مع الحل السياسي للمشكلة الفلسطينية للاسباب التالية:

١ ـ ان استمرار الصراع يعني تكريس العامل القومي فيه، وهو مايتناقض مع السياسات القطرية لهذه الانظمة. فالانظمة الاستسلامية، تكرس واقع الاقطار باعتباره واقع أمم. وتكريس هذا الواقع، يحتاج الى الغاء العوامل القومية في الحياة العربية ولذلك، تعمل هذه الانظمة، بمقدار ماتنمي الروح القطرية والمصالح القطرية، الى الغاء العوامل الحافزة قومياً. ومن هذه العوامل الصراع العربي ـ الصهيوني.

ان الطبقات الحاكمة، المستسلمة للمشروع الامبريالي، ترى في الغاء عوامل الصراع القومي ضمانة بقائها..

ولذلك فان هذه الانظمة بدات تعمل، ومنذ ١٩٤٨ على حل هذا الصراع ببقاء الكيان الصهيوني والتعايش معه.

٢ ـ ان الامبريالية الاميركية حريصة على بقاء الكيان الصهيوني وتعايش الانظمة العربية معه، وتحرص الانظمة العربية الاستسلامية على تأييد هذه السياسة. لان الانظمة العربية الاستسلامية، ترى في الوجود الاميركي قوة لها، وترى ايضاً ان وجود الكيان الصهيوني ضرورياً لمحاربة الحركة القومية، ولمنع الوحدة القومية، وهو ماتخشاه القوى الغربية الاستسلامية، كما يخشاه الكيان الصهيوني.

٣ ـ ان استمرار الصراع العربي ـ الصهيوني، سيزيد من حدة الصراع ضد الامبريالية عامة، والاميركية خاصة، وسيقود الى تعبئة الجيوش، وازدياد عوامل النقمة، واندلاع الثورات.. وهو ما تحاول الانظمة العربية الاستسلامية ان تتجنبه.

رابعاً: ان الامبريالية الاميركية التي ترى ضرورة بقاء الكيان الصهيوني قوياً، ترى ضرورة التغلغل في الوطن العربي، وضمان بقائه، ضمن اطار دائرة النفوذ الاميركي. وهذا يتطلب انعدام أسباب الانفجار الرئيسة، وتحول الصراعات الرئيسة الى صراعات ثانوية، والصراعات الثانوية الى صراعات رئيسة وهكذا..

ويجب بالنسبة للامبريالية الاميركية ان تفكك أسباب الصدام مع الامبريالية الاميركية، وان تعزل ويبطل مفعولها، ومن ذلك، الصراع العربي ـ الصهيوني..

ولما كان الصدام مع الكيان الصهيوني، يزيد أسباب الصراع مع الامبريالية عامة، والاميركية خاصة، فان اخماد الصراع العربي ـ الصهيوني يتيح للسياسة الاميركية ان تحقق المزيد من التغلغل في الوطن العربي، وان تأخذ دور الحكم في الصراع العربي ـ الصهيوني، رغم كون الامبريالية الاميركية طرفاً.

خامساً: ان السياسة السوفياتية التي تدعو الآن الى انفراج دولي، وتحاول أن تسهم في حل الصراعات الدولية الراهنة، تميل الى معالجة مشكلة الشرق الاوسط، بما يضمن ايجاد حل يخفف حدة التوتر، ويزيل أسباب الاحتكاك بين حكومتي الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية.

وللقيادة السوفياتية وجهة نظرها في هذا الميدان، وهي وجهة نظر ترتبط بمجمل السياسة السوفياتية الراهنة. ورغم أن هذه السياسة تحتاج الى مناقشة شاملة، الا أن ذلك لاينفي تسهيل السياسة السوفياتية في الوقت الراهن الحلول التفاوضية في ميدان الصراع العربي ـ الصهيوني.

سادساً: ان الحركة الثورية والقومية الديمقراطية العربية، تراجعت منذ ١٩٦٧ تراجعاً جذرياً، وباتت عاجزة عن مواجهة المخطط الاستسلامي، وهو ما يسهل لقوى التصفية ان تتنمّر، وان تكشر عن انيابها..

لذلك كله، تبادر قوى الاستسلام العربي الى محاولة اخراج حل استسلامي، يضمن لها اخماد الصراع العربي ـ الصهيوني والعربي ـ الاميركي مؤقتاً، والتفرغ لتصفية اسباب

الصراع السياسي ـ الاجتماعي في كل قطر عربي.

ان هذا يعرّض القضية الفلسطينية لمخاطر كبيرة، ومن أهم هذه المخاطر:

١ ـ تكوين ذاتية قطرية فلسطينية، تعنى بالحل السياسي، وتعمل للتهدئة، ولتسخيف برنامج التحرير، وتكرس مشاريع تعاون مع الكيان الصهيوني، كفكرة الاتحاد الرباعي التي طرحها رئيس م. ت. ف.

٢ ـ تحويل بعض أجهزة م. ت. ف. الراهنة الى أدوات قمع ضد الحركة الثورية العربية في فلسطين وخارجها. وهذا ماتمارسه بعض اجهزة المنظمة الآن.

٣ ـ تكريس فكرة حق القيادة الرسمية الفلسطينية في حل مشكلة الصراع العربي ـ الصهيوني على الصعيد العربي، لاضعاف التوجه القومي نحو تحرير فلسطين..

٤ ـ تأكيد شرعية القرارات الدولية بشأن فلسطين. وشرعية التدخل الدولي لحماية الكيان الصهيوني.

انّ هذه المخاطر راهنة، ولقد انتجت ثقافتها الاستسلامية، فطفا على سطح السياسة العربية العديد من الاطروحات السياسية التي تتعارض مع كل المشاريع الثورية المطروحة سابقاً، ومع كل برامج الحركة الثورية العالمية وقيمها. وسنذكر من ذلك:

آ ـ التوجه نحو الحل السياسي أساساً، وتسخيف افكار حرب التحرير واطروحاتها. وهذا اتجاه غالب الآن في الساحة العربية، وخاصة على صعيد الحكومات والاحزاب والقوى السياسية.

ب ـ تبرير سياسة التسليم بوجود الكيان الصهيوني والاعتراف به.

ج ـ قبول قرارات الهيئات الدولية. والاستناد اليها في تبرير قبول الحلول الاستسلامية

ح ـ اسقاط كل عوامل اعتبار الكيان الصهيوني كياناً استيطانياً عنصرياً، وأداة للمخطط الامبريالي الاميركي.

د ـ اسقاط كل مبررات اعتبار حكومة الولايات المتحدة الاميركية عدواً رئيساً.

وذلك كله، ليس سياسة الانظمة العربية الاستسلامية فقط، انه سياسة القيادة المتربعة على رأس م. ت. ف. وسياسة أحزاب وقوى عربية مختلفة. ولذلك، فانها سياسة خطرة، تزرع الروح الاستسلامية، لا على صعيد فلسطين والقضية الفلسطينية فقط، بل على صعيد الوطن العربي كله.

ولذلك كله، فان هذه السياسة الاستسلامية، تحتاج الى مواجهة، والمواجهة، يجب ان تكون شاملة، فهناك مواجهة سياسية، وهناك مواجهة ثقافية.

والمواجهة السياسية، تتطلب تكوين جبهة القوى المعادية للاستسلام، المصممة على التمسك بمبادىء النضال التي كرستها تجارب الشعوب وهي الالتزام بتحرير الأرض، وعدم قبول

الاحتلال، مهما كانت الصعوبات.

وهذه المواجهة تستلزم بناء جبهة التحرير، من كل القوى العربية الملتزمة بفلسطين جزء من الوطن العربي، والمقتنعة بان تحرير فلسطين مهمة تاريخية لكل الجماهير العربية، وخاصة الكادحة منها. والعازمة على محاربة الامبريالية الاميركية والكيان الصهيوني. باعتبارهما عدواً شرساً لكل مطامح الامة العربية في التحرير والوحدة وبناء المجتمع الديمقراطي وانجاز الاشتراكية.

وعلى الصعيد الثقافي، يجب بناء جبهة ثقافية، تتكرس لمحاربة ثقافة الاستسلام، ولتأصيل ثقافة التحرير وتعميقها وتعميمها على الشعب كله.

إن ثقافة كمب ديفد، ومجلس الجزائر، يجب ان تعرى وتكشف، وان تواجه بثقافة التحرير التي لاتعرف المهاودة ولا أنصاف الحلو، وأمتنا التي حاربت موجات الغزو المتتالية ودعوات الاستسلام المتكررة، قادرة ان تهزم هذه الموجة الجديدة، واذا كانت الانظمة الاستسلامية، من مصلحتها ان تكرس الاستسلام، والنخب السياسية الاصلاحية، تخشى المقاومة وتتجنب خوض الحروب الطاحنة، فان جماهير امتنا اثبتت انها لاتخاف الاعداء، ولاتخشى الحروب. وهذه الجماهير قادرة على مواصلة المقاومة واحباط مخططات الاعداء الخارجيين والقوى الداخلية الاستسلامية.

وثقافة الشعب ثقافة تحرير، أما ثقافة الانظمة الاستسلامية والنخب السياسية المرتبطة بها، فهي ثقافة استسلامية، ومن الشعب يخرج المثقفون الثوريون الذين يعبرون عن ارادة شعبهم ومطامحه الثورية..

ونحن نطمح ان نكون من هؤلاء ولذلك نقف في وجه الثقافة الاستسلامية، وهي تعلن انتصارها، ونتصدى لها، ونحن واثقون ان ارادة الشعب أقوى، وان الشعب لايستسلم.

وعليه فان التحرير، سيظل برنامج الشعب، أما برامج الاستسلام، فستعصف بها إرادة الشعب، كما عصفت بها في كل مكان.

«هيئة التحرير»

حول مهمات المرحلة القادمة

عبد الجواد صالح*

ان هذا النداء دراسة، تتناول جوانب مختلفة مما تعانيه الانتفاضة الشعبية في الأرض المحتلة. ولما كانت تثير قضايا مهمة وكبيرة، وتطرح الاشكالات بطريقة منهجية، فإننا نقدمها الى قراء «الكاتب الفلسطيني»، ليدرسوها من جهة، وليقدموا وجهات نظرهم في القضايا التي تطرحها من جهة أخرى.

ولما كانت «الكاتب الفلسطيني» منبراً لكل الكتاب والمفكرين والادباء الذين يحترمون الفكر، ويلتزمون بقضايا شعبهم، فإننا نقدم الدراسة، دون أن نشير الى الآراء التي تتضمنها الدراسة والتي لاتتفق مع الخط العام الذي تلتزم به لجنة العمل النقابية لاتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين.

إن «الكاتب الفلسطيني»، ترحب بهذا الاسهام الذي يقدمه الأخ عبد الجواد صالح، رئيس بلدية البيرة المبعد، وعضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية سابقاً، ومدير مركز القدس للدراسات الانمائية حالياً، إن الأخ عبد الجواد صالح معروف بالاضافة الى ذلك من خلال تاليفه العديد من الكتب والدراسات والمقالات حول القضية الفلسطينية وقضايا الأرض المحتلة خاصة.

«هيئة التحرير»

* كاتب وباحث من فلسطين، عضو سابق في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، رئيس بلدية البيرة المبعد.

الاحتلال، مهما كانت الصعوبات.

وهذه المواجهة تستلزم بناء جبهة التحرير، من كل القوى العربية الملتزمة بفلسطين جزء من الوطن العربي، والمقتنعة بان تحرير فلسطين مهمة تاريخية لكل الجماهير العربية، وخاصة الكادحة منها. والعازمة على محاربة الامبريالية الاميركية والكيان الصهيوني. باعتبارهما عدواً شرساً لكل مطامح الامة العربية في التحرير والوحدة وبناء المجتمع الديمقراطي وانجاز الاشتراكية.

وعلى الصعيد الثقافي، يجب بناء جبهة ثقافية، تتكرس لمحاربة ثقافة الاستسلام، ولتأصيل ثقافة التحرير وتعميقها وتعميمها على الشعب كله.

إن ثقافة كمب ديفد، ومجلس الجزائر، يجب ان تعرى وتكشف، وان تواجه بثقافة التحرير التي لاتعرف المهاودة ولا أنصاف الحلو، وأمتنا التي حاربت موجات الغزو المتتالية ودعوات الاستسلام المتكررة، قادرة ان تهزم هذه الموجة الجديدة، واذا كانت الانظمة الاستسلامية، من مصلحتها ان تكرس الاستسلام، والنخب السياسية الاصلاحية، تخشى المقاومة وتتجنب خوض الحروب الطاحنة، فان جماهير امتنا اثبتت انها لاتخاف الاعداء، ولاتخشى الحروب. وهذه الجماهير قادرة على مواصلة المقاومة واحباط مخططات الاعداء الخارجيين والقوى الداخلية الاستسلامية.

وثقافة الشعب ثقافة تحرير، أما ثقافة الانظمة الاستسلامية والنخب السياسية المرتبطة بها، فهي ثقافة استسلامية، ومن الشعب يخرج المثقفون الثوريون الذين يعبرون عن ارادة شعبهم ومطامحه الثورية..

ونحن نطمح ان نكون من هؤلاء ولذلك نقف في وجه الثقافة الاستسلامية، وهي تعلن انتصارها، ونتصدى لها، ونحن واثقون ان ارادة الشعب أقوى، وان الشعب لايستسلم.

وعليه فان التحرير، سيظل برنامج الشعب، أما برامج الاستسلام، فستعصف بها إرادة الشعب، كما عصفت بها في كل مكان.

«هيئة التحرير»

حول مهمات المرحلة القادمة

عبد الجواد صالح*

ان هذا النداء دراسة، تتناول جوانب مختلفة مما تعانيه الانتفاضة الشعبية في الأرض المحتلة. ولما كانت تثير قضايا مهمة وكبيرة، وتطرح الاشكالات بطريقة منهجية، فإننا نقدمها الى قراء «الكاتب الفلسطيني»، ليدرسوها من جهة، وليقدموا وجهات نظرهم في القضايا التي تطرحها من جهة أخرى..

ولما كانت «الكاتب الفلسطيني» منبراً لكل الكتاب والمفكرين والادباء الذين يحترمون الفكر، ويلتزمون بقضايا شعبهم، فإننا نقدم الدراسة، دون أن نشير الى الآراء التي تتضمنها الدراسة والتي لاتتفق مع الخط العام الذي تلتزم به لجنة العمل النقابية لاتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين.

إن «الكاتب الفلسطيني»، ترحب بهذا الاسهام الذي يقدمه الأخ عبد الجواد صالح، رئيس بلدية البيرة المبعد، وعضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية سابقاً، ومدير مركز القدس للدراسات الانمائية حالياً، إن الأخ عبد الجواد صالح معروف بالاضافة الى ذلك من خلال تأليفه العديد من الكتب والدراسات والمقالات حول القضية الفلسطينية وقضايا الأرض المحتلة خاصة.

«هيئة التحرير»

---

* كاتب وباحث من فلسطين، عضو سابق في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، رئيس بلدية البيرة المبعد.

مقدمة

تدخل الانتفاضة ـ الثورة عامها الثاني اشد صلابة وتصاعداً وتجذراً في الارض وفي الانسان وثقافته، وتنمو كظاهرة نبيلة في مستنقع التقهقر العربي تبذر في رحم الارض العربية الطاقات التي لاحصر لها، ومن الصعب التنبوء بنتائجها الايجابية القريبة والبعيدة المدى على مجمل الصراع العربي الاسرائيلي (يعتمد ذلك على عدة عوامل ذاتية وخارجية)، لكنه من المؤكد ان الانتفاضة ـ الثورة قد نسفت امكانية فرض الامر الواقع ـ الاحتلال ـ للابد، او اعادة الوضع الذي كان سائداً ماقبل الانتفاضة. وتستمر الانتفاضة في تطوير عملية تكوين نسيج مجتمعي متماسك. ومتعاون في اطر نموذجية فريدة تصنع نواة الدولة المستقبلية على اسس ديمقراطية.

المواجهة

وللمرة الاولى يجد الكيان الصهيوني نفسه، أمام الشعب العربي الفلسطيني في صدام شعبي ثوري، يبتدع مصادر قوة، ويخلق اسلحة من الطبيعة ـ الحجر ـ في مواجهة أكبر قاعدة لترسانة الامبريالية العالمية، ويدير الصراع من خلال استراتيجية خلاقة، تشل قدرة العدو على استخدام تلك الترسانة التي راكمها لمواجهة أمة تمتد من المحيط حتى الخليج.

ولقد واجهت اسرائيل التحديات التي فرضتها، بتشكيل حكومة «وحدة وطنية»، بعد أن بدت مثل تلك الخطوة من شبه المستحيل اثر الخلافات التي نشبت خلال الحملة الانتخابية للكنيست الاخيرة، وعلى ضوء تجربة الشلل السابقة لتلك الحكومة، وقد ذاب العداء بين التجمعين الصهيونيين، كفص من الملح، أمام «الاخطار» التي افرزتها الانتفاضة ومبادرة السلام الفلسطينية، اللتان اعتبرتا نموذجا جديدا للمحاولات العربية «لتدمير اسرائيل». فتنادت القوى الصهيونية، في داخل اسرائيل وخارجها، للتوحد في مواجهة حرب الحجارة والحرب الدبلوماسية، فتجمعت القبائل اليهودية تحت راية شامير رئيس تجمع الليكود (يمكن اعتبار هذه الخطوة بداية النهاية لحزب العمل وصعود الليكود الى تجمع الاكثرية واستلام دفة الحكم وحده في المستقبل)، لضَرب الانتفاضة لانقاذ اسرائيل من «خطر» تحقيق تسوية سلمية تعترف بحق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني وحقه في اقامة دولته المستقلة. واستُنفرت المؤسسات السياسية والعسكرية والامنية الاكاديمية لوضع الخطط وآليات التنفيذ، بتفصيل تقشعر له الابدان، بما في ذلك نوع الرصاص المستخدم في عمليات القتل المتسارعة.

المشاركة

امام تلك المستجدات، يجدر بكل ولكل من يرى في الانتفاضة ـ الثورة الامل والبشير المستقبلي، الاستنفار، بالوقوف على محطة الحاضر، للمبادرة، اولا، بتقويم المسيرة النضالية بعد مضي اربعة عشر شهراً على الانتفاضة، لنكتشف الثغرات والاخطاء بهدف تجنبها في المستقبل، ولتثمين الانجازات من أجل

تطويرها، لنتمكن، ثانيا، على ضوء عملية التقويم تلك بناء استراتيجية للدعم السياسي والاقتصادي والاعلامي للانتفاضة، ووضع الخطط التفصيلية، بتحديد اهدافها المتوخى تحقيقها، وتزويد كل خطة بمكانزم، آلية، التنفيذ بهدف تصعيد الانتفاضة وتطويرها من أجل تمكينها من تحقيق اهدافها التي تعبر عن آمال كافة الفعاليات العربية بشكل عام والفلسطينية بشكل خاص.

عمليات التقويم

اولوية الالويات، اذاً، التي تقع على عاتق كل عربي يعيش هم الانتفاضة، ويرى فيها الامل، ويخشى عليها من مواجهة المصير الذي واجهته الانجازات التاريخية، عبر مسيرة الامة النضالية الطويلة، هو في ايجاد مخطط واضح، يملك آلية التنفيذ وينال ثقة الاطراف المعنية بالتوصل اليه من خلال جهد مشترك، يأخذ بعين الاعتبار مطالب الانتفاضة، المرحلية والاستراتيجية، من ناحية، والمستجدات، ومخططات الاحتلال من ناحية ثانية، وطرق تخفيف أعباء شعب الانتفاضة، من ناحية ثالثة، وترجمة كل ذلك، في برنامج عملي، قابل للتطبيق، اولاً، تعبئة أوسع القطاعات الجماهيرية، والمؤسسات الشعبية والرسمية، لتعمل، بتوجيه و / او ضمن اطار اللجان الشعبية العربية لدعم الانتفاضة، وبتنسيق مع م. ت. ف. لتنفيذ المخطط المتفق عليه. ولاحاجة للتوكيد ان عِبْرَ مثل هذه المنهجية يمكن تحقيق تقنية هذا الاجماع النظري لدعم الانتفاضة، في مصب الاجماع الفعلي، لصالح الفعل الايجابي.

تتطلب مثل هذه المنهجية، اول ماتتطلب، عملية تقييم شاملة، لنشاط مايسمى بدعم الانتفاضة؛ هل كان الدعم المادي كافيا؟ وهل تم رصده وصرفه ضمن اولويات مخطط لها؟ وهل تمت عملية تنسيق بين مختلف اللجان الشعبية العربية من جهة وبين الانظمة العربية التي خصصت ميزانيات لدعم الانتفاضة وبين م. ت. ف. من جهة أخرى، وبينها جميعا من جهة ثالثة؟ وهل كان يحكم نشطاء هذه اللجان تمييز بين اوجه دعم الصمود ودعم الانتفاضة؟ وهل استهدف دعم الانتفاضة تمكينها من دعم مادي ومعنوي يساعد على تطوير نضالاتها وتصعيدها لتتمكن من تحقيق اهدافها؟ وهل فكرت هذه الجهة او تلك من حل مشكلة تسويق الانتاج الزراعي، والضغط عربيا ودوليا، لفتح الاسواق العربية والدولية، من ناحية ولوقف الحرب الاقتصادية لتجويع شعب بأسره؟ وهل وضعت هذه الجهة أو تلك، خطة اعلامية شاملة، لاستثمار التوجه الايجابي لدى الرأي العام العالمي، لتنظيمه، وتعبئته، وتنشيطه، من خلال مختلف فعالياته، ومؤسساته السياسية والاجتماعية والاعلامية، بهدف القيام بحملات اعلامية تعوض عن سياسة الاحتلال من منع رجال الاعلام دخول المناطق المحتلة التي تشهد صدامات مع قوات الاحتلال ولفضح اسرائيل وتأليب الرأي العام عليها؟ او القيام بحملات اعلامية وتوعية الغرض من ورائها، فرض حظر و / او مقاطعة للانتاج الاسرائيلي، أو زيارة اسرائيل، او مقاطعة لمختلف الشخصيات الرسمية، والاكاديمية، والمؤسسات الاسرائيلية، الصامتة امام الاجراءات التعسفية الاسرائيلية، او تلك المؤسسات والشخصيات التي تقف وراء تلك السياسات؟ وإلا كيف يمكن ممارسة الضغوط على اسرائيل لتخفيف المعاناة على شعبنا بالكف عن ممارساتها الوحشية؟

ان عملية التقويم تلك، تتطلب الاجابة على هذه التساؤلات وغيرها، والا ستبقى عملية الدعم تقول نظري، مثبط لعزيمة جماهير الداخل، التي تسمع عن المغير ولاتراه، وتعطل وعي الجماهير العربية في الخارج وتشل ارادتها في اطار قوقعة حب افلاطوني، وغزل على اوراق الصحائف، يمتص كالاسفنجة كل عمل ارادي واعٍ لدعم الانتفاضة. وتزداد مخاطر هذا النهج في تبني السياسة الاعلامية التي توحي بان الدولة قد قامت، ولم يبقَ امامنا غير بناء السفارات.

اما عملية التقويم الثانية المطلوبة، ليس في الحقيقة بهدف الحكم على الانتفاضة ـ المعجزة، التي ستدخل التاريخ الانساني كثورة شعبية متميزة، وستُدرس وتُدرس من قبل علماء الاجتماع والسياسة فيما يخص قدرة الشعوب على الابداع في مجال التنظيم والاقتصاد والتربية والتعليم. ولكن الهدف المنشود من وراء عملية التقويم تلك التوصل الى الاسباب التي تقف وراء عدم نجاح الانتفاضة في تطوير بعض السياسات التي نادت بها: الامتناع عن دفع الضريبة، استقالة المجالس البلدية المعينة، استقالة الشرطة، فكفكة دوائر الحكم العسكري ـ الادارة المدنية، مما لاشك فيه ان عدم النجاح ربما يرجع بالاساس الى سياسات القمع الجماعية، وربما كانت الاسباب تعود لتقصير ذاتي. ان دراسة مكثفة وعميقة لمختلف تلك القضايا، حتما ستؤدي الى الاستفادة من تجارب الماضي، واغناء التراث النضالي الذي يخوضه الشعب. كما ان عملية التقويم ستلقي الاضواء على سلبيات وايجابيات دور م. ت. ف. الذي لعبته او لم تقم به، في وقت من الاوقات تجاه اية قضية من تلك القضايا.

مسؤولية م. ت. ف.

من الطبيعي والمنطقي ان تضطلع م. ت. ف. بهذه المسؤولية، مسؤولية التقويم ووضع الاستراتيجية، ليس لكونها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني فحسب وانما لكونها تملك كافة المعطيات بين يديها، وتدير مؤسسات من المفترض ان تكون مهيأة للقيام بهذه المسؤولية. ولكن نتيجة مفاجأة الانتفاضة للجميع، وتحول ميدان الصراع للمرة الاولى الى الارض المحتلة، لم تتمكن مؤسسات واجهزة م. ت. ف. من استيعاب هذا التطور الجديد والمثالي، ولم يحدث رد فعل خارج نطاق الطبيعة التجريبية ولم تنطلق شرارة تحريك عملية التماثل مع الصيغة الثورية الابداعية التي اثمرتها الانتفاضة، ونتيجة للمسؤوليات الجسيمة الملقاة على عاتق م. ت. ف. فمن المفترض على الفعاليات العربية المختلفة ومن منطق التفاعل مع الانتفاضة المبادرة بالوقوف الى جانب م. ت. ف. وتحمل جزء من اعباء المسؤوليات التي تفرضها التحديات المختلفة، والتحول من سياسة ردود الفعل الى الفعل الخلاق.

النداء

ان هذه المقالة بمثابة نداء موجه الى م. ت. ف. والى الامة العربية، ممثلة بأنظمتها وجماهيرها، أحزابها وفصائلها ونقاباتها المهنية والعمالية والاتحادات النسوية ولجان الدعم العربية ومختلف الجمعيات المعنية، والمثقفين والكتاب، والى أبناء الامة كأفراد ليتحمل كل مسؤولياته التاريخية تجاه القضية الفلسطينية

ترجمة عملية للايمان والقناعة بان هذه القضية، قضية الامة العربية المركزية. اضافة الى ممثلي فصائل المقاومة الفلسطينية، ممن يعملون في قضايا الوطن المحتل، لتقويم مسيرة الاربعة عشر شهراً ولوضع استراتيجية للدعم الاقتصادي والسياسي والاعلامي بهدف تمكين الانتفاضة من تحقيق اهدافها.

التوجه الانتفاضي

ينطلق هذا التوجه من التماثل بروح الانتفاضة، بزج حقيقي وواع للجماهير العربية ومن الايمان بضرورة تفعيل الدور القومي لتحقيق عمق استراتيجي عربي مؤثر في العمل السياسي، وتشكيل ثقل عسكري عربي بدونهما يصعب على الانتفاضة تحقيق أهدافها. لقد أبدعت الانتفاضة ثورة فريدة تشكل للأمة الخيار الاوفر (لقد تكلفت الامة ملايين الدولارات في المواجهات العسكرية مع اسرائيل خلافا للضحايا في الارواح التي لاتثمن)، والأسلم، والأمن، وربما الخيار الاوحد في ظل اختلال في ميزان القوى الحالي، مما يتيح المجال لاقناع هذه الانظمة في ضرورة استيعاب ابعاد الانتفاضة، لتوحيد صفوفها (مع الاسف تمكنت اسرائيل من اخافة الانظمة «ببعبع» الانتفاضة) وتنظيم تحركها السياسي وعلاقاتها الاقتصادية لخدمة الانتفاضة وتخصيص الجزء البسيط من امكاناتها الاقتصادية (تبلغ الائتمانات العربية في البنوك الغربية ستة الاف بليون دولار) لتحققت المعجزة في وضع حد للتوسع الاسرائيلي مما سيساعد على التغيير من طبيعة هذا الكيان، ويفقده جزءا هاما من اهمية الدور الذي يلعبه كشرطي للمنطقة وخاصة في ظل الانفتاح الدولي.

ان مايشجع على مثل هذه الدعوة الامكانية التي منحتها الانتفاضة لشعبها في التوحد تحت لوائها بغض النظر عن المواقف السياسية المختلف حولها، بين طرف يرى في اقامة دولة فلسطينية مستقلة، الى جانب اسرائيل، انجازاً تاريخياً عظيماً، وبين الطرف الذي يرى في ذلك تنازلا خطيرا عن الثوابت الفلسطينية. ومن حسن التقدير ان الانتفاضة قادرة، فيما اذا ضمن لها الدعم المادي والمعنوي، على تصحيح اي موقف من شأنه المس في مستقبل القضية. وتقوم الانتفاضة، من خلال صمودها على فضح الموقف الامريكي ـ الاسرائيلي والمعلقين اوهامهم على مشجبه بالقبول بشروطه التعجيزية، مقابل تغيير استراتيجيته تجاه مستقبل المنطقة ودور اسرائيل في بلورة ذلك المستقبل (البلقنة، المحافظة على ميزان قوى لصالح اسرائيل على حساب الامة، منع إيجاد ظروف ـ كدولة ـ من شأنها عرقلة امكانيات التوسع الاسرائيلي لتسهيل الهيمنة على المنطقة). من منطلق هذه الاستراتيجية يعتمد الحل الامريكي ـ الاسرائيلي مفهوم الحكم الذاتي ـ الادارة المدنية، الذي يهدف تصفية القضية الفلسطينية من خلال اختزال حقوق الشعب الفلسطيني السياسية والوطنية، واقتصارها على حق ادارة شؤونه اليومية وحرمانه من حق السيادة على الارض وما في جوفها، التي ستكون تحت السيادة الاسرائيلية، ويسمح لدور عربي وظائفي، تحت شعار الكونفدرالية، للمحافظة على الامن. وترى وجهة النظر الاسرائيلية في هذا الحل مرحلة تصفية القضية الفلسطينية، باعتباره خطوة تمهيدية باتجاه تنفيذ مشروع «الترحيل» او الطرد الجماعي لانشاء «اسرائيل الكبرى»، خالية من اي عنصر غير يهودي. ويقضي ذلك ان تلتقي كافة الاطراف العربية

والفلسطينية بغض النظر عن خلافاتها في توحيد مواقفها في معارضة هذا المشروع من خلال دعم الانتفاضة، من خلال استراتيجية شاملة تهدف الى تطويرها وتصعيدها، من خلال زج الجماهير العربية في المشاركة المعنوية والمادية في دعم الانتفاضة.

ان الباعث وراء هذا التوجه الانتفاضي، بالتوجه الى الامة انظمة وجماهير للدعم الفعال، اضافة الى الاسباب التي تقدمت، أنه للمرة الاولى تنتقل ساحة المواجهة مع اسرائيل الى الارض الفلسطينية، ووجها لوجه، في ثورة شعبية لم تستثن طفلا او شيخا، عاملا او تاجرا، فلاحا او مدنيا، ولم تعتمد على حزب او فصيل دون الاخر، وتسلمت زمام القيادة كوادر غير نجومية يصعب تهشيمها او القضاء عليها، باختصار، الشعب هو صاحب القرار، وبالتالي من المفترض ان تتدفع الجماهير في المشاركة بانتفاضتها، والتوكيد انه من غير المسموح التقصير الذي من شأنه ان يؤدي بالانتفاضة الى الانتكاس، من أية جهة كانت، حيث لاوجود لاي مبرر كان اضافة الى الخصائص التالية، التي تسمح بل وتمهد لمثل تفعيل وتحقيق هذا التوجه:

١ ـ رحابة الميدان، وغياب الاستقطاب، وتجذير الوحدة الوطنية في ظل قيادة جماعية، تلتزم بنهج ديمقراطي، مما يفسح اوسع المجالات امام من يرغب دعم المقاومة الفاعلة ضد الاحتلال.

٢ ـ امكانية تهيئة كافة الفرص لفعل عربي مباشر وفعال بدون المعوقات البيروقراطية، التي تقف عائقا امام المشاركة الجماهيرية في الخارج.

٣ ـ الاجماع النظري الكامل والشامل من كافة الاطراف العربية، لدعم الانتفاضة وتطويرها وتصعيدها، بغض النظر، عن مواقفها من القرارات والمواقف التي اتخذت، في المجلس الوطني، وفي خارجه، او قبل انعقاده وبعد التئامه، مع الدولة او ضد الدولة، وبغض النظر ممن يحمل الانتفاضة مالا طاقة لها به، او تلك التي استوعبت قدراتها وطبيعتها، فجميع الاطراف، تنادي بالوقوف الى جانب الانتفاضة ودعمها، في غياب مخطط واضح ضمن اهداف محددة.

لقد اعلنت الانتفاضة عن استراتيجية واضحة، تضمنت اهدافها المرحلية وطويلة الامد، وبالذات قررت تبني سياسات، تقضي التوصل الى مرحلة العصيان المدني ـ الوطني. وهي المرحلة، التي تقوض فيها سلطة الاحتلال، وتتحول تلك السلطة ونظامها الاستعماري عبئا على كاهل الدولة الاستعمارية، وتتحول السلطة تدريجيا في يد الشعب عبر لجانه ومؤسساته الوطنية البديلة، وتبدأ تشكل ولادة الدولة الفلسطينية، وعندها يصبح بالامكان الضغط على اسرائيل، من منطلق تفوق في امتلاك اوراق اللعبة الدبلوماسية. ولقد صدرت عن دورة المجلس الوطني الاستثنائية في الجزائر ١٢/١١/٨٨ مبادرة للسلام بهدف خدمة الانتفاضة وتصعيدها واستثمارها. وقد نجحت م. ت. ف. من خلال كشف الموقف الاسرائيلي التاريخي بعدم الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني الانسانية والسياسية. ولكن دورة المجلس التي حملت اسم «دورة الانتفاضة» لم تطرح خطة شاملة متكاملة للدعم الاقتصادي والاعلامي لتمكين شعب الانتفاضة من تحقيق اهدافه وانجازاته على الارض مما يتيح لـ م. ت. ف. امتلاك وسائل الضغط على كل من اوروبا والولايات المتحدة لتقريب امكانية تحقيق الاستقلال الوطني. وقد مضى قبل ذلك مدة اربعة اشهر من اطلاق بلالين

الاختبار، والرد عليها، واستنفر الفكر، وجُندت الاذاعات، مع حكومة المنفى او ضدها، وغاب البحث عن مشاريع عملية لدعم الانتفاضة من فكر وعقل الخارج في خضم هذه الحوارات. وبعد ذلك، وحتى اليوم، يظل الحديث حول الانتفاضة في سياق الغزل الممجوج، الذي لايسمن ولايغني من جوع لا في مجال الفكر او المادة بل وتساهم في مسلسل التضليل والايحاء للمتلقي بشعور الاطمئنان المزيف بان امر الانتفاضة بخير كالمجانين في جنتهم.

ان ترجمة العصيان المدني ـ الوطني، كهدف استراتيجي من اهداف الانتفاضة، الى خطة عمل تفصيلية، ربما تكون المحصلة الرئيسية، لاية عملية تقويمية لمسيرة الانتفاضة المظفرة، وهي بالتالي المحور الذي يجب استقطاب كافة الجهود من حوله، ونقطة الارتكاز لمحصلة القوى، التي يجب ان تعبأ كافة الطاقات، على قاعدتها، لتحويل حق الدولة المستقلة، الى حقيقة موضوعية. ويمكن وضع الخطوط العريضة لمتطلبات الدخول في مرحلة تحقيق العصيان الوطني. وذلك من أجل تحديد مسؤولية الخارج، تحديداً: م. ت. ف. الجماهير العربية ممثلة باحزابها، ونقاباتها المهنية والعمالية، والقطاعات الاقتصادية والثقافية والجمعيات الخيرية، والاتحادات النسائية، وكافة القطاعات العربية المنظمة تحت مختلف الرايات، اضافة الى الانسان العربي كمواطن عادي، ومن ثم التوجه الى المغتربين من العرب والفلسطينيين في المهاجر، ومن ثم التوجه للانظمة العربية، لتقديم مساهمتها، كبند من بنود ميزانية دفاعها، وبعد ذلك العمل في الاطار الدولي ومناشدة المؤسسات السياسية والاجتماعية والمهنية الدولية لتقديم الدعم المالي والاعلامي، ليعمل الجميع، في اطار سيمفوني، «نوتته» خطة دعم يتفق عليها، والتي يجب التوصل اليها كثمرة جهد فكري مشترك، على ضوء عمليات التقويم، من ناحية، والاهداف التي صاغتها الانتفاضة من ناحية أخرى. ويتم وضع ميزانية تقديرية لتنفيذ الخطة قائمة على تقديرات مسبقة لما يجب جمعه من كل قطاع، ترتبط كلا الميزانيتين التقديريتين بآلية للتنفيذ، تنفيذ المستحقات التي يجب جمعها، وتنفيذ تمويل بنود الخطة حسب الاولويات المحددة.

يمكن لصالح تكثيف الحوار، تقديم اختصار حول مفهوم العصيان الوطني وبعض شروطه التالية:

١ ـ تحقيق أعلى درجة من الاستقلال الاقتصادي.
٢ ـ تفكيك المؤسسات الاحتلالية وتقليل التعامل معها الى الحد الادنى.
٣ ـ بناء وتشييد البنى التحتية للدولة المستقلة.

ويمكن توضيح الشروط الثلاث، وآلية تحقيقها، بخطوطها العريضة، كمسودة لمشروع متكامل، تتوصل اليه الاطراف المعنية، على النحو التالي:

١ ـ تحقيق الاستقلال الاقتصادي:

وذلك بالعمل على فك العلاقة مابين القطاع الاقتصادي الفلسطيني واقتصاد الدولة المستَعْمِرة ـ اسرائيل الى الحد الاعلى الممكن، تلك العلاقة القائمة على عدم التكافؤ والاستغلال والحرمان من التطور لتكريس السياسة الالحاقية. لقد تمكنت الانتفاضة من المبادرة في مجال الاستقلال الاقتصادي من خلال

تبني الاقتصاد المنزلي، وتنفيذ مقاطعة الانتاج الاسرائيلي الممكن الاستغناء عنه، والرجوع الى الارض وزراعتها، وانشاء حدائق النصر، وتربية الدواجن والاغنام. ومع الاعتراف المسبق انه من الصعوبة بمكان تحقيق الاستقلال الاقتصادي، تحت الاحتلال وفي غياب سلطة وطنية، فان دعم الانتفاضة يستدعي تطوير هذا التوجه الاستقلالي، وتنميته وتعزيزه، اضافة الى تكريس النمط غير الاستهلاكي الذي تبنته الجماهير، باختيارها الطوعي مما كان له ابعد الأثر في نجاحه. وقد نجحت بعض القرى في انشاء جمعيات تعاونية، تهدف الى تصنيع الانتاج الزراعي، بما في ذلك التغليف والتعليب، مما يتطلب عمليا تعميم مثل تلك التجارب، ضمن خطة طموحة لتشمل كافة القرى، تحت اشراف لجنة شعبية مركزية تنسق بين مختلف المناطق، لتجنب الازدواجية، ولتوفير الطاقات والامكانات، وتجنب الهدر، وتسهيل عملية تسويق مربحة. ان تنمية اقتصاد الانتفاضة، بهدف تحقيق هدف الاستقلال الاقتصادي، لابد ان يأخذ بعين الاعتبار نموذج «روبنسون كروزو»، في تحقيق الاكتفاء الذاتي، ولو على اسس بدائية، اذ لايمكن ان نتوقع من سلطة احتلال استعمارية استيطانية، ان تسمح بتنمية اقتصادية على مستوى اقليمي ووطني، يحقق الاستقلال الاقتصادي، اذ لم تسمح بذلك قبل الانتفاضة.

عملية الرجوع الى الارض، والعمل في الزراعة، وعملية استصلاح الاراضي، وانشاء الجمعيات التعاونية، بكافة اشكالها، يجب ان تتحول إلى حاضنة لاستقبال الطاقة العمالية الفلسطينية، التي تمكن الاحتلال من سحبها من حضن الارض العربية، لفصل هذه الطاقة عن جذورها، وفك علاقتها مع الوطن، والعمل على استغلالها للحد الذي يتحولون فيه الى قوة شرائية تتمكن من استهلاك الانتاج الاسرائيلي.

الخطة المطلوب وضعها يجب ان تهدف الى ترجمة الاستقلال الاقتصادي الى مشاريع محددة، قابلة للتنفيذ تحت احتلال طويل لتحقيق ما امكن من الاقتراب من الاكتفاء الذاتي اقتفاءا بنهج الانتفاضة، والعمل على استيعاب اعلى نسبة من الطاقة العمالية في مشاريع زراعية منتجة، وصناعات قائمة على تعليب وتعبئة الانتاج الزراعي، باتباع النموذج البيتي، لضمان أمن واستمرارية عملية التصنيع. ويجب استنباط صناعات جديدة قد بادت مثل صناعة الشيد (الكلس الذي يستخدم في البناء) للتقليل من استخدام الاسمنت، واستخدام «النتش» (شجيرات تستخدم للوقود) بدلا من المحروقات في عملية صناعة الشيد. ولابد في البدء في الريف مع اعطاء اولوية للقرى المجاورة لحدود ٤٨ والقرى المحيطة بالمستعمرات الاسرائيلية في الضفة والقطاع. ومن الضروري العمل حالا على انشاء شركات ومؤسسات لضمان تسويق الانتاج الزراعي والصناعي في الاسواق العربية والدولية، وخاصة قبل ان يتم تحقيق وحدة السوق الوروبية المشتركة. ومحاولة تنظيم اصحاب البقالات الفلسطينية في الولايات المتحدة لأستقبال ذلك الانتاج. وعلى المخطط الموضوع اعداد المشاريع التي يمكن ان تستوعب بقية الطاقة العمالية.

لابد لمثل هذه الخطة الشاملة تغطية كافة القطاعات التي تعزز التوجه الاستقلالي، وفي الوقت نفسه تفعل لتخدم الاحتياجات التي تفرضها الانتفاضة، ومن بينها الصحية: بتمويل وتطوير المستشفيات القائمة، وبدلا من بناء مستشفيات جديدة، بناء المزيد من العيادات العامة والمتخصصة وعيادات

الطوارىء في القرى والمخيمات، وتزويدها بسيارات الاسعاف لانقاذ الجرحى الذين تحرمهم السلطة الفاشية من التوجه الى المدن ويتركون ينزفون حتى الموت، والعمل على فتح مراكز تأهيل المعاقين من ضحايا تكسير الاطراف.

الاسكان:

تعطى اولوية لمن هدمت بيوتهم، ومحاولة تطوير مساكن على غرار النماذج التقليدية التي كان يبنيها الاجداد، عن طريق «العونة» (كانت القرية بأسرها تتعاون في عملية البناء وبدون الحاجة الى مواد مستوردة)، والتمدد افقيا ببناء تجمعات سكنية جديدة من خلال بناء «المناطير» (تتكون عادة من غرفة الحجارة التي يقتلعها الفلاح اثناء استصلاح أرضه، مبنية بطريقة هندسية. لاتحتاج الى عقد اسمنتي، يستخدمها للنوم في الليل وللحراسة في النهار).

السكان:

يجب مواجهة الحرب الديمغرافية التي تشنها اسرائيل بتهجير المواطنين بواسطة سياسات اقتصادية وأمنية وغيرها لتفريغ الارض من السكان، بوضع خطة شاملة للدعم السكاني، من بينها تبني مشروع بالانفاق لعائلات نزحت مجبرة الى البلاد العربية المجاورة، او الى مهاجر اخرى، اضافة الى التفكير بوضع خطة لتشجيع بقاء اليهود السوفييت في بلادهم، او عدم الهجرة الى اسرائيل.

الثقافة والتعليم:

دعم الكتاب والمثقفين الذين يواجهون التعسف الاسرائيلي، باعتقالهم واغلاق المطابع، ومصادرة شعرهم واغانيهم وادبهم الذي يشكل عنصرا هاما في معركة التعبئة المعنوية.

بالطبع يجب ان يضع المخططون ضمن اهتماماتهم دعم مؤسسات التعليم العالي، وخاصة برامج التعليم الذاتي والبيتي الذي يعتبر تجربة رائدة تحت الاحتلال وربط دعم هذه المؤسسات بدور اكاديمي لدعم الانتفاضة، والقيام بدراسات بهدف تطوير التجارب الابداعية التي تفرزها الثورة وغيرها من المؤسسات الجماهيرية والعمالية على نفس هذه الاسس.

المرأة:

لقد كان دور المرأة الفلسطينية دورا هاما في الانتفاضة من خلال مواجهة قوات الاحتلال من ناحية، والاسهام في تغيير النمط الاستهلاكي الذي كان سائدا في المجتمع وتطوير الاقتصاد المنزلي، وبناء التكافل الاجتماعي، مما يستدعي الاهتمام في هذه التجربة الرائدة، وتنميتها، وتدريب الكوادر النسائية لتحتل المراة الفلسطينية مكانها في صفوف قيادة المؤسسات الجماهيرية.

لجنة مركزية للدفاع عن حقوق الانسان :

تدريب مجموعة من المحامين للدفاع عن حقوق الانسان، وضحايا الاجراءات التعسفية، واغتيال الكوادر القيادية من بين المعتقلين وشباب الانتفاضة .

٢ ـ تفكيك المؤسسات الاحتلالية :

من ابداعات الانتفاضة ـ الثورة، الحالية، والتي تميزت عن سلسلة الانتفاضات السابقة، اضافة الى شموليتها، جغرافيا وطبقيا ومهنيا وعلى صعيد المشاركة من قبل كافة الاتجاهات السياسية، انها تمكنت من تفكيك وشل جزء مهم من المؤسسات الاحتلالية، وقفزت بحركة الشعب الدينامية قفزات نوعية باتجاه فرض سلطة الشعب الحقيقية، من منطلق الروح الديمقراطية، من خلال اللجان الشعبية المتخصصة والمتعددة الاهداف، والتي اصبحت جزءا من حياة الانسان الجديد، يشكل مجتمع المستقبل، على درب تحقيق العصيان الوطني . وبدأ الشعب ينتظر بشغف نداءات الانتفاضة وينفذها بطواعية مطلقة وهو يعلم مسبقا بالرد الانتقامي من قبل سلطة الاحتلال لان العقاب في انتظاره . لقد سجلت الانتفاضة نصرا على قوات الاحتلال في «حرب الدكاكين» وهي معركة فرض توقيت فتح واغلاق المحال التجارية بالرغم من الجهود ووسائل القمع الفاشية التي استخدمتها قوات الجيش الاسرائيلي لكسر اضراب التجار. وقد سطر الشعب في هذه المعركة اروع نماذج التنظيم والانضباط والتعاون الذي جذر سلطة الشعب على حساب تفكيك وتحطيم الهيمنة المطلقة لسلطة الاحتلال . لقد اذهلت هذه المعركة سلطة الاحتلال ودمرت معنوياتها، وشلت ارادتها، فما كان لتلك السلطات الا الاستسلام لارادة الشعب. (ومع ذلك يجب تقويم هذا الاضراب بعد مضي اربعة عشر شهرا عليه للتوصل الى مدى تأثيره على الوضع السياسي والاقتصادي الفلسطيني).

واتخذ تفكيك وخرق القرارات العسكرية الاسرئيلية، ونسف هيمنة سلطة الحكم العسكري، وتدمير هيبة الجندي، خطوات شعبية شجاعة، من بينها خرق جماعي لقرارات فرض منع التجول . ورفض جماعي من قبل الطلبة والاساتذة لقرارات اغلاق المؤسسات التعليمية، وامتنعت لفترات طويلة الشخصيات الفلسطينية عن المقابلات الدورية التي كانت تعقد بين مسؤولي الحكم العسكري وبين تلك الشخصيات، ونسف الوهم الذي كان سائدا بين الاوساط العسكرية والسياسية الاسرائيلية، بان الامر الواقع قد اكتسب الديمومة، وبدأت نفس هذه الاوساط تتنبأ بعدم امكانية ارجاع ذلك الواقع الى ما كان عليه قبل الانتفاضة .

وتطورت محاولات القيادة الموحدة لتفكيك وتدمير مؤسسات الاحتلال بالتوجه الى الشعب، وبشكل خاص، الفعاليات الاقتصادية والتجارية بالامتناع عن دفع الضرائب، وعدم اللجوء الى ترخيص السيارات الخاصة، وطلبت من موظفي الدوائر المعنية الاستقالة من عملهم كما نجحت في تدمير سلك الشرطة (تم اغلاق عدد من مراكز الشرطة) الذي عمل في خدمة اهداف الاحتلال اكثر مما كان في خدمة الاهالي والحفاظ على ممتلكاتهم . لقد استهدفت تلك القرارات تغييب سلطة الاحتلال على درب متابعة

تطوير الانتفاضة حتى تحقيق هدفها الاستراتيجي : العصيان الوطني الذي تم تحقيق خطوات هامة منه على هذا الطريق .

لقد شكلت الضرائب التي فرضتها السلطة، مخالفة للمواثيق الدولية، اداة مدمرة للاقتصاد الفلسطيني، تمتص مصادر رزقهم وتخنق امكانية تراكم رؤوس الاموال لاغراض التنمية، واستخدمت، اضافة لذلك، كوسيلة للعقاب وأداة ضغط سياسية . ولقد تجاوب المواطن، ايما استجابة لقرار الانتفاضة، واحرزت نجاحا باهرا في بادىء الامر، بامتناع الجميع عن دفع الضرائب المفروضة مما ادى الى افلاس مؤسسات الاحتلال بعد أن كانت تعتمد في تمويل نفقات فرض الاحتلال وأدوات وأجهزة قمعه من دخل تلك الضرائب التي كان يجبر على دفعها الضحية نفسها . ولقد كان لهذا القرار ابعد الاثر في ارتباط طبقة التجار بنضال الانتفاضة، فقد ازيل عن كاهلهم عبء نفسي ومادي يتمثل في ضياع كدهم وجهدهم بدون الاستفادة في المقابل من خدمات، وانما تجمع الضرائب لتصب في جيوب الاحتلال . ومافتأت تلك الانجازات ان تراجعت نسبيا عن وجه الخارطة السياسية التي رسمتها تضحيات شعبنا قطرة دم اثر اخرى .

٣ ـ بناء وتشييد البنى التحتية للدولة الفلسطينية :

ان النهج الريادي الذي اختطته الانتفاضة ـ الثورة، من خلال محاولاتها تفكيك مؤسسات الاحتلال وإضعاف هيمنته وخرق قراراته في نفس الوقت الذي كانت القيادة الموحدة تعمل بتشييد صرح السلطة الوطنية، وبناء مؤسساتها، وتنسج الخيوط الحضارية لهيكلية مجتمع صغير اعزل من السلاح ولكنه تسلح بأقوى سلاح معنوي يملكه شعب مضطهد، وهو سلاح الاعتماد على الذات في اطار التكافل الاجتماعي والتعاون في اطر تنظيمية حضارية . ان استعداد الجماهير الذي لاينضب بالانضواء في اطر اللجان الشعبية بالرغم من التعسف الاسرائيلي، واعتبار المشاركة فيها «جريمة» تضاهي عقوبتها حمل السلاح، قد ساعد على تطور الانتفاضة في الفكر الصهيوني من مفهوم «الاضطرابات» الى الاعتراف بالانتفاضة ودخولها القاموس العبري . ان العمل الدؤوب في تشييد البنى التحتية للاستقلال السياسي على قاعدة الاستقلال الاقتصادي قد ساعد الانتفاضة على الاستمرار والتجذر حتى تحولت الى جزء رئيس من الحياة اليومية للانسان الجديد الذي بلورته التجربة الانسانية الفذة وصهرته المعاناة حتى اصبح من شبه المستحيل القضاء على الانتفاضة ـ الثورة من خلال الاجراءات التعسفية للفاشية الصهيونية، ولم يبق امام المؤسستين السياسية والعسكرية الاسرائيلية الا خيار تنفيذ «المحرقة» النازية كوسيلة «لحل» المشكلة الفلسطينية، او مجازر على غرار دير ياسين لتحقيق حل «الترحيل» الجماعي للتخلص من الشعب الفلسطيني .

لقد تمكنت أصالة القيادة الموحدة المتمثلة في ارتباطها بالتراث النضالي لشعبها من الاستفادة من تراكمات ذلك التراث، وبالذات من العمل الجماهيري طوال العشرين سنة الماضية، الذي تطور حتى تحول الى مؤسسة نضالية، ونموذج للحضانة التي تنمى فيها القدرات القيادية، في اجواء ديمقراطية، ضمن اطار الالتزام في العمل لصالح الجماهير . ولقد انتشرت نماذج العمل الجماهيري انتشار الضوء بدءاً بحركة

العمل التطوعي . وتنوعت لتشمل كافة نواحي الحياة، وضمت كافة الفئات العمرية وبرزت من بينها كوادر قيادية تمكنت موجة اثر موجة من هذه الكوادر التي انتشرت بين كافة التجمعات الفلسطينية من تولي القيادة عندما نضجت الظروف بتفجير الثورة .

لقد سارعت هذه الكوادر القيادية غير النجومية من التجاوب السريع في تنظيم احتياجات الجماهير في اوج الغضب الفلسطيني ضد الاحتلال . لقد ابتدعت تلك القيادات، وبسرعة مذهلة، فكرة اللجان الشعبية، المتعددة الاهداف لمعالجة الاحتياجات والتعامل مع الظروف المستجدة على ساحة المعركة. فشكلت لجان للتعليم البديل، بالتعلم الذاتي والبيتي لمواجهة حرب التجهيل من خلال اغلاق مؤسسات التعليم بكافة مراحلها، بحجة العقاب. وشكلت اللجان الزراعية، على اسس تعاونية بين سكان الاحياء، لتشجيع العودة الى الارض، وتطوير فكرة حدائق النصر، واللجوء الى تربية الطيور اللاحمة والاغنام للاستغناء عن استيراد اللحوم من اسرائيل وغيرها، ومن أجل تطوير فكرة الاكتفاء الذاتي، وظهرت لجان التسويق الشعبي التي أخذت على عاتقها مساعدة الفلاح اولا، ولضمان توصيل الانتاج للمواطن باسعار معتدلة وفي ظروف قاهرة تحت وطأة قرارات منع التجول والحصار. واللجان الامنية التي حلت محل الشرطة المرتبطة بسلطة الاحتلال، وذلك لحماية المواطنين من عبث سوائب المستعمرين في الضفة والقطاع . ولجان العدالة للفصل في الخلافات نادرة الحدوث بين المواطنين، واللجان الطبية التي تمكنت من تقديم الخدمات الطبية في اصعب ظروف الحصار ومنع التجول الطويل زمنيا حيث يستمر عدة اسابيع أحيانا لمنطقة واحدة يترافق وقطع الماء والكهرباء والتموين .

لقد عمق ابداع القيادة الموحدة تسمية اطار قراراتها «بالنداء» استعاضة عن المتداول في عالمنا تعبير «البيان» عمّق النهج الديمقراطي التي تميزت به الانتفاضة . وربما عبرت في ذلك الاستخدام عن الشكل الشعبي الذي انطلقت منه . وعلى ضوء الشكل التنظيمي الذي طورته الانتفاضة من خلال تشكيل اللجان الشعبية ربما يكون من المفيد دراسة امكانية نقل توجهات القيادة الموحدة حول النشاطات النضالية من خلال اللجان الشعبية، بعد استكمال بنائها، وليس عبر النداءات، لتجنب امكانية استفادة السلطة من قراءة تلك البيانات، واتخاذ خطواتها الامنية مسبقا لمنع تنفيذها، اذ تقوم السلطة مسبقا بفرض منع التجول في اليوم الذي تقرر فيه القيادة الموحدة باضراب عام . مما يستدعي تقويم هذا الاسلوب على ضوء الاعتبارات الامنية والتطويرية للانتفاضة، ودراسة امكانية انجاز تنظيم هرمي يربط اللجان الشعبية بالقيادة الموحدة، مما يجذر ارتباط القيادة بجماهيرها ويحافظ على عدم دخولها مثالب البيروقراطية . اذ لاحاجة للتوكيد من ان تجذير ونشر اللجان الشعبية المختلفة وتطويرها وتوسيع الافاق العملياتية التي تضطلع بها هذه اللجان هو في غاية الاهمية لضمان استمرارية الانتفاضة .

لقد اثمرت هذه السياسات في ارساء قواعد تحقيق العصيان الوطني على درب انجاز مهمة انهاء الاحتلال وبناء الدولة المستقلة، وأمست الخيارات الاسرائيلية محدودة الى ابعد الحدود، ومحصورة ما بين الاعتراف بحق هذا الشعب الطبيعي باقامة دولته والانسحاب من على ارضه، وبين تمرير تصفية القضية سياسيا من خلال النجاح في تسويق مشروع الحكم الذاتي ـ الادارة المدنية، او اقتراف مجزرة الترحيل

الجماعي، بعد ان فشلت كافة الاجراءات الفاشية من قتل وتكسير العظام، أحيانا حتى الموت، ثم الرجوع الى سياسة القتل، ومن ثم ممارسة تلك الجرائم مجتمعة، اضافة الى هدم البيوت، والتسميم، والاعتقالات الجماعية في معسكرات اعتقال جهنمية، والابعاد والنفي، وتدمير المزروعات، وكافة انواع العقوبات الجماعية.

قبل الاستطراد في القاء الضوء على معالم استراتيجية الدعم، لابد من التوقف على محطة تلك الانجازات التي أدت الى زعزعة سلطة الاحتلال وخلخلة مؤسساته . وكان من نتائج هذا الابداع، الذي اثار اعجاب علماء الاجتماع في اكثر المؤسسات الاكاديمية تقدما، ان المواطن استبدل دفع الضرائب «الخيالية» المفروضة عليه، والتي تستعمل كأداة لتدمير النمو الاقتصادي الفلسطيني، من ناحية، وتمويل آلية القمع والمصادرة التي تتمثل في سلطة الاحتلال، ان ذلك التطور الخلاق، لم يجد في الخارج المؤسسة الفاعلة، التي كان بامكانها تلقفه، واستيعابه، ومن ثمة تصعيده وتنميته، لترسيخ قواعده، حتى يصبح امر القضاء عليه من المستحيل. سلطة الاحتلال كانت السباقة في استيعاب اهمية تلك التطورات، فانكبت المؤسسات السياسية والعسكرية والامنية والاكاديمية على دراسة طرق ووسائل ضرب الابداعات الخلاقة، والتطورات الجديدة، التي اثمرتها الثورة، التي افرزت، ومازالت تفرز العجائب من الظواهر الحضارية، التي ينظر اليها مجتمع الدولة المستعمرة باندهاش شديد وغريب. وقد نجحت سلطات الاحتلال في ضرب بعض الانجازات في المجالات التي تمس المستقبل الحياتي للانسان، وبالذات لقمة عيشه، التي تمكنه من الاستمرار في النضال، والحياة على ارضه، وبغض النظر مسؤولية من توقيت طرحها، وهل جاءت متأخرة أو متقدمة، ومدى ارتباط هذا الامر بنجاعة اتصال الداخل بالخارج، ومدى الاستعداد لمواجهة الاجراءات المتوقعة فرضها من السلطات، اضافة الى غياب البنى التحتية الاقتصادية التي كان من المتوقع استيعابها للنتائج المترتبة على تنفيذ قرارات القيادة الموحدة. وتدور هذه التساؤلات حول قرارات الامتناع عن دفع الضرائب، وعدم الترخيص للسيارات، وتغيير الهويات (في شهر مارس ١٩٨٨ كان الاستعداد متوفرا في التخلي عن هويات الاحتلال، وهنا يجب ان تعرف على الاسباب في عدم اتخاذ قرار تاريخي حينها في رمي تلك الهويات في وجه السلطة).

وربما تعلن السلطات قريبا عن قرارٍ يقضي بتغيير الهويات في الضفة الغربية، بهدف تحقيق الاهداف التالية :

١ ـ محاولة اعادة فرض هيبة سلطة الاحتلال وهيمنته ونفوذه بعد الضربات الموجعة التي وجهتها الانتفاضة لتلك الهيبة.

٢ ـ خلق اشكاليات أمنية أمام مئات الكوادر القيادية التي تختفي في الجبال اثناء الليل وتشارك بالانتفاضة أثناء النهار.

٣ ـ سرقة اموال الشعب، وخلق المزيد من المتاعب الاقتصادية للجماهير حيث تبلغ رسوم اصدار الهوية للفرد ماقيمته حوالي ٧٥ ديناراً.

ويستدعي هذا الامر، دراسة تقويمية لتجربة تجديد هويات قطاع غزة والاسباب التي رجحت كفة

نجاح السلطة في فرض عملية التغيير، بما فيها الاسباب الذاتية، وضرورة الخروج بدراسة اقتضائية، تبين الخيارات المتاحة، ومعرفة الخطوات والسياسات والاجراءات التي يجب اتباعها في حالة تبني أي الخيارات، حتى يمكن تحقيق خير النتائج لاي قرار يمكن ان تتبناه قيادة الانتفاضة.

ان معرفة الاسباب الذاتية التي تقف وراء نجاح السلطة في فرض قراراتها في هذه المجالات، مع الأخذ بعين الاعتبار فشل الاحتلال في فرض سلطته في كثير من المجالات الاخرى، ونجاح قيادة الانتفاضة والجماهير، في فرض الارداة الشعبية في ميادين متعددة، مما يعني بالضرورة، ان هناك بعض الاسباب الذاتية التي يرجع الفشل اليها. ومن هنا نبدأ، حيث لابد من عملية تقييم عملية، تأخذ بعين الاعتبار، عملية اتخاذ القرار، في الداخل والخارج، وبالأساس، ضرورة العمل على ايجاد مؤسسة، تضم ذوي اختصاص، يقدمون دراسات اقتضائية، على اعلى المستويات، يبني متخذ القرار رأيه على ضوء تلك الدراسة المقدمة، ولابد ان تقوم المؤسسات المعنية، بعملية تقييم مستمرة لمختلف القرارات والسياسات التي تتبع، يكون الحكم على نجاحها او فشلها، من منطلق اساسي: تطوير الانتفاضة وتصعيدها، من منطلق المدى والنتائج التي تثمرها تلك القرارات، في خدمة تحقيق الاهداف او الاستراتيجية، وبالذات فك العلاقات الاقتصادية والسياسية، مع سلطة الاحتلال ومع مجتمع دولة الاحتلال، ومن هنا ربما ترى القيادة الموحدة، من ان الاضرابات المتكررة والروتينية، حيث تغيب حركة الجماهير من الشوارع وخاصة في المدن، وبالتالي تفتقد المصادمات، وتأخذ سلطات القمع حريتها في الاستفراد بالكوادر القيادية، وجمع الضرائب اضافة لتعطيل الحياة الاقتصادية، تعمل على تعطيل عملية النضال، وتعطي السلطة فترات استراحة مما يدفع هذه القيادة الى التقليل من الاعلان عن الاضرابات، وخاصة الطويلة منها على ضوء نتائج الدراسات التقويمية مع الاخذ بعين الاعتبار الحالة الذهنية التي تطورت من خلال تجربة الانتفاضة، والتي يجب ان تشير بوضوح الى التوجه الذي يجب ان تتبناه القيادة الموحدة.

على ضوء ذلك كله، فان الداخل والخارج، على حد سواء، مدعوان لانتهاج سياسة هجومية، الهدف منها العمل على سد الثغرات والقيام بتنفيذ سياسة الامتناع عن دفع الضرائب، وفك العلاقات مع مؤسسات الاحتلال، على ضوء عملية التقويم، ودراسة الاسباب التي حدت ببعض موظفي مؤسسات الادارة المدنية العرب، التي تشكل مصادر دخل للحكم العسكري، من عدم الامتناع عن العمل فيها. وربما تقضي هذه السياسة الهجومية البحث عن البدائل لأنظمة حياتية جديدة، بديلا عن الانظمة التقليدية التي كانت مدخلا لنجاح سلطة الاحتلال في افشال العصيان عن دفع الضرائب، الذي دخل مرحلة اعتبرت انجازات للانتفاضة، وضربة خطيرة لنفوذ الاحتلال. ويقصد بالانظمة التقليدية على سبيل المثال، الاعتماد على السيارات الخاصة، التي شكلت اداة ضغط في يد سلطة الاحتلال لضرب العصيان الضرائبي، واستبدالها، مثلا، بالاعتماد على المواصلات العامة، بادخال خطوط شبكات جديدة تغطي مناطق واسعة، تستخدم فيها وسائل المواصلات المرخصة، كسيارات التكسي والباصات الداخلية (لتحديد دافع الضريبة)، تخدم المواطن بشكل لايشعر بالحاجة الى سيارته الخاصة. اما بالنسبة للهويات، التي شكلت اداة ضغط اخرى لزعزعة انجازات الانتفاضة، فلابد من العمل، على ايجاد الوسائل العلمية

لاستيعاب الطاقة العمالية، كما ورد اعلاه في بند تحقيق الاستقلال الاقتصادي.

اذاً، لابد من الاستمرار في بناء المؤسسات الوطنية البديلة، من خلال توسيع وتنويع اللجان الشعبية، التي تعتبر احدى الظواهر النبيلة الاعجازية التي ابدعتها الانتفاضة المعجزة. وتملك القيادة الموحدة تراكمات من التراث النضالي، بناة الشعب، بدءاً من حركة العمل التطوعي وانتهاء بسلسلة من التأطيرات الشعبية، التي تعتبر رائدة في مجالات العمل السياسي والاجتماعي والثقافي والصحي.

لقد ادركت سلطة الاحتلال خطورة اللجان الشعبية وابعادها، واستوعبت اهدافها وبالذات خلق نواة السلطة الوطنية، فحاربتها بدون هوادة وانزلت عقوبات ضد قياداتها تفوق الاحكام الجائرة التي حكمت بها من تتهمهم افتراء «بالارهاب». ولسنا في حاجة الى تكرار المطالبة بعملية تقييم للانجازات في هذا المجال، بالرغم من الحقائق المذهلة والرائعة حول ظاهرة القيادة الجماهيرية لهذه اللجان، وقدرتها على التعويض بسرعة تفوق التصورات، عن قيادات تسقط بشرف في ميدان المعركة، شهيدة، او جريحة، او معتقلة. ولقد تمكنت المؤسسات الوطنية التي قامت سلطات الاحتلال بمحاولة تدميرها، من خلال اوامر الاغلاق والابعاد والاعتقال، من الاستمرار في دورها النضالي بالتكيف تحت عبيء الاجراءات التعسفية، ولكنه من المؤسف، ان بعض المؤسسات الوطنية الاخرى، وعلى رأسها مؤسسات التعليم العالي، والتي كان يجب ان تلعب دورا طلائعيا في مجالات ابداع وتشكيل المؤسسات البديلة، لم يسجل لها هذا الدور، وبقيت معظم كوادرها واجهزتها مذهولة امام التطورات التي ابدعتها الجماهير، مع كونها الاوفر حظا، بعدم التأثر من الاوضاع الاقتصادية غير المحتملة التي تعيشها جماهير العمال وقود الانتفاضة الرئيسي مثلا.

ان بناء المؤسسات الوطنية البديلة لمؤسسات الحكم العسكري الاسرائيلي، ضرورة اساسية، تقتضيها عملية بناء البنى التحتية لتشييد صرح الاستقلال الوطني، على انقاض الاحتلال الاسرائيلي. وتقضي الاولويات، تشكيل لجان شعبية عليا، من ذوي الاختصاص، في مجالات الزراعة والصحة والتعليم والصناعة والاقتصاد، لرسم ووضع الخطط على ضوء الظروف والمعطيات والحاجات القائمة، من منظور مستقبلي، لضمان توفير الحد الادنى من عوامل الصمود، تحت راية انتفاضة مستمرة ويقع على عاتق م. ت. ف. مهمة اساسية ليس في دفع الامور بهذا الاتجاه فحسب وانما العمل، اولا، على اعادة بناء مؤسساتها في اطار ديمقراطي يعبر عن وحدة وطنية حقيقية، وثانيا، لخلق مؤسسات جديدة، لخدمة التطورات المستجدة، على سبيل المثال، التعامل مع قضية تسويق منتجات الاراضي المحتلة، بايجاد اسواق جديدة، وربما احتاج هذا الامر الى تشكيل شركات على اسس تجارية، تسجل في اوروبا، لتكون جاهزة قبل عام ١٩٩٠، عندما يتم توحيد السوق الاوروبية المشتركة، اضافة الى تشكيل مؤسسات او شركات لضمان فتح الاسواق العربية امام انتاج الاراضي الفلسطينية.

لقد فتح فك الارتباط، الذي اعلنت عنه الحكومة الاردنية، مع الاراضي المحتلة اوسع المجالات امام م. ت. ف. في ان تلعب دورا هاما في بناء المؤسسات الوطنية والنقابية وخاصة في المجالات التي لاتتاح الفرصة بسبب ظروف الاحتلال وسياساته القمعية، في تحمل المسؤوليات، في مجالات التعليم، وخاصة المتعلقة في تحمل المسؤوليات في مجالات التعليم، وخاصة المتعلقة بمناهج تعليمية وتربوية

اصبحت بعد احتلال طويل، أداة للتقهقر والتحجر، وخاصة مناهج التعليم المتعلقة في المرحلة ماقبل الابتدائية، حيث لايوجد لها مناهج بالاصل، اضافة الى اغناء تجربة التعليم الذاتي التي ابدعتها الانتفاضة وذلك من خلال تقديم الدراسات والوسائل لتعميمها وتحضير وتعديل المناهج لتتلائم والتجربة الذاتية، وتشجيع وتمويل دراسات حول التجربة نفسها بهدف تعميمها.

حماية الانتفاضة:

للمرة الاولى في تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي يتمكن الشعب العربي الفلسطيني من خلال انتفاضته المظفرة، وبأساليب اللا عنف، وبطرح مبادرة السلام، التي كشفت اسرائيل على حقيقتها، بعد ان كانت تعتمد على رفضها لمبادرات السلام منذ ٤٨ على الرفض العربي اللفظي، فاستطاعت ان تقلب المعادلات والمقولات التشويهية التي صاغتها وسوقتها اسرائيل للرأي العام العالمي ضد العرب، ونجحت في تضليل العالم، بالرغم من الحروب العديدة التي شنتها على انها الدولة الصغيرة المسالة والمحاطة بجيران تحكمهم ديكتاتوريات عائلية، أيدي قياداتها ملطخة بدماء شعوبها. وجاءت الانتفاضة لتغير معظم تلك التشويهات، فأظهرت الانتفاضة حقيقة الطفل الفلسطيني في مواجهة الجندي الاسرائيلي، وافتضح أمر اسرائيل جراء الجرائم التي ترتكبها قواتها ضد اطفال ونساء وشيوخ الحجارة. وللمرة الاولى لم يصغ العالم لتباكي القيادة الاسرائيلية ولم يصدقها من ان «حرب الحجارة» تستهدف الوجود الاسرائيلي، فقامت، كتوأمها العنصري في جنوب افريقيا، باغلاق الاراضي المحتلة امام كافة وسائل الاعلام الاجنبية، بما فيها الاسرائيلية، وقد شاركها في ذلك القرار «العزيز كيسنجر».

من الضروري استغلال التوجه الدولي الجاري حاليا في الساحة العالمية في اعتماد قضية حقوق الانسان المعيار الحضاري للعلاقات الدولية بوضع خطة استراتيجية للاعلام، على غرار الخطة الاستراتيجية للدعم الاقتصادي، ومتممة لها، تهدف الى تحقيق الانجازات السياسية للقضية، من ناحية، والى تخفيف الاعباء عن شعب الانتفاضة، من خلال الضغط المتوخى تحقيقه من وراء الحملات الاعلامية المنظمة والتفصيلية، والمزودة بميكانزم، آلية، ترصد لها الميزانيات الضرورية. ان التجربة اثبتت ان اسرائيل قادرة، وعلى استعداد لارتكاب الجرائم اللا أخلاقية ما دام في استطاعتها اخفاء تلك الجرائم.

ترتكز معالم الخطة الاستراتيجية للاعلام على الاسس التالية:

١ ـ فضح التضليل التارخي:

من الضروري العمل على كشف التضليل الذي مارسته اسرائيل والاعلام الغربي، وربط ذلك بالاجراءات الاسرائيلية الحالية، باللغة والاسلوب التي يتقبلها الغربي. لقد تمكنت الصهيونية، ومن ورائها القوى الامبريالية من تشويه وقلب حقائق الصراع العربي الاسرائيلي. وانطلقت في حملتها الاعلامية من منطلق تغييب وجود الشعب الفلسطيني، فعندما دمرت ٤٧٠ قرية ومدينة في حربها العدوانية عام ١٩٤٨

نجحت بنشر مقولتها التشويهية «طهارة السلاح» مدعية ان جيش «الدفاع» لم يرتكب المجازر، وان الفلسطينيين تركوا بلادهم طواعية وبناء على تعليمات من الزعماء العرب. وعندما قام الشعب الفلسطيني بثورته ضد الظلم والابعاد، وتجاهل حقوقه السياسية والانسانية واجه ويواجه احد ابشع جرائم هذا العصر، بما يتعلق بمبادىء حقوق الانسان، وحقه الطبيعي في الدفاع عن حقوقه، باتهام قيادته م. ت. ف. بالارهاب. ونجحت الاوساط الصهيونية العالمية، بسحب هذه الادانة الظالمة، على الشعب الفلسطيني وقيادته. ولكن هذا الشعب، من منطلق محافظته على حقه في الوجود ابدع ثورة سلمية دفعت اسرائيل بالكشف عن حقيقتها العنصرية وممارساتها الفاشية، مما اثار استنكار كافة الاوساط العالمية الملتزمة بحقوق الانسان. وبدأت الكثير من الاطراف الدولية تتداعى لمنح هذا الشعب حقوقه الانسانية والسياسية. ومن الضروري تفنيد تلك الاكاذيب من خلال دراسات توثيقية تنشر باللغات الاجنبية. ويبدو ان اسرائيل قد وجدت في الانتفاضة، الظروف الملائمة، التي جاءت عليها، الخطة الموجودة في ادراج رئيس الوزراء الاسرائيلي، لتهجير او ترحيل ٧٠٠ ـ ٨٠٠ فلسطيني من الاراضي المحتلة. فان اسرائيل قد قامت، خلال الانتفاضة وحتى نوفمبر ٨٨ بنسف ٣٠٧ بيتا، (انظر، سائدة حمد، «الحجة: البناء غير المرخص» الفجر الانجليزي، ٢٦ ديسمبر، ٨٨، ص٨ ـ ٩) بعضها يتألف من عدة ادوار بحجة البناء بدون ترخيص، تاركة اكثر من اربعة الاف انسان بدون مأوى، وبلغت الخسائر جراء عمليات الهدم ثلاثة ملايين دينار. تقترف اسرائيل هذه الجرائم البشعة مسوغة هذه المأساة امام العالم، بحجة «طبيعة» هذا الشعب الارهابي، وميله الى مخالفة القانون، ولكن العالم لايعرف ان معظم الخرائط الهيكلية الاسرائيلية للاراضي المحتلة قد تجاهلت الوجود العربي واحتياجاته وقد اكدت على ذلك المصادر الاسرائيلية، بالقول: «ان استخدامات الارض (حسب الخرائط الهيكلية الاسرائيلية للضفة والقطاع). وتخطيط الطرق، وشبكات المياه وغيرها، والخدمات والتطوير الاقتصادي مخطط لها من اجل استفادة واستعمال المستوطنين اليهود. وعليه فان وجود واحتياجات ١٥٠,٠٠٠ عربي يعيشون في اكثر من ٩٥ «مستوطنة» (تشمل خمس مدن) في المنطقة المخطط لها قد تم تجاهلها تماما من قبل المخططين، ومن الغريب انهم [العرب ومدنهم] غير مبينين على الخارطة. وفي الحقيقة، قد نُظِر اليهم، كعقبة، ونُموهم «غير المرغوب فيه» ينبغي، على رأي المخططين، ان «يُمْنع» (ميرون بنفنستي وشلومو خياط. اطلس الضفة الغربية وغزة. ذي وست بانك ديتا بيس بروجكت. القدس ١٩٨٨ ص٥٨) اليست خطيئة ان لايعرف العالم، من خلال حملات اعلامية شاملة، تستشار فيها وكالات متخصصة في العلاقات العامة، بهدف وقف هذه المجزرة المنظمة، التي لاتشمل هدم البيوت بحجة القضايا الامنية، والتي تقوم اسرائيل بهدمها، وهدم ماجاورها، ترضيه لغلاة المستعمرين، من اتباع غوش ايمونيم وكهانا وليفنجر. ولايعتقد ان نقص الموارد المالية هي السبب في غياب حملات اعلامية ممنهجة، وخاصة عندما نعلم ان احدى اللجان العربية لدعم الانتفاضة قد صرفت شيكا، باسم احد الذين لمع اسمهم مؤخرا، بقيمة ١٨٠ الف دولار مقابل اصدار كتاب واحد باللغة الانجليزية. يستحضرني هذا المثل ليس بهدف التقليل من أهمية الكتاب او الخطوة، وانما للاشارة الى اهمية وضع خطة اعلامية شاملة تملك الالية، ولها اولوياتها التي تحددها الاهداف السياسية، لخدمة تلك الاهداف اولا،

ولتخفيف الاعباء عن كاهل هذا الشعب، والعمل على محاولة تجنيبه لمزيد من التعرض لمثل هذه الاجراءات التعسفية.

٢ ـ التناغم مع مطالب الانتفاضة وخدمتها:

ان المراقب للاجراءات التعسفية، وفهم ابعادها، والشكل المنظم الذي تتخذه، سيشعر ان اسرائيل تحاول عمليا، وبصمت، تنفيذ سياسة تدمير المجتمع العربي الفلسطيني بدون هوادة. وبالرغم ان بعض وكالات الانباء قد فضحت مؤخرا فرق الموت التي شكلتها اسرائيل لاغتيال قادة الانتفاضة، ونسفت كافة الاسس القانونية والانسانية والمواثيق الدولية في الاعتقال العادي والاداري والاقامات الجبرية والابعاد، فان تهمة الارهاب، التي توجه ضد منظمة التحرير الفلسطينية زوراً، مازالت عالقة في اذهان الغرب.

القارىء لنداءات الانتفاضة، يجد ان من بين المطالب المرحلية التي حددتها القيادة، مثلا، المطالبة بالغاء انظمة وقوانين الطوارىء لعام ١٩٤٥ الانتدابية، والتي مازالت سارية المفعول، بتعديلات زادت من تعسفها. وبموجب تلك الانظمة يملك الحاكم العسكري، او ضابط يعينه، صلاحية نسف البيوت، المصادرة،السجن،الابعاد،اغلاق المؤسسات، ومايمكن ان يخطر على فكر «قراقوش» فان «الخارج» مسؤول عن الشروع بحملة واسعة، تستقطب كافة رجال القانون في العالم، لتبني سياسات واجراءات، لامجال للتفصيل حولها حاليا، يمكن ان تشكل رادعا لسلطة الاحتلال، او الدفع بتحركات احتجاجية من قبل رجال القانون في اسرائيل، واساتذة الحقوق فيها، باتخاذ مواقف من شأنها تخفيف الاعباء عن شعبنا، اضافة الى فضح السياسات الاسرائيلية.

مثال آخر، في غاية الاهمية والتعقيد، ويحمل اعباء اعلامية ونتائج سياسية ذات ابعاد خطيرة على نتائج الصراع العربي الاسرائيلي، وفي هذه المرحلة بالذات، ان اي باحث يُشفق على نفسه في ابداء رأي متكامل في مثل هذه العجالة. ليس في الحقيقة لخطورة الموضوع وعواقبه فحسب، وانما لحاجة الموضوع الى فكر مشترك، تتفاعل فيه الاراء ويشار الى السلبيات والايجابيات، قبل التجرؤ الشجاع في ابداء الرأي. ويحزن استعجال بعض القيادات في اتخاذ رأس متسرع، بالرفض او بالقبول، بدون دراسة مشتركة مع العلم ان بعض قيادات الداخل قد ايدت اجراء انتخابات مع رفض الشروط الاسرائيلية بوقف الانتفاضة. من المعتقد ان طرح رابين الذي لم تتنبه الحكومة الاسرائيلية بعد، ان هذا الطرح اضافة لكونه تحايلا على الرأي العام العالمي، ومحاولة للخروج من العزلة التي جنتها براقش على نفسها. فانه استهدف شق الساحة الفلسطينية واثارة الانقسام بين الداخل والخارج، ومحاولة يائسة لانهاء الانتفاضة، وتمزيق الوحدة الوطنية التي تشكل امضى الاسلحة في مواجهة السلطة الفاشية. ولكن هذا لاينفي ان اقتراح اجراء انتخابات تعتبر خطوة تراجعية من الحكم العسكري من نتاج الانتفاضة الثورة، حيث أجبرت السلطات على طرح مشروع، قديم جديد، لم يكن طرحه واردا لو لم تقم الانتفاضة.

وجاء اقتراح اجراء الانتخابات في سياق الوهم الاسرائيلي بخلق قيادة بديلة لـ م. ت. ف. بهدف حصر القضية الفلسطينية بالاقلية العربية التي تعيش في «يهودا والسامرة» وقطاع غزة، وتصفيتها من خلال

فرض مشروع الادارة المدنية ـ الحكم الذاتي، الذي يفضي بالضرورة الى انشاء «اسرائيل الكبرى» والخطر قائم من ان تفاجىء اسرائيل الجميع بتعيين موعد لاجراء تلك الانتخابات، كما فعل بيغن عندما اصدر الامر العسكري رقم ٩٤٧ بشأن الادارة المدنية في نوفمبر ١٩٨١، للتجاوز والالتفاف على محادثات الحكم الذاتي، التي كانت جارية مابين اسرائيل والولايات المتحدة وجمهورية مصر العربية، مما يستدعي اجراء دراسة اقتضائية حول اتخاذ قرار حول طريقة مواجهة هذه المعركة الخطيرة.

وبهدف التفكير بصوت مرتفع فانه من المستحسن عدم التسرع في رفض مبدأي لاجراء الانتخابات، اذ ربما كان هذا الطرح مجرد فخ اعلامي، الهدف منه وصم م. ت. ف. بالفاشية والارهاب فإن رُفضت الانتخابات وهو المتوقع، من السهل على اسرائيل ان تتهم م. ت. ف. انها ضد اي توجه ديمقراطي وتخشى وجود قيادة في الداخل، وذلك لاستغلال الامر في الحملة الدعائية الاسرائيلية الجارية حاليا ضد م. ت. ف. اثر اقتراح رئيس بلدة بيت لحم، والرد عليه، والعمل الى اثبات ان المنظمة هي منظمة ارهابية بهدف وقف وعرقلة الاتصالات الفلسطينية الامريكية. ولابد ان يعهد الى مؤسسة مهمتها تقديم الخيارات المتاحة بعد تزويدها بكافة المعطيات، والاجابة على أسئلة كثيرة من أهمها، هل في امكان م. ت. ف. والقيادة الموحدة، ومن خلال التجربة السابقة للانتخابات البلدية (١٩٧٢)، مع الاخذ بعين الاعتبار الظروف المستجدة التي فرضتها الانتفاضة، ان تمنع اجراء الانتخابات المقترحة؟ وماهي الوسائل والتدبيرات التي ستتخذ لتحقيق وتنفيذ القرار المتخذ؟ هل في امكانية م. ت. ف. ان تضمن تفعيل مؤسساتها بالسرعة والكفاءة التي تتطلبها التحديات الحالية والمقبلة، ضمن اطار وحدة حقيقية تأتمر من قبل قيادة جماعية، وهي بعض الشروط الاساسية لادارة دفة معركة ناجحة يمكن ان تضمن النتائج المتوخاة لتقويض اهداف اسرائيل من وراء اقتراحها؟ وماهي محصلة وأبعاد وجود قيادة وطنية على رأس المجالس البلدية على مجمل الاوضاع السياسية والاجتماعية للمجتمع الفلسطيني، وماتأثير ذلك على مستقبل الانتفاضة، وبالتالي على مجمل الصراع العربي الاسرائيلي؟ وهل تعني الموافقة على دخول انتخابات ذات طبيعة سياسية، حسب الشروط وضمن المفهوم الاسرائيلي، الموافقة الفلسطينية على اهداف المخطط الاسرائيلي الذي تباركه الادارات الامريكية المتتالية والذي يتلخص بمشروع الادارة المدنية؟ وهل يمكن تطوير اللجان الشعبية لتحل محل المجالس البلدية؟ وهل الانتفاضة تجاوزت المؤسسات البلدية ضمن اطار مهامها التقليدية ومن خلال اللجان والنماذج التي طوّرت؟ وهل من سبيل لتطوير المؤسسات البلدية، بعد الانتخابات، لتصبح مكملة للانتفاضة وليست نموذجا تقليديا يتناقض مع طبيعة الانتفاضة؟ وهل تعتبر م. ت. ف. التوقف مرحليا عن رمي الحجر والقنابل الحارقة مقابل الغاء قوانين الطوارىء والاجراءات المترتبة عليها، وانسحاب القوات العسكرية الاسرائيلية من المدن والقرى واجراء انتخابات تحت اشراف دولي، وهي خطوات على اسرائيل أن تبادر بها، لخلق المناخ الطبيعي لاية عملية سياسية، تنازلا يفهم منه توقف الانتفاضة؟ وهل نفهم الانتفاضة من خلال نموذج نضالي واحد أم من خلال انماط مختلفة، تتجدد باستمرار، تتبنى اشكالا جديدة، وتمتنع عن استخدام أخرى في بعض الاحيان، في سياق عملية نضالية مستمرة، كانت وراء استمراريتها؟ والمهم، هل مثل هذه الانتخابات تساعد على تقريب أمل تحقيق

الاستقلال والدولة أم تبعدها؟ وهل يمكن ايجاد وسيلة لتجذير الانتفاضة، خير من توصيل اللجان الشعبية على رأس المؤسسات الوطنية، عن غير طريق انتخابات حرة وديمقراطية؟ وهل يمكن ايجاد وسيلة امثل من الانتخابات في افراز ممثلين عن الدخل في الحكومة الفلسطينية القادمة؟ وأخيراً هل يمكن ان تمهد مثل هذه الانتخابات لافراز قيادة، بالرغم من ضمان التزامها بـ م. ت. ف. تعد لتنفيذ مخطط المعسكر المعادي، الذي يهدف الى تصفية م. ت. ف. كقيادة ومنظمة مركزية للشعب الفلسطيني، وبالتالي حصر المشكلة الفلسطينية «بسكان المناطق» تمهيدا لتحقيق مشروع التوطين الذي يساعد على تحقيق مشروع الادارة المدنية؟ يتطلب الاجابة التفصيلية عن كافة هذه الاسئلة، ضمن دراسة اقتضائية (وهي دراسات يقوم بها باحثون، تُقدم الى متخذ القرار وتأخذ بعين الاعتبار المواقف التي يجب اتخاذها من قبل القيادة حول أية قضية تطرح)، حتى لاتفاجأ بقرارات سلطات الاحتلال، التي بدأت كما يبدو في حملة اعلامية هجومية تستهدف الوحدة الوطنية في الداخل والخارج، واستغلال ذلك في تمرير الحل التصفوي كما فعل بيغن عندما اصدر الامر العسكري رقم ٩٤٧ في اواخر عام ١٩٨١ بشأن مشروع الادارة المدنية، وللالتفاف حول المحادثات الامريكية المصرية الاسرائيلية حول الحكم الذاتي.

اما بالنسبة للشرط الاسرائيلي بانهاء الانتفاضة، فهو مرفوض. والانتفاضة لن تنتهي بقرار من أية جهة كانت. فالانتفاضة عملية بناء مستمرة لمجتمع ينسج خيوط المستقبل، والمطالبة بتوقيفها تعني ان يتوقف الشعب عن العمل والتنفس والحياة. على اية حال فان الرد على اقتراحات رابين الدعائية تتطلب حملة عربية مدروسة وواسعة تهدف الى فضح النوايا الاسرائيلية ترافق بموقف ايجابي من اية انتخابات حرة ديمقراطية، ضمن الشروط المنوه عنها، وليكن موقف م. ت. ف. واضحا وصريحا نعم للانتخابات. ولكن هل يمكن ان تجري انتخابات لشعب وكافة قياداته وكوادره رهن الاعتقال الاداري، او ملاحقة في الجبال او مبعدة في المنافي؟ وهل يمكن اجراء انتخابات حرة وديمقراطية تحت كابوس قوانين وانظمة الطوارىء التي تتيح ابعاد القيادات المنتخبة، والتي فاق عددها الف وسبعماية؟ ان قضية طرح موضوع الانتخابات التي لاتتعدى كونها فذلكة دعائية يجب العمل على تحويلها نصرا اعلاميا ضد آلية التضليل الاسرائيلية من خلال طرح البدائل العملية لانهاء الاحتلال.

وكجزء من الخطة الاعلامية الشاملة لابد من العمل بشتى الوسائل ووضع الخطط التفصيلية لتجاوز الاجراءات الاسرائيلية في منع او التقليل من التغطية الاعلامية في محطات البث التلفزيوني في اوروبا والولايات المتحدة. ان العمل على ابداع وسائل اعلامية من بينها تدريب شباب من المخيمات والقرى على التصوير التلفزيوني، وتزويدهم بالاجهزة الضرورية للقيام بتوثيق الاجراءات القمعية وتهريبها الى الخارج. ويمكن الاتفاق مع بعض البعثات التلفزيونية لاخراج بعض الافلام التوثيقية، حول ملحمة قرية بيتا، مثلا، والتي يمكن ان تشكل وثيقة دامغة ضد العنصرية الاسرائيلية. لقد قدمت الانتفاضة نماذج نضالية تهز العنصر الانساني. وكانت ردود الفعل الاسرائيلية ضدها تثير الاحتقار والازدراء، والتي لم نتمكن بعد من توثيقها وتوصيلها الى الرأي العام العالمي، لاستثمارها في نضالنا الحالي، الذي يعتمد الى حد كبير على النجاح في تأليب ذلك الرأي من جهة وتأطيره ليشكل أداة ضغط على الحكومات الغربية واسرائيل من جهة

ثانية. ولابد من اللجوء الى القصة القصيرة، والرواية بمختلف اللغات ومن قبل كتاب وادباء عالميين لتوثيق ابداعات الجماهير، ونضالاتها، وذلك للتعويض عن السرد الروتيني، الذي لايشد المشاهد او يشجع الوكالات لتغطية أخبار الانتفاضة اضافة للمحاولات التي تمارسها أجهزة الضغط الصهيونية لمنع او التقليل من تلك التغطية. ان أية استراتيجية اعلامية توضع لخدمة الانتفاضة يجب أن تأخذ بعين الاعتبار التوجه للمتلقي العربي والغربي على حد سواء، وخاصة المواطن العادي غير المسيس، ان ينجذب للانتفاضة، وابطالها، ونماذجها من خلال الادبيات التي تعالج كافة هذه المواضيع، اضافة الى الادبيات المتخصصة التي تعالج قضايا العمال، الطلبة، المرأة، الفلاح، لتدخل هذه الادبيات كل بيت، وليصبح همها هم كل انسان.

تدعي حكومات الولايات المتحدة المتعاقبة حمل راية حفظ حقوق الانسان في العالم، مستغلة تلك الراية لأغراض سياسية ولخدمة مآربها الذاتية، وبالذات لخدمة، اسرائيل، اداتها في المنطقة، لابد من تحرك الانسان العربي، بالقيام بعمل شيء يبدو تافها ولكنه ذو مغزى كبير، يهدف الى اشعار الحكومة الامريكية بغضب الجماهير العربية نتيجة سياستها وموقفها من الصراع العربي الاسرائيلي، بالاعلان بداية، عن مقاطعة تدخين السجائر الامريكية، وتطوير مثل هذا التحرك في الوقت الذي نتوجه فيه للرأي العام الامريكي وذلك لسببين: اولهما، لان الولايات المتحدة، لو مورست عليها الضغوط العربية من أجل تأجيل تمويل هذه الثكنة العسكرية - اسرائيل - لعدة اشهر لسمع العالم من تل ابيب موالا يختلف عما يسمعه الان من غطرسة وعنجهية لاتملك مقوماتها وثانيهما، ان في الولايات المتحدة يقبع اغنى تجمع صهيوني، يشكل الممول الرئيسي للكيان الصهيوني ولكونه يعيش في مثل ذلك المجتمع فان لديه حساسية ما تجاه ليس ما تقوم به اسرائيل من تعسف ضد الشعب الفلسطيني وانما تجاه ما يصل الانسان الامريكي من اخبار ذلك التعسف. ان تلك الحساسية ناتجة عن انماط المعلومات التي حرص هذا التجمع تغذية وسائل الاعلام الامريكي لتوصيلها للمتلقي الامريكي، والتي تهدف الى تضليله.

يجب استغلال التوجه الدولي الحالي اعتبار قضية حقوق الانسان المقياس الذي يقاس فيه حضارة اي مجتمع انساني، بالبدء بتنفيذ حملة اعلامية مكثفة، تأخذ على عاتقها فضح الموقف الامريكي من قضية حقوق الانسان، باستخدامه وسيلة لتنفيذ مآربها الدولية على حساب المبادىء والمواثيق الدولية، التي تنص على حقوق الانسان. لابد من استغلال قرارات الكونجرس الامريكي المتعلقة بمنع الادارة الامركية من تقديم مساعداتها لاية حكومة أجنبية تخرق حقوق الانسان بشكل عام وحقوق العمال بشكل خاص ان المادة ١١٦ (د) والمادة ٥٠٢ (ب) من «قانون المساعدات الخارجية الامريكي» يحظر على اية حكومة امريكية تقديم المساعدات الاقتصادية لاية حكومة أجنبية تخالف في ممارساتها مبادىء حقوق الانسان المتفق عليها دوليا والقانون الامريكي المعروف «بالنظام العام لقانون الأفضليات المعدل لعام ١٩٨٤ System Of Prefe- ences Renewal Act Of 1984 US Generalized يفرض على الحكومات الامريكية تقديم تقارير عن اوضاع العمال في الدول التي تتسلم مساعدات امريكية، واذا ثبت قيام تلك الدول بمخالفة هذا النظام فانه يحظر على حكومة الولايات المتحدة تقديم مساعداتها الاقتصادية لتلك الدولة المخالفة. لابد من اجراء دراسة

حول امكانية مقاضاة جهة مسؤولة في الادارة الامريكية لمخالفتها تلك القرارات. ان تقارير دائرة حقوق الانسان التابعة لوزارة الخارجية الامريكية واضحة في ادانتها لاسرائيل في مخالفة مبادىء حقوق الانسان، والتي يمكن ان تشكل هذه التقارير وغيرها الصادرة عن جمعيات حقوق الانسان في العالم، الاساس القانوني لرفع مثل هذه القضية بالطبع كما نُوِّه سابقا، فان تلك القوانين تظل خاضعة للقرار السياسي الذي توجهه المصالح الخفية للادارات الامريكية. ولكن هذا لايمنع من امتحان القضاء الامريكي، وخاصة بعد الحوار الامريكي الفلسطيني الذي كان يخفي حقيقة مواقفه وراء تهمة الارهاب باللجوء اليه لتصحيح موقف الادارات الامريكية المتعاقبة الذي اقل مايوصف بالنفاق، واذا لم ننجح في تحقيق العدالة، على الاقل، ربما حققنا كشفاً للزيف الذي تدعيه الادارات حول احترام حقوق الانسان وربما تكون خطوة للضغط على الولايات المتحدة لتأخذ موقفا اكثر اعتدالا في دعم السياسات التعسفية التي تمارسها حليفتها اسرائيل ضد الشعب الفلسطيني في الاراضي المحتلة، ورادعا لحركة اللوبي الصهيوني او على الاقل احراجا له. ان المواطن الامريكي العادل لايمكن ان يقبل او يصدق ان اسرائيل مثلا، تتبنى قوانين دستورية تحرم الجنسية والتملك على غير اليهود.

ملامح الخطة الاعلامية

لابد لاية خطة اعلامية ان تأخذ بعين الاعتبار المعطيات التاريخية والدينية التي تقف وراء الموقف الامريكي. وبالتالي يجب ان تتسم الخطة بنفس طويل الامد وتحاول اختراق المكتبات العامة والمدرسية والتي تشكل مصادر معلومات للقارىء والباحث اضافة الى مخاطبة الرأي العام الاوروبي والامريكي بالعقلية التي يمكن ان تستوعبها، ويخطر في البال في هذه العجالة بعض النقاط التي يمكن تضمينها للخطة الاستراتيجية:

١ ـ انشاء مركز للارشاد حول القضية الفلسطينية، يعمل على نشر وتوزيع الكتب والنشرات للمؤسسات الاكاديمية، التي تعبر عن وجهة النظر العربية، وللرد على المقالات المغرضة والمشوهة للحقيقة اضافة الى اعادة نشر المقالات التي يكتبها اجانب او يهود، في دورية، على غرار «ريدرز دايجست» وتترجم الى عدة لغات.

٢ ـ تحريك منظمات حقوق الانسان في اتباع سياسات وتطبيقات جدية وجديدة، من بينها، على سبيل المثال، منظمة العفو الدولية ومؤسسات دولية، كاليونسكو، ومنظمة الصليب الاحمر الدولية، على ضوء طبيعة احتلال طويل، لم تأخذ هذه المؤسسات والمنظمات في اعتبارها ونشاطاتها مثل هذا الوضع ـ الاحتلال ـ الذي لم تعرفه الامم في تاريخها الحديث، مما يستدعي مطالبتها واقناعها بتحديث اجراءاتها وسياساتها وأساليب عملها، لتفعيل دورها في مواجهة التعسف الاسرائيلي.

٣ ـ توثيق كافة الاجراءات القمعية، بكافة الوسائل السمعية والبصرية، والتنسيق فيما بين المهتمين في الدفاع عن حقوق الانسان، لتفعيل دورها، وتعميم نشراتها، ومن المفيد الاستفادة من نشرات لجنة العفو الدولية ولجان الامم المتحدة، وشهادات الشخصيات التي تزور الاراضي المحتلة، وترجمتها الى مختلف

اللغات وتوزيعها على اوسع نطاق ممكن، والتوجه الى القارىء بالاحتجاج لدى السلطات الاسرائيلية المعنية.

من المفترض على المشروع الاستراتيجي للاعلام ان يضع نصب مخططاته التفصيلية مشكلة اختراق المجتمع الاسرائيلي بكافة مؤسساته السياسية والعسكرية، والثقافية والقانونية والاقتصادية، بوضع هيكلية للاهداف المرجوة، ومن ثم التنسيق مع حركات السلام الاسرائيلية التي ظهرت مابعد غزو لبنان عام ١٩٨٢، وتطورت سياسيا ونمت عدديا بشكل ملموس اثناء الانتفاضة. ومع الادراك بصعوبة تلك المهمة لطبيعة انغلاق المجتمع الصهيوني في قوقعة الغيبيات القبلية والشوفينية اضافة الى السياسات التعليمية والاعلامية التي طورت عقدة «مسعدة» و «الهولوكست» ومفهوم «الغويم» (غير اليهود) في مواجهة «اليهودي» لدى الاسرائيلي فان الانتفاضة بمنهجيتها الابداعية قد فتحت المجال واسعا امام امكانية ذلك الاختراق. ان مواجهة افراد القوات العسكرية لرئيس الوزراء الاسرائيلي في منطقة نابلس، ربما ترجع الى مخاطبة شباب الانتفاضة لتلك القوات بلغة قلما سمعها اليهودي من عربي: ان اهدافنا ليست كما تحاول زعامتكم تضليلكم، من انها تستهدف القضاء عليكم، اننا نريد ان نعيش على ارضنا ونقيم عليها دولتنا المستقلة الى جانب دولتكم، ان زيادة عدد رافضي الخدمة، في الاراضي المحتلة مؤشر آخر على تنامي قوى السلام الضعيفة والتي لاتشكل بعد وزناً سياسيا هاما. وربما يرجع ذلك الى طبيعة الانتفاضة اللاعنفية حيث لاتصدر يوميا توابيت الجنود من الضفة الى اسرائيل، كما كان الوضع في لبنان. ان الانتفاضة تعتمد على وخز الضمائر وعندما تكون الضمائر مغلقة بالشوفينية، فان قتل الاطفال يصبح تسلية ممتعة. وقتل العربي يعتبر من الواجبات المقدسة التي تفرضها التوراة. ومن هنا لابد ان تتوجه الاستراتيجية الاعلامية للوصول الى كل بيت يهودي، في داخل اسرائيل وخارجها، لاطلاعهم على ماتقترفه قواتهم وحكومتهم ضد الاطفال والنساء، وفضح المقولات الاسرائيلية المضللة من ان الجنود فقط يقتلون عندما تتعرض حياتهم للخطر. وعليهم كبشر وكأحزاب ورجال صحافة وقانون وجنود وضباط أن يتحملوا مسؤولياتهم التاريخية امام هذه الاجراءات الفاشية، وتوضيح تلك المسؤوليات حسب قرارات نورمبرغ. ويمكن القيام بذلك من خلال مذكرات ترسل الى القضاة ورجال القانون، واساتذته في الجامعات الاسرائيلية من قبل زملائهم في مختلف الاقطار الاجنبية، بالطلب منهم عدم الصمت تجاه تلك الممارسات وان يقفوا ضدها، وان ينظموا صفوفهم في حركات احتجاجية للضغط على حكومتهم. كما يمكن قيام اصحاب مهن أخرى بنفس هذا النشاط. اضافة لذلك، على المخططات التفصيلية ان تنتهج التحرك من أجل مقاطعة المؤسسات الاكاديمية الغربية لكل اكاديمي اسرائيلي يعلن عن مواقف التأييد التعسفية التي تقوم بها حكومته او يتبرع هو بنفسه، باقتراحها على حكومته لتعمل بها.

يجب العمل بشكل مدروس لقيام حركة مقاطعة للانتاج والصناعات الاسرائيلية في اوربا والولايات المتحدة. ان توزيع بوستر، في اوروبا والولايات المتحدة تحمل صورة الطفلة هدى مسعود تسعة أشهر، التي فقدت عينها نتيجة اصابتها برصاصة مطاطية يكتب تحت الصورة: «شراء أي انتاج زراعي أو صناعي اسرائيلي تمويل لمزيد من الرصاص المطاطي للجيش الاسرائيلي ولمزيد من فقد الاطفال الفلسطينيين

لنظرهم».

ان هناك المزيد من الخطوات والمشاريع التي تستهدف حماية المواطن من التعسف الاسرائيلي، وفي نفس الوقت تشكل شهادات دولية ضد تلك الاجراءات، مثل استنفار اعداد من المتطوعين والمتطوعات، من اوروبا والولايات المتحدة، من مهن مختلفة للعمل بين اوساط الفلسطينيين في القرى والمخيمات.

الامثلة اعلاه، نماذج لتحرك اعلامي، ضمن خطة شاملة، يجب اعدادها، بنفس المنهجية السابقة، ترسم لها الاهداف، والميزانية وتمتلك آلية التنفيذ وتخضع بين الحين والاخر الى عمليات تقويم، تعتبر جزءا لايتجزأ من خطة الدعم السياسية والاقتصادية. ان طبيعة الانتفاضة تفرض مثل هذا التوجه، فحرب الحجارة لن تحرر اريحا ويتقدم جنودها نحو القدس وبعد تحريرها تتقدم نحو المناطق المحتلة الاخرى، استمرارية الانتفاضة، وتطويرها وتصعيدها، وبناء المؤسسات الوطنية البديلة، والنجاح في ادارة دفة المعركتين السياسية والاعلامية، وضمان جبهة عربية موحدة يضع النضال في الدرب الصحيح، على طريق احتمالات النصر.

ولابد من التوكيد على ضرورة توافق الحملة الاعلامية مع التحرك الدبلوماسي، لتحقيق الاهداف المرجوة بابداع وسائل الضغط على الدول الاوروبية والولايات المتحدة: احلال قوات دولية محل قوات الاحتلال، عقد مؤتمر دولي.. الخ، حتى يمكن تجنب مضي الزمن الكفيل بغياب «التلألؤ» الاعلامي عندما يكتشف الشعب ان المبادرة الفلسطينية لم تحقق الانجازات على الارض مما سيؤدي الى اضعاف المعنويات.

آلية المشاركة الجماهيرية:

اذاً، من بين المهام الاساسية التي فرضتها تحديات الانتفاضة، هي القيام بعملية تقويم ينطلق منها استراتيجية للدعم الحقيقي تضطلع بها الجماهير العربية، ممثلة بفعالياتها، للمساهمة في ترجمة مطالب الانتفاضة الى حقائق موضوعية على الارض. وعملية الانجاز لاتقاس بالمطلق، ولابتحديد مساحة الزمن، فنحن امام مهمة كسر طوق قوة الاحتلال، وهو واع على دوره، ودور الشعب الذي يريد التخلص من هيمنته، ويستخدم في ذلك كل اسلوب علمي. وهذا النهج هو الابداع الذي واجهت فيه الانتفاضة كل علوم الهيمنة الاستعمارية، واخترقته محطمة بذلك اسطورة فرض الامر الواقع تلك كمؤشرة حول معالم توجه قيادات الخارج، عربا وفلسطينيين انظمة وفعاليات جماهيرية: هل نحن بصدد تحقيق مشروع يتناقض ويتعارض مع المشروع الصهيوني الامريكي باقامة الدولة المستقلة او التناغم معه، بالقبول بمشروع الادارة المدنية ـ الحكم الذاتي. ان الانجازات الدبلوماسية التي تتحقق على الساحة الدولية ان لم تعزز وتترجم الى حقائق موضوعية فوق الارض الفلسطينية ستذرى في الرياح. وسنجد انفسنا مثل مصيفة الغور لاصيغة صيغت ولاعرضها نابها.

من خلال تحقيق الانجازات على الارض فقط يمكن حسم المعركة لصالح فرض قيام الدولة الفلسطينية، والتي يتطلب تحقيقها، اضافة الى العمل على تحقيق انجاز الاستقلال الاقتصادي، العمل

على تحقيق المزيد من الوحدة الوطنية وضمان بعث الحياة النضالية في مؤسسات م. ت. ف. واستقطاب رجال الفكر والكفاءات ضمن اطرها تحت راية قيادة جماعية، وتوحيد الموقف العربي، وتشكيل جبهة الطوق العربي. ان العمل الدينامكي ضمن هذه الشروط وعلى الساحتين الفلسطينية والعربية كفيل بتغيير ميزان القوى المختل حاليا ضد صالح المشروع الوطني.

يمكن اعتبار ضمان دعم الانتفاضة ماديا، ضمن خطة شاملة، من خلال ميزانية ترصد ويعمل على تحقيقها وصرفها ضمن الاولويات المتفق عليها من أهم المسؤوليات الملقاة على الامة العربية، مع الاخذ بعين الاعتبار مسؤولية م. ت. ف. السياسية والتاريخية في طرح مثل هذه الخطة الشاملة ـ آخذة بعين الاعتبار نتائج الدراسات التقييمية ـ والتوجه الى الجماهير بالاضطلاع بمسؤولياتها القومية وبهدف تصعيد الانتفاضة وتمكينها من تحقيق اهدافها المرحلية والاستراتيجية ولايعني ذلك، اطلاقا، الانتظار الى مالانهاية في تقديم مثل هذه الخطة الشاملة. بل تستحق الانتفاضة، من الامة التي تنتمي اليها وتعتبر ان القضية الفلسطينية قضية الامة المركزية ان تأخذ بزمام المبادرة، وتقدم، عبر مؤسساتها الجماهيرية والسياسية والاجتماعية والمهنية، بالتنسيق مع م. ت. ف. واللجان الشعبية العربية، خطة شاملة للدعم، تُطرح وتُستنفر كافة القطاعات لتحقيقها، ربما تعتبر هذه الخطوة التعبير الاهم للحرص على استمرارية الانتفاضة وتطويرها. ومن الضروري العمل على تماثل مؤسسات م. ت. ف. في الخارج نوعا وكفاءة ونهجا وديمقراطية، ومؤسساتها في الداخل، وذلك لتمكين مؤسسات الخارج بالاضطلاع بمهامها تجاه مستحقات الانتفاضة، وتفعيلها بشكل يصبح توجيه الاتهامات سببا مفضوحا، كمبرر لتغطية العجز وغياب النية لتحمل المسؤولية، من ناحية، ولتفعيل مؤسسات الخارج لتصبح على مستوى المسؤوليات التاريخية الملقاة على عاتق م. ت. ف. بالاساس، والتي تواجه اليوم مسؤولية بناء الدولة ومؤسساتها، وقيادة الحرب الدبلوماسية والاعلامية، ورعاية شؤون الانتفاضة والتي سيحكم عليها من خلال السلبيات أمّا الانتصارات، فانها ستجد عدة امهات تتبناها.

ولترجمة هذا الخطاب ـ النداء الى خطوات عملية واجراءات ومشاريع وورش عمل، من المفيد تقديم المقترحات التالية، وليست بالضرورة ان تكون الشكل الثابت لتنفيذه على الارض العربية والفلسطينية:

١ ـ تقوم احدى المؤسسات العربية الوطنية بدعوة المعنيين في الامر للقيام بعملية التقويم ووضع الخطط الاستراتيجية للدعم والاعلام بهدف تصعيد الانتفاضة لتمكينها من تحقيق مطالبها الاستراتيجية والمرحلية. ومن ثم وضع الميزانيات التقديرية لتلك الخطط، وآلية العمل والتنفيذ.

٢ ـ حصر الامكانات المادية لمعظم الانظمة العربية القادرة ماديا، وتوزيع مايمكن جمعها من كل نظام على الميزانيات التقديرية، لتحقيق الميزانيات الفعلية والعمل على تشكيل لجان، تملك مفاتيح الدخول الى قلوب المسؤولين لاقناعهم بالمساهمة الفعلية لتأمين المبالغ المطلوبة التي يجب توزيعها حسب الاولويات التي نصت عليها الخطط التفصيلية.

٣ ـ حصر الفعاليات بين القطاعات غير الرسمية، وفي كل قطر عربي وتقدير الدعم الذي يمكن ان يجمع من تلك الفعاليات، وتعميم عمليات الجمع من كافة القاطعات بدءا بالفعاليات الاقتصادية

والتجارية والبنكية وانتهاءاً برياض الاطفال. وتعميم فكرة صناديق الانتفاضة في كافة الامكنة العامة، وتقديم مايجمع، من مدرسة الشويخ، مثلا، الى طلبة واطفال مخيم الدهيشة، ومن جمعية المرأة البحرينية الى نساء قرية كفر مالك. ومن اساتذة دولة الامارات الى عمال او معلمي قرية بيتا.

٤ ـ المبادرة بتشكيل مجموعات من العائلات التي ترتبط في علاقات صداقة في كل حي من أحياء المدن العربية لتتفق فيما بينها على تقديم دعم لجهة او مؤسسة ضمن الخطط، ترى تلك المجموعة أهمية خاصة في دعم الانتفاضة كتبني جمعية تعاونية في احدى المخيمات او القرى، وذلك لدعم وتطوير الاكتفاء الذاتي، واستيعاب العمال للاستغناء بالتدريج عن العمل في المؤسسات الاسرائيلية او تمويل ورش بيتية لتطوير نموذج الصناعات البيتية.

٥ ـ قيام مجموعات من التجار ذوي الاختصاص في توريد وتصدير الانتاج في انشاء شركات متخصصة في اوروبا وفي الولايات المتحدة، وفي كل مكان يمكن تصدير الانتاج الزراعي من الاراضي الفلسطينية المحتلة اليه، والعمل على الاستفادة من وجود جاليات عربية في تلك الاقطار، (يوجد في الولايات المتحدة آلالاف من محال البقالة التي يملكها عرب لو تم تأسيس شركة لاستيراد انتاج الداخل لحل الجزء الاكبر من مشكلة التسويق) على ان يكون العمل على اساس الدعم بالاضافة الى تغطية المصاريف وتكاليف الانشاء.

٦ ـ اتفاق مجموعة من الاطباء الاصدقاء يجمعهم العمل في مستشفى او عيادة خاصة او مجموعة من الممولين يجمعهم الحي او اي سوق تجاري على تشغيل احد الاطباء الخريجين شريطة السكن في احدى القرى وتمويله بفتح عيادة في تلك القرية، مما يساعد على انقاذ عشرات الجرحى الذين تمنع السلطات نقلهم من قراهم وتتركهم ينزفون حتى الموت.

٧ ـ قيام متبرع او مجموعة من المتبرعين بتبني أحد العمال شريطة امتناعه عن العمل في اسرائيل (المبلغ المقترح من ١٠٠ ـ ٢٠٠ دولار).

٨ ـ العمل على قيام الجمعيات الخيرية الدولية، والنقابات العمالية على التبرع بتمويل وادارة جمعية تعاونية، او مشغل لتصنيع اي من المواد الخام المتوفرة، ويمكن ان يبنى في البيوت لتجنب ممانعة سلطات الاحتلال، ويمكن ان يأتي هنا دور احدى النقابات العربية او مجموعة من المتبرعين العرب، بمساعدة تلك الجمعية الدولية في تمويل المشروع.

٩ ـ قيام متبرع او مجموعة من المتبرعين بتمويل احدى جمعيات حقوق الانسان لنشر وتعميم نشراتها على اوسع نطاق معين، او القيام بأنفسهم بنشرها وتوزيعها على مختلف الجهات المعنية.

١٠ ـ قيام مجموعة من المتبرعين بتمويل مجموعة من الباحثين او لجنة مكافحة العنصرية في الولايات المتحدة، او جمعية الخريجين العرب بالقيام بتحرير المجلة المقترحة والتي تهدف الى تجميع واعادة نشر المقالات المفيد تداولها في دورية على غرار «Readers Digest» بعد ترجمتها الى اللغات الفرنسية والانجليزية والعبرية لتوزيعها على اوسع نطاق ممكن وقيام متبرع او مجموعة من المتبرعين بتمويل شراء وتوزيع كتب بمختلف اللغات، تعبر عن وجهة النظر العربية، الى كافة المكتبات العامة والجامعات واساتذة العلوم

السياسية والاجتماعية، وتخصيص جائزة او مكافأة لكل استاذ يقدم نشاطا حول تعليم القضية الفلسطينية.

١١ ـ قيام متبرع او مجموعة من المتبرعين بتمويل انشاء مركز «لتعليم القضية الفلسطينية» يكون مهمته الرد الفوري على مختلف المقالات الصادرة في الصحافة العالمية من قبل مختصين يتقنون اللغات ويعرفون العقليات المختلفة.

١٢ ـ قيام آلاف من الشخصيات الاكاديمية العربية (الكتاب والادباء والمثقفين) بالكتابة الى زملائهم في مختلف الجامعات الاوروبية والامريكية، وغيرها، بالتوجه بالاحتجاج لدى الاوساط الاكاديمية الاسرائيلية لصمتهم الفاشي حول اغلاق الجامعات والمعاهد الفلسطينية العليا، والضغط عليها لتتحرك لفتح تلك المؤسسات كما ويمكن مطالبة الاوساط الاكاديمية في العالم بمقاطعة الاكاديميين في أجهزة الجامعات الاسرائيلية الذين يعملون كمستشارين لاجهزة الحكم العسكري الفاشي او اولئك الذين اعلنوا في الصحافة الاسرائيلية دعمهم للاجراءات التعسفية من قتل للاطفال، وهدم البيوت واعتقالات جماعية بدون حماية قانونية.

١٣ ـ تنشيط المؤسسات العربية المتخصصة، والضغط عليها لتقوم بواجباتها تجاه التحرك الاعلامي، بان يقوم مجموعة من المؤمنين بالقضية، بالاتصال ببعض المنظمات العربية، مثل منظمة المدن العربية ومنظمة المدن الاسلامية بتحمل مسؤولياتها تجاه المدن الفلسطينية ماديا واعلاميا، كأن تقرر تخصيص مبلغ محدد على كل متر مربع في اية رخصة بناء يخصص ريعها لاصحاب البيوت التي تدمرها سلطات الاحتلال. كما يطلب منها، بل والضغط عليها للمبادرة في شن حملات اعلامية لفضح السياسات الاسرائيلية ضد المجالس البلدية الفلسطينية، بما فيها سياسة هدم البيوت وابعاد اعضاء ورؤوساء المجالس البلدية، والسياسات التنظيمية العنصرية التي تتجاهل الوجود العربي. واثارة موضوع القدس والتشويه الذي جرى لهذه المدينة المقدسة من خلال محاولة تهويدها وبناء المستوطنات على شكل قلاع من حولها، لاسباب عنصرية بهدف فصلها عن بقية الاراضي العربية المحتلة.

١٤ ـ مبادرة احدى الصحف، او احدى المؤسسات العربية الوطنية بالتوجه الى الجماهير العربية بمقاطعة السجائر الامريكية امام استمرار الولايات المتحدة في معاداتها للامة العربية، بدون الانتظار لقرار جماعي، او الطلب بتنفيذ مقاطعة شاملة في مرحلة مبكرة من الصعب تطبيقها.

تلك بعض مهمات المرحلة القادمة، التي تفرضها التحديات المختلفة، اضافة الى امثلة ونماذج من طرق الدعم المادي والاقتصادي والاعلامي، الذي يمكن ان يقدم مباشرة وبدون وسطاء، من قبل افراد ومؤسسات، اذا ماوجدت النية والعزم لدى الانسان العربي، كفرد او تجمع او نظام، وبدون مبررات (وضع مؤسسات ومكاتب م. ت. ف.) تختبىء ورائها نيات وارتباطات خفية تمنع البذل والعطاء لدعم الانتفاضة، ومع ذلك فلا يوجد مبرر لقيادة م. ت. ف. الاحتفاظ بالسلبيات بين صفوفها، فلابد من الارتفاع على مستوى الاحداث والتحديات. وعلى كافة المؤسسات العربية الجماهيرية والانسان العربي كفرد، التماثل مع الروح الجديدة التي اثمرتها الانتفاضة (هل يعقل على انسان فلسطيني ان يكلف عرسه عشرات الالاف من الدنانير في عهد الانتفاضة؟) وعلى كافة عناصر حركة التحرر العربية ان تتنادى اليوم،

قبل الغد، للالتقاء حول دعم الانتفاضة المعجزة العربية لتمكينها من اسقاط المشروع الصهيوني وتحقيق المشروع الوطني.

على الامة العربية ان تبرهن لكافة القوى المعادية للشعوب وآمانيها من ان الشعب العربي قد عقد العزم على نفي مقولة وايزمن «ان الشعب الفلسطيني كحجارة يهودا، يجب ان تقتلع لتحقق الامة وتترجم مايسطره الشعب الفلسطيني، من ان حجارة فلسطين التي يحملها الفلسطيني في مقلاعه والمرأة على رأسها، ستقتلع الاحتلال الاسرائيلي.

١٩٨٩/٢/١٦

ملاحظات في اشكالية الدولة القطرية

سلامة كيلة*

كان دائماً هناك اتجاهان في الوطن العربي، منذ نهاية القرن التاسع عشر على الاقل، ومنذ بداية القرن العشرين تحديداً، فيما يتعلق بالقضية القومية. اتجاه يسعى لتقسيم الوطن العربي. وانهاء القضية القومية، وابدالها بقضايا أخرى، قطرية وإقليمية، طائفية وإثنية، واتجاه آخر يتمسك بالقضية القومية ويسعى لاسقاط التجزئة وكل مخلفاتها، وبالتالي يعمل من أجل تحقيق الوحدة القومية.

ولقد مثلت الدول الاستعمارية الطامحة الى السيطرة على الوطن العربي، لنهب ثرواته، ولضمان طريق الهند مثلت الاتجاه الاول، ولذلك عملت على احتلاله اولاً. حيث استمرت موجة الاحتلال هذه منذ عام ١٧٩٨ الى عام ١٩١٨، حيث استطاعت احتلال مختلف أجزاء الوطن العربي. فاحتلت الجزائر عام ١٨٢٧، وعدن عام ١٨٣٩، تونس ١٨٨١، مصر ١٨٨٢، ليبيا ١٩١١، المغرب ١٩١٢، وبقية المشرق العربي بعد الحرب العالمية الاولى ولقد عملت، وهي تحتله، على اقتسامه فيما بينها، ثم على تقسيمه الى مناطق عازلة بعضها عن البعض الآخر، وجاعلة إياها «دولاً» قيد التكوين. وضمن ذلك رعت المشروع الصهيوني، الذي كان مشروعها أساساً، وعملت على اقامة «الوطن القومي لليهود».

وكان ذلك يشغل الدول الاستعمارية، خصوصاً بريطانيا وفرنسا، منذ بداية التطلع نحو الشرق. ومع حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٩ تحديداً. ولقد ارتبط مشروع التقسيم بالمشروع «القومي الصهيوني» الذي طرحه نابليون في ٢٠ نيسان ١٩٧٩. وكان وضع الوطن العربي مهيئاً للتجزئة، كما كان مهيئاً للاحتلال بسبب ضعف الدولة العثمانية وبدء تفتتها، وحيث استفاد الاستعمار من «خطوط التجزئة الاقليمية التي خلفتها الاقطاعية الشرقية» التي انتشرت في عهد اضمحلال الامبراطورية العربية الاسلامية

---

* باحث من فلسطين

قبل الغد، للالتقاء حول دعم الانتفاضة المعجزة العربية لتمكينها من اسقاط المشروع الصهيوني وتحقيق المشروع الوطني.

على الامة العربية ان تبرهن لكافة القوى المعادية للشعوب وآمانيها من ان الشعب العربي قد عقد العزم على نفي مقولة وايزمن «ان الشعب الفلسطيني كحجارة يهودا، يجب ان تقتلع لتحقق الامة وتترجم مايسطره الشعب الفلسطيني، من ان حجارة فلسطين التي يحملها الفلسطيني في مقلاعه والمرأة على رأسها، ستقتلع الاحتلال الاسرائيلي.

١٩٨٩/٢/١٦

ملاحظات في اشكالية الدولة القطرية

سلامة كيلة*

كان دائماً هناك اتجاهان في الوطن العربي، منذ نهاية القرن التاسع عشر على الاقل، ومنذ بداية القرن العشرين تحديداً، فيما يتعلق بالقضية القومية. اتجاه يسعى لتقسيم الوطن العربي. وانهاء القضية القومية، وابدالها بقضايا أخرى، قطرية وإقليمية، طائفية وإثنية، واتجاه آخر يتمسك بالقضية القومية ويسعى لاسقاط التجزئة وكل مخلفاتها، وبالتالي يعمل من أجل تحقيق الوحدة القومية.

ولقد مثلت الدول الاستعمارية الطامحة الى السيطرة على الوطن العربي، لنهب ثرواته، ولضمان طريق الهند مثلت الاتجاه الاول، ولذلك عملت على احتلاله اولاً. حيث استمرت موجة الاحتلال هذه منذ عام ١٧٩٨ الى عام ١٩١٨، حيث استطاعت احتلال مختلف أجزاء الوطن العربي[1]، فاحتلت الجزائر عام ١٨٢٧، وعدن عام ١٨٣٩، تونس ١٨٨١، مصر ١٨٨٢، ليبيا ١٩١١، المغرب ١٩١٢، وبقية المشرق العربي بعد الحرب العالمية الاولى ولقد عملت، وهي تحتله، على اقتسامه فيما بينها، ثم على تقسيمه الى مناطق عازلة بعضها عن البعض الآخر، وجاعلة إياها «دولاً» قيد التكوين. وضمن ذلك رعت المشروع الصهيوني، الذي كان مشروعها أساساً، وعملت على اقامة «الوطن القومي لليهود».

وكان ذلك يشغل الدول الاستعمارية، خصوصاً بريطانيا وفرنسا، منذ بداية التطلع نحو الشرق. ومع حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٩ تحديداً. ولقد ارتبط مشروع التقسيم بالمشروع «القومي الصهيوني» الذي طرحه نابليون في ٢٠ نيسان ١٩٧٩. وكان وضع الوطن العربي مهيئاً للتجزئة، كما كان مهيئاً للاحتلال بسبب ضعف الدولة العثمانية وبدء تفتتها، وحيث استفاد الاستعمار من «خطوط التجزئة الاقليمية التي خلفتها الاقطاعية الشرقية» التي انتشرت في عهد اضمحلال الامبراطورية العربية الاسلامية

---

* باحث من فلسطين

وثبتتها السيطرة العثمانية التي امتدت أربعة قرون(١).

ثم كرست تقسيمها «الواقعي» باتفاق رسمي عام ١٩١٦، حين وصلت بريطانيا وفرنسا الى اتفاق سايكس ـ بيكو. وكذلك كرّست مشروعها باقامة «وطن قومي يهودي» في فلسطين رسمياً باصدار وعد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧، ثم حين تم تضمينه في صك الانتداب عام ١٩٢٢. ولما سحبت وجودها العسكري في فترات مختلفة، واعطت «الاستقلال» لهذه الدول، أصرّت أن ينطلق الاستقلال من اتفاق سايكس ـ بيكو، حيث أعطيت كل دولة استقلالها الخاص بمعزل عن الدول الاخرى. حتى في حالة السودان، التي كانت تحكم حكماً «ثنائياً» بريطانياً مصرياً، أصرّت بريطانيا، أن تستقل مصر وحدها، ثم أن تستقل السودان وحدها ايضا كما عملت من أجل تجاوز المدّ القومي الذي كان بدأ في النهوض منذ بداية الاربعينات، على تأسيس الجامعة العربية، لتكون جامعة دول، وليس جامعة أمة، بمعنى عملت لكي تكون جامعة «أمم».

ولضمان تأسيس الدول وترسيخها، عملت على تنمية فئات اجتماعية ربطت مصالحها بها، من خلال تحويلها الى فئات «وسيطة» تعمل وكيلة للشركات الاحتكارية العالمية، وبهذا قطعت جذورها الممتدة في الوطن، وربطتها في المركز الاستعماري. مما قاد الى أن تغلب هذه الفئات مصالح الاستعمار على مصلحة الوطن، لهذا غلّبت مصالحها على مصلحة الوطن أساساً. فتكونت دول «مستقلة» لها دساتيرها وانظمتها وحكّامها وجيوشها. ونمت الفئات المستفيدة منها والمدافعة عنها، فهي السوق الذي تبيع هذه الفئات فيه بضائع وسلع الشركات الاحتكارية العالمية، ولهذا السبب تحديداً غدت مصلحتها ملتحمة بمصلحة الاستعمار، ثم بالامبريالية من جهة، وبالتجزئة من جهة ثانية.

أما الاتجاه الثاني، فقد ظهر واضحاً في نهاية عهد الامبراطورية العثمانية، وبرز في حركتين، حركة محمد علي باشا، والحركة القومية التي نمت مع نهاية العهد العثماني.

لقد حاول محمد علي باشا، بعدما استطاع السيطرة على مصر، وبعد محاولته تأسيس دولة عصرية بمساعدة فرنسا، حاول «التوسع» في مختلف المناطق العربية. فغزا السودان، ثم هزم الحركة الوهابية في الجزيرة العربية، وتقدم في بلاد الشام، حتى كاد يهزم الامبراطورية العثمانية، ويدخل الاناضول. وكان همّه الاساسي يتمثل في اقامة امبراطورية عربية(٢). لكن الاستعمار الاوروبي الرأسمالي، الذي كان حريصاً على عدم قيام أية حركة تعيد وحدة أية منطقة من مناطقها (أية أمة من أممها)، كما كان حريصاً على عدم تقدّم مختلف بقاعها. ولهذا تدخل ضد محمد علي باشا، فهزمه وفرض عليه التقوقع ضمن حدود مصر.

ثم نمت الحركة القومية العربية، متأثرة بالنهوض القومي في أوروبا، كما بالنهوض القومي في البلقان وتركيا ذاتها، فظهرت أحزاب مختلفة منها حزب «اللامركزية» والعربية الفتاة، و«حزب العهد» وغيرها. بلورت في نهاية المطاف خطاً يدعو لاستقلال الوطن العربي ووحدته. لكن «اقتسام الدولتين الامبرياليتين للاقاليم العربية العثمانية، أوقف التطور نحو وحدة الاقاليم العربية، الذي تجسم، فكرياً في التنظيم السياسي الواحد قبل الاحتلال»(٣).

ولقد اختلفت الامور بعد الحرب العالمية الاولى «فلما تم فتح سوريا، وظهرت نيات الحلفاء

وأغراضهم، اجتمع مؤسسو هذا الحزب [العهد] واعضاؤه القدماء من الضباط العرب الذين اشتركوا في الثورة [أي الثورة العربية الكبرى. س] عراقيين وسوريين، وقرروا أن ينقسم العهد الى حزبين سوري وعراقي، فيعمل كل منهما لخدمة قضية بلده مستقلاً عن الآخر»(٤)، ونمت الاحزاب القطرية التي يناضل كلُّ منها لاستقلال بلده فحسب، وهذه هي السمة التي لازمت النضال العربي طيلة العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، رغم الحديث عن الوحدة العربية، الذي ظلّ جزءاً من برامج الحركات القومية السابقة كالعهد والعربية الفتاة، التي انقسمت الى احزاب مختلفة كما يشير امين سعيد، حيث أسست «حزب الاستقلال» في العراق، ثم في فلسطين، و«الاتحاد السوري». الخ».

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، بدأ النهوض القومي من جديد، مترافقاً مع الازمة الاقتصادية الاجتماعية التي عاشها الوطن، وبسبب وطأة السيطرة الاستعمارية، وبتأثير التغييرات العالمية، التي فرضت تراجع الدول الاستعمارية الاوروبية، وظهور الولايات المتحدة كقوة امبريالية أولى، والاتحاد السوفياتي كقوة عالمية تناصر الشعوب، والامم المضطهدة. فنشأت الحركة القومية الحديثة. واستطاع المدّ القومي الجديد أن يحقق هدفين الاول: الاستيلاء على السلطة في عدد كبير من الدول العربية (مصر، سوريا، العراق، اليمن، السودان، ليبيا، الجزائر)، والثاني أن يمتلك زمام المبادرة في الصراع في الوطن العربي، حيث تحوّلت موازين القوى لمصلحته في مواجهة الانظمة الرجعية.

واذا كان الاستعمار الرأسمالي الاوروبي، هو السبب المباشر في هزيمة التجارب القومية في الماضي، فقد لعب الكيان الصهيوني من جهة، و«الدولة القطرية» ذاتها التي أسسها الاستعمار من جهة أخرى دوراً مباشراً في هزيمة الحركة القومية الحديثة دون ان نتجاهل دور الامبريالية الذي استمر قويّاً. فقد لعب الكيان الصهيوني دوراً مباشراً، من خلال الضربات العسكرية التي وجهها للحركة القومية المنتصرة في مصر وسوريا، خصوصاً الحرب التي خاضها عام ١٩٦٧. أما «الدول القطرية» التي تحوّلت الى كيانات سياسية قائمة بذاتها، وراسخة بفعل الدعم الامبريالي لها، كما بفعل استفادة فئات اجتماعية محددة فيها، فقد لعبت دوراً مباشراً أيضاً، حيث فرضت على الفئات القومية الحاكمة أن تنتهج «مسلكاً جديداً» فبدلاً من إعادة تشكيل الدولة لتطابق أهداف الوحدة العربية، عدّلوا (الحكام العرب. س) مفهومهم للامة لكي يتلائم مع البنية الحالية للدولة»(٥)، ويؤكد وليَم. ر. براون «ان اغلبية القادة (العرب. س) سيميلون لاغراضهم الخاصة، الى التراجع بعيداً عن مفهوم الامة العربية، والتركيز بدلاً عن ذلك على الموضوع الذي يعد شأن سياسي اكبر، ونعني بذلك، الدولة والمصالح التي يمكن ان تجلبها لمواطنيها»(٦).

لكن، يمكن التأكيد على أن سبب هزيمة الحركة القومية في مختلف مراحلها، كان عجزها الذاتي، المتمثل أساساً في انها تكوّنت من فئات اجتماعية، يربطها بالامبريالية «حبل سرّي» ويتمثل في استفادتها من علاقاتها الاقتصادية بالشركات الاحتكارية العالمية. ولهذا لم يكن صراعها مع الاستعمار، ثم الامبريالية جذرياً. ولقد كانت تحقق بعض الانتصارات، لكن مساومتها مع الاستعمار تؤدي الى اجهاض ذلك، ومن ثم تحوُّل اقسام منها، الى أدوات للاستعمار والامبريالية.

إضافة للحركة السياسية، التي رفعت راية القومية العربية ـ كان الشعور القومي لدى الجماهير

العربية واضحاً الى حدٍّ ما، ويظهر في تأييد النضال ضد الاستعمار والصهيونية، حيث كان التأييد يأخذ شكلاً عاطفياً بارزاً، أو شكلاً ملموساً من خلال المشاركة في النضال.

أما اليوم فلقد اجتازت الدول العربية حماسة فكرة الامة العربية[٧]، وأخذت الفئات الحاكمة تهتم «بتحويل الانظار عن فكرة الامة الى القطر»[٨]، وبالتالي ضعف اهتمامها بالقضايا القومية. كما أن الحركة القومية الحديثة تفتت، ولم تعد احزابها احزاباً جماهيرية، وتحوّل معظمها الى احزاب قطرية. وضعف الاهتمام بالقضية القومية، وأخذ اهتمام الحركة الوطنية العربية يتجه الى الاقطار أيضاً. وتراجع دور الجامعة العربية، وأخذت السياسية الاقليمية تحلّ محلها، فتشكلت «وحدات اقليمية» مختلفة.

واكثر من ذلك برزت الاتجاهات الطائفية، التي تهدد كيان الشعب العربي بالتفسخ، هذه الاتجاهات التي تهدد الدول ظاهرياً و تهدد بشكل جوهري، كيان الامة. حيث أنها اذا لم تستطع الى تقسيم الدول إلى دول أصغر، فإنها أساساً تهدد الأمة لأنها تدفع التمسك بالدول في مواجهة الانقسام الطائفي.

فهل يمكننا القول أن الامة العربية قد انتهت؟ أو هي في طريق الانتها؟ كما يقول وليم. ر. براون في دراسته التي عنونها بـ «الامة العربية التي تموت» قاصداً الجزم في ذلك؟..

سياسات الولايات المتحدة

إن الولايات المتحدة تطمع في ذلك، فهي وريثة الرأسمالية الاوروبية التي أصرّت على تقسيم الوطن العربي، وتحويل التقسيم السياسي الذي أوجدته، الى تقسيم حضاري، أي تحويل الدول الى أمم، ولذلك فهي تسعى لتنفيذ نفس المخطط، وتحقيق مالم تستطع الدول الاستعمارية الاوروبية تحقيقه. ووليم. ر. براون يعبّر عن هذا الاتجاه، الذي نستطيع تلمسه في كل الكتابات الرسمية الاميركية كما في السياسة الخارجية للولايات المتحدة.

والولايات المتحدة تعمل اليوم وفق خطين في هذا المجال، الاول: يتمثل في تكريس الدول، والغاء الاهتمام بالقضايا القومية. والثاني: تسعير الصراعات الطائفية، وتحويل الصراع، من صراع طبقي قومي، الى صراع بين طوائف.

وبالتالي يتمثل هدف السياسة الاميركية في «تشجيع اتجاهات مثل قيام قومية عربية عصرية موجهة قطرياً، يكون لها تأثير معاكس، وهو تحويل انظار العرب بصورة خاصة عن القضية الفلسطينية، واغراء الاقطار العربية على تركيز اهتمامها على تحسين اوضاعها الخاصة[٩]. ولهذا يدعو وليم ر. براون الولايات المتحدة الى التعامل مع الكيانات «ككيانات ناضجة».. وان تنظر الى مفهوم الاقطار على أنه مفهوم حضاري، وليس مفهوماً سياسياً فقط (١٠) كما يدعوها الى ان تؤكد للحكام العرب على ان الدولة القطرية ستلاقي «اهتماماً خاصاً» وستستفيد من التعامل مع الولايات المتحدة[١١]، وكذلك يدعوها الى تشجيع «الاقليمية الجديدة»، مثل مجلس التعاون الخليجي، التكامل المصري السوداني، المغرب الكبير، وفق

ظروف محددة.

واذا كان وليم. ر. براون يدعو الولايات المتحدة الى كل ذلك، فان مايطرحه هو سياسة الولايات المتحدة الواقعية، التي تظهر كل يوم، سواء في تصريحات القادة الاميركان أو في الممارسة اليومية، فالولايات المتحدة تحارب الاتجاه القومي حرباً شعواء، وتعمل على تكريس الدول كأمم قائمة في ذاتها.

أما بخصوص التقسيم الطائفي، ودعم الحركات الدينية، فان الهدف منها يتمثل في ثلاث قضايا:

الاولى: مواجهة الحركة القومية العربية، بطرح ديني طائفي مناقض لها، وقادر على استقطاب قطاعات جماهيرية، تكون قوّة الصدام مع الحركة القومية، وبهذا تنتهي الحركة القومية كحركة سياسية.

الثانية: تكريس «الدول القطرية» من خلال تحويل انظار الفئات الحاكمة الى المشاكل الداخلية، التي تهدد بتفتيت الدولة، وبالتالي «تحويل الانتباه عن جوهر الصراع الى هوامشه»[١٢]، أي تحويل الانتباه عن القضايا القومية الى القضايا الداخلية، ثم التمسك بالدولة كحل وحيد أمام التفتيت الطائفي.

الثالثة: خلق أرضية معادية للتقدم، من خلال تكوين مجموعات منغلقة ومتعصبة، تعيش احلام الماضي، وهي بذلك تهزم الفكر الثوري، لتمنع امكانيات التطور الاقتصادي والسياسي من جهة، وتمنع الدخول السوفياتي من جهة أخرى.

ولقد تولى بريجنسكي مستشار الامن القومي في عهد الرئيس كارتر، التنظير لاهمية الصراع الطائفي، وانتشار الحركة الدينية عموماً[١٣] رغم ان تنظير هذا الخط استمر بعد ذلك.

إذن، يتمثل الهدف الامبريالي الاميركي في تحويل الدول الى أمم، وانهاء القضية القومية العربية، لانه «من الجلي أن أمة عربية مفتتة لا يمكنها ان تواجه التحدي الامبريالي»[١٤]. واذا كان انهاء الصراع العربي الصهيوني يهدف الى تكريس الوجود الصهيوني، واسقاط مبرر الوجود السوفياتي في الوطن العربي، فان من أحد أهدافه الاساسية، هو إنهاء اهتمام الانظمة العربية، والجماهير العربية عموماً، بقضية من أهم القضايا القومية، وهي قضية فلسطين، وتكريس اهتمامها بالاوضاع الداخلية، وبالتالي تجاوز القضية القومية كلها، وتحويل الدول الى أمم.

وماتريده الولايات المتحدة من ذلك هو الحفاظ على مصالحها الحيوية في الوطن العربي، الامر الذي يحتاج الى وضع يؤهلها السيطرة عليه، في الربع الاخير من القرن العشرين، حيث لاتستطيع السيطرة العسكرية المباشرة ولهذا تلجأ الى اجهاض حركة التقدم العربي، التي تُعتبر القضية القومية جوهرها، فالعرب يسعون الى استقلالهم وبناء اقتصادهم المتقدم، لكي يلحقوا العصر. ولتحقيق ذلك فهم مضطرون لمواجهة الامبريالية العالمية - الساعية لتكريس التخلف - لانه يخدم قدرتها على تصدير السلع واستيراد المواد الاولية، وهذا وذاك يفرضان الوحدة القومية، فلا ازدهار وتقدم اقتصادي بدون الوحدة ولاامكانية لهزيمة الامبريالية العالمية بدونها. وبذلك يكون الحفاظ على التخلف الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الايديولوجي، وتكريس التجزئة من أهداف السياسة الاميركية الاساسية. ولتحقيق ذلك تدعم الكيان الصهيوني أداتها الاساسية، الاكثر قدرة على الردع والحركة، وتحافظ على الفئات الكمبرادورية الحاكمة، وتوجد لها قواعد وتسهيلات عسكرية.

وماتريده هو النهب الاقتصادي، بنهب المواد الاولية، (وخصوصا النفط)، ونهب الاموال من خلال فائض الميزان التجاري الذي بلغ عام ١٩٨٢ خمسة مليارات دولار. وعام ١٩٨٣ سبعة مليارات واستمر يراوح في نفس المعدل طيلة السنوات الخمس التالية وأساساً من خلال نشاط الشركات الاحتكارية متعددة الجنسيات، وتجارة السلاح.

دور البرجوازية التابعة

واذا كانت الولايات المتحدة تطمع في موت الامة العربية، فان الفئات الكمبرادورية الحاكمة تعيش مأزقاً في هذا المجال. فهي أداة من أدوات الامبريالية الاميركية، ولذلك فمن المنطقي أن تسعى لتنفيذ المخطط الامبريالي، وأساسه التجزئة، ثم أن وجودها قائم على التجزئة، لان الدولة هي سوقها التي تبيع فيه السلع الامبريالية، لكي تأخذ عمولة. إن الدولة هي سوقها التي لاينازع أحد عليه، والتي تقرر هي ماشاءت به. ولهذا فان خطها الأساسي، يتمثل في تدعيم الدول وتقويتها على حساب الامة، وإن ظلّت تتغنى بالافكار القومية، العامة أحياناً والمشوبة بلمسة دينية أحياناً أخرى. لقد أسست الفئات الحاكمة دولاً، ودعمتها بالجيوش وأجهزة المخابرات، كما باكداس القرارات التي تزيد من قوة الحدود ومنعتها أمام العرب، مثل قرارات الحصول على تأشيرة دخول، وترخيص اقامة وعمل و. . الخ، ثم انها اسقطت قضية الوحدة العربية من برامجها ودساتيرها، وبدأت تنبش عن تراث يؤكد كيانها «الحضاري». لقد عادت الى الماضي السحيق، لكي تجد فيه شرعية وجودها الراهن.

لذا تتمثل سياسة الانظمة الرجعية العربية الاساسية في الاهتمام باقطارها أولاً، ولقد ساعد ارتفاع المدخول النفطي ارتفاعاً كبيراً، في ذلك، حيث أدى الى «تجاهل متطلبات نظام الشرق الاوسط القديم - المسمى الامة العربية»[١٥]، كما اتجهت للاهتمام بالقضايا الاقليمية، التي أدت الى ظهور «اشكال جديدة من العلاقات القطرية» مثل «مجلس التعاون» «التكامل المصري السوداني»، «المغرب الكبير»[١٦]، ولهذا فهي تتجاهل قضية الوحدة العربية من جهة، وتسعى لانهاء الصراع العربي الصهيوني من جهة أخرى.

لكن هذا الاتجاه يصطدم بعقبات مهمة، فاولاً هناك ماتسميه هي «بالتعنت الاسرائيلي» الذي لايسمح بانهاء الصراع العربي الصهيوني، وبالتالي يجعل الانظمة الرجعية العربية تولي جُلّ اهتمامها للاوضاع الداخلية. لكن أيضاً بسبب الخشية من الكيان الصهيوني الذي لايريد احتلال فلسطين وقضمها فقط، بل أن له مطامع في المنطقة المحيطة به[١٧]، كما أن من أهدافه الاساسية السيطرة على المنطقة العربية كلها، سياسياً واقتصادياً. كما يهدف الى تفتيتها طائفياً[١٨].

إن السياسة الصهيونية هذه تفرض على الانظمة الرجعية اشكالاً من العلاقات والوحدة، تتجاوز الدول، وإن ظلت اشكالاً جزئية، تتخذ صيغ التنسيق والتضامن فقط.

كما أن هذا الاتجاه يصطدم ثانياً بانقسام الوطن العربي الى دول غنية ودول فقيرة من جهة، والى دول كثيرة السكان ودول قليلة السكان من جهة ثانية. وهذه وتلك تفرض اشكالاً من العلاقات فيما بينها،

فالدول الفقيرة تسعى للحصول على القروض والمساعدات من الدول الغنية، لكي تسدّ العجز الذي تعانيه موازناتها، ولانعاش الاوضاع الاقتصادية لديها. كما أنها، وهي الكثيفة السكان. بحاجة الى تصدير العمالة للدول الغنية، لتخفيف الازمة الاقتصادية الداخلية، ولانعاش الوضع الاقتصادي بالاستفادة من تحويلات العاملين. أما الدول الغنية فبحاجة للايدي العاملة، كما للهيمنة السياسة.

وهذا الاتجاه يصطدم ثالثاً، بكون العالم أخذ يتأسس على اساس التكتلات الكبيرة، وهذه الظاهرة تفرض على الدول الصغيرة التكتل لمواجهة هذه التكتلات والصمود أمامها، لذلك تسعى الانظمة الرجعية الى ابراز التكتل العربي، والتكتل الاسلامي، وإن كان الثاني يهيمن على الاوّل ولكن أيضاً التكتلات الاقليمية في «اتحاد دول المغرب العربي»، «مجلس التعاون العربي»، «مجلس التعاون لدول الخليج العربية».

ولذلك تتسم سياسات الانظمة الرجعية العربية في هذا المجال بالتالي:

١ - إنها تعمل من أجل إنهاء الحركة القومية العربية، ومختلف فصائل الحركة الوطنية، وتأخذ هذه السياسة أحد شكلين، الاول السحق الدموي والتصفية، والثاني التدجين والاخضاع.

٢ - تكريس الدول، والسعي لتقويتها واعتبارها الهدف الاول، الذي تهون أمامه كل الاهداف الاخرى.

٣ - دعم الخط الديني والحركات الدينية، لان هذا الخط مناقض للحركة القومية، وداعم لهذه الانظمة، لانه يشكل جوهر أيديولوجيتها، وإن كانت تعمل على دعم خط ديني محدد، يطاوع سياساتها بشكل أفضل.

٤ - ولكنها أيضاً توجد اشكالاً من العلاقات العربية، التي تخفي أزمتها، مثل «جامعة الدول العربية» و «التضامن العربي». والوحدات الاقليمية التي ذكرت سابقاً.

لكن يبقى أن نؤكد أن خطها القطري هو الخط الاساسي، أما القضايا الاخرى، فنعتبرها قضايا راهنة تسعى الى تجاوزها. ومنها مثلاً قضية تسوية الصراع العربي الصهيوني، التي تعتبرها مدخلاً لتكريس «الدولة - الامة» كما لتحويل الصراع الى صراع ضد الحركة القومية العربية، وضد التقدم والتحرر و «الشيوعية».

اتجاه الواقع

إذن، الى أين يتجه الوطن العربي؟

الى (الدولة - الامة)، أو الى (الامة - الدولة)؟ الى تحوّل الدول الى أمم، أو الى انصهار الدول في دولة قومية واحدة؟

إن الوطن العربي يشهد في الوقت الراهن، الحالتين. فهناك توسع في مهام الدولة، وتكريس لها على حساب الامة ومطامحها القومية، لكن أيضاً هناك حركة تاريخية تفعل فعلها في عمق المجتمع العربي. لكن الخط الثاني هو الاقوى. لانه يعبّر عن حركة الجماهير الساعية نحو التحرر والتقدم والوحدة. وإن كانت

ظروف التجزئة والتفكك والتفتيت هي البارزة في هذه المرحلة.

وإذا كانت الامبريالية العالمية، وخصوصاً الولايات المتحدة، تحلم بموت الامة العربية، وتعتبر ان طريقها الى ذلك يأتي من تشجيعها الانظمة الرجعية على انتهاج سياسة قطرية - كما يوضح وليم. ر. براون. واذا كانت تعمل على تسعير الصراعات الطائفية، لكي تتحوّل الجماهير الى ملل وطوائف. فان هذه وتلك تعيشان أزمة. فالدولة تتناقض مع ذاتها ومع جماهيرها، كيف ذلك؟. إنها تتناقض مع ذاتها، لسببين:

الاول: ان هذه الدول تنقسم الى دول كثيفة السكان وأخرى قليلة السكان، وتقود هذه الظاهرة الى حدوث انفجارات سكانية من الدولة المكتظة الى الدول المحيطة، وتبرز هذه الظاهرة واضحة في دول مثل مراكش، مصر، اليمن، سوريا، لبنان تحديداً.

الثاني: أن هذه الدول تنقسم الى دول غنية ودول فقيرة، وبالتالي تلجأ الدول الفقيرة الى الاقتراض وطلب المساعدة من الدول الغنية، لتسديد عجز موازناتها الذي يتفاقم كل يوم.

لذلك، والفئات الحاكمة تتجه اتجاهاً قطرياً، تلجأ الى الحديث عن الوحدة العربية، والتضامن العربي، لتخفيف أزماتها. وهذه الدول أيضاً متناقضة مع جماهيرها، لان تحوّل المجتمع العربي من مجتمع فلاحي مغلق، الى مجتمع رأسمالي تابع، فرض اندماج المجتمع العربي، رغم حدود التجزئة وقوانين الانظمة. لهذا ازدادت حركة التفاعل داخل المجتمع العربي، ازدياداً كبيراً، ممثلة أولاً بحركة الهجرة الداخلية التي بلغت عام ١٩٧٥ (حسب تقديرات منظمة العمل الدولية مايقرب من ١٢٩٦ ألف شخص، وعام ١٩٧٧ (حسب تقدير صندوق النقد الدولي ١٣٥٠ ألف شخص، و٢١٢٦ الف شخص (حسب تقديرات مصادر عربية)[١٩]، وحركة رأس المال من خلال تحويلات العاملين، التي بلغت عام ١٩٧٤ للدول المستفيدة (وهي الاردن، تونس، الجزائر، سوريا، مصر، المغرب، اليمن الشمالي، اليمن الديمقراطي) ١٣٤٤ مليون دولار، و١٩٣١,٨ مليون دولار عام ١٩٧٥، و٣٠٥٩,٢ مليون دولار عام ١٩٧٦، و٣٥٦٩,٢ مليون دولار عام ١٩٧٧، و٤٧٥١,٨ مليون دولار عام ١٩٧٨[٢٠] وكذلك من خلال القروض والمساعدات حيث بلغت المساعدات والقروض الميسرة فقط ٤٧٣,٤ مليون دولار عام ٧٣ و٢٠٨٩,١ مليون دولار عام ٧٤، و٤٨٧٤,٩ مليون دولار عام ٧٥، و٤٦٥٤,٥ مليون دولار عام ٧٦، و٥٥٠٣,٧ مليون دولار عام ١٩٧٧[٢١]. وممثلة ثانياً: بحركة المواصلات، التي تزايدت تزايداً كبيراً في السنوات الاخيرة، حيث بلغت ١٢٠٤,١ ألف سيارة ركاب، و٤٨١,٣ ألف سيارة نقل تجارية عام ١٩٧١، و١٥١٠,٣ الف سيارة ركاب، و٦٢٠ الف سيارة نقل تجارية عام ١٩٧٣، و١٩٣٦,١ الف سيارة ركاب، أو ٧٩٥ الف سيارة نقل تجارية عام ١٩٧٥[٢٢] وهكذا بالنسبة لحركة السكك الحديدة، والطائرات والسفن، وممثلة ثالثاً: بحركة تنقل المواطنين للسياحة والتعرّف، أو العمل والاقامة. وممثلة رابعاً: بحركة انتقال الكتب والصحف، رغم قوانين المنع والرقابة القاسية، ومن يراقب فيض الكتب، واالصحف والمجلات التي تغزو الاسواق العربية، يرى أهمية الظاهرة.

والانظمة تتناقض مع جماهيرها، بسبب عمق الازمة الاقتصادية التي تعيشها الجماهير. فقد ازدادت

الهوّة بين الفئات الحاكمة وبقية الجماهير، حيث ازداد فقر الجماهير للحدّ الذي غدت مهيئة لانفجارات مستمرة. إن تعمق الهوة بين الجماهير والانظمة يعني أن الجماهير مرشحة لاتخاذ خط مناهض للفئات الحاكمة، ليس على الصعيد المطلبي فقط، وهو مايحدث كل يوم، ويؤدي الى انتفاضات شاملة، كما حدث في مصر عام ١٩٧٧، وتونس عام ١٩٧٨، و ١٩٨٤، والمغرب عام ١٩٨١ و ١٩٨٤، والسودان عام ١٩٨٣، و ١٩٨٥، بل وعلى الصعيد السياسي الشامل، وبضمنه الخط القطري.

وكذلك فان الخط الطائفي يسير في طريق مسدود، لان تحوّل المجتمع العربي من مجتمع فلاحي مغلق الى مجتمع رأسمالي تابع، وتحلل البنى المغلقة كلها يضعف الايديولوجية التي توجدها هذه البنى، أي يضعف التعلق بالدين، ثم أن دعم الامبريالية الاميركية والكيان الصهيوني، والانظمة الرجعية العربية للخط الطائفي، سوف يقنع الجماهير أنه خط مناهض لمصالحها وأهدافها. وكذلك فان مآسي الحروب الطائفية سوف تدفع الجماهير الى نبذ التعصب الديني، وربما نبذ كل دين.

ولهذا فان كل تجاوز للانغلاق الفلاحي، والاندماج بالرأسمالية العالمية، وهو الخط الذي تفرضه الرأسمالية العالمية ذاتها، وكل الازمات التي يوجدها هذا الاندماج يقود الى تزايد الشعور القومي، وبلورة أرضية تجاوز كل مكنونات التجزئة القائمة، بما فيها الدول، بل أيضا على الصعيد الاقتصادي، فهي للطبقة المستغلة (بكسر الغين) - الحاكمة.

إن الصراع بين الخط التفتيتي التقسيمي القطري، والخط القومي والوحدوي العربي، يتخذ اليوم وضعاً معقداً، ويزداد احتداماً رغم غياب الاشكال السياسية المعبرة عن الخط القومي (البرامج والاحزاب)، ورغم قوّة الهجوم المعادي الذي يتخذ من التفتيت و التقسيم هدفاً رئيسياً له. ولكن عوامل عدّة تدفع باتجاه تعمق الخط القومي وتحوّله الى خط جماهيري جارف. أهم هذه العوامل ثلاث، الاول: الكيان العربي، أي الامة. والثاني: الصراع مع الخارج. والثالث: حركة التفاعل الداخلية.

إن الامة العربية من الامم القديمة[٢٣]، شهدت عصور ازدهار عديدة، وعرفت قيام دولة مركزية على أرضها، لكنها تفتتت بعد ذلك، ثم «اتحدت» في ظل السيطرة العثمانية. هذه الحقيقة تقودنا الى التأكيد أن الامة كظاهرة، التي تنشأ بفعل التطور الطبقي ذاته لاتني تؤثر فيه. وبالتالي فإن «ماكان يعتبر نتيجة (معلولاً) في البداية، يغدو بدوره هو السبب (العلة)[٢٤]، وتترجم الامة عملياً بالشعور القومي، لدى المجموعة البشرية التي تكوّن الامة. هذا الشعور الذي رافق نمو البرجوازية في أوروبا الغربية، ودفعها الى توحيد السوق القومي، وهو الشعور الذي ارتبط بسعي الجماهير الفلاحية لاسقاط الاقطاع.[٢٥]

والشعور القومي العربي اليوم يتخذ مسارب عملية محددة. منها حركة التفاعل الثقافي، ومنها أيضاً حركة انتقال العمالة، وهي القضايا التي تحدثنا عنها سابقاً. واذا كان يمكن أن يجري التفاعل أو يتم انتقال العمالة مع شعوب أخرى، إلا أن كل ذلك يبقى سطحياً، ولايلغي الثقافة القومية، أو ينهي أزمة الاكتظاظ السكاني، وغياب فرص العمل[٢٦]. وهو يتخذ أيضاً إطاراً سياسياً، يقوم على أساس التضامن القومي في مواجهة القوى الامبريالية والصهيونية، ومنها قضية فلسطين مثلاً وقضايا الاستقلال والتحرر. يؤكد سمير أمين أنه رغم «التنوع الهائل» في اقتصاد المنطقة العربية، «ومع ذلك نختار التحدث

عن (اقتصاد عربي) لسبب سياسي أولاً، نظراً الى أن الخيار لصالح الوحدة العربية، يشكل على الارجح ضرورة تاريخية وربما احتمالاً واقعياً خلال مستقبل متطور. وقد سبق لقوة أسسها التاريخية ان انتجت تأثيرات: جميع القوى السياسية العربية ملزمة بتحديد نفسها بالنسبة لهذا الخيار، والتيارات الوحدوية تخترق مجمل المنطقة»(٢٧) وهذا ما اعترف به وليم . ر. براون حين أكد «ان المشاعر القومية القوية ماتزال تفعل فعلها ماوراء الكواليس»(٢٨)، وقوّة المشاعر هذه هي التي جعلت الولايات المتحدة، تصرّ على تكريس الدول، وتسعير الصراعات الطائفية. إنها تعمل على إيجاد القوى القادرة على مواجهة «نظام الشرق الاوسط القديم، المسمى الامة العربية»(٢٩). وهذا يؤكد أن هناك قوّة، هي الفكرة القومية، القضية القومية، التي تتوضح من خلال الشعور القومي.

ولهذا يتصاعد الصراع مع الامبريالية العالمية، وعلى رأسها الامبريالية الاميركية. ومع الكيان الصهيوني، وعملائها وأدواتها، وهذا هو العامل الثاني الذي يسهم في تعميق الخط القومي العربي.

إن السيطرة الاجنبية تؤجج الشعور الوطني، شعور الدفاع عن الوطن في مواجهة قوى الغزو والاحتلال، قوى السيطرة والنهب، لذلك تهبّ الشعوب للدفاع عن كيانها، وعن وجودها ومصالحها. وهذا الذي دفع بعض المثقفين الى ربط نشوء الحركة القومية «بالسيطرة الاستعمارية» واعتبرها سبب وجودها أصلاً. خصوصاً أن نشوء الحركة القومية جاء مترافقاً مع بدء الهجوم الاستعماري على الوطن العربي، ولقد «جاء النشاط المعادي للامبريالية الفرنسية ولاسرائيل ليحرك ويعبىء الشعور القومي العربي الى أقصى حد»(٣٠).

لقد قاد النهوض الوطني الى تحقيق استقلال العديد من الدول العربية ورحيل الاستعمار الاوروبي، ثم جاء الخطر الصهيوني وقيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨، ليبلور حركة قومية استطاعت اسقاط الانظمة الرجعية في اكثر من ست دول عربية. واليوم يتزايد الخطر الامبريالي الصهيوني. فالولايات المتحدة التي تحاول جاهدة أن لاتظهر كقوة مستعمِرة ومسيطِرة كي لاتستثير الشعور القومي تزيد من دور الفئات المرتبطة بها، وتظهرها كقوى مستقلة، لكن رغم ذلك هناك عدد من الظواهر التي تبرز الولايات المتحدة كقوة سيطرة واحتلال. أولها علاقات النهب الاقتصادي التي تقيمها مع الوطن العربي، والتي تؤدي الى تسرّب جزء هام من الدخل القومي الى المركز الامبريالي(٣١). إن ثلث الدخل القومي تقريباً يذهب للمركز الامبريالي، مما يزيد حدة الازمة الاقتصادية ويزيد من فقر الفقراء. وثانيها: دعم الكيان الصهيوني، ومدّه بكل أنواع الاسلحة التي تجعله قادراً على الاحتلال والتوسع وتهديد الكيان العربي. وثالثها: التواجد العسكري المباشر، ومن خلال القواعد العسكرية في عدد من الدول العربية منها السعودية، عمان، السودان، الصومال، مصر،.. الخ (هذا عدا القواعد البريطانية)(٣٢). كذلك من خلال اتفاقات والتسهيلات العسكرية» المبرمة مع دول عربية عدّة، التي تسمح بالتواجد العسكري في الوقت الذي تريده الولايات المتحدة، والذي «تستدعيه الضرورة» ثم من خلال القوات متعددة الجنسيات. ولهذا بتنا نشاهد قوات اميركية وفرنسية وبريطانية في بقاع عربية عدة، مثل لبنان، مصر السعودية، مراكش، عمان وأخيراً في البحر الاحمر.

والمرجح أن يزداد التدخل الامبريالي في الوطن العربي، بسبب ازدياد حدّة الصراعات فيه، وتزايد الاخطار المحدقة بمنابع النفط «المجال الحيوي» للولايات المتحدة.

أما، الكيان الصهيوني، فإنه لم يحقق مخططه بعد، وهو يسعى لاحتلال أراضي جديدة، لان مخططه يقوم على أساس «اغتصاب المنطقة التي تحدها قناة السويس ونهر الليطاني والخليج الفارسي»(٣٣) التي تشمل منطقة غزة، شبه جزيرة سيناء، غربي الاردن (المثلث) تلال الخليل وشرقي الاردن بما في ذلك المناطق الصحراوية (ان الاستيلاء على هذه المناطق سيمكن اسرائيل من اقامة حدودها مع العراق و العربيةالسعودية، الجولان، حرمون والليطاني.(٣٤). واذا كان احتل بعض هذه المناطق في السنوات الماضية، وخلال حربي **١٩٦٧ و ١٩٨٢**، فانه يتهيأ لعملية احتلال جديد، رغم أحاديث «السلام» والمشاريع المختلفة، التي يستخدمها الكيان الصهيوني مدخلاً للتوسع والاحتلال، وتسهم في اضعاف العرب، وابتعادهم عن تهيئة القوى العسكرية القادرة على المواجهة. هذا يمكن التأكيد أن أحاديث التسوية هي تكتيك يستخدمه القادة الصهاينة في حربهم مع العرب.

واذا كانت الحرب مع الكيان الصهيوني قد شملت مناطق محددة من الوطن العربي في السابق، فهي مرشحة في المرحلة القادمة لكي تتسع لتشمل مناطق واسعة.

أما العامل الثالث المؤثر في تعمق الخط القومي العربي، فهو حركة المجتمع الداخلية، التي تحدثنا عنها في فقرات سابقة، «وهناك مقولة واحدة، تلخص قوى الدفع المجتمعية الرئيسية التي تستند اليها، هذه الصورة وغيرها من الافرازات الاجتماعية الثقافية الجديدية في الحياة العربية، وهذه المقولة هي: تدفق القوى العاملة والاموال عبر الحدود العربية، القطرية بسبب النفط»(٣٥). إن كل التطورات التي شهدها الوطن العربي على الصعيد الاقتصادي تحديداً، زادت من اندماج المجتمع العربي، «على ان النظام الاجتماعي العربي الجديد، الذي نقصد الى تحليله هنا لايزال في حالة متواصلة من السيولة والتدفق من هنا، فلا ينبغي ان تفيد كلمة «نظام» معنى «التنظم» أو «التطابق»، أو «التناغم» أو «الانسجام»، ذلك لان الدلائل المبكرة، تشير الى مايعتور النظام الاجتماعي العربي الجديد من توتر ملحوظ وصراع لاشبهة فيه، وضروب من التخبط لاتخطئه العين. مع هذا كله فهو «نظام» بمعنى أن عناصره مترابط بعضها ببعض، كما أن بعضها يؤثر على بعض، قد يكون الترابط في هذا النظام الجديد بفعل الخوف أو الثقة، الحب أو الكراهية، وقد تتداخل فيه عوامل التوحيد القومية مع عوامل التشتيت والتجزئة الثقافية القطرية، وقد ينطوي على مزيج من هذه العناصر جميعاً. ولكنه نظام متماسك بفضل حركته الداخلية المتواصلة، حتى ولو بدا للناظرين اليه من خارجه، وقد افتقر الى التحرك الصاعد الى الامام»(٣٦).

وكل هذه العوامل تبدو أكثر رسوخاً من كل ماتحاول الامبريالية الاميركية والكيان الصهيوني ترسيخه. لانه يتعلق في أساس بنية المجتمع، ولهذا سوف تبقى الدولة مجرد نتوء هامشي، أوجده ودعمه ودافع عنه الاستعمار بكل قوّته. واذا كان الانهيار الكبير الذي يشهده الوطن العربي في اللحظة الحاضرة، قد انعش روح التفاؤل لدى مخططي السياسات الامبريالية، ودفع فئات اجتماعية من المثقفين الى محاولة التكيف مع التجزئة واعتبارها «قدر سرمدي»، وبالتالي محاولة قبولها كأمر، واذا كانت الحركة القومية قد

انقسمت الى احزاب قطرية، وبالتالي اتسعت القوى القطرية، وغابت القوى المدافعة عن القضية القومية والساعية لتحقيق الاستقلال الشامل، والوحدة القومية، فان «الامة العربية» لاتسير نحو حتفها، بل يتعزز وجودها واقعياً. إن الواقعية تسمح بالقول أن هدف الوحدة العربية سوف يبقى الهدف البارز في كل تمخض ثوري، وان الشعور القومي، النابع ليس من «التاريخ» وحده، ومن البنية الثقافية القومية التي تكوّنت فيه، بل أيضاً من الحاجة الواقعية التي تعيشها الجماهير، حاجتها في التقدم، ان هذا الشعور لا بد ان يبقى يفرز عناصر عمل ثوري عربي، حركة قومية عربية، كما افرز الحركة القومية بعد الحرب العالمية الثانية.

لكن اذا كنا نتحدث عن «عفوية» الواقع، وبالتالي عن حتميته فمن الضروري البحث في البناء الفوقي الموازي، ونقصد العامل الارادي المتبلور في الوعي والتنظيم، وهذا موضوع آخر.

●عدا وسط الجزيرة العربية

١ ـ د. اميل توما «ستون عاماً على الحركة التقدمية العربية الفلسطينية» دار ابن رشد ودائرة الثقافة والاعلام م. ت. ف. ط٢ اكتوبر ٧٨ (ص١٨).

٢ ـ ناجي علوش «عودة الى موضوعات الثورة العربية» دار الكاتب ـ بيروت ط١ (١٩٧٨) (ص١٧٠).

٣ ـ د. اميل توما، نفس المصدر (ص١٨).

٤ ـ أمين سعيد «الثورة العربية الكبرى» ج٢ القاهرة ١٩٣٤ (ص٣٥).

٥ ـ وليم. ر. براون «الامة العربية التي تموت» مجلة «فورن بوليسي» العدد ٥٤. ربيع ١٩٨٤. (ترجمة خاصة).

٦ ـ نفس المصدر

٧ ـ المصدر السابق.

٨ ـ المصدر السابق.

٩ ـ نفس المصدر.

١٠ ـ نفس المصدر.

١١ ـ نفس المصدر.

١٢ ـ «السياسة الاميركية والعرب» مجموعة ابحاث، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت النص مأخوذ من مقال د. سمير بطرس «السياسة الخارجية للولايات المتحدة في الشرق الاوسط: افكار حول طبيعتها الامبريالية» الصفحات (١٨٩ الى ٢٠٣).

١٣ ـ زبينغنيون بريجنسكي «بين عصرين: امريكا والعصر التكنتروني، دار الطليعة ـ بيروت ط١ تموز ١٩٨٠. ولسوف يفرد لهذا الموضوع دراسة خاصة.

١٤ ـ د. سمير بطرس، المصدر السابق (ص١٩٨؛.

١٥ ـ وليم. ر. براون المصدر السابق.

١٦ ـ في هذا المجال يمكن مراجعة كتاب كارنجا «خنجر اسرائيل» اصدار دار دمشق ط١ بدون تاريخ، وكذلك «خنجر اسرائيل والمستقبل» دار المسيرة ـ بيروت ط١، ١٩٨٠

١٨ ـ في هذا المجال يمكن مراجعة اوديد بينون «استراتيجية لاسرائيل في الثمانينات من هذا القرن العشرين» المنشور في صحيفة «كيفونيم» أي «اتجاهات». عدد ١٤ شباط ١٩٨٢، ونشر ملخصاً عنه في مجلة «لاسبوع العربي» تاريخ ١٤/ ٣/ ٨٣، وكاملة في مجلة «الثقافة العالمية» الكويت العدد ٧ سنة، مجلد تاريخ ١١/ ١٩٨٢

١٩ ـ الارقام نقلاً عن د. سعد الدين ابراهيم «النظام الاجتماعي العربي الجديد. دراسة عن الاثار الاجتماعية للثروة النفطية» اصدار مركز دارسات الوحدة العربية ط١، ١٩٨٢ (ص٦٧)

٢٠ ـ د. سعد الدين ابراهيم، نفس المصدر ص١١٨

٢١ ـ د. محمود عبد الفضيل «النفط والوحدة العربية» مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٧٩ (ص٩٦).

٢٢ ـ «المستقبل العربي» يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية العدد ٢٤، ٢/ ١٩٨١ (الملحق الاحصائي) (ص١٧٩).

٢٣ ـ ناجي علوش «حوار حول الامة والقومية والوحدة» دار الطليعة ـ بيروت ط١، ١٩٨١ (ص١٠).

٢٤ ـ بليجانوف، مصدر سابق (ص٥٠)

٢٥ ـ من الضروري التأكيد هنا ان حركة البرجوازية، اتخذت مجرى المناطق التي تتكلم لغة واحدة اولاً، وهذا يعني أن الشعور القومي اتخذ صيغته العملية في المسار الاجتماعي.

٢٦ ـ هذه هي تجربة هجرة العمالة من المغرب العربي الى فرنسا مثلاً، والتي قادت الى تحوّل الهجرة الى البلدان العربية (ليبيا والعراق تحديداً) بسبب القيود التي تفرضها الحكومة الفرنسية للحفاظ على عمالتها، وبسبب ضخامة الهجرة ذاتها.

٢٧ ـ د. سمير امين «الاقتصاد العربي المعاصر» دار الروّاد، بيروت ط١، ١٩٨٢، ترجمة ناديا الحاج (ص٨).

٢٨ ـ وليم. ر. براون، المصدر السبق.

٢٩ ـ وليم براون، نفس المصدر

٣٠ ـ «الامة، المسألة القومية، الوحدة العربية والماركسية» مكسيم رودنسون، الياس مرقص، إميل توما، اصدار دار الحقيقة ـ بيروت ط١، ١٩٧١، والنص مأخوذ من مقال مكسيم رودنسون «الماركسية والقومية العربية» المنشور في الصفحات ١٠٧ ـ ١٢١، (ص١١٨).

١ظ ـ لتوضيح ذلك يمكن مراجعة «امريكا والعرب: علاقات نهب اقتصادي» سلامة كيلة المنشور في صحيفة «الوطن» الكويتية تاريخ ١٧/ ٦/ ١٩٨٤.

٢ظ ـ يمكن مراجعة «الوجود العسكري الاجنبي في الجزيرة والخليج» الجبهة الشعبية في البحرين.

٣٣ ـ ر. ك. كارانجيا، المصدر السابق (ص٦١) (طبعة دار دمشق).

٣٤ ـ ر. ك. كارانجيا، نفس المصدر (ص٥٧).

٣٥ ـ د. سعد الدين ابراهيم، المصدر السابق (ص٢٨).

٣٦ ـ نفس المصدر (ص١٧) وهنا يختلف د. سعد الدين ابراهيم مع سمير أمين في سبب الحديث عن نظام عربي، لان سمير أمين يعطي الاهمية الاولى للسياحة. أما د. ابراهيم فينطلق من الاقتصاد.

البيروسترويكا ونحن وأفغانستان

نزيه أبو نضال*

هذا المقال حول «البيروسترويكا ونحن وافغانستان» قد يثير العديد من التساؤلات والاعتراضات او الاضافات لدى العديد من الاطراف، ولهذا فنحن نفتح باب الحوار الحر والديمقراطي لمختلف وجهات النظر، لأن هذا في النهاية هو المحك الحقيقي للديمقراطية التي نستطيع من خلالها فقط الوصول الى الصواب.

فالبيرستيرويكا (اعادة البناء) والغلاسنست (النقد العلني) لاتنهضان بدون ديمقراطية حقيقية.

حين شرعت بالكتابة عن المتغيرات الهامة التي يشهدها الاتحاد السوفياتي تحت عناوين: البيريسترويكا (اعادة البناء) الغلاسنست (العلنية) والديمقراطية فكرت للحظات:

أليست الكتابة الآن عن هذه الموضوعات، هي بمعنى ما ضد مفهوم البيريسترويكا نفسه؟

إن الغالبية الساحقة من كتابات الشيوعيين والماركسيين والتقدميين العرب حول «الغرباتشوفية» و«البيروسترويكية» في هذه الأيام، هي نوع من إعادة التصفيق العربي المألوف لكل ما يصدر عن الاتحاد السوفياتي من مواقف وممارسات، فقد صفقنا لستالين، كما صفقنا لاعداء الستالينية من خروتشوف الى غرباتشوف، مروراً بريجنيف وبوجورين واندربوف. وبذات الحماس المألوف صفقنا لمقولة «التطور اللا رأسمالي» السوفياتية، كما صفقنا لاعلان فشلها. وقس على ذلك دخول افغانستان، ثم الخروج منها، ونقد الكفاح المسلح الفلسطيني في البداية باعتباره مغامرة ثم دعمه بعد ذلك. كما صفقنا للموقف الماركسي

* كاتب وناقد من الاردن له عدة كتب ودراسات.

اللينيني السوفياتي الصائب ضد الصهيونية، ووجدنا الاعذار لسرعة الاعتراف بالكيان الصهيوني عام ٤٨، ثم سحبه بعد عام ٦٧.. الخ.

من هنا فقد ترددت بالكتابة حول البيروسترويكا، حتى لاتأخذ هذه الكتابة شكل التصفيق المألوف، في الوقت الذي تنهض فيه العملية الجارية الآن في الاتحاد السوفياتي، على نسف منظومة المسلمات والاستسلامات التي جمدت روح الابداع والتغيير لسنوات طويلة في العديد من المجالات، سواء داخل الاتحاد السوفياتي، أم في الحركة الشيوعية العالمية.

إن الكتابة من زاوية واحدة، وباتجاه واحد، هي في معظم الاحوال كتابة دوغمائية ومضللة، ولاتحقق شيئاً في الحساب النهائي، ووحدها الكتابة النقدية الخلاقة، يمكنها أن تضيف اسهاماً أو تحدث تغيراً في الواقع.

إن حركة النقد الهائلة التي يمارسها ملايين السوفيات الآن، ضد جميع انواع السلبيات، تؤكد حقيقة أساسية، وهي أن هذه السلبيات، سواء في مجالات الاقتصاد أو التكنولوجيا او الادارة، أم في مجالات الثقافة أو السياسة أو الاجتماع، ماكان لها أن تتراكم، لولا الغياب الملحوظ للديمقراطية والنقد العلمي، طوال المرحلة الماضية. ومايصح بالنسبة للاتحاد السوفياتي، يصح بصورة أكبر على حياتنا العربية أنظمة ومنظمات وأحزاباً.

ولعل هذا ماحفزني في النهاية على الكتابة عن البيروسترويكا عربياً.

■■

يقول لينين «إن الحزب الشيوعي هو تنظيم شبه عسكري في حالة السلم، وتنظيم عسكري في حالة الحرب». غير أن هذا الفهم اللينيني للحزب، ولمدى انضباطيته، ولحركته باعتباره قبضة واحدة، ماكان ليعنى للحظة واحدة المساس بالحياة الديمقراطية الداخلية للحزب، أو الحد من المبادرات الحرة لأعضائه. ولعل أبرز دليل على ذلك العدد الكبير من المؤتمرات والكونفرنسات التي عقدت في ظل قيادة لينين قصيرة الأمد للثورة وللدولة. غير أن العلاقة الجدلية بين المركزية والديمقراطية، لم تلبث أن اختلت في المرحلة الستالينية اللاحقة، وجاءت سنوات الحرب الكونية في الاتحاد السوفياتي (١٩٤١ - ١٩٤٥)، وسنوات اعادة البناء التي اعقبتها لتفاقم هذا الخلل بصورة خطيرة لمصلحة المركزية على حساب الديمقراطية، على مستوى الحزب وعلى البلاد.

وتشاء الصدف أن يأتي توقيت طرح البيرسترويكا، وأنا مستغرق في قراءات متنوعة عن مرحلة الحرب الثانية في الاتحاد السوفياتي، سواء على شكل روايات أم مذكرات وكتابات عسكرية.

«كعب اخيل»

لقد تحولت بلاد السوفيات خلال سنوات الحرب الى آلة عسكرية هائلة لمواجهة الجحافل النازية المرعبة التي كانت تدق أبواب موسكو ولبينغراد وستالينغراد، وكان ستالين خلال هذه السنوات هو السيد المطلق في إدارة هذه الآلة العسكرية الهائلة. وجاء الانتصار العسكري العظيم الذي اوصل الجيوش

السوفياتية الى قلب المعقل النازي في برلين، ليضيف هالات المجد على ستالين ودوره المتفرد كقائد استثنائي.

غير ان الانتصار العسكري، لايلغي بالطبع الكارثة العظمى التي الحقتها الحرب بالبلاد، فهناك آلاف المدن والقرى المدمرة والمحروقة، وهناك الاقتصاد الوطني الذي اهلكته الحرب، وفرضت عليه التحول الى اقتصاد حربي، هذا بالاضافة الى الخسارة البشرية الفادحة، بفقدان ٢٠ مليون سوفياتي، الى جانب مئات الالوف من الجرحى ومشوهي الحرب.

وكان معنى ذلك كله ان الاتحاد السوفياتي بحاجة الى حرب جديدة من نوع آخر لانقاذ البلاد، واعادة بناء الاقتصاد الوطني، وليس هذا فحسب، بل كان مطلوباً ايضاً ان تتحقق معدلات تنمية استثنائية، وفي كل الميادين، ليصل الى مصاف الدول الرأسمالية الكبرى التي لازال خطرها قائماً للاطاحة بثورة اكتوبر الاشتراكية بكل ماتمثله.

ومرة ثانية تولى ستالين انجاز هذه المهمات الجبارة، فتكلل بهالات مجد جديدة، رفعته فوق مستوى النقد والسؤال، وباتت ارادته كفرد هي المقررة في جميع شؤون البلاد، وفي مقدمتها الحزب الشيوعي السوفياتي نفسه.

إن غياب شكل الديمقراطية البرجوازية الغربية المعروف، يستعاض عنه في ظل ديكتاتورية البروليتاريا، بديمقراطية حقيقية من نوع آخر داخل الدول الاشتراكية؛ وذلك من خلال توفير الاساس المادي للاحتياجات الانسانية (حق العمل والتعلم والعلاج. .) الخ، وكذلك من خلال الحياة الديمقراطية داخل الحزب الشيوعي والسوفيتيات العمالية والفلاحية.

غير ان المرحلة الستالينية في ظل عسكرة البلاد، خلال سنوات الحرب وما بعدها قد شهدت الى حد بعيد توفير الاساس المادي للديمقراطية، إلّا انها شهدت في نفس الوقت، والى حد بعيد أيضاً تجاوزاً خطيراً للحياة الديمقراطية داخل الحزب والبلاد، فقد كانت السيادة آنذاك «لعبادة الفرد». .

هذه الوضعية كان لها مايفسرها ويبررها ولاتقول بحتمها، وذلك بفعل الانتصارات والانجازات التاريخية التي حققتها القيادة الستالينية، في مرحلتي الحرب واعادة البناء. إلا ان هذه الوضعية شكلت المدخل لتراكم السلبيات الخطيرة في مختلف المجالات، والتي لايزال يعاني منها الاتحاد السوفياتي حتى الآن، مما اضطره الى عملية البيروستريكا الجارية الآن، والى اطلاق حركة النقد العلنية في ظل الديمقراطية الجديدة.

■■

مفاصل اساسية

لانريد هنا أن نستفيض في تحليل البيرسترويكا في الاتحاد السوفياتي، لأن هدفنا المحدد، هو رؤية هذه العملية من منظور عربي، وبما يتصل بأوضاعنا الخاصة، في ظل هذه المتغيرات السوفياتية التي ستنعكس على العالم كله.

إلا اننا خدمة للبحث، نرى من المفيد تسجيل النقاط التالية:

أولاً: إن عملية البيروسترويكا قد جاءت رداً على جملة السلبيات التي نشأت في ظل أوضاع استثنائية معقدة، خلال مرحلة الحرب، وعسكرة البلاد (المرحلة الستالينية)، والتي استمرت بعد ذلك في العديد من المجالات (الاقتصاد، الادارة، الحريات الديمقراطية)، رغم الموقف النقدي المعلن الذي ابتدأه نيكتيا خروشوف من الزعامة الستالينية.

ثانياً: ان البيرسترويكا التي يطلق عليها الزعيم السوفياتي غرباتشوف تسميه الثورة، لم تلد نتيجة قرار أو رغبة فرد، ولكنها جاءت نتاج تراكم طويل وضخم من النقد والاحتجاجات في اوساط واسعة داخل الحزب والطبقة العاملة، وفي صفوف المثقفين السوفيات. ولأن البيروسترويكا، كما يقول غرباتشوف، لم تنشأ نتيجة لرغبة أو قرار فرد، فإن أحداً لن يستطيع ايقافها بقرار، وبأنها ستتواصل حتى تصل الى اهدافها المحددة.

ثالثاً: لقد نشأ خلال السنوات السابقة نوع من الخلل أو الانفصال بين طابع الملكية العامة لوسائل الانتاج، وبين التعبيرات التشريعية والحقوقية والديمقراطية. . الخ التي تتمتع بها الطبقات الجديدة المالكة (العمال والفلاحين) وكان لابد من ردم هذه الهوة بين الجانبين (الطابع العام للملكية والطابع الخاص للسلطة)، لايجاد نوع من التطابق والتوازن بين البناء التحتي وبين البناء الفوقي للمجتمع، أي بين الاساس المادي للمجتمع، وبين الحقوقي والأخلاقي والروحي لهذا المجتمع.

ومعنى ذلك ان البيرسترويكا لاتستهدف الغاء علاقات الانتاج القائمة، ولكنها تستهدف بالدرجة الأولى القيام بثورة ثقافية لارساء هذه العلاقات على اسس صحيحة، بالقضاء على البيروقراطية والفساد الاداري، واصلاح مكامن الخلل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. . الخ. ولكي يتحقق ذلك لابد من اطلاق اوسع عملية نقد علنية في مختلف الميادين، وفي ظل تشريعات وقوانين جديدة لحماية الديمقراطية التي تشكل المدخل الحقيقي لاعادة بناء الانسان واطلاق قدراته ومبادرته، من أجل النهوض بعملية اعادة البناء، وضمان استمرارها ونجاحها.

ولقد لخص الشاعر السوفياتي يفتشنكو هذه الحقيقة الهامة حين رد على سؤال لاحد زملائه، حول النتائج المنتظرة من المؤتمر السابع والعشرين للحزب بقوله: ان هذه النتائج تكون ايجابية بقدر مانكون نحن المواطنين العاديين ايجابيين، وبالقدر الذي نكف فيه عن التحمل، أي تحمل السلبيات والاخطاء والنواقص.

إن البيروسترويكا هي ثورة شاملة يشارك فيها ملايين السوفيات وتشكل منعطفاً تاريخياً للانطلاق مجدداً على خطى ثورة اكتوبر العظمى ١٩١٧، ولاشك ان مسار هذه الثورة الجديدة ومصيرها سينعكس على العالم كله، ومن بينه الوطن العربي وخاصة الحركة الشيوعية العربية.

■■

في الحديث عن البيرسترويكا عربياً ارى مناسباً ومفيداً أن اروي لكم التجربة الشخصية التالية:

في عام ١٩٨٠، وبعد دخول قوات الاتحاد السوفياتي الى افغانستان، اقام الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين في لبنان ندوة سياسية حول هذا الموضوع، شاركت فيها الى جانب الشهيد ماجد أبو شرار والرفيق فواز طرابلسي، وقد تبنى الاثنان الموقف السوفياتي، ودعما بقوة دخول القوات السوفياتية الى افغانستان، فيما اتخذت انا موقفاً نقدياً، اثار نقاشاً حاراً وحاداً مع الجمهور المتحمس بغالبيته للموقف السوفياتي.

وقـد مهـدت لمداخلتي بالتأكيد على موقفي بأن الاتحاد السوفياتي هو الحليف الاستراتيجي للامة العربية، والداعم الاساسي لقضايانا وبأن موقفي النقدي من العملية السوفياتية في افغانستان، انما ينطلق اساساً من الحرص على الاتحاد السوفياتي وعلى الحركة الشيوعية العالمية، ومن الحرص على الكيفية التي تصل بها الاحزاب الشيوعية الى السلطة، وتحافظ عليها بقواها الذاتية، وليست بقوى الجنود السوفيات.

واضفت بأنني على ثقة بأن القرار السوفياتي بدخول افغانستان قد اثار جدلاً وخلافاً داخل القيادة السـوفياتية نفسهـا، نظراً لأهمية وخطورة العملية، ولهذا فليس غريباً ان تتباين آراؤنا ووجهات نظرنا، كتقدميين عرب، حول مثل هذا الموضوع.

وقلت في معـرض النقـاش: ان الاتحـاد السـوفياتي نفسـه قد يتراجع مستقبلاً عن هذه العملية وينتقدها، كما حدث تجاه العديد من المسائل، مثل تخليه عن مقولة «التطور اللارأسمالي». وهنا انتفض احـد الشيوعيين العـرب وصرخ قائلاً: يارفيق ان نظرية التطور اللارأسمالي هي نظرية النظر، والاتحاد السوفياتيي لم يتراجع عنها، وأراد أن يستفيض بحماسة للدفاع عن هذه المقولة، لولا أن أحد أركان السفارة السوفياتية في بيروت وكان يتقن اللغة العربية طلب فجأة الكلام، ليقول: ان الاتحاد السوفياتي فعلاً قد تراجع عن مقولة التطور اللارأسمالي، بعد ان اتضح عدم صحتها، وهنا رأينا الشيوعي العربي المتحمس، وكان لا يزال واقفاً، يصمت فجأة، ويقع على كرسيه، ولا اقول يجلس، دون ان يضيف حرفاً واحداً، فقد «قطعت جهيزة كل قول».

ولم تنته الحكاية عند هذا الحد، ففي صبيحة اليوم التالي غطت مختلف الصحف اللبنانية وقائع الندوة، كما حدثت تقريباً، باستثناء صحيفة «النداء» الناطقة باسم الحزب الشيوعي اللبناني التي نقلت وقائع الندوة على النحو التالي:

«وبعد أن أنهى نزيه أبو نضال مداخلته، قال ماجد ابو شرار». ثم أوردت النص الكامل لكلمته و كذلك فعلت بالنسبة لمداخلة فواز طرابلسي، متجاهلة بالكامل كل ماقلته، وكل النقاش الذي احتل الحيز الأساسي من الندوة.

وعلى الفور وجهت لصحيفة النداء رسالة مفتوحة قلت فيها بأنكم كصحيفة وكحزب في المعارضة، تطالبون بالديمقراطية وبحرية التعبير لكل القوى والاتجاهات، ولكي يكون لمطلبكم هذا مصداقيته امام

الجماهير، فإن عليكم ممارسة الديمقراطية، وانتم في المعارضة، فإذا كنتم الآن لاتحتملون نقداً موضوعياً من حليف لكم، فماذا سيكون مصير الديمقراطية والمعارضة إذا وصلتم الى السطة؟! وبالطبع لم تنشر «النداء» الرسالة، فقمت بنشرها بصحيفة «اللواء» حيث كنت اشرف على صفحة «قضايا ودراسات» فيها.

لقد اوردت هذه التجربة الشخصية، لانها ليست شخصية في جوهرها، بل تحمل مفاتيح العديد من أسباب أزمة الحركة الشيوعية العربية، وبالتالي أزمة حركة التحرر العربية. إن الخط الرسمي في الحركة الشيوعية العـربية ينـطلق في هذا السياق من مبرر شكلي يبدو مقنعاً للوهلة الأولى فيقولون «ان القوى الامبريالية والرجعية، توظف كل امكاناتها، ووسائلها للتهجم على الاتحاد السوفياتي، ونقد مواقفه، فهل تكون مهمتنا كشيوعيين ان نصب الماء في طاحونة اعداء الاتحاد السوفياتي». ويجيبون: «بالطبع لا بل علينا أن ندافع عنه، ونقف الى جانبه لمواجهة الحملات التي يتعرض لها».

في صلب هذا المنطق الشكلي، يكمن خلل كبير الحق أكبر الأذى بالحركة الشيوعية العربية، لانه قاد الاحزاب الشيوعية العربية بمعظمها الى تبني المواقف السياسية والنظرية السوفياتية برمتها، والى الدفاع عن الممارسات السوفياتية في جميع الحالات. فماذا كانت نتائج ذلك.

اولاً: إن بعض المواقف السوفياتية كانت تمس بصورة مباشرة عدداً من القضايا العربية، وتتصادم مع مواقف وقناعات الجماهير العربية (قضية فلسطين، الاعتراف «باسرائيل»، الكفاح المسلح، الهجرة اليهودية، الوحدة العربية ومقولة عدم وجود أمة عربية أو بأنها أمة في طور التكوين.. الخ).

وكان من نتيجة تبني الاحزاب الشيوعية العربية لهذه المواقف والسياسات، ان عزلت نفسها الى حد بعيد عن الاتجاه العام للحركة الجماهيرية العربية، ونستثني من ذلك الحزب الشيوعي السوداني، الذي تبنى في وقت مبكر شعاري الوحدة العربية وتحرير فلسطين، وحقق بذلك حضوراً شعبياً واسعاً قبل ان تنقض عليه النميرية.

ولابد هنا من تسجيل حقيقة هامة، وهي ان استقلالية الموقف الشيوعي السوداني، لم تؤد الى إحداث قطيعة أو خلاف مع موسكو، بل على العكس، فقد كان الحزب الشيوعي يحظى باحترام وتقدير بالغين في اوساط الحركة الشيوعية العالمية، وفي مقدمتها الحزب الشيوعي السوفياتي.

وفي المقـابل فإن موسكو ليست مطالبة بأن تدعو اولئك الذين يتبنون سياساتها بالمطلق إلى اتخاذ مواقف مغايرة.

ثانيا: وكان من نتيجة هذا الوضع أن حدثت خلافات عميقة داخل معظم الاحزاب الشيوعية العربية، حول العديد من المسائل الخلافية المرتبطة بالقضايا العربية، ووصلت الامور في حالات كثيرة إلى انشقاق هذه الاحزاب، كما حدث في سوريا والعراق ومصر والمغرب، وجزئياً في لبنان، وأخيراً في الاردن وفي الحزب الشيوعي الفلسطيني. ولا شك أن هذه الخلافات والانقسامات قد الحقت ضرراً كبيراً بهذه الاحزاب، وبمجمل حركة التحرر العربية.

ثالثـاً: لم تكن الخـلافـات السياسية داخل الاحزاب الشيوعية العربية تؤدي بالضرورة ودائماً الى الانقسـام، وكان بالامكان تجاوز هذا المصير، لو جرى الاحتكام ديمقراطياً للقواعد والكوادر الحزبية،

ولكن تغييب الحياة الديمقراطية الداخلية من جهة، واستقواء بعض اطراف الخلاف بموسكو باعتبار انها أكثر تطابقاً مع المواقف السوفياتية من جهة ثانية، ادى الى الانشقاق في العديد من الحالات.

رابعاً: ان الاتحاد السوفياتي وحزبه الشيوعي الكبير، يظل قادراً من خلال عملية الصراع الطويل والمعقد، على تصحيح العديد من المواقف والسياسات والممارسات، ودون ان يؤدي ذلك بالضرورة الى حدوث هزات عنيفة في داخله، بل على العكس، فإن ذلك مصدر قوة جديدة للحزب والدولة في معظم الاحوال. أما بالنسبة للاحزاب الشيوعية العربية الصغيرة، فإن هذه المتغيرات في المواقف السوفياتية، كانت تضع هذه الاحزاب في مآزق حقيقية، لاضطرارها الى تغيير مواقفها السابقة بصورة مفاجئة، وبدون تمهيدات مسبقة سواء في اوساط الحزب أو الجماهير. وبالطبع فإن من شأن تكرار ذلك اضعاف الثقة والمصداقية بمواقف هذه الاحزاب.

وفي تقديرنا ان الموقف الاستقلالي من موقع التحالف مع الاتحاد السوفياتي، هو وحده الكفيل بتجنيب الاحزاب الشيوعية العربية العديد من الهزات التي تعرضت أو تتعرض لها.

والاستقلالية هنا لاتعني بحال من الاحوال فتح النار على المواقف السوفياتية، في حال وجود تباينات في المواقف او الاجتهادات، ولكن الاستقلالية تعني بالضبط تأكيد التمايز تجاه مسائل الخلاف إذا حدثت، ولكن من موقع التحالف، أو وفق المفهوم اللينيني «النقد من خلال الوحدة» على الطريقة السودانية.

إن المتغيرات التي يشهدها الاتحاد السوفياتي هذه الأيام، والثورة الشاملة التي تستهدف كنس كل اشكال الجمود والتعفن والمسلمات الخاطئة تفتح أوسع الابواب امام الحركة الشيوعية العربية لتجاوز العديد من سلبياتها، ومن انماط تفكيرها القديم، لتصبح أكثر قدرة على استكمال دورها الثوري والنضالي في صفوف حركة التحررالعربية.

■■

البيرسترويكا والواقع العربي

شكل غياب الديمقراطية النسبي في الاتحاد السوفياتي «كعب أخيل» الذي عبرت منه كل الاخطاء والسلبيات التي انبثقت البيروسترويكا لتصحيحها وتجاوزها، وكان المدخل إلى ذلك بالديمقراطية، و«بالمزيد من الديمقراطية» كما يقول غورباتشوف.

مرحلة الحرب وعسكرة البلاد في السنوات التي اعقبتها أفرزت، كما قلنا، ظاهرة مزدوجة، تمثلت بالتغييب الجزئي للحياة الديمقراطية و«عبادة الفرد» غير انه الى جانب ذلك تحقق إنجاز تاريخي هائل بالانتصار على النازية، وبإعادة بناء الاقتصاد الوطني، حتى وصل الاتحاد السوفياتي ليكون واحداً من اعظم دول العالم اقتصادياً وعسكرياً وعلمياً.

فماذا تقدم لنا الوقائع العربية في مقابل هذا المشهد؟ سنتناول نموذجاً صغيراً واحداً، والنماذج كثيرة، في عام ١٩٦٧، أي في الحرب العربية الثانية، حارب النظام الاردني عدة ساعات في الضفة الغربية قدم خلالها حسب الاحصاءات الرسمية ٩٣ شهيداً، وعلى الفور اعلن الاحكام العرفية ونظام الطوارىء الذي

يعطل بموجبه الدستور والقوانين المدنية، كما تعطل الحياة الديمقراطية. ولايزال هذا الوضع الشاذ والاستثنائي قائماً حتى الآن، وبعد مرور ٢١ عاماً باسم الحرب مع «اسرائيل»، ودون ان يطلق رصاصة واحدة عليها، وكذلك دون ان ينهض بأي عملية بناء اقتصادي أو عسكري لمواجهة العدو. ولكننا نشهد فقط بناء الفيلات والاوتوسترادات والجسور المعلقة والخدمات السياحية، اما ماعدا ذلك، فإن الاردن يستورد كل شيء بلا استثناء تقريباً من «الابرة حتى الصاروخ».

أي أننا باختصار شديد وباسم الحرب فقدنا الديمقراطية ودون ان نحقق الى جانبها لا انتصاراً عسكرياً، ولا بناء اقتصاد وطني، وفوق كل ذلك، علينا ان نهتف ونصفق ونغني للسيد المطلق.

ومن لايجد ذريعة الحرب مع «اسرائيل» لكي يمارس القمع ضد الجماهير، نجده يفتعل اعداء مجاورين أو خارجيين يتآمرون على الوطن.. ألم تكن انتفاضات الخبز في مصر وتونس والمغرب، كما اعلن اعلام هذه الدول مجرد مؤامرات خارجية يقوم بها مندسون «حمر» أو «خضر» لتعكير صفو الأمن الوطني؟!

في مقابل هذه النماذج الشوهاء، نجد نموذجاً عربياً متميزاً يتمثل بالقيادة الناصرية.

لقد حقق جمال عبد الناصر انجازات متقدمة بالقضاء على الملكية والاقطاع، وبانتهاج سياسة التأميم للمصانع والشركات الكبرى، وفي مقدمتها قناة السويس، وقام بإجلاء المحتلين البريطانيين وخاض حرباً منتصرة على العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، ومضى بخطوات هائلة على طريق بناء اقتصاد وطني: كهربة البلاد (السد العالي)، وبناء صناعة ثقيلة، والشروع في صناعات حربية متقدمة، بعد كسر احتكار السلاح مع الغرب، كما خاض حرباً ناجحة ضد سياسة الاحلاف واسس الى جانب نهرو وتيتو حركة عدم الانحياز، واقام اول وحدة عربية في التاريخ الحديث.. الخ.. الخ..

غير أن هذه الانجازات الهامة، ترافقت مع تغييب الحياة الديمقراطية بجوانبها الاساسية: حرية التعبير وبناء الاحزاب بما في ذلك حزب ناصري حقيقي، يكون قادراً على حماية الانجازات التي تحققت. واعتمد بديلاً عن ذلك على الالتفاف الشعبي العفوي مع هياكل تنظيمية هشة كالاتحاد الاشتراكي العربي ومن قبله «الاتحاد القومي» و«هيئة التحرير». وكان من نتيجة ذلك أن تمكنت القوى الطبقية الطفيلية والبيروقراطية، متحالفة مع القوى اليمنية بقيادة انور السادات من الانقضاض على الانجازات الناصرية السياسية والاقتصادية فالحقت مصر بسياسة كامب ديفيد، وبالتبعية الاقتصادية للامبريالية الاميركية، وللسوق الرأسمالي الغربي.

إن مجموع هذه التجارب العربية تبرهن بجلاء بأن المدخل الحقيقي لأية عملية تغيير أو اعادة بناء، لابد أن تبدأ بالديمقراطية أولاً وعاشراً، إذا أُريد لها النجاح والاستمرار وهذا هو المغزى العميق لمفهوم البيروسترويكا عربياً.

الانتفاضة الفلسطينية: خصائصها.. قواها الاساسية

عبد الهادي النشاش*

درجت العادة لدى عدد من الكتاب والباحثين المهتمين بالشأن الفلسطيني الى اعتبار مطلع شهر كانون أول (ديسمبر) ١٩٨٧ موعدا يؤرخون به بدء اشتعال الانتفاضة الشعبية الفلسطينية، ولعلهم يستندون في ذلك الى مستوى الزخم النضالي الكبير الذي تميزت به فعاليات الانتفاضة في تلك الفترة، لكن هذا لايعني البتة أن فعاليات الانتفاضة الفلسطينية قد بدأت حصرا في هذا التاريخ، فالاكيد أنها جاءت كحصلة لتطورات هامة داخل الوطن المحتل، تفاعلت فيما بينها على مدى سنوات عدة وتمخضت عن الانفجار الثوري الكبير الذي نشهد فصوله تباعا.

ان أي متتبع لتطورات العملية النضالية داخل فلسطين المحتلة يدرك بجلاء ان الانتفاضة الراهنة قد جاءت لتمثل حلقة هامة ضمن سلسلة متصلة من النشاطات الثورية التي تعود الى سنوات عديدة خلت، بصرف النظر عن مستوى زخمها وشمولها، وتأسيسا فانه ليس من الدقة في شيء قطع الانتفاضة الشعبية عن السياق العام لكفاح الشعب الفلسطيني على مدى ربع قرن، أي منذ انطلاقة الثورة الفلسطينية المعاصرة، فقد اضطلعت فصائل العمل الوطني الفلسطيني بدور بالغ الاهمية في اعداد كوادر قيادية مناضلة، تمتلك الخبرة، وتحظى بثقة الجماهير الفلسطينية في مدنها وقراها ومخيماتها، فضلا عن أنها قد

---

* اعلامي وكاتب من فلسطين.

أشاعت على امتداد عمر الثورة مناخا ثوريا عاما جسد بحد ذاته خميرة نضالية ومرتكزا حقيقيا لحالة الانتفاض الثوري، ولايقلل من شأن هذه الحقيقة الجوهرية أن عددا لابأس به من كوادر الثورة ومناضليها في الوطن المحتل قد أنهوا صلاتهم التنظيمية القديمة، واختاروا مواصلة النضال ضمن فصائل أخرى موجودة أو مستحدثة.

ورغم أن الازمة الحادة التي عصفت بالثورة الفلسطينية بعيد الغزو الصهيوني للبنان عام (١٩٨٢)، وماترتب عليها من نتائج خطيرة قد ألقت بظلالها على مجمل الاوضاع داخل الوطن المحتل، وبالتالي انعكست سلبا على تطور النضال الوطني ضد الاحتلال الصهيوني الا ان عمليات المقاومة لم تتوقف، بل أنها سجلت في الاعوام الثلاثة الماضية تطورا ملحوظا، خاصة في ظل سياسة «القبضة الحديدية» التي مارسها العدو الصهيوني وحاول من خلالها اخماد جذوة الكفاح الوطني الفلسطيني، بعد أن أعتقد واهما أن الضربات التي تعرضت لها الثورة الفلسطينية في لبنان ستؤدي الى حالة عامة من اليأس والاحباط والاستسلام لمشاريعه العدوانية.

لقد أظهرت التقارير الواردة من فلسطين المحتلة، كذلك الاحصاءات (الاسرائيلية) الرسمية ارتفاعا ملحوظا في عدد العمليات العسكرية، حيث وصل معدلها الى أكثر من عملية في اليوم الواحد، «ففي شهر تموز (١٩٨٦) سجلت الدوائر (الاسرائيلية) المعنية ارتفاعا في ماوصفته «بأعمال التخريب» من ١/٤/١٩٨٥ إلى ١/٤/١٩٨٦ من ٣٧٤ عملية إلى ٥٦٩ عملية أي بزيادة قدرها حوالي ٥٢٪ خلال العام، كما اشارت الاحصاءات الاسرائيلية ظاهرة جديدة نسبياً تتمثل في قتل الجنود (الاسرائيليين) الذين يتجولون بمفردهم، حيث ارتفعت محاولات قتلهم من حادثة واحدة فقط عامي ١٩٨٤/١٩٨٥ إلى ثلاثة وعشرين حادثة في عامي١٩٨٥/١٩٨٦»[1].

وفي أخطر عملية عسكرية من نوعها نفذ المناضلون الفلسطينيون في القدس في الخامس عشر من تشرين الاول (١٩٨٦) هجوما بالقنابل اليدوية على حشد من جنود العدو قرب حائط المبكى أسفر عن سقوط نحو ٨٠ (اسرائيليا) بين قتيل وجريح، الامر الذي دفع (تيدي كوليك) الى القول: «انها كارثة. انه أمر مروع فقد نعمنا بفترة هدوء طويلة في القدس، ولكن ذلك لم يكن ليدوم»[2].

من ناحية أخرى، فقد جرت محاولات عديدة لتنفيذ عمليات فدائية ضد أهداف عسكرية صهيونية من مواقع الثورة الفلسطينية في لبنان ومع أنها لم ترتق في عددها ونوعها الى ماكان عليه الوضع قبل عام ١٩٨٢، الا أن عملية قبية الشراعية التي نفذها مقاتلو الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ أواخر عام (١٩٨٧) قد مثلت في الواقع محطة نوعية هامة على طريق اثبات أهلية وجدارة الكفاح المسلح كأسلوب حاسم ومجد في مواجهة العدو، فبالاضافة الى انها أشارت الى مستوى عال من الجاهزية القتالية: تخطيطا وتنفيذا، فقد أشاعت نهوضا وطنيا عارما في أوساط الشعب الفلسطيني داخل الوطن المحتل، وأسهمت في تعزيز ثقة الجماهير الفلسطينية بمنظماتها الوطنية، الامر الذي انعكس ايجابياً على تطور الانتفاضة لاحقا.

وما لاشك فيه أن عمليات مقاومة الاحتلال الصهيوني خلال السنوات الثلاثة الماضية لم تنحصر في النشاطات العسكرية فحسب، وانما ترافقت أيضا مع فعاليات جماهيرية واسعة شملت العديد من

التجمعات الفلسطينية وشاركت فيها مختلف فئات الشعب الفلسطيني..

ان التأكيد على صلة الانتفاضة الفلسطينية وارتباطها التاريخي بالسياق العام لكفاح الشعب الفلسطيني أمر على جانب كبير من الاهمية، كان لابد من توضيحه كمقدمة ضرورية لمناقشة خصائص الانتفاضة الراهنة، ذلك لان ثمة من يحاول توصيف الانتفاضة على أنها حدث نوعي أملته ظروف موضوعية قد لاتتكرر، وبالتالي فان الحكمة تفرض «استثمارا» سريعا لها، الامر الذي ينطوي على تشكيك مفتعل في قدرة الانتفاضة على الاستمرار تحت حجج وذرائع شتى، بهدف تسويغ الخطوات الاستسلامية التي أقدمت عليها مؤخرا القيادة المنحرفة لمنظمة التحرير الفلسطينية.

لاريب ان لكل ثورة، أي ثورة، وأن لكل انتفاضة، أي انتفاضة قانوناً عاماً يحكم مسارها، ويحدد أهدافها الاستراتيجية، مهما اختلف الزمان او المكان، فالمعروف أن شرط الثورة او الانتفاضة هو وجود طرفين نقيضين، يرتفع مستوى احتدام الصراع بينهما كلما سعى أحدهما أو كلاهما لتحقيق أهدافه بوتائر أعلى، غير أن هذا لايتعارض - بطبيعة الحال - مع وجود سمات خاصة لثورة أو انتفاضة بعينها، تميزها على غيرها، وتطبعها بطابعها، وهذا مانحن بصدد معالجته هنا، في اجابة على سؤال محدد: بماذا تميزت الانتفاضة الفلسطينية؟ وماهي خصائصها؟

في الاطار العام، ان القانون الذي حكم ويحكم علاقة الجماهير الفلسطينية بالعدو الصهيوني هو العداء المطلق بينهما، الذي يستند الى قاعدة صراعية بصدد مسألتين رئيسيتين: الارض والهوية، العدو الصهيوني يرمي الى تهويد الارض وطمس الهوية، أما الشعب الفلسطيني فيسعى الى استعادة الارض والتمسك بالهوية الوطنية، وعليه فان الشرط العام لاشتعال الثورة أو الانتفاضة هو موضوعي، تاريخي ومستمر.

أما فيما يتصل بارتفاع مستوى احتدام الصراع فهو موضوع قد ارتبط منذ تأسيس الكيان الصهيوني، ويرتبط اليوم مثلما سيرتبط في المستقبل بدرجة نضج الشرط الذاتي عند أبناء الشعب الفلسطيني لمواصلة مهمة التحرير الوطني، أي الكفاح من أجل استعادة الارض وبناء الشخصية الوطنية عليها أسوة بشعوب الارض قاطبة.

واذا تتبعنا المراحل التي مر بها الكفاح الوطني الفلسطيني على مدى أربعين عاما لوجدنا أن جذوته لم تنطفىء اطلاقا، وانما خضعت - وهذا طبيعي - للظروف الموضوعية المحيطة بها من جهة، ولمستوى نضج الظرف الذاتي من جهة أخرى، وباستثناء الفترة الممتدة بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٥٧ والتي شهدت ركودا واضحا ازاء تطور الشخصية الوطنية الفلسطينية «بسبب اندثار دور وتأثير المؤسسات الفلسطينية التي جسدت هذا التطور في الفترة السابقة، وبسبب الصعود العام الذي شهدته الحركة القومية العربية وانخراط الشباب الفلسطيني في أطرها». (٣)

باستثناء هذه الفترة، فقد سجل تاريخ الكفاح الوطني للشعب الفلسطيني تطورات انطوت على أهمية بالغة في مواجهة العدو الصهيوني، في مقدمتها بروز العديد من المنظمات الوطنية الفلسطينية ودعوتها الصريحة الى ممارسة العنف الثوري من أجل تحرير فلسطين، ثم ممارسته فعلا في مطلع الستينات من هذا

القرن واستمراره حتى لحظتنا الراهنة، هذه اللحظة التي تشهد أعمق التطورات داخل الوطن المحتل (الانتفاضة الشعبية المجيدة).

جاء اشتعال الانتفاضة الفلسطينية في غمرة ظروف موضوعية بالغة التعقيد والصعوبة عربيا وفلسطينيا، فقد شهد الوضع العربي الرسمي جملة تراجعات خطيرة كما عاشت الثورة الفلسطينية أزمتها الحادة التي تفاقمت بمعدلات قياسية، كان أبرز مظاهرها حالة الانقسام التي جاءت نتيجة انكفاء قيادة منظمة التحرير عن أهداف النضال الوطني ومشروعها في تصفية القضية الفلسطينية.

كما جاء اشتعالها أيضا في ظل تصاعد الاجراءات الصهيونية الفاشية وفي مقدمتها بناء المزيد من المستوطنات والاعتقال الجماعي والطرد ونسف بيوت المواطنين الفلسطينيين والامعان في تنفيذ سياسة «القبضة الحديدية» الرامية الى اخضاع الفلسطينيين لبرامج الاحتلال ومخططاتها العدوانية بما في ذلك السعي المحموم لطمس وتصفية هويتهم الوطنية.

اذن، فان اشتعال الانتفاضة الفلسطينية لم يكن في الواقع سوى انعكاس مباشر لجملة الظروف التي أشرنا اليها، فقد بدأت في لحظة تاريخية تفاعلت فيها الظروف الموضوعية المحيطة مع تطور الشرط الذاتي، الامر الذي يفسر مستوى الزخم النضالي الذي تميزت به الانتفاضة منذ بداياتها الاولى.

صحيح ان الطابع العام للظروف الموضوعية المحيطة كان سلبيا في مجمله، لكن الصحيح أيضا أن هذه «السلبية» قد شكلت بحد ذاتها أحد أهم العوامل التي أدت الى تفجر الانتفاضة، وبعيدا عن السطحية في المعالجة فان هذا الوضع لايؤشر في الحقيقة الى مفارقة، اذ من قال ان الانتفاضات لاتشتعل الا في مناخات النهوض القومي العام؟

لقد أكدت تجارب شعوب عديدة في العالم، ومن ضمنها تجربة الشعب الفلسطيني نفسه أن كثيراً من الثورات والانتفاضات الشعبية قد اندلعت في ظروف بالغة الصعوبة والقسوة، ولعل ثورة فلسطين الكبرى عام (١٩٣٦) خير مثال على ذلك. فالظروف الموضوعية التي أحاطت بها حينذاك لم تكن أقل سوءا من الظروف التي تمر بها اليوم.

بيد أن اشتعال الانتفاضة الفلسطينية الراهنة تحت وطأة الظروف الحالية ليس أمرا عاديا، وبالتالي فاننا لانستطيع الحديث عن خصائص الانتفاضة دون النظر الى هذه الظروف كخاصية هامة من خصائصها، فالأكيد أن اشتعال الانتفاضة قد تزامن مع تصاعد حمى التآمر على القضية الفلسطينية، الذي أخذ أبعادا خطيرة عشية انعقاد «قمة عمان العربية» تلك القمة التي فتحت الباب على مصراعية أمام سياسة تعميم نهج كامب ديفيد، حين تركت لكل دولة عربية حرية اتخاذ القرار تجاه معاودة العلاقة مع النظام المصري باعتباره مسألة تخص السيادة الوطنية لكل دولة!!

ومما لاشك فيه أن قرار «القمة العربي» في عمان قد استند في جوهره الى نهج المساومة الاستسلامي الذي اعتمدته قيادة منظمة التحرير الفلسطينية خيارا أساسيا لها منذ مغادرة مقاتلي الثورة الفلسطينية لبيروت صيف عام (١٩٨٢)، الامر الذي ترك انطباعا عاما لدى المواطنين الفلسطينيين في الارض المحتلة

بأن السبيل الوحيد لالتقاط زمام المبادرة من جديد فيما يخص قضيتهم الوطنية لايتم الا بتصعيد مقاومتهم للاحتلال بعد نكوص الاغلبية العربية الرسمية وكذلك قيادة المنظمة عن أهداف النضال الوطني والقومي.

ومن هنا، فان توقيت اشتعال الانتفاضة قد شكل عنصر مفاجأة حقيقي للاطراف المعنية: عربيا وفلسطينياً و(اسرائيلياً)، فهي لم تكن تتوقع انفجارا ثوريا بهذا الحجم والزخم في آن واحد، ولهذا أجمع المراقبون والمهتمون أن «التوقيت والمفاجأة» قد مثلا بالفعل خاصية هامة من خصائص الانتفاضة الفلسطينية.

وفي هذا المجال، ولان الانتفاضة الفلسطينية قد شكلت بتوقيتها وزخمها عنصر مفاجأة فان حديث بعض المنظمات والقوى الفلسطينية عن دور تخطيطي لها في الاعداد للانتفاضة لايمت للحقيقة بصلة، ولايعكس الواقع الذي أكدته التطورات اللاحقة سواء مايتصل منها ببنية الانتفاضة أو مايتعلق بأوجه نشاطاتها التنظيمية والسياسية والاجتماعية، الامر الذي يكشف خاصية أخرى للانتفاضة وهي «العفوية»، خاصة في مراحل انطلاقتها الاولى، لكن هذا لايتعارض بالتأكيد مع بروز دور لاحق للقوى والمنظمات الفلسطينية.

وحتى لايثير الحديث عن «عفوية» الانتفاضة شيئا من الالتباس، فان المقصود بـ «العفوية» هنا أن اشتعال الانتفاضة لم يأت نتيجة قرار سياسي مركزي أو بفعل عملية معد لها سلفا أو احتفالا بمناسبة وطنية معينة، أو في ذكرى انطلاقة فصيل فلسطيني ما، وفي هذا الصدد يقول السيد بشير البرغوثي ـ وأنا أتفق معه في هذه القضية تحديدا ـ: «ان من التبسيط الشديد للمسألة عزو قيام الانتفاضة الى حدث عابر أو مناسبة سياسية معينة، فما أكثر ماوقع من أحداث عابرة ومناسبات تاريخية، ولكنها لم تفجر انتفاضة، بل كانت في أحسن الاحوال تواجه بموجة احتجاجية محدودة، ان اسبابا أعمق وأبعد مدى في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت تتراكم داخل الاراضي المحتلة منذ وقت طويل، وقد كانت هذه الاسباب تعبر عن نفسها في هبات شعبية متفرقة ومتلاحقة في بعض الاحيان، وقد سبقت الانتفاضة في عام ١٩٨٧ وحده عدة هبات شعبية كانت اشارة واضحة الى وجود مخزون ضخم من مشاعر السخط ليس على الاحتلال وحده بل وعلى السياسات التي هبطت بمستوى الاهتمام العربي والدولي بالقضية الفلسطينية».(٤)

ان «عفوية الانتفاضة» في مراحل اشتعالها الاولى قد عكس في أحد أهم جوانبه غياب دور مركزي للقوى السياسية الفلسطينية على مختلف اتجاهاتها، ولايقلل من شأن هذه الحقيقة ادعاءات بعضها بنسب الانتفاضة له، فالواقع شيء والادعاء شيء آخر، ولعل هذه المسألة بحد ذاتها تمثل أحد مظاهر الازمة الراهنة العميقة التي تتفاعل داخل الحركة السياسية الفلسطينية.

غير أن اتسام الانتفاضة بخاصيتي «التوقيت والمفاجأة» لايلغي حقيقة أنها حظيت بشمولية ـ قل نظيرها ـ في هبات وانتفاضات سابقة، فقد شملت المواجهات العنيفة مختلف المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية في الضفة والقطاع في فترة زمنية قياسية، واذا عدنا الى البدايات نجد أن التظاهرات التي

اندلعت في (جباليا) بقطاع غزة جراء استشهاد أربعة مواطنين فلسطينيين بعد أن اجتاحتهم شاحنة (اسرائيلية) قد انتقلت بسرعة دراماتيكية الى مناطق أخرى في القطاع والضفة الفلسطينية في اليوم التالي مباشرة، كما أكدت ذلك مصادر العدو الصهيوني نفسه، مما يؤكد وجود درجة عالية من «الاحتقان الثوري» لدى المواطنين الفلسطينيين جرى التعبير عنها عند اندلاع أول شرارة.

ان «شمولية» الانتفاضة لم تتحدد في عنصر «المكان» فحسب، وانما تعدته أيضا الى مستوى «حجم وزخم» المشاركة الجماهيرية، واتساعها وعنفها، فقد تميزت الانتفاضة، ومنذ اللحظة الاولى بمشاركة واسعة النطاق من قبل الفئات الشعبية (العمال والفلاحين والطلبة وصغار الكسبة الفلسطينيين)، وليس صدفة في هذا المجال أن يمتنع عشرات الالوف من العمال الفلسطينيين عن العمل في مصانع الاحتلال في المناطق المحتلة عام (١٩٤٨) منذ الاسبوع الاول لاندلاع الانتفاضة.

ولاشك أن أحد أهم خصائص الانتفاضة الراهنة هو الدور المميز الذي اضطلعت به الفئات الشعبية الفلسطينية، ليس كنشطاء في الانتفاضة فقط وانما كقادة ميدانيين لها، شكلوا قاعدتها الاساسية (اللجان الشعبية) في المدن والقرى والمخيمات، وكما هو معروف فان القاعدة العمالية الفلسطينية شهدت توسعاً ملحوظا خلال السنوات العشر الاخيرة لاسباب تتعلق بسياسة مصادرة الاراضي وتضييق الخناق على الفلاحين واحتكار تصريف المنتجات الزراعية التي اتبعتها دوائر العدو الصهيوني، حيث تحول عدد كبير من صغار الفلاحين الفلسطينيين الى عمال في محاولة منهم لتخفيف عبء ضائقتهم المعيشية.

كما أن أبناء المخيمات الفلسطينية في الضفة والقطاع قد عانوا أكثر من غيرهم جراء الظروف الاقتصادية السيئة، سيما وأن معاناتهم على هذا الصعيد تمتد الى عشرات السنين الماضية أي الى الفترة التي سبقت حرب حزيران عام (١٩٦٧)، الامر الذي ولد لديهم شعورا عاما بالغبن والقهر، في شقيه القومي والطبقي، ومن هنا جاءت مشاركتهم الريادية في الانتفاضة والتي شكلت بالفعل أحد أهم خصائصها الرئيسية.

ومن المفيد الاشارة هنا الى أن سكان المخيمات الفلسطينية يشكلون مانسبته ١٧٪ من اجمالي عدد السكان في الضفة والقطاع، فقد بلغ عددهم حوالي (٥٨٢و ٢٦١) من أصل مايقارب مليون وستمائة ألف فلسطيني في الضفة والقطاع، وهم يتوزعون على (٢٦) مخيماً.(٥)

واذا تتبعنا حجم مشاركة أبناء المخيمات في الانتفاضة بالمقارنة الى النسبة التي يشغلونها في الاطار الديمغرافي الفلسطيني نستنتج الاهداف الحقيقية التي انطلقت الانتفاضة من أجلها والسياق العام الذي يحكم مساراتها اللاحقة.

لقد أجمعت «معظم التقارير»(٦) الواردة من الوطن المحتل أن الفئات الشعبية الفلسطينية، التي تشكل القاعدة الاساسية للانتفاضة قد وصلت الى وضع يؤهلها لقيادة الانتفاضة على الصعيد المناطقي، بل أنها أخذت تمارس هذا الدور عمليا، عبر مشاركتها الفعالة في «اللجان الشعبية»، ليس على مستوى الاحياء فحسب، وانما على مستوى المدن والقرى والمخيمات، حيث شرعت في برمجة المواجهات اليومية ضد

الاحتلال من جهة، وفي تنظيم المسائل الحياتية للمواطنين من جهة أخرى.

وفي هذا الاطار، تشكلت العديد من اللجان الشعبية المتخصصة في ادارة شؤون المواطنين، كاللجان الاقتصادية والصحية والتعليمية والتعبوية والاعلامية، وقد اضطلعت اللجان الاقتصادية تحديدا بدور بالغ الاهمية ان كان لجهة تعبئة الامكانيات الاقتصادية المحلية والسعي للوصول بها الى مرحلة الاكتفاء الذاتي، أو لجهة استثمار قوى الانتاج المعطلة وترشيد الاستهلاك.

ان تشكيل اللجان الشعبية للانتفاضة في فترة زمنية مبكرة قد لعب دورا هاما في افشال مهمة العدو في قمعها وتصفيتها، فانتشار اللجان ضمن مستويات مختلفة ومتنوعة على امتداد ساحة الوطن المحتل رتب على العدو التعامل مع كتلة بشرية متراصة من الصعب قمعها على مراحل أو مطاردة نشطائها الاساسيين.

ومما لاشك فيه، ان انتشار «القوى الضاربة» واضطلاعها بدور خاص مميز في مطاردة عملاء العدو ثم انذارهم أو تصفيتهم قد أوصل مهمة العدو الرامية الى اعتقال نشطاء الانتفاضة الى طريق مسدود في معظم الحالات وفي أغلب الاحيان.

واستنتاجا نستطيع القول أن «أشكال تنظيم العمل» المتطورة والشاملة للانتفاضة الشعبية قد أكسبها خاصية انفردت بها عن بقية الانتفاضات والهبات الفلسطينية التي سبقتها منذ مطلع هذا القرن، مما يوفر لها مقومات الاستمرار، ويفسح المجال رحبا أمام تطورها اللاحق.

ان الفارق النوعي بين «أشكال تنظيم العمل» في الانتفاضة الفلسطينية الراهنة وبين غيرها من الانتفاضات التاريخية للشعب الفلسطيني، انما يعود الى طبيعة القوى الاجتماعية التي تحملت وتتحمل مسؤولية القيادة المباشرة، ففي الهبات والانتفاضات السابقة، خاصة في مرحلة العشرينات والثلاثينات والاربعينات كان لواء القيادة معقودا للبرجوازية الوطنية، مع وجود استثناءات محدودة، أما في الانتفاضة الراهنة فان الفئات الشعبية هي التي تتصدى لهذه المهة، الامر الذي طبع الانتفاضة بطابعها، وأسهم في تعميم خاصيتها الثورية غير المساومة، رغم كل المحولات التي تجري على قدم وساق «لاستثمار» الانتفاضة في سياق الحلول التصفوية المطروحة.

غير أننا لانستطيع اغفال دور البرجوازية الوطنية الفلسطينية بشقيها: التجاري والصناعي في الانتفاضة الشعبية، فهي تشارك وان بأداء أقل - في مجرياتها اليومية، ويعود هذا الى أنها «قد وجدت في الانتفاضة بغيتها للانتقام من الاحتلال الصهيوني، وهو الذي عمل على تدميرها وتهميش دورها الاقتصادي والاجتماعي». (٧)

لقد استجاب التجار وأصحاب المصانع في المدن والبلدات الرئيسية لنداءات الانتفاضة، فانخرطوا في الاضرابات العامة، وأغلقوا متاجرهم ومحالهم، وامتنعوا عن دفع الضرائب والرسوم لسلطات الاحتلال، وقدموا العون والمساعدة للاسر الفقيرة، واستوعبوا العمال الفلسطينيين الذين استقالوا من أعمالهم في مصانع ومرافق العدو، «كما امتنع بعضهم عن ترويج السلع والبضائع (الاسرائيلية)». (٨)

وعود على بدء، ونحن نتحدث عن خصائص الانتفاضة، التي مثل أداء الفئات الشعبية الفلسطينية

أحد أبرز خصائصها، بل خاصيتها الرئيسية، لابد من الاشارة الى الدور الخاص الذي باشرته المرأة الفلسطينية في أعمال الانتفاضة، هذا الدور الذي لم يشهد له تاريخ الانتفاضات الفلسطينية مثيلا من قبل، خاصة لجهة شموليته وتمايزه وزخمه ومستوى أدائه.

واذا كانت المرأة الفلسطينية قد ساهمت في الماضي بدورها الوطني في مقاومة الاحتلال الصهيوني حيث استشهدت واعتقلت وعانت اقتصاديا واجتماعيا، الا أن مساهماتها الحالية ومستوى أدائها النضالي قد فاق كل التوقعات، فهي لم تشارك في المظاهرات والاعتصامات فحسب وانما انخرطت بدأب في اللجان الشعبية للانتفاضة منذ شهرها الاول وتبوأت مراكز قيادية فيها، ويكفي أن نعرف أن ١٨٪ من شهداء الانتفاضة هم من النساء لنتبين حجم الدور الباسل للمرأة الفلسطينية في الانتفاضة.

وما لاشك فيه، ان أي متتبع لمجريات الانتفاضة الفلسطينية، بل ان أي مراقب لتطوراتها، يستطيع أن يتبين بسهولة حجم مشاركة ومستوى أداء الشبيبة الفلسطينية في أعمالها، الامر الذي يحمل في طياته معنى خاصا، حيث يكشف على نحو أوضح طبيعة التناقض العدائي التناحري بين جماهير الشعب الفلسطيني وبين الكيان الصهيوني.

ويكفي أن نشير في هذا المجال الى ان العدد الاجمالي للطلبة في الضفة والقطاع - وهم العمود الفقري للشبيبة - «قد وصل وفق احصائيات العام الدراسي ١٩٨٢/١٩٨٣ الى (٤٧٢،١٤٨) طالب وطالبة،(٩) يتوزعون على ست جامعات وعشرات المعاهد ومئات المدارس الابتدائية ومثلها في المدارس الاعدادية، يكفي أن نشير الى ذلك لنتبين مستوى الهلع والرعب الذي دبّ في أوساط العدو الصهيوني، تلك الاوساط التي اعتقدت واهمة أن بامكانها ترويض النشء الفلسطيني الجديد داخل الوطن المحتل.

ان الطلبة داخل الضفة والقطاع فقط، والذين يشكلون ربع اجمالي عدد المواطنين الفلسطينيين يؤكدون عبر مشاركتهم الواسعة النطاق في أعمال الانتفاضة طبيعتها الاستراتيجية، وبالتالي فانهم يضيفون عليها خاصية تنفرد بها.

وفي هذا المجال، يلخص أحد الباحثين دور القطاع الطلابي فيقول: «انهم انخرطوا جميعا في فعاليات الانتفاضة ونشاطاتها، وصار لكل اختصاص ميدانه للعمل النشط، بحيث تحقق ذلك الشعار الذي طالما بقي نظريا وهو ربط التعليم بحاجات المجتمع، العلوم والثقافة، الصحة والتمريض والزراعة والاحصاء، الاعلام والاقتصاد والعلاقات العامة واللغات، كل هذه الاختصاصات صار لاصحابها شيء يفعلونه في ظل الانتفاضة الباسلة، وحتى أولئك النفر القليل، والقليل جدا الذي لم يكن لديه - بسبب اختصاصه - مايفعله وجد طريقة للمساهمة بأحد أنشطة الانتفاضة، بما في ذلك كنس الشوارع وتنظيفها، وبناء المنازل التي هدمها الاحتلال، والمساهمة بمواسم جني المحاصيل الزراعية وتوزيعها». (١٠)

وجاء في أحد التقارير الخاصة (١١) ان المجتمع الفلسطيني بكل فئات أعماره قد شارك في أعمال الانتفاضة، غير أننا نستطيع تقسيم فئات الاعمار من حيث فعاليتها ومستوى أدائها على النحو التالي: ماهم دون سن الثانية عشرة يغطون خمس الانتفاضة، من سن ١٢ عاما - ٣٥ عاما يشكلون القاعدة الاساسية

للانتفاضة، أما الذين تتجاوز أعمارهم سن الخامسة والاربعين فان مشاركتهم تتسم بمحدودية ملحوظة.

استخلاصا، نستطيع القول أن طبيعة القوى الاجتماعية الفلسطينية التي تشارك في الانتفاضة هي التي ستحدد لاحقا المدى الذي ستصل اليه، ولن تجدي نفعا كل المحاولات الرامية الى تحديد سقفها، أو اختزال أهدافها، أو توظيفها، أو حرفها عن مسارها النضالي.

مصادر

(١) مجلة «المجلة» ١٩٨٦/٧/٢٤.
(٢) جريدة السفير ١٦/ ١٠/ ١٩٨٦.
(٣) عبد الهادي النشاش. الازمة الراهنة للثورة الفلسطينية.
(٤) الوطن الكويتية ـ مقابلة مع السيد بشير البرغوثي ١٩٨٨/١٢/١٩.
(٥) دور المخيم في حركة النضال الفلسطيني. أيوب توفيق. القبس الدولي ١٩٨٨/٦/١٣.
(٦) تقارير خاصة من الوطن المحتل.
(٧) البنية الاجتماعية للانتفاضة. بحث لفايز سارة. مركز الدراسات الفلسطينية (دمشق) ١٩٨٨.
(٨) القبس الكويتية ١٩٨٨/٣/٢٧.
(٩) المجموعة الاحصائية الفلسطينية العدد (٦).
(١٠) د. شفيق الغبرا ـ الانتفاضة الفلسطينية.
(١١) تقرير خاص من الوطن المحتل (١٩٨٨).

الانتفاضة... استمرارها... تطورها...

ماجد كيالي*

دخلت الانتفاضة الفلسطينية عامها الثاني، وهي ماتزال تحتفظ بديناميكيتها العالية، وبزخم انطلاقتها الاولى. وقد مثلت باستمرارها وشموليتها مستوى النضج والتبلور الذي بلغته الاوضاع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية للشعب الفلسطيني في الارض المحتلة (عام ١٩٦٧). فهذا المستوى من النضج المادي، والمعنوي، المتوافق مع ارادة الشعب في رفض الاحتلال ومقاومته، مكّن الانتفاضة من خوض «حرب» طويلة الامد ضد الاحتلال الصهيوني، حتى أصبحت مقاومة الاحتلال عادة يومية، ونمط حياة بالنسبة لجماهير الانتفاضة.

ويؤكد «ميرون بنفسيتي» ـ رئيس مركز معلومات الضفة الغربية، ونائب عمدة القدس سابقاً ـ هذه الحقيقة بقوله: «لقد بنى الفلسطينيون للمرة الاولى قاعدة سياسية واجتماعية، تمكنهم من خوض صراع طويل.. انهم ينشئون بدائل اقتصادية، واجتماعية، وثقافية..»[(١)]. وتقييم الوضع على هذا الاساس دفع د. «موشيه شيمش» ـ المحاضر في الجامعة «العبرية» في القدس لتقييم الانتفاضة، على أنها «مسار دينامي متواصل.. وهي يمكن أن تكتسب خصائص متغيرة مع صعود وهبوط..»[(٢)].

---

* باحث من فلسطين.

للانتفاضة، أما الذين تتجاوز أعمارهم سن الخامسة والاربعين فان مشاركتهم تتسم بمحدودية ملحوظة.

استخلاصا، نستطيع القول أن طبيعة القوى الاجتماعية الفلسطينية التي تشارك في الانتفاضة هي التي ستحدد لاحقا المدى الذي ستصل اليه، ولن تجدي نفعا كل المحاولات الرامية الى تحديد سقفها، أو اختزال أهدافها، أو توظيفها، أو حرفها عن مسارها النضالي.

مصادر

(١) مجلة «المجلة» ٢٤/ ٧/ ١٩٨٦.
(٢) جريدة السفير ١٦/ ١٠/ ١٩٨٦.
(٣) عبد الهادي النشاش. الازمة الراهنة للثورة الفلسطينية.
(٤) الوطن الكويتية - مقابلة مع السيد بشير البرغوثي ١٩/ ١٢/ ١٩٨٨.
(٥) دور المخيم في حركة النضال الفلسطيني. أيوب توفيق. القبس الدولي ١٣/ ٦/ ١٩٨٨.
(٦) تقارير خاصة من الوطن المحتل.
(٧) البنية الاجتماعية للانتفاضة. بحث لفايز سارة. مركز الدراسات الفلسطينية (دمشق) ١٩٨٨.
(٨) القبس الكويتية ٢٧/ ٣/ ١٩٨٨.
(٩) المجموعة الاحصائية الفلسطينية العدد (٦).
(١٠) د. شفيق الغبرا - الانتفاضة الفلسطينية.
(١١) تقرير خاص من الوطن المحتل (١٩٨٨).

الانتفاضة... استمرارها... تطورها...

ماجد كيالي*

دخلت الانتفاضة الفلسطينية عامها الثاني، وهي ماتزال تحتفظ بديناميكيتها العالية، وبزخم انطلاقتها الاولى. وقد مثلت باستمرارها وشموليتها مستوى النضج والتبلور الذي بلغته الاوضاع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية للشعب الفلسطيني في الارض المحتلة (عام ١٩٦٧). فهذا المستوى من النضج المادي، والمعنوي، المتوافق مع ارادة الشعب في رفض الاحتلال ومقاومته، مكّن الانتفاضة من خوض «حرب» طويلة الامد ضد الاحتلال الصهيوني، حتى أصبحت مقاومة الاحتلال عادة يومية، ونمط حياة بالنسبة لجماهير الانتفاضة.

ويؤكد «ميرون بنفسيتي» - رئيس مركز معلومات الضفة الغربية، ونائب عمدة القدس سابقاً - هذه الحقيقة بقوله: «لقد بنى الفلسطينيون للمرة الاولى قاعدة سياسية واجتماعية، تمكنهم من خوض صراع طويل.. انهم ينشئون بدائل اقتصادية، واجتماعية، وثقافية..»[(١)]. وتقييم الوضع على هذا الاساس دفع د. «موشيه شيمش» - المحاضر في الجامعة «العبرية» في القدس لتقييم الانتفاضة، على أنها «مسار دينامي متواصل.. وهي يمكن أن تكتسب خصائص متغيرة مع صعود وهبوط..»[(٢)].

---

* باحث من فلسطين.

وتقـديرات المسؤولـين والبـاحثـين الصهـاينـة، حول قدرة الشعب الفلسطيني على الاستمـرار بالانتفـاضـة، بما تشكله من حالـة ارباك واستنزاف عاليين للكيان الصهيوني، وفي مختلف المجالات، دفعتهم للبحث عن مختلف الطرق، وخوض مختلف الاساليب، التي تمكنهم من الحد من مستوى الانتفاضة المتصـاعد، وبالتالي تحقيق هبوط في فعالياتها، وصولاً لوقفها واجهاضها. انطلاقاً من أن طبيعة الكيان الصهيوني، تركيبتـه الـداخلية، ودوره في المنطقة، لا يحتملان الهزيمة أو التراجع، لانه « اذا لم تنتصر اسرائيل في هذه الحرب، فانها ستضعف على نحو يستعصي على العلاج»(٣) على رأي «زئيف شيف» أحد أهم المعلقين العسكريين «الاسرائيليين».

ان ادراك هذه الحقـائق لدى الكيان الصهيوني، يدفـع الـطرف الاخر للتنـاقض ـ الفلسـطيني خصوصاً، والعربي عموماً ـ للبحث عن مختلف الطرق والوسائل النضالية التي تؤمن الاستمرار بالانتفاضة، وتحافظ على مستواها الكفاحي، وتطور من أدائها، حتى تستطع أن تحقق الاهداف المرجوة منها. ورغم أن التطرق الى مسألة استمرار الانتفاضة، وتطويرها، عملية شائكة ومعقدة، الا أنه ينبغي دراسة هذا الجانب الهام، والمركزي في مسار الانتفاضة، الذي تفرضه حاجات تطور الانتفاضة نفسها، والمحددة بما يلي: الاستمرار بتأزيم واستنزاف مختلف أوجه النشاط والحياة في الكيان الصهيوني، لاجباره على الاعتراف بالحقـائق النضالية التي خلقتها الانتفاضة، إفشال المحاولات المستمرة من قبل سلطات الاحتلال التي تحاول من خلالها قمع الانتفاضة، ووقفها، أو استنزافها على المدى الطويل. علاوة على هذا وذاك، فان هذا التطور هو ضرورة من ضرورات استمرار الانتفاضة، باعتباره شكلاً من أشكال تجديدها لطاقتها وحيويتها، وشكلاً من أشكال تنظيمها لقوى جماهير الانتفاضة، ومن أجل استثمار الانتفاضة، الاستثمار النضالي، المتمثل بتحقيق الاهداف المرحلية الوطنية، القائمة على دحر الاحتلال بدون قيد أو شرط، وقيام سلطة الشعب الوطنية، في ظل هذا المناخ العربي، والدولي، المتعاطف مع الانتفاضة.

أولاً: استنزاف الانتفاضة

لم يدخر الكيان الصهيوني طريقة الا وسلكها من أجل انهاك قوى الانتفاضة، وقد هيأ نفسه ـ حسب قول «رابين» ـ الى خوض حرب استنزاف طويلة من أجـل ذلك. أما «اسحق شامير» فقد صرح بأنه «سيواصل سياسة القمع الحالية للانتفاضة. فاسرائيل يمكنها أن تتحمل النتائج لعشرات السنين، لكن الفلسطينيين لا يمكنهم التحمل، هذا الزمن الطويل»(٤).

وقد أوضح أحد محرري صحيفة «يديعوت احرنوت» الاسرائيلية، مخططات «الليكود» الهادفة الى القضاء على الانتفاضة. وهي سلسلة من الاجراءات التأديبية العسكرية والقانونية، والادارية، خلال فترة زمنية قصيرة فورية. وبعيدة المدى(٥). وقد ذكر أيضاً جملة من اجراءات المضايقة والقمع التي تشمل: اغلاق مكاتب النقابات. ودور الصحافة ـ مع انتقال السكان من قضاء لآخر ـ فرض قيود على عبور جسور نهر الاردن ـ فرض رقابة على فروع بنك «القاهرة ـ عمان» في الضفة ـ عقوبة الموت على «المخربين»

الذين يدانون بجرائم خطيرة، أما على المدى البعيد فتشمل هذه الاجراءات تفكيك بعض المخيمات، وتوزيع سكانها في أمكنة أخرى. والواضح أن سياسة الاحتلال في التعامل مع الانتفاضة، أخذت تتجه نحو المزيد من العنف في تعاملها مع الانتفاضة بعد الانتخابات «الاسرائيلية» التي جرت مؤخراً. وعلى كل، فمن المشكوك فيه أن تنجح هذه الوسائل بتخفيف حدة الانتفاضة، ناهيك عن وقفها. وقد أشار الى هذه الحقيقة أحد المعلقين «الاسرائيليين» المتابعين لمسار الانتفاضة، وفي وقت مبكر، بقوله: «حتى لو اتبع الجيش الاسرائيلي أساليب أكثر وحشية (...) لما كان ذلك غير كثيراً فيما يجري. الانتفاضة كانت ستحدث وتستمر، سواء تصرف الجيش في البداية. بهذا الشكل أو ذاك»(٦). في اشارة واضحة الى أن الانتفاضة فرضت نفسها بقوة على مسرح الاحداث، كحالة تستعصي على القمع.

أما بالنسبة للمضايقات الاقتصادية، التي اعتمدتها سلطان الاحتلال، لانهاك الانتفاضة، فمن الواضح أنها فشلت في هذا المجال أيضا اضافة الى أنها شجعت جماهير الارض المحتلة على عملية فك الارتبـاط الاقتصـادي مع الاحتـلال «الاسرائيلي»، وعـززت الميل نحـو الاعتماد على البدائل المحلية، والاقتصاد بالقوى، وتنمية الامكانيات الذاتية.

وقد اعترف «يورام بيري» في صحيفة «دافار» الاسرائيلية، بواقع فشل هذه السياسة، حيث «لا أسـاس للاعتقـاد أنه يمكن القضاء على الانتفاضة نهائياً بهذه الطريقة، ومن المحال العمل على إقامة «ستاتيكو» يعيد الوضع الذي كان سائداً في المناطق الى سابق عهده. ستتواصل تفجرات الغضب ومن شأنها أن تصبح أكثر عنفاً»(٧).

وبالنظر للطبيعة الخاصة بالكيان الصهيوني ودوره الاستيطاني الامبريالي، وطبيعة التناقض التناحري معه، فان اقرار هذا الكيان بمنجزات، وحقائق الانتفاضة، عملية صعبة، وطويلة، وتحتاج الى مزيد، ومزيد من التراكمات والمتغيرات النضالية التي يمكنها اجباره على الاعتراف بفشله، والتسليم بهزيمته بالنسبة للاحتلال والاستيطان في هذه المرحلة، وهذا المستوى من مستويات الصراع مع المشروع الصهيوني.

ثانياً: استمرار الانتفاضة وتطورها.

كما قدمنا، فان الكيان الصهيوني يعمل بشكل حثيث على الغاء حقائق الانتفاضة، بكافة الوسائل والسبـل، كما يحاول على الاقـل «تبـديد الـطاقة الثـورية في المناطق، من دون السماح لها بجني فائدة كبـيرة»(٨). حسب تعبير «رون بن يشـاي» فالمعركة برأيه «تدور الآن على طول نفس وحدة المجتمع الفلسطيني»(٩). على هذا الاساس تبرز مسألة استمرار الانتفاضة عبر العمل على تطوير أشكالها النضالية بوصفها «الحلقة المركزية» التي يجب أن تخضع لها كل الجهود ومختلف الفعاليات النضالية الفلسطينية، ومن الطبيعي، في ظل الظروف السائدة في الساحة الفلسطينية خارج الارض المحتلة، أن تختلف الاجتهادات، ازاء هذه المسألة، وتتفاوت وجهات النظر. فمن جهة، تسهم القوى التي ترغب في «الاستثمار» السريع، والآني للانتفاضة، في ظل الظروف والمعطيات الراهنة، في تشتيت الجهود الوطنية، عبر عدم تركيزها على

مسألة استمرار الانتفاضة وتطورها، كما تسهم بزيادة التخبطات والتعارضات في الساحة الفلسطينية، التي يجيّرها الكيان الصهيوني لمصلحة تخفيف أزمته، في مواجهته للانتفاضة. وقد بين ذلك «رون بن يشاي» في مقاله السابق: «من الافضل في الوقت الراهن ترك الفلسطينيين يتخبطون.. وعدم اغلاق الباب أمام شركاء مريحين أكثر للتفاوض.. وبالتالي لا داعي الى أن نحزن كثيراً للشلل السياسي الذى نحن فيه»[١٠].. ويضيف «يورام بيري» في هذا المجال أيضاً: «الحل السياسي لايمكن أن يأتي بعد الخطوات العسكرية، وانما بصورة مندمجة معها»[١١]. وهذا الاتجاه في الساحة الفلسطينية عموماً، يسهم ويعمل من أجل استمرار الانتفاضة، ولكن اسهامه في تطوير وتعزيز فعالياتها وسماتها النضالية، تبقى في حدود توجهه السياسي الرامي لاستثمار الانتفاضة، بالطرق الديبلوماسية «السياسية» وبأسرع ما يمكن.

ومن جهة أخرى، فان القوى والتيارات المتهافتة نحو أي «حل» في الساحة الفلسطينية، ترى في استمرار الانتفاضة وتطورها، عبئاً وقيداً عليها، أو تجاوزاً سياسياً لها - في أحسن الاحوال - ولذلك فهي تخشى أبعاده السياسية المستقبلية، وقد أشار الى ذلك د جورج حبش (أمين عام ج. ش. ت. ف) في مقال له في مجلة «الهدف» - حيث أشار الى قلق هذا التيار من «احتمالات تطور الوضع.. خارج حدود السيطرة وربما بما يقلب المعادلة التي تحكم موازين القوى داخل م. ت. ف في الخارج»[١٢].. وقد برزت في هذا السياق دعوات من داخل أطر م. ت. ف. وخارجها، تبدي الاستعداد لتهدئة الانتفاضة، أو وقفها. ويمكن في هذا المجال، على سبيل المثال التذكير بوثيقة «بسام أبو شريف» الشهيرة، ودعوات الياس فريج السابقة واللاحقة، اضافة الى «فيصل الحسيني» لوقف الانتفاضة على سبيل «التهدئة»!. وغني عن القول أن كل هذه الدعوات «لاستثمار» الانتفاضة، لاتتناسب مع المستوى النضالي الذي حققته جماهير الارض المحتلة، فهذه الدعوات تبحث عن متنفس لها خارج طريق النضال الذي اختطته الانتفاضة منذ انطلاقتها، كطريق وحيد من أجل استثمارها، بما يخدم ويتناسب مع توجهها الوطني التحرري، الذي برز عبر سماتها وأشكالها النضالية المختلفة، مما يضع هذه الجهود «الاستثمارية» في تعارض مع مسار الانتفاضة. وبالطبع فهذا الوضع ينبغي تلافيه، وتجاوز آثاره، وتركيز الجهود باتجاه استمرار الانتفاضة، وتطويرها حتى تتمكن من تحقيق أهدافها عبر اجبار العدو على التسليم بعجزه وهزيمته.

ثالثاً: تطور الاشكال النضالية.

شكلت المظاهرات، والاضرابات، والاعتصامات الجماهيرية، الوسيلة الاساسية للتعبير عن حالة الانتفاضة في مراحلها الاولى. وفي مرحلة أخرى، انتقلت الجماهير الى أشكال نضالية أعلى، تمثلت في السيطرة على بعض المخيمات، والاحياء، والقرى، واعلانها مناطق «محررة». اضافة الى عمليات قطع الطرق الرئيسية، كما تجلت في حالة تصعيد آخر بالهجوم المتكرر على مراكز الشرطة، ودوريات جنود الاحتلال، وأفراده والمتعاونين معه. كما استخدمت جماهير الانتفاضة، الحجارة، والعصي، والسكاكين، والقنابل الحارقة، واليدوية حال توفرها. وكان هذا التصاعد في الاشكال النضالية تعبيراً عن استعداد

الجماهير العالي، وارادتها التحررية، للاستمرار بطريق الانتفاضة، وتطويرها عبر كل الاشكال النضالية، الممكنة، والمتاحة، ضمن الظروف والمعطيات الراهنة. ومن الطبيعي أن أشكال النضال المختلفة التي اعتمدتها الانتفاضة، سارت معاً جنباً الى جنب، تكمل بعضها بعضاً، مما أضفى على الانتفاضة طابعها الشمولي.

وقد فرضت حالة الانتفاضة المستمرة، والشاملة، على جماهير الانتفاضة، وأطرها المختلفة، مسألة الانتقال بالانتفاضة وتطويرها باتجاه العصيان الوطني. بأشكاله المختلفة، والمتفاوتة. بوصفه شكلاً من أشكال تطور الانتفاضة، وبوصفه محطة نوعية في مسارها.. وقد دعت «نداءات» الانتفاضة[١٣] الصادرة عن «القيادة الوطنية الموحدة» الى الانتقال بالانتفاضة، وبشكل متدرج من العصيان الجزئي المحدود، الى العصيان المحلي المناطقي، بما يسهم في مراكمة تشكيل ممهدات العصيان الوطني الشامل.

رابعاً: العناصر المكونة لتطور الانتفاضة.

ورغم تعقيدات هذا الموضوع، وارتباطه بالامكانات والظروف المتاحة من جهة، وبالتطورات السياسية للقوى الفاعلة في الانتفاضة أساساً، وفي المنطقة عموماً، يمكننا الاشارة الى بعض العناصر الظاهرة والكامنة التي يمكنها متضافرة أن تشكل عوامل استمرار وتطوير للانتفاضة، في اتجاه تحقيق أهدافها.

آ - «العصيان الوطني».

صدر في «نداءات» الانتفاضة المختلفة العديد من التوجيهات للجان الشعبية، ولجماهير الانتفاضة من أجل اعداد النفس لهذه المرحلة الهامة من مراحل التطور في الانتفاضة. كما جرت في مسار الانتفاضة عدة محاولات - بروفات - للعصيان الجزئي والمناطقي - في وقت واحد، أو بالدور - لاختبار مدى استعداد الشعب لهذه الحالة، ومعرفة النواقص من أجل استكمال تهيئة مستلزمات وممهدات العصيانات السياسية، والادارية، والاقتصادية.

- **على الصعيد الاداري:** طرحت اللجان الشعبية نفسها كشكل جنيني «للسلطة» الشعبية الوطنية البديلة. وقامت اللجان المتفرعة عنها بمهامها في مجال تخصصاتها المختلفة - الصحة، التعليم، الحراسة، التضامن الاجتماعي، الزراعة، الاعلام، الارشاد، الخ... وقد غطت نشاطات هذه اللجان مختلف أحياء المدن، والمخيمات والقرى. وقدمت خدماتها المتنوعة لجماهير الانتفاضة.
- **على الصعيد الاقتصادي:** فقدأصبح فك الارتباط الاقتصادي واقعاً قائماً ومتنامياً، يتجلى بمقاطعة العمل والانتاج الصهيونيين. كما يتجلى باجراءات الاقتصاد بالقوى وترشيد الاستهلاك. وعلاوة على هذا وذاك، تجري جهود حثيثة من أجل خلق بنية اقتصادية وطنية، تسهم في صمود جماهير الانتفاضة، وفي بناء

اقتصادها «المتحرر». وهذا يتجلى بالاتجاه نحو تعزيز «الاقتصاد المنزلي» وبناء وتوسيع مزارع «النصر»، من أجل تنمية الموارد الزراعية والحيوانية، وتنمية الورش والصناعات المحلية.

على الصعيد السياسي: فان حالة «العصيان» تعني القطيعة مع سلطات الاحتلال، كما أنها تعني من قبل الاطر الشعبية البديلة، القدرة على السيطرة، وعلى هذا الصعيد استطاعت اللجان الشعبية تسجيل عدة نقاط لمصلحة الانتفاضة في تأسيسها لسلطتها السياسية. فحسب أحد محرري «هآرتس» نجح منظمو العصيان في السيطرة على المناطق[١٤] كما أشار «زئيف شيف» الى أن «الهدف العملياتي المباشر من الانتفاضة هو خلق وضع يفقد فيه الجيش الاسرائيلي السيطرة على المناطق، أو على أجزاء منها[١٥]».. وقد عبرت صحيفة «ضمير الانتفاضة» الصادرة عن اللجان الشعبية في الارض المحتلة عن أهمية «العصيان» «باعتباره الفرصة والرافعة لانقاذ الانتفاضة من رتابتها ومراوحتها، وقطع الطريق على خفوت ركيزتها السياسية[١٦]»..

ان هذا الوضع السياسي، والاداري، والاقتصادي، المتضافر مع استعداد الشعب العالي لمواصلة طريق الانتفاضة، يشير إلى أن العديد من مستلزمات العصيان تم تحقيقها، كما تم تبيّن مكامن الثغرات التي ينبغي على الجهات المسؤولة والمعنية باستمرار الانتفاضة، العمل على تلافيها، وأهمها الدعم الاقتصادي المنتظم، وطويل الاجل، للمؤسسات والهيئات، ولمختلف اللجان والاطر العاملة في الانتفاضة. وهذا كله بحاجة ماسة أيضاً للارادة السياسية الوطنية الموحدة التي بدونها لايمكن شق طريق العصيان الوطني الشامل، بعد استكمال انجاز مقوماته.

والملاحظ هنا، هو التراجع الحاصل في استكمال الدعوة للعصيان الوطني الجزئي، والمؤقت في المرحلة الراهنة، وتقديري أن هذا التراجع لا يعبر عن ضعف الامكانيات، بقدر ما يعبر عن ضعف الارادة السياسية والموحدة في هذا المجال، وسلوك طريق آخر ـ على هامش طريق الانتفاضة ـ «لاستثمارها» كما يتوهم أو كما يعتقد البعض.

ب ـ تعزيز الطابع العنفي للانتفاضة.

ان تشكيل ممهدات العصيان الوطني بالارتباط مع عناصر تطوير الانتفاضة الاخرى، وبالتضافر والتكامل معها، هو الوضع الذي يحافظ على المستويات النضالية الراقية التي بلغتها الاشكال النضالية خلال عام الانتفاضة.

وقد أسهمت هذه الاشكال النضالية معاً، وجنباً الى جنب، في تعميق الطابع الشمولي للانتفاضة، وفي تنظيم طاقة وطول «نفس» جماهيرها. والحديث عن الاشكال النضالية للانتفاضة، يقودنا الى الحديث عن الطابع العنفي للانتفاضة الذي اتسمت به منذ انطلاقتها، وفي كل مراحلها. فمنذ اليوم الأول استخدمت «طلقات» الحجارة والمقاليع، واستعملت العصي والسكاكين، ثم استخدمت على نطاق واسع القنابل الحارقة واليدوية، وشهدت بعض الحالات الانتقال من حالة الدفاع الى حالة الهجوم على بعض

مراكز الشرطة، وآليات الجيش وأفراده. كما تجلت في تشكيل المجموعات الضاربة، وعملياتها المختلفة ـ اعدام عملاء، مهاجمة جنود ودوريات، اشعال حرائق.. الخ. علاوة على العمليات الفدائية المتفرقة التي جرت عام الانتفاضة ضد أهداف عسكرية مثل عمليتي «رفح» و «النقب» والعمليات الحدودية من جنوب لبنان.

وقد ذكرت صحيفة «دافار»[١٧] الاسرائيلية، استناداً الى السجلات اليومية لعمليات الجيش (١٣,٧٥٠) حادثة تدخل فيها الجيش، منذ بدء الانتفاضة في الارض المحتلة حتى بداية شهر ١٩٨٨/٨: منها (٥٩٠٠) حادثة رشق حجارة، (٦٤٥٣) تظاهرة عنيفة، (١٠٠٤) حادثة رمي قنابل حارقة، (٢٥٢) حريق، (٥٧) عبوة ناسفة، (١٧) قنبلة يدوية، (٢٩) هجوم بالسكاكين والاودات الحادة، (٧) حوادث اطلاق نار. وقد أسفر كل ذلك عن مقتل (١١) جندي وجرح (٧٣٠) جندياً اسرائيلياً وجرح (٤٠٢) من المستوطنين الصهاينة[١٨]. كما تم اشعال حرائق في (١٥٠) ألف دونم في الغابات والمزارع في الاراضي العربية المحتلة عام (١٩٤٨).

ان تعزيز الطابع العنفي للانتفاضة وتنظيمه، وتوجيهه، يساعد على رفع الروح المعنوية لجماهير الانتفاضة، كما يساعد على تنظيم طاقاتها، أما في الجانب «الاسرائيلي»، فانه يسهم أكثر في تعميق أزمة الكيان الصهيوني من مختلف الجوانب، ويزيد من حالة الضغط عليه، ومعروف في هذا المجال الاثر الكبير الذي خلقته عملية «النسر الطائر» أو «ليلة الشراعيات»، ثم عملية «النقب» على الجانبين الفلسطيني والاسرائيلي ـ ايجاباً، وسلباً. فقد يستطيع الكيان الصهيوني الفريد من نوعه في تركيبته وخصائصه تعويض خسائره الاقتصادية، أو التكيف مع مشكلاته السياسية، لكن من المشكوك فيه أن يتحمل خسائر مهما كان حجمها على الصعيد البشري.

وهذه الاشارة الى تعزيز الطابع العنفي للانتفاضة، وبوصفها عنصراً من عناصر تطورها، لا يقصد منه تحويل الانتفاضة الى انتفاضة مسلحة، فعناصر هذا الوضع غير متوفرة الآن، والظروف وموازين القوى غير مؤهلة لذلك، ولكن هذه الاوضاع لا تحول ولا تمنع عملية تعزيز هذا الشكل من أشكال النضال وتطويره بشكل منظم، كونه شكلاً أساسياً من أشكال النضال في الانتفاضة، فليس من المعقول أن تخسر الانتفاضة المئات من الشهداء وعشرات الآلاف من الجرحى والمعتقلين، دون أن تصيب في جسد الكيان الصهيوني مقتلاً.

ثم ان الدراسة الموضوعية، الجادة لمسار الانتفاضة، تشير الى أن تعزيز هذا الشكل النضالي، يفرضه التوالي المنطقي لسلوك جماهير الانتفاضة وقواها المتقدمة والمنظمة، اذا ما توفرت الامكانات والظروف المناسبة. كما أن تطور هذا الشكل النضالي أو ذاك هو تعبير عن حاجة موضوعية لجماهير الانتفاضة وقواها الطليعية، وهي بالتالي تستطيع أن تحدد الشكل الانجع لنضالها، وهي بالضرورة التي تعرف كيف، وأين؟ ومتى؟ يمكن استخدام هذا السلاح أو ذاك. ضد هذا الجندي. أو هذا المستوطن، ضد هذه الثكنة، أو الدورية، أو المخفر.

وقد أوردت **«ضمير الانتفاضة» في شهر ١٩٨٨/٣** نداء بهذا الخصوص جاء فيه «مرحى مرحى ،

مرحى للاعمال الفدائية التي بدأت تشق طريقها للثأر للشهداء. وللرد على جرائم الاحتلال، فأعادت المعادلة الى حقيقتها: بأن الكفاح المسلح والعنف الثوري هما السبيل الاساسي لمواجهة عنف الاحتلال[١٩]». .

وقد عكس د. «موشيه شيمش تخوف الكيان الصهيوني من بلوغ الانتفاضة هذا المستوى حين احتمل «حصول منعطف تصعيدي. . يتمثل باستخدام أسلحة نارية. . ودمج جميع أشكال أعمال التخريب العدائية في الانتفاضة[٢٠]» كما أشار الى ذلك «زئيف شيف» بقوله «ازدادت جرأة المنتفضين، وهذا ما يتجسد في الهجمات بالزجاجات الحارقة. . وفي الاتجاه للانتقال لاستعمال الاسلحة النارية[٢١]» . .

ومن المفيد أن نشير الى أن قرار عدم اطلاق النار، والقيام بعمليات عسكرية داخل الارض المحتلة الذي أعلنته القيادة الرسمية ل م.ت.ف. لا يعكس تخوفها على الانتفاضة، بقدر ما يعكس توجهها السياسي، وطريقة «استثمارها» للانتفاضة، في هذه المرحلة.

فالتخوف على الانتفاضة ينبع من اضعاف احدى سماتها، ومن خفوت حدتها النضالية، كما نعيد التذكير هنا بأننا في هذا المجال لانتنادي بصورة «طوباوية» بتحويل الانتفاضة الى انتفاضة مسلحة ـ كما تقدمنا سلفاً ـ ولا نادي البعض للقيام ببعض العمليات الارتجالية الاعلانية، وانما هي دعوة لتطوير الانتفاضة من داخلها، عبر توفير مستلزمات هذا الامر بشكل منظم وموجه، وبما يتناسب ويتكامل مع مختلف أشكال النضال الجماهيرية الاخرى.

ج ـ الحاضنة العربية للانتفاضة.

وهذا بدوره عنصر هام وأساسي من عناصر تطور الانتفاضة، رغم أن ظروف الانتفاضة في هذه المرحلة تشير الى تخلف البعد العربي عن مواكبتها، كما يشير الى افتقادها لحاضنتها العربية الطبيعية، مما شكل نقطة ضعف لها.

فقد مثلت الانتفاضة الفلسطينية منذ اندلاعها، مفاجأة، ومفارقة في الوضع العربي. بسبب سياسة الانكفاء الرسمي عن الصراع العربي ـ الصهيوني. ولعل هذا السبب من أهم الاسباب التي حرضت على الانتفاضة في الارض المحتلة، بعد أن انتظرت «التحرير» من الخارج لسنوات طويلة. وقد أدى هذا الانكفاء والتراجع الرسمي الى تحفيز الطاقة النضالية المختزنة لدى جماهير الارض المحتلة، وفجر امكاناتها الكامنة، وأفصح عن الدور الذي يمكن أن تحتله في اطار النضال الفلسطيني والعربي ضد المشروع الصهيوني. كما أدى الى ابراز الطابع الفلسطيني للانتفاضة، التي تحولت الى حرب فلسطينية «اسرائيلية» ولاول مرة في تاريخ الصراع العربي ـ الصهيوني.

ان هذا النجاح للانتفاضة في اعتمادها على قواها الذاتية، يجب الا يقودنا الى المبالغة بالامكانيات الذاتية، وتحميلها أكثر مما تحتمل. ومن جهة أخرى أيضاً، يجب الحذر من الوقوع في حبال اليأس من امكانية بروز عوامل المساندة والمؤازرة العربية، الشعبية والرسمية، القائمة والممكنة.

اذ أن استناد الانتفاضة لعمقها العربي، وتشكل حاضنتها العربية، هو حاجة موضوعية ومتبادلة بحكم تشابك وترابط القضية الوطنية الفلسطينية بالنضال القومي العربي، اضافة الى أن البعد العربي للانتفاضة عامل مهم من عوامل استمرارها، وشرط من شروط انتصارها على وجه التحديد.

وحتى لا نتكلم بالتجريد، فما نقصده هنا يقع في اطار المساندة والدعم العربيين للانتفاضة، وهذا أمر ممكن ويخدم الى حد كبير الحركة السياسية العربية الراهنة، ولا يتعارض معها.

أما الحديث عن المواكبة العربية للانتفاضة، فهذا الموضوع يفتقد لواقعيته في الظروف السائدة، وهو يتعلق بالتطورات الجارية والمستقبلية في المنطقة العربية. وهو حديث يتعلق أصلاً بمستقبل الصراع العربي التحرري، ضد الوجود الامبريالي في المنطقة العربيةومن ضمنه المشروع الصهيوني، وهذا موضوع حديث آخر.

●●●●

ان الخلاصة التي تؤكدها الانتفاضة، بدخولها العام الثاني، بهذا القدر من الزخم والحيوية، هي أن عناصر الاستمرار والشمولية في الانتفاضة لازالت عميقة وراسخة في البنية التحتية لها، كما أن عناصر تطورها ظاهرة ومتنامية في تنوع أشكالها النضالية، وغنى صيغها وأطرها التنظيمية. ويبقى السؤال الاساسي والمحوري في هذا المجال وهو من يخضع لمن؟ أي هل تخضع الانتفاضة مسارها النضالي لمصلحة الاعتبارات السياسية لدى القوى السائدة في الساحة الفلسطينية خارج الارض المحتلة؟ أم أن القوى الفلسطينية تخضع جهودها ونشاطها لمصلحة خط الانتفاضة النضالي في سبيل تحرير الاراضي المحتلة، وتحقيق الاهداف المرحلية؟ وخصوصاً بعد أن نقلت الانتفاضة البرنامج المرحلي الذي اعتمد طوال المرحلة السابقة على أوهام التسوية، وجهود الديبلوماسية السياسية، أكثر بكثير من ارتكازه على الواقعية السياسية النضالية، الى حيز الواقع الممكن. وبذلك يتحقق التناسب بين الهدف والشعار السياسي، وبين الواقعية السياسية النضالية، كما يتحقق التناسب والتكامل بين الداخل والخارج الفلسطيني في اطار النضال التحرري العام. وهذا الامر أو ذاك سيحدده المسار اللاحق للانتفاضة، الذي يعمق خطه أكثر فأكثر في اطار النضال الوطني الفلسطيني والعربي.

١٩٨٨/١٢/٢٨

● الهوامش:

١ ـ «متتياهو بيليد» ـ «هآرتس» الاسرائيلية ـ ٣/ ٢/ ١٩٨٨.

٢ ـ د. «موشيه شيمش» ـ «دافار» الاسرائيلية ـ ٣/ ٦/ ١٩٨٨ ـ نشرتها «السفير» اللبنانية في / ١٤/ ٧/ ٨٨.

٣ ـ «زئيف شيف» ـ «هآرتس» ـ ١٢/ ٢/ ٨٨.

٤ ـ «السفير» اللبنانية ـ ١٠/ ١٠/ ٨٨ ـ ص٨.

٥ ـ «روني شيكد» ـ «يديعوت احرنوت» الاسرائيلية ـ ٦/ ١١/ ٨٨ ـ نشرتها «السفير» اللبنانية ١٥/ ١/ ٨٨.

٦ ـ «رون بن يشاي» ـ «الانتفاضة في انتظار م.ت.ف.» ـ «يديعوت احرونوت» ـ ٢٦/ ٨/ ٨٨ ملحق السبت ص ٣.

٧ ـ د. «يورام بيري» ـ «دافار» الاسرائيلية ـ ١٦/ ٣/ ٨٨ ـ عن نشرة م.د.ف ـ بيروت ـ ص ٢١٣ ـ ١٩٨٨.

٨ ـ نفس المرجع رقم (٦).
٩ ـ «اوري نير» ـ «المعركة على طول النفس» ـ عن نشرة م. د. ف العدد ٣/ ٨٨ ـ عن «هآرتس».
١٠ـ نفس المرجع رقم (٦).
١١ـ نفس المرجع رقم (٧).
١٢ـ د. «جورج حبش» ـ «الانتفاصة محطة نوعية» ـ «الهدف» ـ العدد (٩٤٠) ـ ص١٦.
١٣ـ راجع «نداءات» الانتفاضة المختلفة بهذا الخصوص.
١٤ـ نفس المرجع رقم (٩).
١٥ـ «زئيف شيف» ـ «هآرتس» ـ ٧/ ٤/ ٨٨.
١٦ـ «ضمير الانتفاضة» ـ صحيفة «اللجان الشعبية» في الارض المحتلة ـ نشرتها «الهدف» ـ العدد (٩٢٢).
١٧ـ «دافار» ـ ٧/ ٨/ ٨٨ ـ نشرتها «الهدف» ـ العدد (٩٤٠) ـ ص٥٥.
١٨ـ «السفير» اللبنانية» ـ ٩/ ١٢/ ٨٨ ـ ص ١١ ـ «تكاليف الانتفاضة».
١٩ـ عن «الهدف» العدد (٩٤٠) ص ٤٦.
٢٠ـ نفس المرجع رقم (٢).
٢١ـ «زئيف شيف» ـ «هآرتس» ـ ٢٢/ ٢٣/ ٨٨.

الدكتور عبد الوهاب الكيالي مؤرخ القضية الفلسطينية

د. خيرية قاسمية*

«في فلسطين عرف العرب قمة التحدي، وعلى أرض فلسطين سوف يتقرر المستقبل العربي.

في فلسطين يواجه العرب قضيتهم المصيرية الكبرى، ومع ذلك فلا مفر من الاقرار بأننا كشعب وكأمة لانزال بعيدين عن تحسس خطورة هذه القضية وجوانبها المختلفة والعيش مع هذه القضية الى المدى الواجب.

فاستلهام الماضي، اذا ماتم على صورته الصحيحة، يشكل حافزاً من حوافز النضال وعاملا من عوامل الثبات والتقدم. فمعرفة التاريخ شرط أساسي من شروط معرفة النفس، ومعرفة النفس ضرورة لابد منها لمجابهة التحديات والتغلب عليها. كذلك فان معرفة الشعوب الثائرة لماضيها ووعيها على حاضرها يساعدها على تخطي ذاتها واحراز النصر في معاركها التاريخية.

وانه لمن الضرورة بمكان أن نبني اندفاعنا النضالي المعاصر على أساس الوعي الصحيح ـ والحقائق الثابتة اذا ماأردنا لمسيرتنا ان تكون انطلاقة تاريخية لامجرد هبة عابرة، خصوصا وان تاريخ فلسطين هو تاريخ حافز لاتاريخ عبء..»

---

* استاذة تاريخ حديث في جامعة دمشق ـ من فلسطين لها عدة مؤلفات في التاريخ.

٨ ـ نفس المرجع رقم (٦).

٩ ـ «اوري نير» ـ «المعركة على طول النفس» ـ عن نشرة م. د. ف العدد ٣/ ٨٨ ـ عن «هآرتس».

١٠ـ نفس المرجع رقم (٦).

١١ـ نفس المرجع رقم (٧).

١٢ـ د. «جورج حبش» ـ «الانتفاضة محطة نوعية» ـ «الهدف» ـ العدد (٩٤٠) ـ ص١٦.

١٣ـ راجع «نداءات» الانتفاضة المختلفة بهذا الخصوص.

١٤ـ نفس المرجع رقم (٩).

١٥ـ «زئيف شيف» ـ «هآرتس» ـ ٧/ ٤/ ٨٨.

١٦ـ «ضمير الانتفاضة» ـ صحيفة «اللجان الشعبية» في الارض المحتلة ـ نشرتها «الهدف» ـ العدد (٩٢٢).

١٧ـ «دافار» ـ ٧/ ٨/ ٨٨ ـ نشرتها «الهدف» ـ العدد (٩٤٠) ـ ص٥٥.

١٨ـ «السفير» اللبنانية» ـ ٩/ ١٢/ ٨٨ ـ ص ١١ ـ «تكاليف الانتفاضة».

١٩ـ عن «الهدف» العدد (٩٤٠) ص ٤٦.

٢٠ـ نفس المرجع رقم (٢).

٢١ـ «زئيف شيف» ـ «هآرتس» ـ ٢٢/ ٢٣/ ٨٨.

الدكتور عبد الوهاب الكيالي مؤرخ القضية الفلسطينية

د. خيرية قاسمية*

«في فلسطين عرف العرب قمة التحدي، وعلى أرض فلسطين سوف يتقرر المستقبل العربي. في فلسطين يواجه العرب قضيتهم المصيرية الكبرى، ومع ذلك فلا مفر من الاقرار بأننا كشعب وكأمة لانزال بعيدين عن تحسس خطورة هذه القضية وجوانبها المختلفة والعيش مع هذه القضية الى المدى الواجب.

فاستلهام الماضي، اذا ماتم على صورته الصحيحة، يشكل حافزاً من حوافز النضال وعاملا من عوامل الثبات والتقدم. فمعرفة التاريخ شرط أساسي من شروط معرفة النفس، ومعرفة النفس ضرورة لابد منها لمجابهة التحديات والتغلب عليها. كذلك فان معرفة الشعوب الثائرة لماضيها ووعيها على حاضرها يساعدها على تخطي ذاتها واحراز النصر في معاركها التاريخية.

وانه لمن الضرورة بمكان أن نبني اندفاعنا النضالي المعاصر على أساس الوعي الصحيح ـ والحقائق الثابتة اذا ماأردنا لمسيرتنا ان تكون انطلاقة تاريخية لامجرد هبة عابرة، خصوصا وان تاريخ فلسطين هو تاريخ حافز لاتاريخ عبء..»

---

* استاذة تاريخ حديث في جامعة دمشق ـ من فلسطين لها عدة مؤلفات في التاريخ.

ترسم الفقرات السابقة من مقدمة د. عبد الوهاب كيالي لكتابه «تاريخ فلسطين الحديث(١)» الدافع الرئيسي الذي حفزه لتسجيل نضال شعب فلسطين عبر اكثر من نصف قرن من الزمن ـ منذ بداية تاريخ الهجرة الصهيونية الاولى ١٨٨٢ وحتى بداية الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ فقدم اضافة جديدة وجادة لكل المحاولات السابقة التي تصدت لكتابة تاريخ فلسطين. واستطاع د. كيالي، من خلال جهد صادق استغرق ماينوف على خمس سنوات لجمع مواد الكتاب، ان يصور حقيقة الصراع الذي خاضه الفلسطينيون خلال تلك الحقبة، وان يرصد حقيقة اهداف السياسة البريطانية الاستعمارية، والمخططات الصهيونية ويكشف بواقعية وبأمانة حقائق طالما غابت صورها عن جيلنا ويعطينا صورة متعددة الالوان والجوانب لنضال شعبنا، بما فيها من صفحات قاتمة وأخرى مشرقة، هدفه تقييم الماضي من أجل الحاضر، واستخلاص دروس التجربة لنعرف مواطىء اقدامنا في نضال اليوم.

وكان من البديهي استحالة تسجيل مختلف الوقائع والاحداث من تاريخ فلسطين الحديث في بحث موجز نسبيا، لذا حاول د. الكيالي، قدر استطاعته، التركيز على الاحداث الرئيسة، وتفاعل القوى الاساسية في تاريخنا الحديث، ويقع الكتاب في مقدمة وثمانية فصول بالاضافة الى ملحق وثائقي وآخر احصائي مع قائمة لمصادر البحث الرئيسية والهوامش. وتعرض فصول الكتاب بطريقة تتفق مع احداث سياسة بارزة، كما ترتب الوقائع ضمن الفصول حسب زمن وقوعها وتحت عناوين فرعية.

ويتناول الفصل الأول الخلفية الجغرافية التاريخية لفلسطين مؤكدا ان فلسطين جغرافيا، جزء من سورية الطبيعية، وصلة الوصل بين شطري الوطن العربي الآسيوي والافريقي، وهي تاريخيا قطعة من هذا الوطن العربي في تطوره التاريخي والحضاري. وهي بحكم موقعها كانت هدفا للاطماع الاستعمارية التي استهدفتها لذاتها وبغية التسلط على الوطن العربي ككل. وتفردت فلسطين باهتمام عربي خاص حين أصبحت هدفا للاستيطان الصهيوني الذي جاء وجها آخر للحركة التوسعية الغربية.

وتستقصي الفصول السبعة من الكتاب(٢) المراحل المتعاقبة للنضال الفلسطيني، والتي يمكن تقسيمها الى ثلاث مراحل:

المرحلة الاولى: هي التي رافقت البدايات الاولى للغزوة الصهيونية خلال العهد العثماني، في وقت لم تكن فلسطين معزولة عن التيارات والاتجاهات السياسية في المنطقة، وكانت القضية المطروحة هي مقاومة محاولات الصهيونية للهجرة واستملاك الأراضي واقامة المستوطنات. واتخذت ردود الفعل العربية ازاء الطبيعة الاستيطانية للصهيونية اشكالا كثيرة: الاحتجاج، وكتابة المقالات والبرقيات، واعمال العنف. ولعبت الصحافة دورا هاما في توعية الرأي العام والقيام بأعمال منظمة منسقة. وشملت حركة المقاومة قطاعات الشعب كله وتضامن فيها المسيحيون والمسلمون (ص ٤٤)، سوى بعض الملاكين الذين جنوا الارباح من عمليات البيع رغم الضرر بالفلاح المستأجر، وكان معظمهم من الملاكين الغائبين. ومع ان معارضة الوجهاء كانت تقتصر احيانا على لعب دور الوساطة الذي تعوده مابين الحاكم والمحكوم، وعلى نقل وجهة النظر الشعبية، الا ان هذا كان يدل على قوة الرأي العام وضغطه الذي كان لابد من أخذه بعين

الاعتبار ويظهر ذلك من حملات المرشحين لمجلس المبعوثان.

وانتشرت ردود الفعل لدى أهل الثقافة السياسية خارج فلسطين نظراً للاقتناع العام عند هؤلاء بأن مايصيب فلسطين يصيب العرب كلهم. ودفعت قضية المقاومة عربيا، وتبنت صحف عربية عديدة نافذة حملة مناوئة للصهيونية، رغم أن بعض الفئات خارج فلسطين استخفت بقدر الخطر الصهيوني، وهي ثغرة نفذت منها محاولات التفاهم.

لم تكن ردود الفعل خلال هذه المرحلة وليدة الصدفة والارتجال كما صورتها الصهيونية، بل نتيجة وعي تام لطبيعة الفكرة الصهيونية واهدافها وتهديدها للوجود القومي. ويلاحظ الدكتور الكيالي انه في حملة المعارضة تتجلى ظاهرتان، الأولى الاعجاب الضمني بالتقدم التكنولوجي والأساليب التنظيمية التي ينتهجها الصهيونيون، والثانية الادراك بأن المفاوضة العربية للصهيونية لايمكن ان تصبح فعالة الا من خلال اكتساب المعرفة والمهارة والتنظيم.

المرحلة الثانية: بعد دخول بريطانيا الى فلسطين وحتى ١٩٢٩ فقد كشفت محاولات فرض الصهيونية على عرب فلسطين وجه بريطانيا الحقيقي، كما توضحت طبيعة وسائل الحركة الصهيونية في تحقيق اهدافها، الامر الذي أدى الى أن يهب عرب فلسطين لمعارضة تصريح بلفور والانتداب البريطاني بجميع الوسائل المتيسرة لهم فتوالت الانتفاضات وتشكلت الجمعيات الاسلامية والمسيحية في محاولة لتصبح قوة تقف في وجه المنظمات الصهيونية. ولم يكن رد فعل الفلسطينيين هو الوحيد بل سعوا لاثارة المزيد من الاهتمام والتأييد العربيين، «ففي الوقت الذي أصبح فيه التقاء السياسات البريطانية والأهداف الصهيونية اكثر وضوحا، أخذ العرب الفلسطينيون يتطلعون الى اعادة توازن القوى من خلال توثيق عرى تحالفهم مع الحركة العربية العامة» (ص ١١٥).

وفي تقدير د. الكيالي ان المعارضة، رغم أنها لم تكن فعالة، لم تفشل كليا في هذه المرحلة، فقد وجدت السلطات البريطانية صعوبة متصاعدة في تطبيق سياسة موالية، ولم تكن المعارضة، كما صورها وايزمان «هياج مصطنع نتيجة دعامة طبقة (الافندية) التي تخشى ان تفقد مراكزها بسبب المنافسة اليهودية» (ص ١٥٠)، وأثبتت التقارير البريطانية ان المعارضة لم تكن عشوائية او سطحية بل كانت حركة واعية منظمة تزداد شدة وتنظيما وتعبر عن استياء شعبي عميق الجذور (ص ١٧٧).

وفشلت محاولات الادارة البريطانية من أجل كسب الرأي العام، ولم تتمكن من التغلب على العاملين الاساسيين اللذين تنبعث منهما المعارضة العربية، وهما الأساس السياسي والأساس الدستوري. فعلى الصعيد السياسي لم تكن الادارة في موقف يسمح لها بالغاء تصريح بلفور، اما على الصعيد الثاني «لم يكن في وسعها ان تغير تكوينها الاستبدادي البيرقراطي لتصبح دولة تمثل الشعب. ففي حين كانت اهداف الانتدابات في الاقطار الأخرى هي اعداد السكان المحليين بحيث يتمكنون من الاضطلاع بمهام الحكم الذاتي، فان الادارة الفلسطينية كانت ملتزمة بسياسة جامدة بالنظر الى ان منح حكومة ذاتية للاكثرية العربية في فلسطين لاينسجم مع سياسة الوطن القومي» (ص ١٧٣).

ويؤكد د. الكيالي ان الصراع مع الصهيونية وحد بين مصلحة جميع الطبقات نظرا للطابع الوطني والقومي لهذا الصراع، ولكنه يوقع اللوم على القيادة السياسية، من وجهاء وملاكين، التي ظلت تتمسك بدور الوسيط التقليدي الذي كانت تلعبه منذ العهد العثماني بين الحاكم والمحكوم وذلك رغبة منها في التقرب من الحكومة حرصا على مصالحها ومواقعها الطبقية. وعجزت هذه الطبقة عن قيادة الشعب في حالات كثيرة من النزاع رغم وضوح التحالف البريطاني الصهيوني ولم تتحدَ سلطة الانتداب بشكل سافر رغم مناوئتها للصهيونية. ورفضت أن تشجع قيام اي حركة ثورية (ص ٢١٥)، وكان من المتعذر استخدام العنف بدون قيام «منظمة تهدف الى الثورة وتتوفر لديها الوسائل اللازمة» (ص ١٩٥) وسعت السلطات البريطانية لكسب تأييد المعتدلين، اي ذوي المصالح الثابتة والمستقرة بابداء المودة الشخصية والتساهل السياسي (ص ١٥٩). وبرأي المؤلف انه هنا تكمن ورطة العرب الفلسطينيين المعتدلين، فمع انهم كانوا معارضين للصهيونية وفشلت كل الجهود للتوفيق او اللقاء فقد «كانوا عملياً يقدمون المساعدة للصهيونية من خلال الولاء لبريطانيا الموالية للصهيونية» (ص ١٢٦).

يعزو د. الكيالي هذا العجز الى الرهبة من القوة العسكرية البريطانية او الى الاحساس بان انشاء الوطن القومي امر مفروغ منه، ويطلق على هذا الموقف بأنه «احجام الشيوخ» يقصد بهم اولئك الزعماء السياسيين المتقدمين في السن الذين كانوا يمثلون الجيل الاكبر الاكثر اعتدالاً وبعداً عن المقاومة والاشد ميلا للواقعية منهم الى المثالية، الذين كانوا رغم عدائهم لايرغبون بالصدام ويتبنون سياسة التهدئة، ويؤثرون الحصول على حكم ذاتي محلي واحداث تغيير في السياسة البريطانية من خلال التصميم السلمي والاقناع الودي والعمل الدعائي، (ص ١٥٧). الا ان هذا الموقف قد ادى الى انتقاص مكانتهم ونفوذهم (ص ١٧٨، ص ١٨٩) في حين اخذت عناصر فتية تحظى بالفاعلية والتأثير، وتنتمي هذه العناصر الى الجيل الصاعد المثقف الذي كان يمت في غالبيته الى الطبقة الاولى وينتسب بعضهم الى الطبقة الوسطى، وكان هؤلاء الشباب، وهم على الأغلب غير مسؤولين، اكثر اقداماً واكثر قدرة على الحركة واكثر خطرا على بريطانيا واكثر اتصالا بالعشائر والقرويين الذين كانوا اشد استعدادا للثورة لان لديهم مخاوف حقيقية، (ص ١٦٨).

ويدلل د. الكيالي بأمثلة كثيرة ان الخلاف بين الجيلين لم يصل حد المواجهة او الصراع كما انه لم يكن دليلا على اختلاف طبقي، بل هو تفاوت في ذهنية الاجيال وخلاف بين عقليتين او ماأسماه «اقدام الشباب واحجام الشيوخ». فقد كان هناك حرص على الوحدة الوطنية اي ايجاد قدر مشترك بين افراد المعسكر المناوىء للصهيونية، وتركيب اللجنة التنفيذية يعكس هذا الواقع. وقد شرح الوفد الفلسطيني الاول إلى لندن لوزير المستعمرات الرقابة الشعبية الملتزم بها حتى لو وجد حد من التساهل (ص١٨٤). واعترف هربرت صموئيل (أول مندوب سامي) بوجود عناصر متطرفة هي الفاعلة وذات تأثير رغم المسايرة (ص١٦٠). ويشير د. الكيالي (ص١٨٧) أنه حين فقد الفلسطينيون أي أمل بالظفر بأي كسب حاسم عن طريق الجهود الدبلوماسية جرى تنسيق وتعاون بين القيادة الوطنية والنشاطات السياسية في المناطق الريفية.

ويعطي د. الكيالي صورة الموقف في فلسطين اواخر هذه المرحلة: لقد تصاعد الاعتقاد باستبعاد حدوث أي تغيير جذري في السياسة البريطانية في فلسطين خلال المستقبل المنظور بعد ان بدا ان الحكومة البريطانية تتمسك بالتصريح وسياسة الوطن القومي مسترشدة بنظرية «الالتزام المزدوج» و «مبدأ الطاقة الاقتصادية على الاستيعاب» بشأن الهجرة، وادرك الجميع بأن بريطانيا والانتداب هما الحاميتان الفعليتان لانشاء اكثرية وسيطرة يهوديتين ثم طرد العرب، وبدأت تظهر معالم تغير في الاستراتيجية الفلسطينية وتولد اتجاه نحو الاعتقاد بأن الطريقة الوحيدة للمقاومة انما هو «معارضة الانتداب البريطاني كمجموع والتحرك نحو الاستقلال التام» (ص ١٩٩)، وجدت مدرستان فكريتان احداهما تدعو الى المقاومة السلبية غير العنيفة والاخرى تدعو الى انتهاج اساليب ثورية، وتتبنى الاستفادة من البدو للقيام بحرب عصابات (ص ٢٠٠)، وحاول الانتداب تعزيز قوة العناصر الاكثر ميلا للتعاون. ولم يكن ظهور هذه العناصر بدافع من الاعتبارات السياسية وحسب، بل ينبثق من العداوات العائلية البالغة الحدة والتي تعود الى اجيال بعيدة زادتها حدة السياسات الاستعمارية التقليدية الحريصة على ايجاد توازن بين العائلات المتنافسة.

وقبل نهاية ١٩٢٨ بدت علائم تشير الى ان فترة الركود السياسي قاربت على الانتهاء (ص ٢٣٠) وكانت الشرارة التي ألهبت الاضطراب مشكلة دينية، مع أنه «لم يكن للعنصر الديني سوى أثر ضئيل في نمو العداء العربي ضد الوطن القومي اليهودي. فالقومية في فلسطين كانت ذات طابع سياسي» (ص ٢٣١) وعجز المعتدلون عن الحيلولة دون العنف وتوضح خلال الاحداث عدم قدرة الزعماء على قيادة الجماهير في الصراع ضد الصهيونية والسياسة البريطانية (ص ٢٤١)، الا ان هؤلاء انفسهم اعربوا عن تعاطفهم مع الثورة «وأصبح حديث كل الطبقات ان قيام اضطرابات عامة هي الوسيلة الوحيدة لانقاذ البلاد» (ص ٢٤٦)، وتعزز مركز الثوريين الذين كانوا يدعون الى اللجوء الى العنف في معارضة الانتداب البريطاني باعتبار ذلك الوسيلة الوحيدة للحيلولة دون سيطرة الصهيونية.

ويقف د. الكيالي طويلا عند النتائج التي تمخضت عنها الحقبة حتى ١٩٢٩ بدأت المعارضة فيها همسا وانتهت بمعارضة عنيفة للشراكة الانكلو صهيونية ارتكزت الى شعبية عميقة ميالة الى شن صراع مسلح كوسيلة لاحداث تغير في السياسات البريطانية الموالية للصهيونية في فلسطين. فبعد هذه الحقبة تطور الصراع العربي ضد الصهيونية الى مجابهة بين الفلسطينيين العرب وحكومة الانتداب والصهيونية في آن معا (ص ٢٤٩).

المرحلة الثالثة: وتبدأ هذه المرحلة ١٩٣٠ برسالة مكدونالد رئيس الوزارة، (الكتاب الاسود) الذي يتمسك فيه بنصوص صك الانتداب وكانت بمثابة لطمة لا للزعامة العربية التقليدية بل لسياستها المتساهلة الداعية للتفاهم (ص ٢٦٣) فقد ظلت هذه الزعامة ترى أنه بالامكان احداث تغير جذري في السياسة البريطانية بالطرق السلمية وكانت مصممة على التمسك بمواقفها التقليدية والرغبة في التوصل الى تفاهم مع الحكومة يحول دون سيطرة الصهيونية.وجاء بيان اللجنة التنفيذية ردا على رسالة مكدونالد وفيه «فقدان الامل ببريطانيا ودعوة الى الكفاح القانوني والفعال في سبيل استعادة حقوق الفلسطينيين المهضومة» (ص

٢٦٢).

وادت رسالة مكدونالد الى انتهاج استراتيجية جديدة تقوم على اساس تحالف وتعاون أوثق مع العالمين العربي والاسلامي بغية تحقيق الاستقلال الفلسطيني ضمن اطار الوحدة وفتح ذلك الطريق امام قوتين سياسيتين كانتا قد بدأتا باكتساب قدر اكبر من الاهمية وعنصر المبادرة: قوة المجلس الاسلامي الاعلى بزعامة الحاج أمين الحسيني، والتي كانت قد تجاوزت حدود الدوائر الدينية، وقوة التيار القومي من المناضلين الشباب (حزب الاستقلال)، والتي دفعت العمل الى مستوى جديد من النشاط والكفاح «واكرهت العناصر المعتدلة على تقديم بعض التنازلات للمتطرفين حتى تستطيع الحفاظ على قيادة ربما أصبحت مزعزعة». (ص ٢٦٥).

وبتقدير د. الكيالي «ان المفتي كان القوة الوحيدة القادرة على تغيير الموقف» (ص ٢٨٤) وان سلطته الواسعة على الفلاحين ونجاحه في الوصول الى مستوى الصدارة ضمن صفوف الحركة الوطنية، واقتناعه، لاسباب تتعلق بمركزه الرسمي ومصالحه الشخصية، بالارتباط بخط سياسي مناهض للسياسة البريطانية بصورة سافرة، ينم عن مهارة سياسية كبرى لايمكن تفسيرها الا على ضوء الحالة القائمة داخل المعسكر السياسي الفلسطيني: فخصوم المفتي كانوا أشد موالاة لبريطانيا ولذا لم تكن اتهاماتهم ذات أثر، اما الكتل الاخرى الاكثر تطرفاً فلم تشكل تحديا له او خطرا حقيقيا، كما ان المفتي قد أقام تعاونا وتحالفا مع العديد منها. ويرجع د. الكيالي اسباب تساهل المفتي تجاه السلطة البريطانية ومعارضة اي شكل من اشكال المواجهة، في انعكاس لخوفه من القوة العسكرية البريطانية وادراكه ان العرب لايستطيعون الانتصار في اي صدام مباشر مع بريطانيا،«غير أنه من الناحية الاخرى لايستطيع بوصفه زعيما للحركة الوطنية ان يلتزم الصمت والهدوء وهو يرى الهجرة يزداد نطاقها» (ص ٢٦٦).

ومع ازدياد حملة الاستقلاليين الجذرية قوة بعد تعاظم الهجرة، كانت الادلة توحي بقيام وضع من الوحدة والتصميم وكشفت احداث ١٩٣٣ ان العرب مصممون على اللجوء الى العنف للحيلولة دون تنفيذ مضمون صك الانتداب"ودفعت الزعامة نحو التطرف" (ص ٢٧٩) وتخوف المندوب السامي (واكهوب) بأن يظفر المتطرفون العرب بالسيطرة التامة «ويصبح التعاون اشد صعوبة وبالتالي مستحيلا» (ص ٢٧٣). ولما لم يكن هناك من امل ان تستجيب الحكومة لمطالب العرب بشأن الهجرة وبيع الاراضي والحكومة الذاتية اصبح من الواضح ان البديل الوحيد الباقي للحيلولة دون اقامة وطن قومي هو اللجوء الى الثورة المسلحة (ص ٢٩٤)، فكانت ثورة القسام التي ادخلت عناصر جديدة لحركة النضال:الفلاحون والعمال. وكانت الثورة رغم فشلها، «نبراسا اضاء للفلسطينيين الطريق الوحيد الباقي ليسلكوه في مقاومة استيلاء الصهيونيين على البلاد» (ص ٢٩٩)، وألقت ظلا كبيرا على المسرح السياسي وأصبحت كل محاولة لاقامة تقارب مع السلطات مكتوبا عليها بالفشل.

«واضطر الزعماء السياسيون مكرهين انتهاج سياسة أقل تقربا من بريطانيا» (ص ٢٩٥) وحذر (واكهوب) حكومته بأنه لو فقد الزعماء نفوذهم فستختفي امكانات تهدئة الحالة الحاصرة بالوسائل السلمية (ص ٢٩٥).

وجاءت احداث ١٩٣٦، ويقول د. الكيالي بأنها اخذت الزعماء على حين غرة، ولكن هؤلاء كانوا حريصين على «ركوب موجة المشاعر الثائرة» (ص ٣٠٤)، وتشكلت اللجان القومية في جميع المناطق بقيادة الاستقلاليين ودعت للاضراب وتجاوبت الاحزاب السياسية مع الحركة، وكان الشعور المناهض للبريطانيين هو الظاهرة البارزة في دعوة اللجان الى الاضراب. وتشكلت اللجنة العليا برئاسة المفتي لتنسيق نشاطات مختلف اللجان، وتبنى مؤتمر اللجان القومية في القدس مبدأ"لاضرائب بدون تمثيل" مؤكداً ان هدف النضال هو استقلال فلسطين ضمن الوحدة العربية وشارك الطلاب والنساء في رفع الروح المعنوية ومارست الجماعات المسلحة نشاطا في انحاء متفرقة من البلاد شملت المناطق الريفية. وأوضحت التقارير البريطانية ان جميع سكان القرى والمدن متحدون، وان الاضراب يتمتع بعطف العرب الكامل، وان العصابات المسلحة تلقى التأييد والمساندة من القرويين، وان المقاومة المسلحة لم تقتصر على قطاع الفلاحين بل عمت المدن (ص ٣٠٧، ص ٣١٢). وفكرت وزارة المستعمرات بازاحة المفتي عن المسرح السياسي، الا ان (واكهوب) في تقرير له لم يشأ المبالغة في دور المفتي، اذ أن «مخاوف العرب الحقيقية من الصهيونية هي مصدر الاضطراب والخوف من سيطرة يهودية وشيكة يحس بها الجميع، وأن الهيئات التي نظمت الاضراب والثورة انبثقت الى الوجود محليا وتلقائيا» (ص ٣١٦).

ومع ان المناخ السياسي لدى الرأي العام كان ضد الاعتدال وضد قيام تعاون مع الحكومة، الا ان اللجنة العربية العليا، وقد واجهت الانشقاق داخل صفوفها والضغط من الحكام العرب، اضطرت الى الاستسلام ودعت الى حل الاضراب ووقف اعمال الثورة (ص ٣٢٣) واستقبل عرب فلسطين توصيات لجنة التحقيق (بيل) صيف ١٩٣٧ بالاستياء لانهم عارضوا خلق دولة يهودية فوق أرض عربية «وكان الاتحاد الذي أبداه المسيحيون والمسلمون والفلاحون وملاكو الارض فيما يتعلق برفض الاقتراح اشد، على الأرجح، مما أبدوه في أي وقت مضى. فقد كان الشعور العام لدى سكان هذه المنطقة انهم ذهبوا ضحية الخيانة وانهم سيجبرون على التخلي عن اراضيهم والهلاك في مكان ما من الصحراء"(ص ٣٣٢). وكان تجدد الثورة ضربة قوية لمشروع التقسيم وللمعتدلين وأصبح على بريطانية ان تواجه شعبا ثائرا، فتشكلت لجان قومية جديدة ذات قواعد شعبية واسعة وكان ممثلو المناطق القروية في هذه اللجان يشكلون اكثرية الثلثين، وعمل المثقفون مستشارين لدى القيادات الثورية. واجتذبت الثورة مزيدا من المتطوعين، وأصبح تنظيمها اشد احكاما، وكان الاتصال قائما بين القيادة في الجبال والمناضلين داخل المدن، كما ان التشكيلات الثورية كانت على اتصال مع القيادة العليا في دمشق. ووصف تقرير بريطاني الثوار بأنهم أسياد الموقف (ص٣٤٤)، «بحيث انجرف الجميع في تيار العداء مهما بلغت عواطف الاعتدال» وأدى اتساع الثورة الى اجراءات بريطانية شديدة لانتزاع زمام المبادرة من الثوار.

واتجهت بريطانيا نحو اقناع العرب بالتفاهم لاحتواء الثورة، وأدخلت «الى المسرح الحكام العرب الاكثر ميلا للتعاون» (ص ٣٤٥). ووضعت في لندن خطوط سياسية ترمي الى وضع حد مبكر للثورة وحمل العرب على التزام الهدوء اثناء حرب في المستقبل مع ألمانيا (ص ٣٤٧). وصدر بيان حكومي يلغي مشروع التقسيم باعتباره غير عملي، ويدعو الى عقد مؤتمر بين ممثلي الدول العربية واليهود، الغاية منه فرض حل

بريطاني يرتضيه الجانبان ويمتص الثورة. ومع ان لندن أصبحت مركز الثقل فقد سارت اعمال الثورة مع المفاوضات وتصاعد الضغط البريطاني على الثورة لاعادة احتلال البلاد عسكريا. وقد تلخصت المطالب العربية التي طرحها وفد فلسطين بما يلي: «الاستقلال والتخلي عن الوطن القومي وابطال الانتداب» (ص ٣٥٤). وتعثرت محاولات الوصول الى اتفاق على حساب تنازلات عربية، وأخيراً فرض الحل البريطاني في الكتاب الأبيض ١٩٣٩، هدفه أن يقيم في غضون عشرة أعوام دولة فلسطينية مستقلة ترتبط ببريطانيا بمعاهدة تصون على نحو مرض جميع المصالح التجارية والاستراتيجية لكلا البلدين (ص ٣٥٦) ومع ان اللجنة العربية العليا قد رحبت باعتراف بريطانيا بحقوق العرب من حيث المبدأ ولكنها اعربت عن اسفها لتخلف بريطانيا عن منح الفلسطينيين استقلالهم«الذي هو اقدس حقوق الشعوب واثمن مطامحها» (ص ٣٥٧)،، وحتى هذا الاستقلال المؤجل جعل لليهود حق في نقضه، بحيث يتوقف تنفيذه على تعاونهم. وهكذا رفضت اللجنة العربية العليا الكتاب الابيض بوصفه «لايحقق مطالب العرب التي تتلخص في ان تظفر فلسطين باستقلالها ضمن اتحاد فدرالي عربي» (ص ٣٥٧).

ورغم الجهود لمواصلة الثورة ومحاولات بعث الحياة فيها، اسهم الانهاك وطول الفترة والضغط العسكري المتواصل والامل في ان تتحقق بعض جوانب الكتاب الابيض، بالاضافة الى معاناة العجز في الاسلحة والذخائر، كل ذلك أسهم في عرقلة استمرار الثورة، ومع نشوب الحرب كانت الثورة في طريق' الاضمحلال فلاقت نهايتها «بهدوء يكاد يكون مفجعاً»(ص ٣٥٩).

ينهي د. الكيالي كتابه بتقييم علمي رصين هو خلاصة فكره وقناعاته التي سعى الى توكيدها بالدليل التاريخي الصحيح.

وكتاب «تاريخ فلسطين الحديث» يثير عددا من الاسئلة حول قيمته كمرجع تاريخي هام من مراجع القضية الفلسطينية وحول المنهج المتبع فيه. فللتاريخ طريقة ومعايير في الكتابة يجب ان يراعيها كل مؤرخ(٣) وتتلخص في:

أ) الاعتماد على المصادر الأولية، وبحثها ودرسها واستخلاص الحقائق منها.

ب) قدرة المؤرخ على نقد ماتحت يده من المصادر فلا يجوز أن يقبل كل كلام او يصدق كل وثيقة او مصدر بغير الدرس والفحص والاستقراء، واذا أعوزته ملكة النقد اصبح مجرد شخص يحكي كل مايبلغه على أنه حقيقة واقعة.

ج) بُعدُ المؤرخ عن التحيز والاهواء ومطابقته للواقع والحقيقة التاريخية بقدر المستطاع، والكتابة التي يتعمد فيها المؤرخ ان يتخذ اتجاها معينا ويحاول اخضاع الموضوع لرأيه وفكره، لايمكن ان يعد ماجاء بها معبرا عن الحقيقة التاريخية، وعلى المؤرخ ان يكون امينا شجاعا مخلصا، فلايخفي الوقائع التي قد لايعرفها غيره، او التي قد لاترضيه، ولا ريب ان الكشف عن عيوب الماضي وأخطائه تفيد الى حد كبير في السعي الى بحث عوامل الخطأ في الحاضر، وعدم الكشف عنها يعد تضليلا عن المصلحة الوطنية ولايمكن أن يكتب التاريخ بغير التوصل الى الوقائع الصحيحة.

د) توفر الوحدة التاريخية في الكتاب الموضوع، والسير بمقتضى هيكل محدد يجعل واضحا في ذهن القارىء

الاتجاه العام الذي يتبعه، فلا يكتب التاريخ الا اذا كان المؤرخ ذا عقل مرتب منظم كي يستطيع ان ينسق انواع الحقائق ويفيد بها في الوضع المناسب ولكي يكون قادرا على تحديد العلاقة بين حوادث التاريخ وعلى الربط بينها في اتساق وتوافق، وبغير ذلك تختلط الحوادث أمام المؤرخ وتضطرب تفصيلاتها ويعجز عن الربط بينها ويفقد صفة المؤرخ. فالى أي حد التزم كتاب د. الكيالي بالمعايير السابقة؟

أ) انفرد كتاب تاريخ فلسطين الحديث بتسجيل الحركة الوطنية في فلسطين استنادا الى المصادر الاولية المتناثرة في اماكن متفرقة في الولايات المتحدة وبريطانيا ومصر والمشرق العربي. ولم تجر محاولة عربية سابقة للتعرف على قضيتنا من خلال المصادر ذات القيمة الاولية، وكثير من الكتب التي تناولت تاريخ فلسطين وحركتها الوطنية اعتمدت على المعلومات الشخصية او على مراجع عربية وأجنبية منشورة. ولم يتمكن احد من المؤلفين الذين سبقوا د. الكيالي من الاستفادة بالطريقة المثلى التي استفاد منها من الوثائق البريطانية السرية الرسمية. ومن المؤكد ان الوثائق البريطانية هي الوجه الآخر من تاريخنا، ومن أهم مصادره لان بريطانيا كانت صاحبة العلاقة الاولى خلال هذه الفترة، وكانت الاقدر على جمع المعلومات والاحتفاظ بالوثائق. بالاضافة الى ذلك فقد رجع د. الكيالي الى كل المصادر العربية الاولية المتاحة(٤)، وكان من أول الذين انكبوا على مراجعة الصحف العربية والفلسطينية. والكتاب يهدى الباحثين من خلال تلك الصحف الى كنز من المعلومات لم يجر الكشف عنها من قبل، ولاشك ان الصحافة مصدر هام من مصادر البحث تكسب المادة الرسمية الحياة والتعليل والشرح.

ب) اتبع د. الكيالي في كتابه اسلوب التحقق والتدقيق في الوقائع التاريخية واستجلاء كنه الوثائق، وهو كمؤرخ عرض الوقائع في تسلسل حسب زمن وقوعها وبطريقة مبوبة مرتبة واضحة وانطلق منها نحو التحليل والنقد والتقييم، واخرج بذلك دراسة عميقة دقيقة مفصلة مستقاة، تصور الواقع بكل امانة واخلاص ونزاهة، وبموضوعية هادفة تخدم تبيان الحقيقة الناصعة لنضال شعبنا، وتدحض الادعاءات المختلفة لتزييف تاريخنا دون اللجوء الى الاسلوب التدريسي والقوالب الجامدة والاحكام المسبقة.

ج) الف د. الكيالي الكتاب بقصد ابراز عدد من المفاهيم العامة والنقاط الأساسية:

ـ حقيقة النضال الفلسطيني:

فالوقائع التاريخية تثبت بما لايقبل الشك وعي الشعب العربي الفلسطيني المبكر على اخطار الصهيونية والاستعمار، وتؤكد بشكل قاطع ان النضال العربي الفلسطيني لمقاومة هذه الأخطار لم يتوقف. ومر بمراحل مختلفة تبعا لتراكم الظروف فتصاعدت حدته في فترات معينة مع ازدياد التحدي، احيانا ليمر بفترات هدوء واستعداد لتجديد المواجهة واتخذ اشكالا عديدة وتبنى مختلف الاساليب الكفاحية من الحملات الاعلامية في الصحف والبرقيات والعرائض وانشاء الجميعات وعقد المؤتمرات وارسال الوفود، الى المقاطعة فالاضراب فالعصيان المدني وصولاً الى مستوى الثورة المسلحة. وقدم الشعب الاف الضحايا وصمد ببطولة جديرة بالاعجاب ضد اعتى الامبراطوريات التي عرفها التاريخ.

ـ الجوانب الاجتماعية الاقتصادية للقضية الفلسطينية :

كان التحديث بين العرب والصهيونية ذا أبعاد اقتصادية اجتماعية مثلما له بعد سياسي واستطاع د. الكيالي القاء الضوء على كثير من الاحداث والتطورات السياسية من خلال دراسة خلفيتها الاجتماعية الاقتصادية : فمقاومة الصهيونية لم تكن حركة سياسية بحته اذ ان الهجرة اليهودية كان لها تأثيرها على البنية المتغيرة للمجتمع العربي، وادت الى تهديد الفلاح بتجريده من أرضه وباجلائه وبانقطاع مورد عشيه، كما هددت حياة العمال والمتعلمين والطبقة البورجوازية الناشئة في المدن بسبب سيطرة اليهود على القطاعات التجارية والصناعية وتدفق رؤوس الاموال اليهودية ومنافسة الصناعة اليهودية. ولمواجهة هذه الأخطار استرعت انتباه الرأي العام الاهداف الاجتماعية والاقتصادية لحركة النضال وغدا تحسين الاوضاع الاجتماعية الاقتصادية جزءا من البرنامج السياسي.

ويؤكد د. الكيالي ان التناقضات الاجتماعية والاقتصادية داخل المجتمع العربي الفلسطيني، رغم اهميتها، كانت ثانوية في حركة النضال لان الغزو الصهيوني كان عدوا قوميا وطبقيا يتهدد المجتمع العربي بكامله، الامر الذي جمد ظهور بعض التناقضات وادى الى مشاركة مختلف الطبقات وبوسائل مختلفة متباينة الاندفاع والقوة بالتعبير عن معارضتها للصهيونية والهجرة اليهودية، وساعد على ابقاء الزعامة السياسية بيد العائلات الكبيرة وطبقة الوجهاء.

دور الزعامات :

تناول د. الكيالي بالتحليل دور الزعامات في الحقل السياسي وقدراتها الفردية ومؤهلاتها وأهدافها وأساليبها ودوافعها وانتماءاتها الطبقية فعمق مفهوماً للدور الذي تلعبه الشخصيات في السياسة. ووجه النقد في كثير من الاحيان الى زعامة الوجهاء والملاكين من الجيل القديم ووصفها بضيق الافق ومحدودية الطموح والمهادنة، وانها لم تكن في مستوى الاحداث، فهي رغم اتفاقها على ضرورة احلال الاستقلال محل السيطرة الاجنبية والقضاء على الوطن القومي انقسمت فيما بينها حول اساليب معارضة الوطن القومي والموقف من بريطانيا، ولم تستطع مواجهة الحقائق المترتبة على تبني بريطانيا للصهيونية فأحجمت عن محاربة بريطانيا الى ان تمكنت الصهيونية من استقدام اعداد كبيرة بحيث اصبح الوطن القومي حقيقة قائمة عشية اندلاع الثورة. ثم ان القيادة السياسية انشغلت بقضايا جانبية اضعفت زعامتها، وكانت تغذي النزعات العشائرية والقبلية وتعارض تعبئة الجماهير وتنظيمها تنظيما ثوريا، ولم تربط بين معارك الجماهير وترقية أحوالها وتقدمها الحضاري. واختلفت في الرأي مع الجيل الجديد من ابناء الطبقة الوسطى وسكان الريف الذين كانوا امضى عزيمة واشد تصميما في مقاومة الغزو. وهذا ماأوقع التصادم بين جيل قديم حريص على الاساليب والقيم القديمة وبين جيل جديد مستعد لقبول قيم جديدة، وادى الى ان يتخطى الشعب قياداته السياسية في بعض الاحيان.

مع ذلك استطاعت طبقة الوجهاء الحفاظ على مواقعها القيادية بسبب طبيعة الظلم الصهيوني من

جهة، وبسبب ضعف البنيان الطبقي العام للطبقة الوسطى وتخلف الجماهير الفلاحية وسيادة العلاقات العائلية العشائرية وسطوة المفاهيم الدينية، وهي امور حالت دون نشوء تنظيمات وقيادات فلاحية تحل محل زعامات العائلات الكبرى. ولايعني ذلك ان زعامة المفتي لم تلعب دورا بارزا في اذكاء روح الحركة النضالية ضد السياسة البريطانية والهجرة، وهي زعامة كانت نتاج تنشئة تقليدية، وكان المفتي يملك تقريبا جميع المؤهلات الشخصية وغير الشخصية التي تتيح للزعيم التمتع بقوة ومكانة تضمنان كسب التأييد الشعبي. وقام المفتي بالعمل السياسي وفقا للاساليب التقليدية والتي كانت الوسيلة الوحيدة المتوفرة لديه للضغط على السلطات البريطانية كي توقف الهجرة الى فلسطين وتمنع بيع الاراضي العربية لليهود، ولم يظهر اي استعداد لتغيير اهدافه واساليبه او تعديلها واثبتت هذه الاساليب انها تلائم مجتمعا يشهد تغيرات اجتماعية سريعة ويتعرض لتحديات من مجتمع آخر.

عروبة القضية :

رصد د. الكيالي حقيقة أهداف السياسة البريطانية الاستعمارية والمخططات الصهيونية كمؤامرة، ليس ضد شعب فلسطين وحسب، بل ضد وحدة الامة العربية وتقدمها الحضاري. ومنذ البداية شغلت قضية فلسطين اهتمام الامة العربية بسبب الطبيعة الخاصة للحركة الصهيونية التي تختلف عن طبيعة اي احتلال اجنبي وتهدف الانتزاع النهائي لاقليم هام له مكانته الخاصة في قلب الوطن العربي والوقوف في وجه الوحدة العربية وتهديد مصالح الوطن العربي الحيوية ومن أجل ذلك ارتبط النضال الفلسطيني في التاريخ المعاصر بالقضايا العربية الاخرى ارتباطا عضويا وشكلت قضية فلسطين قضية محورية للحركة العربية التي كانت تعمل على تحرير بلادها من الوجود الاستعماري الاقتصادي والسياسي. وصحيح ان الظروف خلال عهد الانتداب حكمت على عرب فلسطين مواجهة الضغط الصهيوني وحدهم، اعلنوا عن ان نضالهم ضد انشاء الوطن القومي اليهودي ليس مجرد نضال محلي، وانما هو موقف عام ضد الصهيونية التي تهدد الوطن العربي ككل. ولم يغب عن اذهانهم ان في وسعهم بمساعدة العرب ان يقاوموا الصهيونية بنجاح اكبر والا اقيم الكيان الصهيوني قاعدة لترسيخ التجزئة، وكان هذا الشعور عاملا هاما في تأكيد اهمية التضامن العربي خلال فترة الانتداب رغم واقع التجزئة التي فرضت نفسها على الحركة العربية.

ـ اسباب الفشل :

بتحليل علمي هادىء يرجع د. الكيالي فشل حركة النضال الفلسطيني في الفترة بين الحربين الى عدة عوامل فبالاضافة الى تخلف القيادة السياسية وغياب التنظيمات الجماهيرية الواسعة كان العامل هو فقدان التوازن في القوة بين العرب واعدائهم من استعمار وصهيونية : شعب فقير ضئيل العدد يواجه تحالف امبراطورية قوية وصهيونية عالمية ذات نفوذ، وقوة مستوطنين يهود لديهم تنظيم وتسليح. ويربط د. الكيالي فقدان التوازن في المجابهة مع الاستعمار والصهيونية بالاوضاع العربية : فالتجزئة هي التي مكنت الاستعمار والصهيونية من استفراد شعب فلسطين وقهره، كما ان قيام الكيان الصهيوني كقاعدة امامية للاستعمار ساعد

الدول الغربية في الحفاظ على التجزئة والضعف. ويشير الى ان الوضع الدولي في فترة بين الحربين لم يكن مواتيا لانتصار حركات التحرر الوطني فالدول الاستعمارية تهيمن على العلاقات الدولية والموجة الاستعمارية لاتزال ممتدة، كما ان الصهيونية تحظى بتأييد جماعي من الدول الغربية.

ويخرج د. الكيالي بنتيجة مشرفة تقيم حركة نضالنا ان «الشعب العربي في فلسطين لم يسجل على نفسه، رغم كل الضغوط، ورغم تخاذل بعض الزعامات السياسية، سابقة استسلام او رضوخ للامر الواقع لا امام الصهيونية ولا امام الاستعمار البريطاني ومن هنا كانت هزيمة العرب في فلسطين وليدة القهر لا وليدة التخاذل. .»

واخيراً:

فان الجهد الجبار الذي تميز به كتاب «تاريخ فلسطين الحديث» في مضمار البحث والتنقيب واستنباط الحقائق والمعالجة الشجاعة المخلصة، يحفظ له مكانته المتميزة في مكتبتنا العربية الفلسطينية لتأريخ حركتنا الوطنية منذ مهدها وحتى نشوب الحرب العالمية الثانية.

الهوامش:

(١) بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٠ (الطبعة الاولى)

(٢) المقاومة العربية الفلسطينية قبل الحرب العالمية الاولى - الحرب العالمية الأولى: المؤامرات الاستعمارية ضد الوحدة العربية وعروبة فلسطين - من الاحتلال البريطاني الي ثورة العشرين - مرحلة التبلور ١٩٢٠ - ١٩٢٣ - هدوء وركود ١٩٢٣ - ١٩٢٩ ماقبل العاصفة ١٩٣٠ - ١٩٣٥ - الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦ - ١٩٣٩

(٣) حسن عيتان، منهج البحث التاريخي القاهرة، ١٩٧٠ (طبعة ثالثة) ص ٢٢

(٤) جمع د. الكيالي وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية في كتاب مستقل عنوانه «وثائق المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨ - ١٩٣٩» مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت ١٩٦٨.

حديث الانتفاضة.. ومقولة «الدولة المستقلة»

عوني الصادق*

لاقت قرارات المجلس الوطني الفلسطيني، في دورته التاسعة عشرة المعقودة في الجزائر في الفترة من ١٣ - ١٥/١١/٨٨، قبولاً حسناً على الصعيدين العربي والدولي. وكانت أسباب هذا القبول تتلخص في ما اعتبر «سياسة واقعية» قررت القيادة الفلسطينية اتباعها معتمدة على «الشرعية الدولية» ودعم «الرأي العام العالمي» للوصول الى تسوية للقضية الفلسطينية وحل مايسمى «أزمة الشرق الاوسط» من أجل «إحلال السلام في المنطقة».

ويرى كثيرون أن القيادة الفلسطينية لجأت الى «اللغة الجديدة» التي أقرتها قرارات المجلس الوطني، بحثاً عن «لغة مشتركة» مع القوى الدولية الفاعلة والتي تأمل - القيادة - فيها أن تعترف للشعب الفلسطيني بما اعترفت به للحركة الصهيونية في العام ١٩٤٧، وأرادت من خلالها أن تنفي عن منظمة التحرير الفلسطينية تهم «تدمير اسرائيل» و «ممارسة الارهاب»، معترفة بالقرارين رقم ٢٤٢ ورقم ٣٣٨ و «بحق اسرائيل في الوجود والعيش بسلام في حدود آمنة ومعترف بها.».

ويمكن بذلك القول إن «البراغماتية» انتصرت أخيراً في الساحة الفلسطينية مسنودة «بدعم الاشقاء العرب» و «تشجيع الاصدقاء» من غير العرب. وقبل ذلك بأربعة عشر عاماً انتصرت «المرحلية» في المجلس الوطني ودورته الثانية عشرة، عندما أقر برنامج «النقاط العشر» وقد يجد الكثيرون العذر للسياسة الفلسطينية الجديدة، في عالم تحكمه المصالح وتسود فيه «الذرائعية»، ووضع عربي يفتقر الى القوة اللازمة لفرض القانون والعدالة. وفي اطار تعريف «متفق عليه» يفيد بأن «السياسة فن الممكن» يصبح هدف إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة هدفاً أكثر واقعية وأكثر قبولاً لدى الرأي العام العالمي من هدف «مطلق» مثل المناداة بتحرير فلسطين، خصوصاً أنه يمكن دائماً، لمن يريد، أن يلجأ الى شعار «المرحلية» وأن الهدف الاول لايخلو من «طموح» مادامت الوسائل سياسية.

---

* صحفي وباحث من فلسطين

الدول الغربية في الحفاظ على التجزئة والضعف. ويشير الى ان الوضع الدولي في فترة بين الحربين لم يكن مواتيا لانتصار حركات التحرر الوطني فالدول الاستعمارية تهيمن على العلاقات الدولية والموجة الاستعمارية لاتزال ممتدة، كما ان الصهيونية تحظى بتأييد جماعي من الدول الغربية.

ويخرج د. الكيالي بنتيجة مشرقة تقيم حركة نضالنا ان «الشعب العربي في فلسطين لم يسجل على نفسه، رغم كل الضغوط، ورغم تخاذل بعض الزعامات السياسية، سابقة استسلام او رضوخ للامر الواقع لا امام الصهيونية ولا امام الاستعمار البريطاني ومن هنا كانت هزيمة العرب في فلسطين وليدة القهر لا وليدة التخاذل..»

واخيراً:

فان الجهد الجبار الذي تميز به كتاب «تاريخ فلسطين الحديث» في مضمار البحث والتنقيب واستنباط الحقائق والمعالجة الشجاعة المخلصة، يحفظ له مكانته المتميزة في مكتبتنا العربية الفلسطينية لتأريخ حركتنا الوطنية منذ مهدها وحتى نشوب الحرب العالمية الثانية.

الهوامش:

(١) بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٠ (الطبعة الاولى)

(٢) المقاومة العربية الفلسطينية قبل الحرب العالمية الاولى ـ الحرب العالمية الاولى: المؤامرات الاستعمارية ضد الوحدة العربية وعروبة فلسطين ـ من الاحتلال البريطاني الى ثورة العشرين ـ مرحلة التبلور ١٩٢٠ ـ ١٩٢٣ ـ هدوء وركود ١٩٢٣ ـ ١٩٢٩ ماقبل العاصفة ١٩٣٠ ـ ١٩٣٥ ـ الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩

(٣) حسن عيتان، منهج البحث التاريخي القاهرة، ١٩٧٠ (طبعة ثالثة) ص ٢٢

(٤) جمع د. الكيالي وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية في كتاب مستقل عنوانه «وثائق المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨ ـ ١٩٣٩» مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت ١٩٦٨.

حديث الانتفاضة.. ومقولة «الدولة المستقلة»

عوني الصادق*

لاقت قرارات المجلس الوطني الفلسطيني، في دورته التاسعة عشرة المعقودة في الجزائر في الفترة من ١٣ ـ ١٥/١١/٨٨، قبولاً حسناً على الصعيدين العربي والدولي. وكانت أسباب هذا القبول تتلخص في ماعتبر «سياسة واقعية» قررت القيادة الفلسطينية اتباعها معتمدة على «الشرعية الدولية» ودعم «الرأي العام العالمي» للوصول الى تسوية للقضية الفلسطينية وحل مايسمى «أزمة الشرق الاوسط» من أجل «إحلال السلام في المنطقة».

ويرى كثيرون أن القيادة الفلسطينية لجأت الى «اللغة الجديدة» التي أقرتها قرارات المجلس الوطني، بحثاً عن «لغة مشتركة» مع القوى الدولية الفاعلة والتي تأمل ـ القيادة ـ فيها أن تعترف للشعب الفلسطيني بما اعترفت به للحركة الصهيونية في العام ١٩٤٧، وأرادت من خلالها أن تنفي عن منظمة التحرير الفلسطينية تهم «تدمير اسرائيل» و «ممارسة الارهاب»، معترفة بالقرارين رقم ٢٤٢ ورقم ٣٣٨ و «بحق اسرائيل في الوجود والعيش بسلام في حدود آمنة ومعترف بها».

ويمكن بذلك القول إن «البراغماتية» انتصرت أخيراً في الساحة الفلسطينية مسنودة «بدعم الاشقاء العرب» و «تشجيع الاصدقاء» من غير العرب. وقبل ذلك بأربعة عشر عاماً انتصرت «المرحلية» في المجلس الوطني ودورته الثانية عشرة، عندما أقر برنامج «النقاط العشر» وقد يجد الكثيرون العذر للسياسة الفلسطينية الجديدة، في عالم تحكمه المصالح وتسود فيه «الذرائعية»، ووضع عربي يفتقر الى القوة اللازمة لفرض القانون والعدالة. وفي اطار تعريف «متفق عليه» يفيد بأن «السياسية فن الممكن» يصبح هدف إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة هدفاً أكثر واقعية وأكثر قبولاً لدى الرأي العام العالمي من هدف «مطلق» مثل المناداة بتحرير فلسطين، خصوصاً أنه يمكن دائماً، لمن يريد، أن يلجأ الى شعار «المرحلية» وأن الهدف الاول لايخلو من «طموح» مادامت الوسائل سياسية.

* صحفي وباحث من فلسطين

غير أن أحداً لايناقش حقيقة أنه لولا اندلاع الانتفاضة الشعبية في الاراضي المحتلة واستمرارها، لما أمكن أن تجد م. ت. ف. من يستمع اليهـا مهما تواضعت في أهدافها. وقد يرى بعضنا أن اندلاع الانتفاضة كان مبرراً كافياً لرفع «سقف» الاهداف الوطنية لا لخفض هذا السقف، بعد أن ثبت أن الكيان الصهيوني يمكن أن يكون هشاً وقابلاً للكسر من خلال النضال الفعال والارادة الصلبة، لكن، قد يكون، هذا هو الفرق بين «الواقعية» وبين «المثالية» أو بين «العقل النظري» وبين «العقل العملي»! وبسبب هذا الفرق، سمعت الأصوات الكثيرة المطالبة بضرورة «ترجمة الانتفاضة» الى انتصارات وانجازات سياسية ولما يمض على الانتفاضة سوى بضعة أسابيع.

ومن تجربتي الشخصية في القراءة، أعرف أن الترجمة عمل ابداعي لايقل عن التأليف، وأكثر من مرة حدث أن قرأت كتاباً واحداً بترجمتين مختلفتين، لمترجمين مختلفين، وتأكدت من صدق ما أقول. فالمترجم الجيد يستطيع أن ينقل العمل الاصلي بكل مافيه من جمال بل ويمكن أن يضيف اليه جمالاً من خلال أسلوبه في الترجمة. أما المترجم الرديء، فأقل مايمكن أن يفعله هو أن يضيع العمل الاصلي فيسيء الى واضعـه، والى قارئه أيضاً. وبالتأكيد فإن ترجمة الاعمال الادبية والفنية، أقل صعوبة من «ترجمة» أفعال ونضـالات وطموحات الشعوب. وأقل مسؤولية وخطراً من حيث نتائج سوء الترجمة. لكن الترجمة، في النهاية، مسألة لاغنى عنها في الثقافة ومسألة ضرورية في السياسة.

لقد كان «الاستعجال» هو الصفة الابرز في دعوات الترجمة. وكان المبرر له، في نظر البعض، الخوف من أن تضيع «نضالات الجماهير في الارض المحتلة» دون نتائج، ولكن البعض الآخر كان يعاني من خوف مزدوج: خوف على الجماهير من أن تتعب وتتوقف عن مواصلة المواجهة لقوات الاحتلال قبل أن تتاح له فرص «الاستثمار» وخوف من الجماهير، فتتطور الانتفاضة الى مستوى يصعب معه التحكم فيها وتوجيهها الى «سوق الاستثمار» المناسب.

ومع الاتفاق على مبدأ «ضرورة الترجمة» ظلت دعوات الترجمة غير مبررة في ضوء طابع الاستعجال الذي اظهر نوعاً من التطاول على تلك النضالات التي يراد ترجمتها، بقدر ما انطوت عليه من احتمالات الاجهاض المسبق للانجازات المنشودة. ذلك لأن الانتفاضة نفسها كانت انتصاراً سياسياً كبيراً، كما كانت انجازاً سياسياً ضخماً. بمعنى آخر، كانت نضالات الجماهير هي المترجم الحقيقي لطموحات هذه الجماهير صاحبة النضالات، بقدر ماكانت ترسم آفاق هذه الطموحات التي تتحرك الجماهير في إطارها، الامر الذي كان يقتضي فتح الـطريق أمام هذه الحركة ودعمها لانضاج ثمارها في الموسم الصحيح. ومايعتبر الآن «انتصارات وانجازات» ليس ترجمة للانتفاضة بل هو، في الحقيقة، منتجات هذه الانتفاضة بعد تدخل «المترجمين». ويمكن القول إنه لم يكن من خوف على الانتفاضة لو أعطيت الوقت الكافي ودونما استعجال.

على أية حال، صدرت قرارات الجزائر واعتبرت «الترجمة المناسبة» للانتفاضة، ثم جاءت الشروحات في ستوكهولم وجنيف، وأدى ذلك الى «تغير» في الموقف الاميركي حيث أعلن شولتز بياناً مختصراً لامانع من تثبيته، جاء فيه:

«أصدرت منظمة التحرير الفلسطينية ـ أمس ـ بياناً قبلت فيه القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ الصادرين عن

مجلس الامن الدولي واعترفت فيه بحق اسرائيل في الوجود بسلام وأمن، وأعلنت تخليها عن الارهاب، وبالتالي فان الولايات المتحدة مستعدة لحوار جوهري مع ممثلين عن منظمة التحرير الفلسطينية» (الصحف ٨٨/١٢/١٦).

وعليه، يمكن القـول إن أقصى ماوصلت إليه عملية ترجمة الانتفاضة، حتى الان، هو قبول الـولايات المتحـدة الجلوس والتحـادث مع م. ت. ف. اضافة الى إنجاز نظري رئيسي آخر تحقق في ٨٨/١١/١٥ وتمثل في «إعلان الدولة الفلسطينية المستقلة» على جزء من أرض فلسطين. وأقول «انجازاً نظرياً» من باب تقرير الواقع وليس للتقليل من أهمية هذا الاعلان، فكل مالم يتحقق في الواقع هو «احتمال نظري» الى أن يتحقق. وفي رأي (أبو عمار) أن الدولة ستقوم بعد خمس سنوات من الآن (تصريحه في النمسا ـ الصحف ٨٨/١٢/٢٠).

والحقيقة أنني، منذ قرارات الجزائر، أحاول أن أناقش مايجري بعقل سياسي مفتوح (قدر الامكان) وبعيداً عن المواقف «الجاهزة والمسبقة» لالشيء الا لأفهم مايجري. وفي كل مرة أصل الى النتائج نفسها وأقتنع بأن شيئاً ماليس على مايرام يحدث لعملية الترجمة، خصوصاً أن ماينشر من آراء وتصريحات في الصحف العربية والاجنبية لايساعد كثيراً في بلورة فهم جديد متماسك لدى الرأي العام بخصوص العملية السياسية الجـارية. ذلـك أن «النفعية» تحكم الموقف وتشكل قانون اللعبة بشكل واضح. وأن «العقل العملي» يظهر فيها انتهازياً أكثر مما تسمح به طبيعة القضية المطروحة.

ففي الوقت الذي يراد فيه «تحقيق هدف ملموس لجماهير الانتفاضة» يلاحظ المتتبع أن هذا «الهدف الملمـوس» يكـاد لايخص جماهـير الانتفـاضة بقدر مايخص «الكومبرادور» فيها، من جهة، وبأنه هدف «متـواضـع» أكثر مما يجب حتى في نظر المراقبين الغربيين، من جهة أخرى. وبالطبع لايغير من طبيعة «الانتصارات» المتحققة شدة تركيز الاضواء عليها، بينما تقبع الحقيقة في ركن أطفئت فيه الانوار تماماً.

فقبل أن تبدأ فعلاً عملية ترجمة الانتفاضة، كتب أحد الكتاب الفلسطينيين المتابعين للانتفاضة يشير الى بعض ماتتعرض له الانتفاضة من مخاطر، فقال عن شريحة «الكومبرادور» في الانتفاضة: «تتأرجح شريحة الكومبرادور بين حدين: الاول هو مصلحتها الأنانية الآنية في الربح الاستثنائي، ومصلحتها الخاصة في إقـامة كيان فلسطيني ما بفعل الانتفاضة». ويضيف: «لقد عبرت هذه الشريحة التجارية الوسيطة، ولاتزال، عن استعدادها للمتاجرة بالقضية الوطنية، ولعب دور الوسيط بين الانتفاضة الشعبية وأعدائها الصهـاينـة والامبرياليين. وقد جاء هذا التعبير على لسان وكلائها الايديولوجيين ومن خلال اتصالاتهم وتحركاتهم (مثلاً: حنا السينورة، وفايز أبو رحمة. . . فيصل الحسيني، وسري نسيبة)». وبعد أن يتحدث عن مواقع تمركز هذه الشريحة في الداخل، يقول عن المؤسسات التي يقودونها:

«تشترك مثل هذه المؤسسات في صناعة الثقافة السياسية والرأي العام بما ينسجم مع نهج (التسوية) و (يلطف) الانتفـاضـة، ويسوق أفكار اللاعنف والعصيان المدني السلمي و (إدانة الارهاب) وإجراء الحوارات مع أشخاص وأطراف صهاينة. . .»[1]

ومن ناحيتي، فإنني مع ذلك الرأي الذي يرى دوراً وطنياً لكل الطبقات والفئات الاجتماعية في بعض

مراحل النضال الوطني، ولذلك لاأرى عجباً في أن تشارك كل الطبقات الاجتماعية في العمل الوطني من أجـل التحرير حتى الشرائح الكومبرادورية منها، شريطة أن لاتكون هذه الشرائح هي القائدة الفعلية لعملية النضال الوطني أو المستفيدة الوحيدة منها. فالمشاركة في النضال من حقها ومن واجبها بوصفها جزءاً من الشعب، لكن قيادتها للعمل الوطني يعني، في النهاية، تسخيره وتسخير الشعب كله لخدمة مصالحها الضيقة.

في هذا النـوع من الـترجمة يصبح «الهدف الملموس» لغير جماهير الانتفاضة. ويبقى أن ننظر الى «الدولة المستقلة» المعلن عنها في الجزائر، كما يراها المراقبون الغربيون، قبل أن نقول مانراه في الموضوع. لقد جاء في مجلة (الايكونومست / القبس ٢١/١١/٨٨) تعليقا على اعلان «الدولة»:

«من أجل أن تخفي التنازلات الكبيرة التي قدمتها لاسرائيل، أرفقت م. ت. ف. برنامجها السياسي الجديد بقطعة مسرحية بارعة، وهي تلك التي أعلنت فيها استقلال دولة فلسطين التي لم تولد بعد. غريب أمر الانجليز. ألم يصدروا هم «وعد بلفور»؟ بل إنهم قالوا فيه: «وطن قومي»، ولم يقولوا «دولة يهودية»!

وكتب ديفيد هيرست في (الغارديان) يقول عن الموضوع نفسه:

«لم يكن مثيراً أن يستقبل الفلسطينيون الذي تجمعوا في مدرج نادي الصنوبر في العاصمة الجزائرية بمشاعر مختلطة ـ اعلان الاستقلال ـ معلناً بذلك ميلاد دولة فلسطينية. . كانت هناك دموع في عيون بعض الاشخاص الذين لو سئلوا، فإنهم ربما لم يعرفوا إن كانوا يحتفلون بالاستعادة المستقبلية لجزء صغير من وطنهم الاصلي، أو يبكون التخلي النهائي عن معظم هذا الوطن»! (الوطن ـ ١٩/١١/٨٨).

في كل حال نحن لانتـوقـع أن «يفهمنا» الانجليز. والمشكلة ليست هنا، ليست في «المترجمين» للانتفاضة ولا في «الهدف الملموس» الذي تتوخاه الترجمة، فقط، بل المشكلة في الطريق المعتمد ان كان سيوصل الى «الدولة المستقلة» أم لا. وهو الجانب الذي سينصب عليه نقاشنا المقبل.

جانب من المشكلة التي تتعرض لهاعملية «ترجمة الانتفاضة الى انجاز سياسي» يتمثل في ثلاث مسائل:

١ ـ ان اقامة الدولة المستقلة تعتمد على توجه سياسي أحادي الاتجاه.

٢ ـ ان هذا التوجه السياسي يعتمد بدوره، وفي ترجمته النهائية، على مساهمة الدول الغربية بشكل عام وعلى دور الولايات المتحدة الاميركية بشكل خاص.

٣ ـ أن العملية السياسية الجارية برمتها تقوم على خلفية أيديولوجية قاصرة.

فماذا نعني بذلك؟

مر النضال الوطني الفلسطيني منذ انطلاقة الثورة في مطلع ١٩٦٥ وحتى الان في مراحل ثلاث من حيث الاسلوب النضـالي المعلن والمعتمد لتحقيق أهداف الثورة. ففي الفترة من ١٩٦٥ ـ ١٩٧٤ كان «الكفاح المسلح هو الاسلوب الوحيد لتحرير فلسطين»، بينما صار الجمع بين العمل السياسي والكفاح المسلح في الفترة اللاحقة، وعبر عنه خطاب ياسر عرفات في الجمعية العامة للامم المتحدة في ايلول ١٩٧٤ وتجسد في شعار «البندقية وغصن الزيتون». وبدأت المرحلة الثالثة مع قرارات الجزائر الاخيرة حيث أكتفي

بغصن الزيتون.

وإذا كان الخطأ في الاكتفاء بالبندقية قد اتضح مبكراً بعد صدامات ايلول ١٩٧٠ التي وقعت في الأردن، فإن مبررات الخوف من الوقوع في خطأ جديد بسبب الاكتفاء بغصن الزيتون كثيرة بالنظر الى طبيعـة الكيان الصهيوني وبنيتـه ووظيفته وطبيعة تحالفاته. فكيان من هذا النوع لايمكن أن تنفع معه المناظرات السياسية أو الذكاء الدبلوماسي وحدهما، خصوصاً أن تلك المنظرات لن تكتسب أية قيمة إن لم تترافق مع القدرة على فرض الهدف السياسي الذي تستهدفه وتدور حوله.

ومعروف أن الفهم الصهيوني، وكذلك الاسرائيلي، على مختلف تلاوينهما، بدآ وتوقفا عن اعتبار أن قيام دولـة فلسـطينية سيعني «بـداية تدمير دولة اسرائيل». وهنا يطرح سؤال محدد: لماذا توافق القيادة الاسرائيلية على قيام دولة فلسطينية، الان، وهي التي رفضت دائماً قيام هذه الدولة؟

قد يقال إنه ليس من المتوقع أن تتوفر الموافقة الاسرائيلية اليوم أو غداً، وماهي الا البداية، وأن المواقف السياسية للدول قابلة للتغير دائماً. وقد يكون هذا صحيحاً، لكنه معروف بالمقدار نفسه أن هذه المواقف السياسية للدول (وخاصة إذا كانت من طبيعة الكيان الصهيوني) لاتتغير إلا كنتيجة لتغير ميزان القوى بين أطراف الصراع، وليس قبل ذلك. وعندما يحدث التغيير يأتي دائماً ليعكس وليترجم بدقة كبيرة حجم التغير في ميزان القوى وبما يتفق والميزان الجديد. وقيام دولة فلسطينية، بأية مواصفات كانت، لابد أن يعني تغيراً حقيقياً في ميزان القوى الـراهن لصـالح الشعب الفلسطيني. وهذا لايمكن أن يحدث بالدبلوماسية وحدها، لأن قيام هذه الدولة المستقلة قد يحتاج الى عدة حروب أخرى، إذا شئنا الصدق.

من هنا تأتي خطورة الاعتماد على النشاط الدبلوماسي والسياسي الذي لايستند الى قوة قادرة، ولو بصـورة احتـمالية على تحويل هدف هذا النشـاط الى حقيقة واقعة. واذا كان الرفض الاسرائيلي للدولة الفلسطينية قائماً على اعتقاد أن قيام هذه الدولة سيؤدي الى تدمير «دولة اسرائيل» فإن الاقتناع الاسرائيلي بأن عدم الموافقة على هذه الدولة ستؤدي الى تدمير «دولة اسرائيل» هو المبرر الوحيد والأساس المنطقي لقبول قيامها. أي أنه لابد من توفير قوة يمكن أن تهدد، على الأقل وجود «اسرائيل»، وهو مايعني تغيراً حقيقياً في ميزان القوى الراهن.

والتغير في ميزان القوى قد يشمل ـ ولابد أن يشمل في حالات كثيرة ـ كل الجوانب التي تشكل مفهوم الميزان، ولكن لايمكن، في كل الحـالات، إخراج الجـانب العسكري منه. وخطورة التوجه السياسي الاحادي أنه يقصر العملية النضالية على «الكلام» ويختزل بنودها في بند واحد. وحتى لو قبلنا فكرة أن البند السياسي في الميزان قد تغير لصالح الفلسطينيين، فهل يكفي هذا لمنحهم الافضلية في الصراع السياسي، وهل يكفي لقلب ميزان القوى لصالحهم؟

بعد حرب تشرين الاول ١٩٧٣، قيل إن «تكافؤا في القوى» قد حدث بين العرب والاسرائيليين، وبسببه بدأت مسيرة توقيع اتفاقيات «كامب ديفيد» التي تضمنت بنداً يتعلق بمنح الفلسطينيين «حكماً ذاتياً». لكن هذا البند ظل على الورق، لأحد سببين: إما أن «التكافؤ النسبي» في ميزان القوى بعد حرب تشرين كان أقل من أن يسمـح باعطاء الفلسطينيين حتى «الحكم الذاتي»، وإما أن هذا «التكافؤ» قد

انعدم بعد توقيع الاتفاقيات وعاد الى ماكان عليه من اختلال لصالح الاسرائيليين، فلم ينفذوه. وبالطبع يمكن أن يقال ان هناك سبباً ثالثاً هو أن الفلسطينيين رفضوه، لكن أحداً لايستطيع أن يمنع الاسرائيليين من اتخاذ قرار من طرف واحد، في كل الاحوال لو أرادوا تنفيذه.

نحن في هذا المثال نتحدث عن ميزان قوى عربي ـ اسرائيلي، وليس عن ميزان قوى فلسطيني ـ اسرائيلي، حيث سيكون الوضع أسوأ بما لايقاس. لكن المهم هو أن نتساءل: هل تغير هذا الميزان، فجأة، لصالح الفلسطينيين على نحو يكفي لاقامة الدولة الفلسطينية من خلال العمل السياسي والدبلوماسي؟ الدارسون للقضايا الاستراتيجية، يثبتون بالدراسات الجادة وبالارقام أن ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي، اليوم، مختل أكثر لصالح العدو الصهيوني، وبالرغم من كل ماتورده المعاهد الاستراتيجية عن أرقام التسلح العربي[1] ولايبقى في الرصيد غير ثقل الانتفاضة الشعبية في الارض المحتلة. هذه الانتفاضة التي يراد ترجمتها، ولانها الرصيد الباقي في الميزان، يصبح المطلوب أن تكون الترجمة في أعلى مستوى ممكن، وأن يكون «الاستثمار» حيث يعطى أعلى «فوائده»، حتى لايضيع رأس المال.

لقد قيل عن الانتفاضة الكثير حتى الان، وسيقال عنها أكثر في المستقبل، ولست في مجال الحديث عن الانتفاضة، ولكنني أريد أن استدرك فأقول: إن الانتفاضة كمؤشر واحتمال مستقبلي وكقوة كامنة تستطيع أن تغير ميزان القوى في المنطقة كلها (ولهذا استعجلوا على ترجمتها)، ولكنها كواقع قائم وكحالة راهنة لم تستطع، بعد الكثير الذي أصّلته وأسست له، أن تغير في ميزان القوى القائم بين اندلاعها بما يجبر الاسرائيليين على تغيير مواقفهم السياسية (والحقيقة أنها ساهمت في رفع مستوى التطرف لديهم)، وذلك لأسباب كثيرة، لعل في مقدمة هذه الاسباب الاستعجال والرغبة في قطف سريع للثمار غير الناضجة.

إن الأسس التي قام عليها تشكيل حكومة اسحق شامير الجديدة يدل على صحة هذا التقرير، فقد قامت هذه الحكومة على اتفاق كانت بنوده:

١ ـ لا للتفاوض مع م. ت. ف.

٢ ـ لا للرجوع الى حدود ١٩٦٧.

٣ ـ لا لاقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع.

٤ ـ لا للمؤتمر الدولي.

٥ ـ يتم التوصل الى السلام عبر المفاوضات المباشرة «بين اسرائيل والعرب» وفلسطينيين من المناطق المحتلة من أجل تطبيق مشروع الحكم الذاتي المنصوص عليه في اتفاقيات كامب ديفيد، بعد توقف الانتفاضة وعودة الهدوء!

فمن أين جاءت «قوة الاقتناع» بامكانية قيام الدولة عبر السياسة والدبلوماسية؟ لقد قيل عن السياسة إنها «الاقتصاد مكثف»، وقيل عن الحرب إنها «السياسة بوسائل عنيفة»، وهذا التداخل في التعريفات يعكس التداخل في الواقع، بين السياسة والاقتصاد والحرب وحقول أخرى، ولكن أحداً لم يقل إن السياسة هي «علم الكلام»! والتوجه السياسي والدبلوماسي الأحادي هو نوع من الكلام. حتى لو تحول الكلام الى علم. فبدون القوة والتهديد بالقوة إن لم يكن باستعمالها، يظل الكلام كلاماً، وتظل «الدولة

المستقلة» مقولة منطقية تحتمل مايحتمله «الخبر»!

لقد قبلت الولايات المتحدة التحادث مع م. ت. ف. والجلوس معها، ولاشيء غير ذلك. لقد جاء في تصريح شولتز «التاريخي» قوله:

«إن هدف الولايات المتحدة كان ولايزال الوصول الى سلام شامل في الشرق الوسط. وضمن هذا المنظار اعتبر هذا التطور خطوة اضافية نحو فتح مفاوضات مباشرة التي تستطيع وحدها الوصول الى هذا السلام بين الاطراف. لاشيء هنا يمكن أن يفسر بأن ذلك ينطوي على قبول او اعتراف الولايات المتحدة بدولة فلسطينية مستقلة. إن موقف الولايات المتحدة هو أن وضعية الضفة الغربية وغزة لايمكن أن تتحدد بأعمال من جانب واحد من أحد الطرفين ولكن عبر عملية تفاوضية فقط. إن الولايات المتحدة لاتعترف بإعلان دولة فلسطينية مستقلة. إنه من المهم ايضاً الاشارة الى أن التزام الولايات المتحدة تجاه أمن اسرائيل يبقى ثابتاً». ولم تغير إدارة بوش من هذا الموقف شيئاً بل أكدت التزامها به.

فمن أين جاءت الثقة بأن قبول الولايات المتحدة الجلوس مع م. ت. ف. سيجعلها تنحاز إليها أو تتخلى عن صنيعتها الدولة اليهودية؟ وما أهمية ذلك حقاً مادام المحتلون الاسرائيليون متمسكين بالارض المحتلة ويرفضون حتى فكرة التفاوض عليها، وما دام الطرف الآخر لايزال عاجزاً عن توفير القوة العسكرية اللازمة لاسترداد هذه الارض بالقوة؟

من حيث المبدأ، لاأحد ينكر أن الولايات المتحدة دولة عظمى وعضو دائم في مجلس الامن، والاهم من ذلك أنها الممول والحامي الرئيسي للكيان الصهيوني، مما يعطيها دالة كبرى، في التأثير على المواقف الاسرائيلية. كل ذلك يجعل من الموقف الاميركي عنصراً هاماً في أية تسوية سياسية. والمشكلة ليست في الاعتراف بأهمية الدور الاميركي، بل في تصور أن في الامكان منافسة الكيان الصهيوني في حب الولايات المتحدة، والاقتناع بأنه يمكن فصم العرى الوثيقة بينهما وإقناع الولايات المتحدة بتبني مايصطلح عليه «حقوق الفلسطينيين المشروعة» في الدولة المستقلة.

لقد أدى السعي من أجل القبول الاميركي لمنظمة التحرير الى تقديم الأخيرة كل التنازلات الممكنة، باعتراف قادتها، والتي كانت حتى دورة المجلس الوطني الاخير تعتبر من المحرمات، ولكنها لن تكون الاخيرة اذا استمر البحث عن «التسوية السياسية» وقد يصل الامر الى التنازل عن الانتفاضة نفسها. وقد كتب أحد الصحفيين العرب ممن يعرفون دواخل السياسة الفلسطينية و م. ت. ف.، يقول: «اي انجاز في الارض المحتلة، يجب أن يصرف الى عملة سياسية في الغرب، مسرح الولادة السياسية الاخيرة للدولة الفلسطينية، كما ولدت اسرائيل على المسرح ذاته، عام ١٩٤٨». وأضاف: «هذا جوهر رهان المدرسة السياسية التي تقود م. ت. ف. منذ مابعد ١٩٦٧» (جهاد الزين ـ السفير ١٨/١١/٨٨).

والاقتناع بما يمكن أن تفعله الولايات المتحدة لاخراج «الدولة الفلسطينية» الى حيز الوجود، وصل الى بعض الباحثين والمفكرين الجادين، عرباً وفلسطينيين. والدكتور عبد الوهاب المسيري، المعروف بموقفه القومي والذي تعتبر كتاباته عن الصهيونية ضمن المراجع المهمة في الموضوع، كتب في صحيفة (القبس ـ ١١/١١/٨٨)، يقول: «الموقف الصهيوني من الدولة الفلسطيية قد يتغير بصورة جوهرية،

لابسبب أي تناقضات داخلية وإنما نتيجة ضغوط دولية تقع عليه من الخارج باعتبار أن بقاءه ذاته يتوقف على الدعم من الولايات المتحدة وعلى الشرعية التي يستمدها من دعم الحضارة الغربية له».

إن هذه الثقة في الغرب والولايات المتحدة يعتريها كثير من التسرع وتجاهل الحقائق. فمن جهة، ليس الكيان الصهيوني مثل جزر المالديف أو تاهيتي، يستند في بقائه الى الدعم الاميركي فقط، بل الى قدرته العسكرية أيضاً، والى هامش المساومة الواسع الذي يتيحه له دوره في خدمة الامبريالية.

من جهة أخرى، من قال إن الولايات المتحدة على استعداد للتضحية بالكيان الصهيوني أو لاغضابه إكراماً للفلسطينيين أو العرب، مادامت ليست مجبرة على ذلك، وهي تعلم أن دولة عربية في المنطقة لاتستطيع أن تحل محل الكيان الصهيوني في خدمة أغراضها وحماية مصالحها على النحو الذي يقوم به؟

ومع الاحترام للدكتور المسيري، فإنني اعتقد أن «الادراك الاسرائيلي» لفكرة «الدولة الفلسطينية» هو الذي يقرر السلوك الاسرائيلي تجاه هذه الفكرة مادام الفلسطينيون والعرب غير قادرين على تجسيد هذه الفكرة، ومادام الاسرائيليون قادرون على منعها من التجسيد. ويلفت النظر في مقال الدكتور المسيري توصله الى استنتاجه السابق في وقت يقرر فيه «ان كل الحلول (الاسرائيلية) مبنية على فكرة القسر والرضوخ، وأن أحد الاطراف سيضطر الطرف الآخر للتسليم بوجهة نظره».

من جهة ثالثة. حتى لو سلمنا بأن الولايات المتحدة يمكن أن «تحدد سلوك الصهاينة» تجاه فكرة الدولة الفلسطينية، وسلمنا أيضاً أن الولايات المتحدة أصبحت توافق على قيام هذه الدولة.. ألا يطرح هذا سؤالاً كبيراً عن حقيقة وطبيعة هذه الدولة ودورها المتوقع في المنطقة وموقعها على خارطة «المشروع الحضاري العربي»؟ ولا أظن أن في الامر مبالغة أو تجنياً على أحد إذا قلت: إن هذه الدولة التي ستكون الولايات المتحدة قابلتها القانونية، إما أن لاتكون دولة أو أن تكون أختاً لـ «دولة اسرائيل» فعلى مثال الخالق يكون المخلوق.

ويبدو أن هناك من يعتقد أن الوصول الى البيت الابيض لايحتاج لأكثر من تغيير «أساليب التعبير» وليس أساليب النضال، بينما تبقى القناعات الوطنية والقومية ثابتة. ومع أنه من المتفق عليه أن التأثير متبادل بين الإنسان وأدواته وأن كلاهما يساهم في صياغة وتشكيل الآخر وصنعه، الا أن هذا لم يمنع البعض من الدعوة الى اتباع أساليب عمل جديدة تأخذ في الاعتبار قدرة الولايات المتحدة في التأثير على الموقف الاسرائيلي. يقول د. المسيري بمثل ذلك وهو نفسه الذي يقول: «.. المشروع الصهيوني، مهما كان حجمه، متطرفاً كان أم متعقلاً، ممتداً كان أم مقلصاً، هو نقيض المشروع الحضاري العربي الاسلامي، ولايمكن للمشروعين التعايش معاً.. وهذه مسألة تنصرف الى بنية الكيان الصهيوني ذاته ووظيفته».

ويفتي د. المسيري بأن الاسلوب المتبع لدى قادة م. ت. ف. هو أسلوب صحيح. وتصبح، في ضوء هذا السلوك الاعلامي، قضية قبول دولة في الضفة والقطاع، أو عدم قبولها، مجرد «قضية إجرائية»، كما أنه بهذا الاسلوب «يمكننا أن نطور خطاباً سياسياً مركباً يضمر الهدف النهائي دون أن يفصح عنه. إذ لاتوجد ضرورة ملحة أن نتحدث كلنا في زمان ومكان عن ضرورة تحرير كل تراب فلسطين»!(٣)

في عبارة أخرى، يرى البعض أنه ولو كنا لانثق بالولايات المتحدة علينا أن نجربها ونتحايل عليها.

وحتى عندما يكون «الحد الادنى المقبول، أي النقطة التي لابد أن يلتقي عندها الاجماع الفلسطيني.. هو تحرير كل تراب فلسطين وعودة الشعب الفلسطيني الى وطنه»، يظل مطلوباً البحث عن طريقة لايفصح فيها عن هدفنا النهائي. ولكن إذا قبلنا هذا المنهج الاعلامي، هل يقبله الكيان الصهيوني أو تقبله الولايات المتحدة؟ وهل كان هؤلاء يبحثون عن «أساليب اعلامية» أم عن مواقف واضحة ومحددة، وإذا كانت الولايات المتحدة قد طالبت بتلبية شروطها الثلاثة (دون لبس أو غموض) قبل أن تقبل مجرد الجلوس مع م. ت. ف. فهل هذا السلوك الذي يقترحه المسيري سيكون كافياً الى درجة إقامة الدولة؟!

وهناك مسألة أخرى يطرحها اقتراح المسيري تتعلق بما يتركه «الاسلوب الاعلامي» من آثار على تكوين العقل الفلسطيني والايديولوجيا العربية اذا أن عملية «التطبيع» التي لابد أن تجري من خلال لغته ومصطلحاته ستؤدي الى اهتزاز «المشروع الحضاري العربي الاسلامي كله». إن مقولة عدم تعايش المشروعين الحضاريين: العربي والصهيوني مقولة قائمة وممكنة ذهنياً في ظروف ينظر فيها الى الوجود الاسرائيلي كوجود غير شرعي، فهل تظل المقولة في ظروف يصبح هذا الوجود مقبولاً وشرعياً بقوة القانون والعلاقات قبل الاسلوب الاعلامي؟

لقد رفض د. المسيري الحديث عن «الديمقراطية الاسرائيلية» أو «الاحزاب الاسرائيلية» بما يعنيها عادة مصطلحا الديمقراطية والاحزاب، لأن في ذلك «تطبيع يخفي عن الانظار وعن الضمير الظروف الخاصة بالكيان الصهيوني ككيان استيطاني احلالي» ولأن «اسقاط هذه الابعاد المعرفية المنهجية عملية تسويغ وتبرير غير واضحة للوجود الصهيوني وإضفاء درجة من الشرعية عليه».(٤) ويصبح السؤال: ماذا يفعل التفاوض مع الكيان الصهيوني، وماذا يفعل الاعتراف بشرعيته والقبول بمفهومه الأمني والعيش معه، حتى لو كان الثمن قيام «دولة فلسطينية» توافق عليها الولايات المتحدة؟

إن التفاؤل الذي يبديه البعض بإمكانية تغير الموقف الاميركي، وكذلك الدفاع عن الطريق السياسي لاقامة «الدولة الفلسطينية»، ماهما الا خداع للنفس إن لم يكن تواطؤ على ماهو أكثر من ذلك. أما أولئك الذي يصرون على «استثمار» الانتفاضة بهذه الطريقة، فعلى غيرهم أن ينبههم أن طريقهم هي أسرع الطرق لخسارة «رأس المال»..!

---

١ ـ خالد عايد ـ القاعدة الاجتماعية للانتفاضة

السفير ـ ١٤/ ١١/ ٨٨.

٢ ـ د. صالح ياسر حسن ـ نزعات العسكرة والتسلح في البلدان العربية

قضايا فكرية ـ العدد السادس / نيسان ١٩٨٨.

٣ ـ د. عبد الوهاب المسيري ـ الادراك الاسرائيلي للدولة الفلسطينية

القبس ـ ١١/ ١١/ ٨٨.

٤ ـ د. عبد الوهاب المسيري ـ نحو عقد اجتماعي صامت بين الفلسطينيين

القبس ـ ١٩/ ١١/ ٨٨.

ثقافة

أبو سلمى
أين منظمة التحرير في شعره ؟

د. حسام الخطيب*

على ان كل هذا الذي رأيناه من اقبال ابي سلمى على العمل السياسي والدولي من اجل القضية الفلسطينية لم يكن في الواقع الا نشاطاً بديلاً عن النشاط الاساسي الذي كان ابو سلمى متأكدا انه السبيل الوحيد لتحرير فلسطين، وهو العمل الثوري الحربي الكفاحي في ساحة الصراع الميدانية. ان كل زملاء ابي سلمى الذين اشتركوا معه في بعض المؤتمرات العربية والدولية يعرفون أنه لم يكن ينظر نظرة جدية الى حصيلتها وكان يداوي سأمه منها بتجاذب أطراف الحديث مع احبائه والتسابق في رواية بعض الطرف.

ولعل في غياب هذه التجربة من نتاجه الشعري دليلا آخر على عدم تغلغلها في وجدانه، ذلك ان شعر ابي سلمى كان دائما المرآة المجلوة لروحه المتوثبة ابدا، واغفاله ذكر كل هذه الجوانب من الكفاح السياسي مسألة تلفت النظر في حين أنه خلد معظم جزئيات العمل الثوري الكفاحي في شعره، ولانكاد نجد بيتا واحدا في ديوانه المطبوع يشير من قريب او من بعيد الى أي من المؤتمرات التي حضرها، او الى اية واقعة ما متصلة بهذه المؤتمرات، فكأن هذا الصنف من النشاط السياسي ظل بعيدا عن لُبِّ وجدانه.

كذلك يفتقد الانسان في شعره ذكر منظمة التحرير الفلسطينية والثورة الفلسطينية بمصطلحها المحدد. وهو يشير دائما اشارات عريضة الى اباء الشعب الفلسطيني ونضاله وثورته وتضحياته، ولكننا قليلا مانجد عنده إشارات عينية الى واقعة معينة وموقف محدد. وبما ان شعر ابي سلمى كان دائما شعراً مباشراً مرتبطاً بالموقف والواقعة لذلك يمكن ان يكون مباحا ايضا الاستنتاج بان صورة الثورة التي ورثها من فترة

---

* استاذ ادب مقارن في جامعة دمشق، من فلسطين له العديد من الابحاث والمؤلفات. عضو سابق في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير.

الكفاح العربي الفلسطيني قبل النكبة الكبرى (١٩٤٨) لم تكن مطابقة لصورة ثورة التحرير (١٩٦٥) وبدا في شعره اصرار على براءة الصورة الاولى وعظمتها. واذا سمح المرء لنفسه ان يعتمد على معلوماته الخاصة فإن أبا سلمى لم يكن مستريحا الى التطورات التي طرأت على عمل المنظمة خلال السبعينات، وان كان الموقف بدأ يختلف في اواخر هذه الفترة حين ارتفعت أسهم المنظمة عربيا ودوليا من جهة وحين أخذت المنظمة من جهة اخرى تحتفل بأبي سلمى وتعلن تقديرها لدوره النضالي والادبي. وتمثل ذلك بوجه خاص في واقعة محددة سبقت وفاة ابي سلمى باشهر معدودات فقط، وهي اصرار رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة على اختيار أبي سلمى (أو انتخابه) رئيسا لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين اثناء انعقاد المؤتمر العام الخامس للاتحاد في بيروت (١٩ - ٢٢ نيسان ١٩٨٠)، وكانت تلك الواقعة وملابساتها من أبرز الازمات التي عصفت بذلك المؤتمر وأشاعت التوتر في جنباته. وواضح ان قيادة المنظمة كانت حريصة في تلك الفترة على تكريم ابي سلمى رسميا وتتويج جهود عمره بتنصيبه رئيسا للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، وكان ذلك يقتضي تعديل النظام الداخلي بحيث يحدث منصب رئيس (فوق) منصب الأمين العام المنصوص عليه في النظام، وكانت هناك خشية من أن فتح باب التعديلات (بصرف النظر ايضا عن الملابسات القانونية التي لم تكن مواتية) قد يؤدي الى الدخول في مسائل كثيرة يمكن ان تزيد الامور تعقيدا. على اي حال ادى اصرار رئيس اللجنة التنفيذية على التعديل الى نشوب مسائل خلافية كثيرة لم يكن لابي سلمى يد فيها، كما لم يكن الخلاف ناجما عن اعتراض على شخصه.

ومن المؤسف ان التاريخ الفلسطيني في هذا المجال وغيره من المجالات التي تطرقت اليها هذه المقالة مشوب بالاضطراب وغير مدون من خلال المحاضر والوثائق المعتمدة.

جيش التحرير ومعركة التحرير في اشارات عابرة

وعلى أي حال يبقى صحيحا ان وجدان ابي سلمى ظل متعلقاً بالثورات الفلسطينية في عهد الانتداب، اذ رأى فيها مستودع البطولة والرجولة والشرف. وفي اوائل عهد الثورة، بل على الاصح في المرحلة التي تلت قيام منظمة التحرير الفلسطينية (أواسط الستينات) أقبل ابو سلمى على عمل المنظمة بقلب متحمس وأمل متجدد. وبدأت تظهر في اشعاره بعض المصطلحات الثورية الجديدة مثل مصطلح (معركة التحرير) الذي ورد في قصيدة «فلسطينية» التي انشدها في غزة بتاريخ ٢٩/١١/١٩٦٦ «ربما بمناسبة ذكرى تقسيم فلسطين» وهذا هو المقطع الاخير منها:

ياأحبائي، ان معركة التحرير تزكو في ارضنا المعطار
يوم نسري على اللهيب ونمحو كل رجس فوق الاديم وعار
وتخط السيوف جنبا مع الاقلام تاريخ ثورة وانتصار
ويميل الصباح يعتنق الابطال والأرض بعد خوض الغمار
ويعود الشعب الشريد عزيزا بين اغلى أهلٍ واحلى ديار

والجديد هنا هو مصطلح (معركة التحرير)، اما مصطلحا (الثورة والعودة) فهما مستخدمان في شعره السابق بكثرة، ومصطلح الثورة بوجه خاص يستعمل عنده بمعنى عام جدا وليس بمعنى محدد على نحو مايقصد بمصطلح (الثورة الفلسطينية). هاهو في قصيدة (احبيتك اكثر) يستعمل هذا المصطلح بمعناه العام:

يافلسطين . . .   انظري   شعبك   في   أروع   منظر
بلظى   الثورة   والتشريد   للعالم   يثأر
لم   يحرر   وطن   الا   إذا   الشعب   تحرر

ومما يلفت النظر ان ابا سلمى، حتى في مرحلة منظمة التحرير الاولى التي لم تكن تخفي ايجابية موقفه منها، لم يقف مواقف نوعية من منظمة التحرير ولم يشر اليها أو مايدل عليها، الا في حالات نادرة جدا كإشارته الى جيش التحرير في قصيدته «الاحرف الحمر»:

ان جيش التحرير شعب فلسطين   تنادت   آساده   والنسور
وجناحاه،   في   الشام   جناح   وعلى   غزة   الجناح   الاثير
جيش   حطين   جيشنا .   يزحف   اليوم   فقد   آن   أن   توفّى   النذور

ويعود ابو سلمى الى جيش التحرير مرة أخرى في قصيدته الهائجة (من فلسطين ريشتي) التي القاها في القاهرة (آذار ١٩٦٨) مشاركة منه في مهرجان الشعر الثامن الذي عقد في القاهرة بعد انعقاد المؤتمر السادس للادباء العرب. وفي هذه القصيدة يصب نقمته ـ كالعادة ـ على الساسة المتخاذلين والقادة المزدانة براجمهم بالشعارات ويقرر ان جيش التحرير هو جيش شعب، وعليه تعقد الامال:

وفلسطين   لن   تضيع   وأهلوها   يخوضون   هول   كل   عوان
ان   جيش   الشعب   المشرد   اقوى   من   جيوش   الحرير   والطيلسان
ان   جيشا   يرجى   لتحرير   شعب   غير   جيش   الكرسي   والصولجان

«غياب كامل لقيمة العمل الفدائي»

واذا كانت مرحلة الستينات بالنسبة لمنظمة التحرير هي مرحلة (جيش التحرير) فإن السبعينات هي مرحلة العمل الفدائي . . . ويسأل المرء: اين العمل الفدائي في شعر ابي سلمى وهو الذي واكب نضال الشعب العربي الفلسطيني وغنى له، وهو الذي جعل من آلام شعب فلسطين سيمفونية كفاح وبطولة وصمود واستمرار. وننقب في اشعار ابي سلمى فلا نجد اثرا نوعيا يدل على هذه المرحلة. والقصيدة الوحيدة التي يمجد فيها بطولة فردية معينة هي قصيدته في رجاء عماشه(*)، وهي قصيدة غير مرتبطة بمقولة العمل الفدائي، ولانجد فيها اي اثر للفدائي بطل مرحلة السبعينات.

والمؤكد ان ابا سلمى كان شديد الحماسة لنضال شعبه في كل مرحلة، وكان أبعد مايكون عن السلبية او التشكيك او الانسحاب. وقد اسهم في عمل المنظمة السياسي في فترة السبعينات، كما اوضحنا في القسم

الاول من هذه المقالة، واستمر في انشاد الشعر الوطني الذي جمع بين النقمة الشديدة على التخاذل الرسمي العربي والتأكيد الشديد ان المستقبل مرهون بالكفاح المستمر للشعب العربي الفلسطيني.

فهل ظلت مقولة (العمل الفدائي) غريبة عن وجدان شاعر فلسطين؟ وحتى لو افترضنا انه لم يكن مقتنعا بوجهة نظر المرحلة او بأسلوب ادارتها أماكان بإمكانه التغني بمفهوم الفداء المجرد؟

وهل كان موقف ابي سلمى جيلياً، أي أنه حصر البطولة بأبناء جيله وربما العظمة والاخلاص، ولم ير في نضال الجيل الجديد مواقف تضارع مواقف الرواد الاوائل.

هل كان موقف ابي سلمى طبقياً في جانب منه، فرأى مثلا ان هذه المجموعات الجديدة التي تسلمت زمام الثورة ابتداء من نهاية الستينات (١٩٦٨) ليست في مستوى عراقة القيادات السابقة التي كان يكن لها ابو سلمى كل احترام؟

اسئلة كثيرة من هذا النوع يمكن ان يثيرها احجام شاعر فلسطين الواضح عن الاشارة الى العمل الفدائي، وهي لاتنتقص من وفائه المطلق لوطنه واخلاصه اللامتناهي لقضية شعبه، الا انها تظل اسئلة مشروعة وليس من الضروري أن تتطلب جوابا محددا.

ثقافة

هادي العلوي والانزياح

عبد الكريم الناعم*

مرة أخرى أتواقف مع الاستاذ هادي العلوي[١] في عدد من النقاط، ومنذ البداية أحب أن أعرّج على مسألة هامة تشكل محوراً من محاور أحاديثنا، وبقدر ما نحن بحاجة اليها، وبقدر ما نتحدث عنها باحترام بقدر ما نجفوها وننحرف عنها، وهي مسألة الديموقراطية، وفي أوساط المثقفين بخاصة، حتى اتخذت هذه الديمقراطية صورة مضحكة مبكية، وهي أن الديموقراطية تتحقق حين تجري الامور والافكار والنتائج في مجرى رغباتنا، فاذا حدث اختلاف، وفي مساحة التقدم لا في غيرها. فاننا كثيراً ما نتحول الى ارهابيين قمعيين، حتى لكأن قمع السلطات العربية قد تلبسنا من داخل وخارج، واذا كانت الديموقراطية شرطاً في النهوض والبناء والتجاوز، فانها شرط الشروط في الحوارات الفكرية الثقافية.

نعود الى مواقفتنا مع الاستاذ العلوي، طلباً لمزيد من التدقيق، وحباً في الحقيقة في سياق ما نحن بصدده، وتعميقاً، أو نفياً، لبعض الافكار والآراء، تأسيساً، وإغناءً، وسأتناول النقاط التالية:

١ ـ الموقف اللغوي.

٢ ـ مسألة الاحتلال الاستيطاني العربي في الاندلس.

٣ ـ رأي خطير.

٤ ـ بعض النقاط.

***

* شاعر من القطر العربي السوري.

١ ـ يتابع الاستاذ العلوي تمسكه بمشروعه اللغوي المقترح فيكتب بلغة منطوقة، وهذا هو مقاله الثاني الذي أطلعنا عليه في هذا المجال[٢] ولعله الوحيد الذي يكتب بما يقترحه، فيطبقه على مقالاته، وهو مشروع قديم جديد في جوهره، فقد دعا الى مثل ذلك توفيق الحكيم ذات يوم، وسبق أن كتب الكاتب المسرحي اللبناني يوسف غصوب مسرحيته «يوم أحد في الضيعة» بعامية لبنانية، ولئن كان الاستاذ العلوي لا يتجه الى لهجة محلية قطرية فانه يقترح الكتابة، ويمارسها بفصحى مسكنة الاواخر، مع اهمال قواعد اللغة العربية المعروفة، ولست بصدد مناقشة هذه المسألة في هذا المقال فقد ناقشت بعض مفاصلها من قبل، وتطرقت لابعاد وأخطار هذه الدعوة.

ان الاستاذ العلوي حين يصر على الكتابة على هذه الطريقة يبدو منفرداً عن السرب، ولا يتقيد بسلامة المشروع، من حيث صلاحيته واثبات نجاعته، كما أنه لاينتظر انجازه، فهو منجز بالنسبة لصاحبه على الاقل، وسأكتفي بإيراد عينة:

ـ ولم يكنْ العدْ المطلوبْ متيسرْ.

ـ ولم يكنْ قرارْ الزحفْ متوقفْ.

ـ هناكْ شخصياتْ أخرى يختلفْ المؤرخينْ في تسميتها.

وهنا تثار مسألة، راهنة، مستقبلية، وهي أن أحداً غير صاحب المشروع المقترح لا يكتب بهذه الطريقة، كما ذكرنا، فهو يطبق مشروعاً، في أضعف الحالات، لم يقرّ، ويحتفي بوليد محكوم عليه بالموت، فلقد مات جميع المواليد الذين حملوا شيئاً من ذلك الداء، ولعل السند الوحيد المتاح للاستاذ العلوي أنه يستطيع تطبيقه على ما يكتبه، ولقد فعل مثل هذا الفعل آخرون ولم تتغير النتيجة، فهو منفرد في حرصه، والانفراد هنا علامة من علامات المفارقة السلبية، وأنا لا أعني البقاء أو الابقاء على الثابت الجامد، العويص، المشكل، ولكن يظل في البال أن أي خروج لا يجري تأسيسه على فهم الواقع الاجتماعي، بمضامينه الروحية، للانطلاق منه، فإنه يحمل مشكلة في داخله، واللغة ابداع اجتماعي، في ولادتها، وفي تطورها، في اختناقاتها وانفتاحاتها، وبهذا المعنى يصبح الانطلاق من المعطى الموضوعي اللغوي، بمجلاه الوطني والقومي، بدلالاته وفاعليته . . . يصبح شرطاً من شروط العلمية والنجاح، وباعتبار أن المشروع غير متحقق في راهن ماهو فيه، ولزمن ـ مجاملة نقول ـ (قد) لا يجيء. فان مستقبلية المشروع هي الاخرى تبدو مقطوعة منذ الآن، ولكي لا نجدف على ما لا نعلم نقول هذا كاحتمال كبير، ولان للاستاذ هادي العلوي حضوره، وفاعليته، وفكره وموقفه فان الافضل لمجمل هذا النسيج، أن يكون له طيرانه الخاص في السرب، ولاشك أن هذا القول لا يعني المجاملة في مسألة الهوية القومية للغة، ونحن ننطلق من حسن الظن.

***

٢ ـ النقطة الثانية وتتعلق بدخول العرب الى الاندلس، وأشير هنا الى أن هذه المسألة قد طرحت في

حوارات شفهية وكتابية، وغلب على الداخلين الى هذه الحلبة أن فريقاً كان يرى في دخول العرب الى اسبانيا فتحاً اسلامياً حمل الخير كل الخير لتلك البلاد، يقولون ذلك، ـ على ما فيه من جذر لحقيقة ما يقال ـ انطلاقاً من مثول قيم دينية أو قومية، أو باشتراك القيمتين بحكم التواشج الخاص بين العروبة والاسلام، وخاصة في المسائل المتعلقة بتلك الازمة، بينما يهاجم الفريق الثاني الحكم العربي في الاندلس، ويرى فيه صورة من صور الاحتلال والاستعمار، ولعناصر هذا الفريق دوافعه التي تتميز بموقف صدامي من مسألة العروبة والاسلام، سواء أكان الموقف صادراً عن فرد له موقعه الايديولوجي المسيّس، أو عن فرد يعبر عن رأي مجموعة لها حضورها الاثني.

من هنا يبدو لي أن الصراع في هذه النقطة هو صراع أيديولوجي ولكنه يؤثر أن يخوض المعركة من مواقع، بعيدة عن التاريخ، قريبة في الجغرافية. فما الذي قاله الاستاذ العلوي؟.

بعد حديثه عن اتمام فتح الاندلس وهجرة العرب والبربر اليها، وحدوث تغييرات في نسبة السكان لصالح الفاتحين، وتسهيل تعريب البلاد وصبغها بالطابع الاسلامي صارت العربية لسان المجتمع بشتى فئاته، وتكونت عامية أندلسية «وصلنا منها الكثير، كما نجدها في كتب «لحن العامة» التي ألّفها لغويو الاندلس، بهدف تقويم ألسنة العوام وتقريبها من الفصحى، وبهذا يندرج فتح العرب المسلمين لاسبانيا في طراز الاحتلال الاستيطاني الذي نجد أمثلة معاصرة عليه في استيطان الاوروبيين للامريكتين واستراليا وفلسطين».

في موضع آخر يقول:

«لانملك أن نلوم الغربيين على تقدير النجاح الذي أحرزه شارل مارتل والنظر اليه كبطل قديس فنحن ننظر بنفس العين الى صلاح الدين الايوبي والظاهر بيبرس لنجاحهما في صد الغزو الصليبي والمغولي».

و في موضع ثالث يقول:

«... وهكذا لا يسع المرء الا أن يلتمس العذر لتلك السياسة الهمجية التي اتبعت لانجاز الأسبنة.....».

ورغم تشكيكه «فيما اذا كانت الوحشية التي عومل بها الاندلسيون مجرد مسعى للتخلص من آثار الاحتلال»، ورغم وصفه مهمة محاكم التفتيش بأنها وسخة، ورغم ذكره لاشتداد الخناق على بقايا الاندلسيين وتخيير أحدهم بين الهلاك والاحتفاظ بكتاب عربي، أو ارتداء زي عربي..

فانه يقول:

«.. وبامكاننا الافتراض في الواقع أن استعادة الوضع الطبيعي ،لاسبانيا لم يكن ممكن بدون ذلك».

بمتابعة النتائج والاستنتاجات التي وصل اليها الاستاذ العلوي لابد من التوقف عند عدد من الافكار والمبادىء والنقاط.

لقد تعامل الاستاذ هادي العلوي مع الاحداث التاريخية، بناتجها الحضاري، تعاملاً لا أقول انه

حيادي، ـ وهو العربي ـ بل ثمة رائحة لاتخفي نفسها تقف موقفاً لايخلو من فرح خفي بوضع اليد على مطعن، بل وتغلق أهم نافذة يمكن أن نطل منها على ما يدرج حسابه لصالح العربي في اسبانيا، وهو «الحمل الحضاري»، حيث يقول:

«ولايصح أن يجعلنا الحمل الحضاري لغزو معين ننسى جوهره كغزو»، ترى كيف نرى في فتح العرب لاسبانيا ما نصنفه في «طراز الاحتلال الاستيطاني» للعصور الحديثة، ومن ثم نسلب ذلك الفتح أهم وأبرز نقطة ايجابية فيه؟!.

ان الدارسين غزوة نابليون لمصر يتتبعون كل ما ساهمت تلك الحملة بنقله الى هذه المنطقة (الادارة ـ الطباعة ـ فتح العين على الغرب)، فكيف، وثمة فارق نوعي، وجوهري حضاري بين ما كان عليه العرب من رقي وحضارة، ولا أقول مدنية، وما كان عليه أهل تلك البلاد في ذلك الزمن، ولست أريد أن يفهم من هذا تسويغ الاستعمار، على أي شكل كان، بيد أن هذا لا يلغي وجوب التذكير بأن الاستاذ العلوي يتخطى الاطار التاريخي الزمني في أحكامه، فلا يأخذ الظواهر في الاطار المذكور بل يضعها في اطار معاصر، ويتعاطى معها من خلال مفاهيم وأفكار لم تكن معروفة في ذلك الزمن، ولعل من أبرز ما يجب التنبه اليه وعدم اسقاطه، ان بقصد أو بغير قصد، أن طبيعة الحكم الذي ملك العرب مقاليد أموره آنذاك لم تكن تستند الى عنصرية عربية، واذا كان الخليفة عربياً لم يكن هذا الشرط مطلوباً في الولاة، أو في الوزراء، أو في قادة الجيوش، ولقد عرفنا في رحابات تلك الدولة رجالات غير عرب كان لهم شأنهم البارز على مختلف الصعد الادارية والقضائية والعسكرية والثقافية والاقتصادية، ودون الغوص عميقاً في الايديولوجيا التي سهلت لبروز واتساع هذه الظاهرة، نستطيع القول أنها حالة لا تتوفر في تاريخ (الاحتلالات الاستيطانية).

ترى هل صحيح أن العرب كانوا شبيهين، في الاندلس، بهذه الدرجة أو تلك، بالاوروبيين الذين ذهبوا لامريكا واستراليا، وبالصهيونيين الذين يحتلون فلسطين الآن؟.

ترى هل نشعر بمقدار الظلم الذي ننزله بالعرب بمثل هذه المقارنة، أم أننا نتعمد ذلك بدوافع لا يصعب تتبعها، ولعل أبرزها هيمنة الصراعات الحزبية، الحادة، الدموية التي عانى منها العراق بين أنصار الدعوة القومية والذين يناوئون هذه الدعوة، بما خلفته من آثار وجراح عامة وخاصة، غير أن هذا لا يجعلنا نسوغ لباحث ومفكر نقدي جاد اندفاعه للتعامل غير الموضوعي مع مسائل حساسة، بدلالاتها، ومنعكساتها؟!.

ترى هل نستطيع اسقاط الحمل الحضاري، وبهذه البساطة المجانية، في زمن يقر فيه العلماء الغربيون، الماضون والمعاصرون بجدارة وعظمة الدور الذي لعبته الحضارة العربية في نهضة أوروبا الحديثة؟!.

ترى هل هو صحيح ودقيق القول أن العرب في الاندلس كانوا محتلين استيطانيين؟!.

لندقق قليلاً في بعض مظاهر الاحتلال الاستيطاني فنرى أنها يمكن أن تتلخص في اقتلاع الشعب المحتل، بشراً، وثقافة، وهوية، وبكل الوسائل الممكنة، من الطرد والتشريد، كمظهر احتلالي رحيم،

وحتى الابادة، فهل كان العرب في اسبانيا، على هذه الصورة؟!.

ان كلمة (طراز)، مضافة الى الاحتلال الاستيطاني، والتي توحي بالتحوّط. . لاتغطي حجم الاتهام القاسي، خاصة وأن المماثلات الاخرى التي أوردها الاستاذ العلوي تجيء مؤكدة على أنه يتعامل مع هذه المساحة انطلاقاً من موقفية شبه مضادة، ان لم تكن مضادة، واذا كان في قرارة نفسه على غير ما نقول فان ما نقوله مستخلص من وقوفنا أمام نص يبسط بين أيدينا ملامح لا يخطئها البصر، ولا تكذبها البصيرة.

ترى هل هو دقيق ومحكم القول أن شارل مارتل كصلاح الدين وكبيبرس؟.

لقد كان، ومازال، في كفة صلاح الدين وبيبرس مخزون حضاري هائل تجسد في الفن، والابداع، والمنظور الاخلاقي، والبعد الفلسفي الانساني المادي والروحي ذي الهوية المميزة، ـ ولا نزعم أن البناء الاجتماعي في زمن الامبراطورية العربية الاسلامية كان نموذجاً في نقائه وألقه، فهو كغيره، اذا استثنينا بعض الفترات، وبعض الرجال، غير أن بعض النصوص، والافكار، والطموحات، باستناداتها التاريخية، وبنبضها تعتبر علامة ناصعة، من شريعة حمورابي، حتى آخر ثورة ضد الظلم ـ.

ان في التاريخ عشرات النبذ المشحونة بتعبيراتها عن هذين القائدين الحاكمين: (صلاح الدين وبيبرس)، الغير عربيين أصلاً، واللذين تقبلتهما المنطقة العربية بهويتها العربية المعبر عنها بالدخول في السياق المجتمعي، بكل، أو بمعظم تفصيلاته، فدخلا التاريخ من أوسع أبواب رؤاه الانسانية، (ليست العربية من أحد منك بأم ولا أب. . .). فهل نكون منصفين حين نقارن بين قائدين أحدهما ينفتح على رحابات ما أبدعته هذه المنطقة منذ فجر التاريخ، مشحوناً برؤية اسلامية، والآخر يقيم قواعد عرشه على دموية وضيق أفق محاكم التفتيش؟!.

لنقل ان كلاً منهما بطل قومي، أو ديني، في نظر جماعته، فهل المقارنة واردة بين أناس، أعطوا، حيث وصلوا، زبدة ما عندهم، وما تزال الآثار المتعددة شاهدة، و. . . أناس جاء الاولون منهم لاحتلال فلسطين رافعين شعار الصليب، وجاء الآخرون فأحرقوا ودمروا وقتلوا وخربوا بطريقة همجية أصبحت مضرب مثل في التاريخ، ترى هل المقارنة العادلة واردة بين هذه وتلك؟!.

انه من غير المبهج أن يتولد احساس في النفس لا يضيع سمته تشويش، ذاك التشويش لم يجد مسرباً أفضل من إضمار الموضوعية المفترضة، ذلك الاحساس المتولد هو (التحامل).

الاستاذ هادي العلوي يتقبل الاعذار للآخرين، وربما أوجدها لهم، وقد يدلهم عليها ولا يقبل للعرب عذراً، فهو لا يسعه «الا أن يلتمس العذر لتلك السياسة الهمجية التي اتبعت لانجاز الاسبنة»، ويفترض أن ما جرى من همجية، وما فوقها، وما دونها «لم يكن ممكناً بغير ذلك»، حتى لكأن وراء هذا الرأي ممكناً عربياً، مايتحمل العرب مسؤولية عدم الانتباه اليه أو الاخذ به!!.

* * *

٣ ـ النقطة الثالثة تتساند مع أفكار الاستاذ العلوي في هذا المقال بعامة من حيث الموقفية المضادة،

وهي تسميته للهجرات القديمة داخل المنطقة العربية بالاحتلال، يقول ذلك وهو من هو في تتبع التاريخ ودراسته.

لنقرأ ما جاء في هذه النقطة،

في معرض حديثه عن زمن الاحتلال العربي للاندلس يقول:

«استكمل الاحتلال العربي ثمانمائة سنة، وقد تكون أطول مدة عاشها أي احتلال في التاريخ، اذا استثنينا تلك الاحتلالات التي تمتص الوسط فتدمجه في هوية المحتل، وهي على ضربين: واحد يحدث في وسط غير شديد التناقض معه فيندمج فيه لتكوين هوية مشتركة من خصائص الغازي والمغزو، ومثال هذه الموجات السامية المتعاقبة في العراق والشام، والآخر يقوم على المهابدة التي تؤدي الى تقليص معوق في نسبة الاهالية مقابل المستوطنين، مقترناً ذلك بعدم الامتداد الحضاري أو الاثني الذي يمكن أن يستند اليه المغزوين في المقاومة، ومثاله الاقرب احتلال الاوروبيين للامريكتين واستراليا».

ان الاستاذ العلوي يعرف جيداً أن ثمة اتجاهات جديدة في دراسة التاريخ العربي القديم للمنطقة تستند الى المكتشفات الاثرية، والى دراسة اللغة، والمعتقدات، والفنون، ودورة الحياة التواصلية غير المعطلة، وغير المعوقة، وهذا التيار يرى أن ما نسميه الان الوطن العربي كانت له وحدته الخاصة في العديد من هذه النقاط، ولئن افتقد وحدته السياسية فانه لم يفتقد وحدته الحضارية الروحية، وليس هذا مجال التفصيل والاستشهاد، وحين نقول أن الاستاذ هادي العلوي لا يجهل هذه الاتجاهات، باستشهاداتها، وبمعطياتها، فانه حين يعتبر ذهاب هجرة من منطقة الى منطقة في هذا الوطن المتسع، أو غزو مجموعة لمجموعة ثانية، وهي من ذات الارض والاصول، حين يعتبر هذا (احتلالاً) فانه يحدد موقفه من هذه التوجهات، ويعلن موقفاً آخر من خلال تبني النقيض، ولسنا نصادر، ولكننا في نفس الوقت نتمسك في أن هذا يعطينا الحق في أن نكون صريحين فيما نحسه تجاه المضامين اللائحة، أو التي قد تلوح على شكل ما، وهي أن هذا الاتجاه يبسط بين أيدينا موقفاً معروفاً من العروبة، قديماً وحديثاً، وفي حدود أي معنى أخذت فيه، بالمعنى الذي قصده وحده الاستاذ العلوي تصبح الهجرات التي عرفتها المنطقة العربية، باتجاه الجنوب أو باتجاه الشمال. . تصبح جميعها احتلالاً، من أقدم الهجرات وحتى أقربها من الناحية التاريخية، هجرة اليمانيين باتجاه الشمال بعد انهيار سد مأرب ومن ثم خروج العرب من الجزيرة العربية معلنين الدعوة الاسلامية.

ان معاني الاحتلال، والاحتلال الاستيطاني، كما قدمها الاستاذ العلوي تضع من يأخذ بهذا الرأي أمام أسئلة لا تصعب الاجابة عليها غير أن الجواب يضع بعض التقريرات على محك مصداقيتها الذاتية، اذ كيف يستطيع الفينيقيون اقامة قرطاجة، فكانت صلتهم بأهل البلد صلة الداخل بالداخل، تمازجاً، وانسجاماً، وتقبلاً بينما أحرقت روما هذه المدينة وحرثتها، ، ثم كيف ينجح عدد من المقاتلين الذين لايقاس عددهم باعداد سكان الارض التي جاؤوا اليها من امتصاص الوسط ودمجه في هويتها حين تكون غريبة ومحتلة؟!!.

لست أدري ما اذا كان ذهاب الدم في الجسد الواحد وعودته منه، واستمرار هذه العملية، ما أدري

هل يسمى هذا احتلالاً؟!.

مرة أخرى ليسمح لي الاستاذ العلوي بالقول أنني أشم رائحة انزياح، وانحياز، وأنا هنا، بما أحمله من احساس لا أنكر بأنني متعاطف مع عروبتي، مع ذاتي، مع الوضيء من ماضي هذه الامة، ومع المستقبل الذي لا يؤسس له الا عبر الحاضر، مع التقدم، والوحدة، والديمقراطية، والاشتراكية كمضمون أساسي لتوجهنا القومي.

ان رؤيتنا القومية التقدمية شيء، ووجودنا القومي شيء آخر، فالوجود القومي حقيقة تتعلق بأننا موجودون كأمة، أما رؤيتنا القومية فهي المشروع المقترح لنهوض جديد، أو لانجاز ما فيه مصلحة وطموحات الجماهير، وهي النظرية المطروحة بمضمونها المشار اليه، وهو مضمون يغتني ويحقق اكتمالاته المفتوحة، وهذا يعني أن الموضوعية تقتضي ألا ننظر الى هذا الوجود من خلال تجارب ضيقة، وعابرة، لان ما ينقضي، الماضي، حتى بتاريخيته لا يهمنا منه الا ما يرفد الحياة، في صعودها، وفي تجربتها، وفي غناها، أما المستقبل فهو مشروعنا النضالي للخروج من وهدة الموات والتهديد بالتلاشي والاجتثاث، وليغفر لي هذا الاستطراد فقد جاء بضغط من الاحساس بضرورة توضيح الواضح والحرص والمحبة لقلم، ما أظن أن كتابة التراث قد استهوته الا وهو معجب بكل وضيء من هذا التراث نقول (التراث) لا (الموروث).

* * *

ثمة نقاط هي ملحقة، ضمناً، بمفاصل البحث:

● يقول الاستاذ العلوي أن الفاتحين - يعني العرب في اسبانيا - قد صفوا «الملكيات الكبيرة للاقطاعيين القوط، وقسموها الى وحدات صغيرة هي التي كانت عماد الزراعة الاندلسية».

ترى مهما كانت الدوافع أليس هذا التقسيم عملاً ايجابياً بأبعاده ونواتجه، وهل هو مظهر من مظاهر الاحتلال الاستيطاني؟.

● يقول الاستاذ العلوي أن الشعر الاندلسي «تشرب بعمق كافي ألوان طبيعة الاندلس وحياتها الرافهة».

هنا أريد أن أتقدم بسؤال له علاقة بمجمل ما سبقه من الاحتلال الاستيطاني، فلقد عرفنا هذا الاحتلال في أبشع صور امتصاص دم الواقع تحت نير الاحتلال، هذا عدا عن الطرد والابادة، فهل كانت الحياة الرافهة في الاندلس آنذاك خاصة بالعرب وحدهم أم كان الرفاه من نصيب جميع الاغنياء، من عرب وغير عرب، من مسلمين ومسيحيين ويهود؟. وحين لا يكون بين أيدينا جواب يمنحنا فرصة ما للاجحاف، وللتقزيم، - ربما غير المقصودين - أفلا يكون في ذلك نقطة تحسب لصالح الحضارة العربية هناك، ولا أقول الفريق العربي؟.

ترى هل رؤية السلبيات وحدها، والتنقيب عن تسميات لها هو من صميم الكتابة الموضوعية؟.

● أرجع الاستاذ العلوي حرق كتب الفلسفة لبعض فلاسفة الاندلس، وتعليق تهم الزندقة في رقاب من يخالفون ما عليه العامة، وقتل الناس على الشبهة استرضاء لهذه العامة، وبعد أن استغرب أن يحدث ذلك في المجتمع المترف الشديد التذوق للادب والفن والغناء. . أرجعها الى «أنه مجتمع استيطاني، والمستوطن مهما استقر به الحال يبقى نهب الشعور بالغربة مع ما ينتابه من وساوس المجهول، لاسيما حين يكون كالاندلسي يشاهد عن قرب أهل البلد الاصليين وهم يتطلعون اليه منتظرين فرصة الوثوب لاسترجاع ما أخذ منهم، ويخلق ذلك لدى المستوطن نزعة محافظة تتأصل بالاستقطاب ضد ما يمثله العدو على صعيد مقابل. لقد كان الاسلام في ثوبه السلفي الغير قابل للتقصير أو التطويل هو الملاذ الاوثق لتلك النفوس التي عبر عن سرائرها شاعر قوي الكهانة قال لبني قومه بعد أن استعاد الاسبان طليطلة عام ٤٨٧هـ.

يا أهل أندلس شدوا رحالكم ... فما المقام بها الا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط

ترى هل هذا التفسير سليم ودقيق في كون المظهر التعصبي السلفي ناتجاً عن الاحساس بالغربة لمحتلين استيطانيين؟!.

ان التأكيد على هذه النقطة. وتردد الاستاذ العلوي عليها في أكثر من موضع. . يجعلنا نرجح أن رغبة ما، أو ميلاً، قد أظهره بمظهر المجانب للموضوعية العلمية، وهو، كما نعرف، الحريص عليها، ومجانبة الموضوعية نادراً ما تتيح لمن يقع في مطبها أن يقدم أفكاراً عميقة صائبة ومتألقة. ان كلمة (أضع في الحساب) التي وضعت في مقدمة ذلك التقرير الذي قدمناه آنفاً، تلك الكلمة لا تغير من طبيعة الحكم الحازم المقدم، وان كان يشكّل تكأة لما يشبه الاستدراك أو لما يساعد عليه الان ما ورد في النص من تأكيد راسخ يجعلنا نلمس متانة هذا القرار، وهذا يستحضر في الذاكرة عشرات الحوادث، من قتل، وتعذيب، وطرد واضطهاد لافراد، أو حتى لجماعات فارقت رأي الجماعة الاكبر، نعني الاكبر في زمنها، زمن سيطرتها، فالمسألة، وكما هو معروف، تختلف باختلاف الزمان والمكان، والذي نذكره حدث في مختلف أنحاء الدولة العربية الاسلامية، في بغداد، ودمشق، وحلب، والقاهرة. وفي ذاكرة الاستاذ العلوي من النماذج ما ليس في ذاكرتي، ولم يكن سبب تلك السلفية التعصبية ذات الافق المحدود الاحساس بالغربة «كمحتلين استيطانيين»، فالسلفية، كظاهرة استقرت لزمن طويل، رغم تعرضها لبعض الهزات التي وصلت حد التهديد بالاقتلاع، . . لها من الاسباب الاقتصادية الاجتماعية السياسية الروحية ما يجعلها أعقد من أن نزين بكفة واحدة هي كفة الاحتلال الاستيطاني العربي للاندلس.

أما كهانة ذلك الشاعر فلا تعدو كونها استقراء وحدساً علمياً بالمجريات، وليس ثمة فاصل سوى مضيق ضيق، وبتصور ما سيحدث، آن حدوثه على يد أناس كان الحقد عندهم على العرب وعلى المسلمين بعامة قد بلغ درجة نادرة من الكراهية، وفي اطار ظروف ومعطيات خاصة. . . باستقراء هذا لم يكن أمام ذلك الشاعر سوى الدعوة لعبور المضيق الضيق، ولم يكن قوله حكماً على الوجود العربي بأنه خطأ بل هو حكم على النتائج، وهو ارهاص بالهزيمة التي نتجت عن التفرقة، والتناحر، والتخاذل، والانهيار.

بعد أن تلمس الاستاذ العلوي العذر «للسياسة الهمجية التي اتبعت لانجاز الاسبنة» ما يلبث أن يقف «أمام سؤال مشروع عن المبرر الذي دفع الاسبان الى اتباع نفس السياسة مع الهنود الحمر في أمريكا»، وبعد شكه في العثور على مبرر يقول:

«ألا يحق لنا التشكيك فيما اذا كانت الوحشية التي عومل بها الاندلسيون مجرد مسعى للتخلص من آثار الاحتلال».

ترى هل يمكن اعتبار هذا التفسير قانوناً أم هو مجرد مسوغ يصلح أن يكون مشجباً لتعليق أردية الافكار، الصالحة، أو المقترحة، أو تلك المشكوك في صلاحيتها وجدارتها عليه، وبحيث يجيء الناتج متوافقاً مع انحيازاتنا الذاتية؟.

ان هذا المسوغ ـ وأنا أبرّيء الاستاذ العلوي من خطورة ما أقول في فكره، ولكنه يستدعيه بطريقة ما ـ، هذا المسوغ، والذي هو غير أخلاقي، وغير حضاري، يمكن أن تتلقفه الصهيونية التي تزعم أنها عادت الى الوطن المعطى لها بالوعد الالهي المقطوع في التوراة، والمحمي بقوة الامبريالية، فتضع كل ما ارتكبته من جرائم عنصرية في خانة أنه «مسعى للتخلص من آثار الاحتلال».

هذه واحدة، أما الثانية، فهي أن العرب حين حرروا فلسطين من الاحتلال الصليبي لم يفعلوا ما فعله الاسبان، ولا ننسى أن الاسبان كانوا يمسحون علامات حضارية راقية، بقدر ما فعلوا، فهل ثمة عذر في أن نسوغ تدمير معالم حضارية، مادية وروحية باسم قبول «مسعى التخلص من آثار الاحتلال»؟!.

ثم ما الذي يجعل أمة، أو شعباً، أكثر تقدماً، وأكثر انسانية من غيره، في هذه المسائل؟ (وصية أبي بكر مثلاً)، ثم ما الذي منع العرب من تنظيم «حرب مهابدة ضد الاسبان»، يوم كان العرب الفاتحون في أوج قوتهم، وما الذي جعلهم لا يطبقون «عليهم خطة تهجير جماعي، وانما اكتفوا بأخذ الجزية، وكانت هذه سنتهم في جميع البلدان التي فتحوها»، وما هي أسباب الاخذ بهذه السنة؟!.

ترى ما الذي يجعل الاستاذ العلوي شديد الوثوق والتشبث بأنه لا ينبغي ارجاع هذا الفارق الى سبب أخلاقي فلكل الشعوب فضائل ورذائل تتقاسمها على السواء»، ويطالب «بدراسته في ضوء الظروف الخاصة التي جرت فيها الفتوحات الإسلامية»؟.

ترى هل يمكن الغاء الاثر الحضاري في حياة الامم والشعوب وانعكاس هذا الاثر بعمق في مفاهيمها الاخلاقية وفي ترجمة هذه المفاهيم في سلوك مجسد؟.

بظني أن الاستاذ العلوي قد وقع في هذا المطب، وعن وعي، بدافعين:

الاول: أن صورة العروبة والاسلام، القائمة، والمعممة، هي صورة ما هو سلفي. وهي المساحة الكبرى، الماثلة، والمدعومة، والمطلوب تسيدها، وهي صورة تتعارض مع جوهر النشدان التقدمي للوحدويين العروبيين، وللمتنورين الاسلاميين، ـ نعني هؤلاء تحديداً، لا القوى، ولا الافراد الحرفيين المسيجين بأسيجة من فولاذ النصوص التي لا تملك، في معظمها، من حق وأهلية أنها قيلت من قبل وجرى

اسباغ قدأسة خاصة عليها.

الثاني: هو الموقف التاريخي من وحدة المنطقة العربية حضارياً، حتى لكأن في الذهن أن هؤلاء العرب الذين خرجوا من الجزيرة العربية يحملون رسالة الاسلام.. أنهم حلقة مقطوعة، فهم بداية لنهاية تجيء، بينما يرى آخرون أن المخزون الحضاري في المنطقة العربية، والتي لم تتعطل دورة النسغ في شجرتها، هذا المخزون لابد له من أن يفرز قيماً أخلاقية معبرة عن توجه تلك الحضارة، وعن جوهرية رؤاها، وبهذا لايكون ثمة غرابة أن يكون الدافع أخلاقياً، ومؤسساً على قيمه الحضارية، والا فمن أين للعرب أن يقال عنهم «ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب»؟!.

صحيح أن لكل الشعوب فضائل ورذائل ولكنها لا تتقاسمها (ع السواء)، اذ لا يمكننا المقارنة بين التدمير والخراب الذي رافق غزو المغول للشطر الشرقي من هذا الوطن، كواحد من الرذائل،... لايمكننا أن نقارن بينه وبين الفتح الاسلامي، (كرذيلة) مضمرة، وتستحيل المقارنة، انطلاقاً من نفس القاعدة، بين أي من الاحتلالات الاستيطانية المذكورة في المقال و.. الاحتلال الاستيطاني الغربي للاندلس، كما يسميه الاستاذ العلوي.

ترى هل ثمة ما يضير، أو ما يتعارض مع التحليل المنطقي، التاريخي، السليم أن نرجع هذا الفارق لسبب أخلاقي، أو أن المسألة مجرد وجهة نظر متشددة؟.

أشير هنا الى أننا نتحدث عن (الجذر الحضاري) الاخلاقي كقيمة روحية، لا عن (المدنية) فقد نجد لدى بعض القبائل من القيم الاخلاقية الروحية ما لا نجده لدى بلدان ناطحات السحاب، وما من شك في أن القيم الاخلاقية هي صورة من صور التنظيم المجتمعي، ولا نضع الكلام عن الاخلاق بعامة في صيغة اطلاقية، ولكن حتى هذه النسبية لا تلغي حضور وأثر القيمة الاخلاقية التربوية الوجدانية.

أوليس عدم رمي النفايات في الشارع، مثلاً، قيمة أخلاقية في مجلاها الصحي المجتمعي، كما أن الصدق والاخلاص للوطن قيمة أخلاقية لاتبدو الا في تجسدها الفعلي، وفي سياقها؟.

أولسنا مسبوقين الآن، كعرب، من قبل بلدان العالم الاول والثاني بالقيم الاخلاقية والتي هي ناتج حضاري ومدني؟ فما الذي يمنع، آنذاك، أن يكون ما كان من العرب في اسبانيا.. ناتجاً عن سبق حضاري مدني قائم في زمن، فلماذا كل هذا الرفض الذي يلقي بظلال من الجزع من أن يكون حدوث ما حدث بسبب أخلاقي، مع التأكيد أن كل الشعوب فضائل ورذائل، غير أن حجم الرذائل لا نشك في أنه يكون في أدنى درجاته في مراحل النهوض الحضاري.

***

في الختام:

لا أريد أن يعلق بي شيء من ريح السلفية، ولست قادراً على تقبل فكرة أن تخطر هذه الفكرة ببال أحد، ضمن أية صيغة، ولم يكن (دفاعي) عما قيل عن العرب في الاندلس، ـ وما هو بدفاع بل توضيح

لحق - لم يكن ذلك الا بدافع من شعوري بأن العرب هناك قد ظلموا على يد الاستاذ العلوي، ولم يكن ظلماً غير مقصود بل أحسست أنه جاء على نية، واني سأكون فرحاً حين أكتشف أنني كنت مخطئاً، ولعلنا أحوج ما نكون الى قراءة تاريخ المنطقة العربية، بروح من يرغب في الذهاب الى أمام لا الى الخلف، بروح من يثبت النقاط الوحدوية الوضيئة ويطرد ما هو بعكس ذلك، بروح من ينصف ذاته أولاً.

---

١ - في مقال نشر في جريدة تشرين - السورية - الصادرة بتاريخ ١٠/٢/١٩٨٨، وقد نشر الاستاذ هادي العلوي تعقيباً في الجريدة نفسها في العدد الصادر بتاريخ ٢١/٣/١٩٨٨.

٢ - انظر مجلة الحرية - العدد الصادر بتاريخ ١٠/٧/١٩٨٨، العدد رقم ٢٦٩ (١٣٤٤).

ثقافة

مناقشات حول الفرد القامع والمقموع

أمين مازن*

تظل المداخلة التي أفضى بها الاديب الليبي المعروف الاستاذ عبد الله القويري، حول القمع وأشكاله في المجتمع العربي، أثناء المؤتمر السادس عشر للادباء والكتاب العرب الذي عقد في طرابلس في الربع الاخير من السنة المنصرمة، من أخطر المداخلات التي قدمت الى هذا المؤتمر الثقافي الهام وموضوعه الحساس (الثقافة والحرية في الوطن العربي)، بصرف النظر عن الطريقة التي عبر بها الاستاذ القويري، ومستوى التلقي الذي قوبلت به هذه الطريقة، والتعليقات التي أثيرت حولها.

وتكمن أهمية هذه المداخلة، أو خطورتها، كما أحببت أن أعبر، في اتصالها بمظهر من مظاهر القمع الذي نعيشه في حياتنا الفكرية، ونعاني منه الكثير ونتجرع منه الاكثر، بيد أننا نقف منه موقف اللامبالي، سواء في مواجهتنا له كمقموعين، أو مما سنناله أحياناً كقامعين.

وقد أحببت أن أعبر عنه بالخطورة، لان ممارسة القمع في هذا الجانب، تتم من قبل الانسان نفسه، الانسان الكاتب والانسان المتلقي، أي الذي ليست له صلة مباشرة بالقمع، بيد أن تأثيره في استفحاله واستشرائه تفوق كل وصف.

ان الذين تناولوا مداخلة الاستاذ القويري بالنقاش وخصوصاً بالتعليق، وأن يكونوا قد جسدوا ما هي عليه من الجدية، الا أنهم لم يستطيعوا النفاذ الى جوهر المسألة، ولعله هو أيضاً لم يفلح في ايصالها بالصورة المطلوبة.

لقد انصبت كل الملاحظات التي حفلت بها التعليقات الكثيرة، على انكار القويري لدور الانظمة في ممارسة القمع، وانصرافه الى القمع الذي يمارسه الافراد أو المجتمع حول ما يكتبه المفكر، مما بدا وكأنه ينطوي على تبرئة للانظمة من ممارسة القمع، تجاه الفكر والمفكرين.

---

* امين رابطة الكتاب والصحافيين والفنانين الليبيين.

لحق ـ لم يكن ذلك الا بدافع من شعوري بأن العرب هناك قد ظلموا على يد الاستاذ العلوي، ولم يكن ظلماً غير مقصود بل أحسست أنه جاء على نية، واني سأكون فرحاً حين أكتشف أنني كنت مخطئاً، ولعلنا أحوج ما نكون الى قراءة تاريخ المنطقة العربية، بروح من يرغب في الذهاب الى أمام لا الى الخلف، بروح من يثبت النقاط الوحدوية الوضيئة ويطرد ما هو بعكس ذلك، بروح من ينصف ذاته أولاً..

---

١ ـ في مقال نشر في جريدة تشرين ـ السورية ـ الصادرة بتاريخ ١٩٨٨/٢/١٠، وقد نشر الاستاذ هادي العلوي تعقيباً في الجريدة نفسها في العدد الصادر بتاريخ ١٩٨٨/٣/٢١.

٢ ـ انظر مجلة الحرية ـ العدد الصادر بتاريخ ١٩٨٨/٧/١٠، العدد رقم ٢٦٩ (١٣٤٤).

مناقشات حول الفرد القامع والمقموع

ثقافة

أمين مازن*

تظل المداخلة التي أفضى بها الاديب الليبي المعروف الاستاذ عبد الله القويري، حول القمع وأشكاله في المجتمع العربي، أثناء المؤتمر السادس عشر للادباء والكتاب العرب الذي عقد في طرابلس في الربع الاخير من السنة المنصرمة، من أخطر المداخلات التي قدمت الى هذا المؤتمر الثقافي الهام وموضوعه الحساس (الثقافة والحرية في الوطن العربي)، بصرف النظر عن الطريقة التي عبر بها الاستاذ القويري، ومستوى التلقي الذي قوبلت به هذه الطريقة، والتعليقات التي أثيرت حولها.

وتكمن أهمية هذه المداخلة، أو خطورتها، كما أحببت أن أعبر، في اتصالها بمظهر من مظاهر القمع الذي نعيشه في حياتنا الفكرية، ونعاني منه الكثير ونتجرع منه الاكثر، بيد أننا نقف منه موقف اللامبالي، سواء في مواجهتنا له كمقموعين، أو مما سنناله أحياناً كقامعين.

وقد أحببت أن أعبر عنه بالخطورة، لان ممارسة القمع في هذا الجانب، تتم من قبل الانسان نفسه، الانسان الكاتب والانسان المتلقي، أي الذي ليست له صلة مباشرة بالقمع، بيد أن تأثيره في استفحاله واستشرائه تفوق كل وصف.

ان الذين تناولوا مداخلة الاستاذ القويري بالنقاش وخصوصاً بالتعليق، وأن يكونوا قد جسدوا ما هي عليه من الجدية، الا أنهم لم يستطيعوا النفاذ الى جوهر المسألة، ولعله هو أيضاً لم يفلح في ايصالها بالصورة المطلوبة.

لقد انصبت كل الملاحظات التي حفلت بها التعليقات الكثيرة، على انكار القويري لدور الانظمة في ممارسة القمع، وانصرافه الى القمع الذي يمارسه الافراد أو المجتمع حول ما يكتبه المفكر، مما بدا وكأنه ينطوي على تبرئة للانظمة من ممارسة القمع، تجاه الفكر والمفكرين.

---

* امين رابطة الكتاب والصحافيين والفنانين الليبيين.

والحقيقة أن القويري لم ينكر وجود القمع الذي تمارسه الانظمة، وانما ركز بشكل خاص على ذلك القمع الذي تمارسه المجتمعات أفراداً وجماعات. وهذه مسألة لا مجال للعتب فيها، لو أن الفهم للامر قد بلغ مداه؛ فالقمع من جانب الانظمة يبدو على الدوام من الامور العادية التي لا يستفز بها المرء، لان التناقض مبدئي، والتعبير عن شيء أساسي بالنسبة للكاتب، والتبرم به والعمل على وقفه كذلك من أخلاقيات كل نظام، وان اختلفت الاساليب وتعددت الصيغ، فهو بالتالي غير مستغرب، كما أن مواجهته من الامور المشروعة والميسورة في ذات الوقت، لان المعركة واضحة، وان كانت القدرات فيها مختلفة، وغالباً ما يجد المقموع من الانظمة وأجهزتها من يقف الى جانبه، سواء وهو ينتصر في معاركه، أو وهو يتعرض للخسارة المؤقتة، على الصمت في بعض الاحيان، لكن الامر يختلف عن ذلك كل الاختلاف، حين يكون القمع محصلة من محصلات موقف المجتمع نفسه، وبسبب ما يعشش فيه من تخلف وجمود وانسياق كامل خلف الموروث بكل أشكاله وأبعاده.

وتفصيل ذلك أن المفكر، حين يعلن له رأي من الآراء، حول شأن من الشؤون المتصلة بعقيدة المجتمع، وأنواع المحرمات والمحللات فيه، ويعبر عنه بوسائل النشر المعروفة، هل يكون ما يأتيه من قمع باستمرار ناتجاً عن موقف الانظمة نفسها، الى أن المبادرة كثيراً ما تأتي من المجتمع نفسه، وربما من أولئك الذين يفترض فيهم أن ينتبهوا للامر، ويحذروا من ممارسة القمع ويدركوا سوء ما قد يبادرون بحربه؟ وبالتالي هل يستطيع أي مفكر أن يواصل التعبير عن آرائه المناقضة لآراء الاخرين، حتى وان لم تتخذ المؤسسة الرسمية أي موقف عدائي منه.

الحق أن المفكر كثيراً ما يحجم عن مواصلة سيرته الفكرية، ويعجز بالتالي عن أي مستوى من مستويات الدفاع، الا أن المجتمع قد تكفل بممارسة القمع، مما يوفر على الانظمة أي تبعة من تبعات مثل هذه المواقف السيئة.

وهناك من تاريخ الفكر العربي شواهد عدة، يمكن للمرء أن يدفع بها لتوكيد صحة هذا الرأي، هناك الموقف الذي ووجه به طه حسين، وهناك الموقف الذي لقيه علي عبد الرازق، وكذلك عبد الله القصمي وغيرهم من المفكرين الذين لقوا من المجتمع أكثر مما لقوا من المؤسسة الرسمية.

من هنا نكتشف أن القمع الاجتماعي لا يقل خطورة عن القمع السياسي، بل انه كثيراً ما يسهل على السياسي أن يمارس لعبته القذرة بمنجاة من أي رقيب أو حسيب.

ان هذا ما يرمي اليه الاستاذ عبد الله القويري، وان لم يفلح في التعبير عنه بالمستوى المطلوب، كما تبين لي من سياق مداخلته ومنظومة أفكاره التي طالما عالجتها عبر مختلف المتابعات.

ولاشك أن الاصوات التي ارتفعت معترضة على ما جاء في طرح الاستاذ القويري هي ذاتها قد مارست من حيث لا تدري مسؤولية القمع الذي يرفضه الجميع ويمارسه الجميع أيضاً.

ولا عجب، ألم يقل أبو الطيب قبل ألف سنة

«والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفة فلعله لا يظلم».

الروائي ام الروائيون

محاولة للتقرب من عالم غالب هلسا الكتابي

خيري الذهبي*

قبل كل شيء أود الاعتذار من السادة القراء، فما سأقدمه الآن ليس أكثر من انطباعات زميل أدركته حرفة الادب، ولكن هذه الرواية الجرح التي قرأتها فارقتني، وأيقظت فيَّ أحزاناً كنت أظن أن الزمن بلا مبالاته الغليظة قد غلفها، وأن الأحزان التي لحقت بجيلنا من بعد قد أنستناها ليأتي هذا الكاتب الرجيم غالب هلسا وبمبضع قاس حاد فيكشط عن أرواحنا العتمة، وليشق إلى قلوبنا جرحاً يخرج منه الدم القديم الفاسد وليذكرنا بأن كل مانعانيه هو ابن لتلك الفترة الفظيعة التي عبدنا فيها آلهة ماكان لها أن تعبد، وليذكرنا بأن علينا دائماً ألا نجعل الأحزان اليومية الصغيرة تنسينا حزننا القديم والبدئي والذي أنبت كل أحزان تالية.

الروائيون.

إن متابعة بسيطة لعالم غالب هلسا المجموع بين دفتي كتبه بدءاً من القديسة ميلاده، وانتهاء بالروائيون يكشف لنا أن هناك عالمين يتنازعان هذا الكاتب دائماً عالم الطفولة والذكريات المغسولة من أدرانها والمصفاة حتى الوصول الى الحياد الروائي المطلق والذي يحسن في استخدامه ضمير الهو، وعالم الأنا الآنية المصارع، المشاجر، المعاني، المضطرب بين أعباء الحياة وخصوماتها وسجالاتها وأحلامها ومنازعاتها، الأمر الذي يجعل القدرة على الحياد أشد صعوبة وأكثر عناء.

---

* روائي وناقد من سورية

والحقيقة أن القويري لم ينكر وجود القمع الذي تمارسه الانظمة، وانما ركز بشكل خاص على ذلك القمع الذي تمارسه المجتمعات أفراداً وجماعات. وهذه مسألة لا مجال للعتب فيها، لو أن الفهم للامر قد بلغ مداه؛ فالقمع من جانب الانظمة يبدو على الدوام من الامور العادية التي لا يستفز بها المرء، لان التناقض مبدئي، والتعبير عن شيء أساسي بالنسبة للكاتب، والتبرم به والعمل على وقفه كذلك من أخلاقيات كل نظام، وان اختلفت الاساليب وتعددت الصيغ، فهو بالتالي غير مستغرب، كما أن مواجهته من الامور المشروعة والميسورة في ذات الوقت، لان المعركة واضحة، وان كانت القدرات فيها مختلفة، وغالباً ما يجد المقموع من الانظمة وأجهزتها من يقف الى جانبه، سواء وهو ينتصر في معاركه، أو وهو يتعرض للخسارة المؤقتة، على الصمت في بعض الاحيان، لكن الامر يختلف عن ذلك كل الاختلاف، حين يكون القمع محصلة من محصلات موقف المجتمع نفسه، وبسبب ما يعشش فيه من تخلف وجمود وانسياق كامل خلف الموروث بكل أشكاله وأبعاده.

وتفصيل ذلك أن المفكر، حين يعلن له رأي من الآراء، حول شأن من الشؤون المتصلة بعقيدة المجتمع، وأنواع المحرمات والمحللات فيه، ويعبر عنه بوسائل النشر المعروفة، هل يكون ما يأتيه من قمع باستمرار ناتجاً عن موقف الانظمة نفسها، الى أن المبادرة كثيراً ما تأتي من المجتمع نفسه، وربما من أولئك الذين يفترض فيهم أن ينتبهوا للامر، ويحذروا من ممارسة القمع ويدركوا سوء ما قد يبادرون بحربه؟ وبالتالي هل يستطيع أي مفكر أن يواصل التعبير عن آرائه المناقضة لآراء الاخرين، حتى وان لم تتخذ المؤسسة الرسمية أي موقف عدائي منه.

الحق أن المفكر كثيراً ما يحجم عن مواصلة سيرته الفكرية، ويعجز بالتالي عن أي مستوى من مستويات الدفاع، الا أن المجتمع قد تكفل بممارسة القمع، مما يوفر على الانظمة أي تبعة من تبعات مثل هذه المواقف السيئة.

وهناك من تاريخ الفكر العربي شواهد عدة، يمكن للمرء أن يدفع بها لتوكيد صحة هذا الرأي، هناك الموقف الذي ووجه به طه حسين، وهناك الموقف الذي لقيه علي عبد الرازق، وكذلك عبد الله القصيمي وغيرهم من المفكرين الذين لقوا من المجتمع أكثر مما لقوا من المؤسسة الرسمية.

من هنا نكتشف أن القمع الاجتماعي لا يقل خطورة عن القمع السياسي، بل انه كثيراً ما يسهل على السياسي أن يمارس لعبته القذرة بمنجاة من أي رقيب أو حسيب.

ان هذا ما يرمي اليه الاستاذ عبد الله القويري، وان لم يفلح في التعبير عنه بالمستوى المطلوب، كما تبين لي من سياق مداخلته ومنظومة أفكاره التي طالما عالجتها عبر مختلف المتابعات.

ولاشك أن الاصوات التي ارتفعت معترضة على ما جاء في طرح الاستاذ القويري هي ذاتها قد مارست من حيث لا تدري مسؤولية القمع الذي يرفضه الجميع ويمارسه الجميع أيضاً.

ولا عجب، ألم يقل أبو الطيب قبل ألف سنة

«والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفة فلعله لا يظلم».

الروائي ام الروائيون

محاولة للتقرب من عالم غالب هلسا الكتابي

خيري الذهبي*

قبل كل شيء أود الاعتذار من السادة القراء، فما سأقدمه الآن ليس أكثر من انطباعات زميل أدركته حرفة الادب، ولكن هذه الرواية الجرح التي قرأتها فارقتني، وأيقظت فيَّ أحزاناً كنت أظن أن الزمن بلا مبالاته الغليظة قد غلفها، وأن الأحزان التي لحقت بجيلنا من بعد قد أنستناها ليأتي هذا الكاتب الرجيم غالب هلسا وبمبضع قاس حاد فيكشط عن أرواحنا العتمة، وليشق إلى قلوبنا جرحاً يخرج منه الدم القديم الفاسد وليذكرنا بأن كل مانعانيه هو ابن لتلك الفترة الفظيعة التي عبدنا فيها آلهة ماكان لها أن تعبد، وليذكرنا بأن علينا دائماً ألا نجعل الأحزان اليومية الصغيرة تنسينا حزننا القديم والبدئي والذي أنبت كل أحزان تالية.

الروائيون.

إن متابعة بسيطة لعالم غالب هلسا المجموع بين دفتي كتبه بدءاً من القديسة ميلاده، وانتهاء بالروائيون يكشف لنا أن هناك عالمين يتنازعان هذا الكاتب دائماً عالم الطفولة والذكريات المغسولة من أدرانها والمصفاة حتى الوصول الى الحياء الروائي المطلق والذي يحسن في استخدامه ضمير الهو، وعالم الأنا الآنية المصارع، المشاجر، المعاني، المضطرب بين أعباء الحياة وخصوماتها وسجالاتها وأحلامها ومنازعاتها، الأمر الذي يجعل القدرة على الحياد أشد صعوبة وأكثر عناء.

---

* روائي وناقد من سورية

في وديع والقديسة ميلاده، وكان هذا أول عمل ابداعي أقرأه لهلسا كان الروائي يتحدث الينا عبر شخصياته محيداً نفسه عنهم، منعزلاً عنهم يتعامل معهم كأدوات فنية دون أن يقحم عواطفه الانوية في خضم الأحداث طبعاً لم يعن هذا أن الكاتب لم يكن له رأي، فقد كان رأيه مختفياً وراء السخرية العطوفة من موقف الاسرة التي رحلت وأبهظت نفسها وعانت للوصول الى القديسة وبركتها المفاجئة. فإذا تابعنا مسيرته إلى بدو وزنوج وفلاحين اصطدمنا بحياده الصلب الجميل المفارق وهو يتعامل مع هذه الشخصيات التي طبختها نار الذاكرة الهادئة، وأنضجتها الرواية الثقافية التالية، فجعلت من هذا العمل واحداً من أنضج الأعمال التي كتبت عن الثلاثي الشرق أوسطي الأزلي، البدو، الفلاحين، الأرض، وفي هذه المرة أيضاً نرى غالب هلسا يختفي متوارياً وراء قلم حيادي يتأمل، يتفرج، يداعب المادة الخام التي بين يديه، المادة الصلصالية الباردة، بأناة وهدوء، ويد صناع، يتعامل معها لخلق شخصياته، صنعها، نفخ الروح فيها بهدوء، بهدوء وبصنعة عالية وحرفة هدأ عواصفها وغضبها مرور السنين، وابتعاد الأنا عن الهو، وجعل الهو صلصالاً بارداً جاهزاً للتصنيع.

العملان السابقان مجموعتان قصصيتان دارت أجواؤهما كلها في بيئة واحدة: وديع والقديسة ميلاده في عالم القرية المسيحية الأردنية الساذجة الطيبة بخصوصيتها وملامحها وأشواقها لتعديل عالمها حسب مواصفاتها، وبدو وزنوج وفلاحون التي تدور أجواؤها أيضاً في تلك القرية الأردنية الواقعة ـ وأي القرى الشامية ليست كذلك ـ على حافة الصحراء حيث المعاناة الدائمة والخوف الابدي من هجمة الصحراء وغزو البدو، وحيث يتسيد البدو في هذه القرية صانعين عالمهم الشرقي الخرافي الاسطوري القاسي معيدين الينا ذكريات كل ذلك الصراع التاريخي بين البدو والحضر أسطورة الشرق الخالدة والتي وصفها ففصل ابن خلدون.

فإذا ما انتقلنا الى رواياته ومعظمها تدور في ـ الآن ـ و ـ هنا ـ أعني في مصر حيث أقام غالب هلسا مايزيد على ربع القرن حتى افترض نفسه وافترضه الآخرون مصرياً قبل أن تهب الريح فتحمله بدوياً جديداً ينتقل بين مضارب العرب الجديدة من بيروت الى بغداد فعدن لتحط به الرحال أخيراً في دمشق.

الخماسين: في الخماسين نبدأ بتلمس تكنيك غالب هلسا الروائي انه يحاول في البدء تحييد الروائي، الكاتب، الرواي عن شخوصه كما فعل في مجموعتيه القصصيتين، فيبدأ الحديث عن شخصياته واحداً واحداً معطياً كلاً منهم فصلاً خاصاً به، مسمى باسمه، مقدماً لشخصيته، ملامحها، شيئاً من طباعها مع سخرية وحس دعابة حزين يتمتع به هلسا، فإذا ماتجاوزنا الفصول الأولى رأينا الشخصيات تختفي كضمير هو، ولتبرز شخصية واحدة منها متنكرة بضمير الهو، ولكن تماهي الكاتب معها والحاحه عليها ودخوله في عمقها النفسي يدفعنا شيئاً فشيئاً لنسيان ضمير الهو والتعامل مع الشخصية كشخصية اعترافية تتحدث بضمير الانا، ثم تبدأ الرواية في الدوران حول هذه الشخصية التي تتجسد وتصرم للتحول من أنا ـ هو ـ إلى غالب هلسا، وكان هلسا، وأنا مضطر منذ الآن الى تسميته بالاسم الثاني لاميز بين غالب الروائي، وغالب الراوي والشخصية الاولى في رواياته.

ولكن علينا قبل أن نترك الخماسين ألا ننسى الرموز، الأدوات، المكان، الزمان الذي استخدمه هلسا

فيها. إنه عالم الشيوعي المعارض المطارد من البوليس السياسي، والذي يعيش أزمات وجودية مبهرة بكثير من العلاقات النسائية والتحليلات النفسية الفرويدية المستخدمة بحس دعابته أحياناً. المكان مصر، الزمان، النصف الثاني من الخمسينات وحتى أواخر السبعينات. فإذا مارجعنا الى ماقلناه عن إقامته في القاهرة في هذين العقدين. والعمل الذي يعمله غالب الشخصية الذي كان دائماً مترجماً لوكالة أنباء، وإذا ماعرفنا أن عمل هلسا في ذلك الحين كان العمل نفسه أدركنا مدى التطابق ـ والمطلوب جداً ـ بين غالب وهلسا.

هذه الرموز التي رأيناها في الخماسين يمكننا أن نراها في كل أعمال هلسا من الضحك وحتى السؤال، ومروراً بسلطانه منتهين بعمله الاخير والهام ـ الروائيون ـ مستثنين روايته ثلاثة وجوه لبغداد حيث يتغير المكان من القاهرة الى بغداد، وحيث يختفي البوليس السياسي، ولكن عمل ـ غالب ـ يظل المترجم، أو العامل في وكالة الأنباء مع الجو النسائي الكامل والتفسيرات الفرويدية. إنه عالم غالب هلسا الخاص والمميز عن معظم معاصريه وأبناء جيله من القصاصين والروائيين. ولكننا في ثلاثة وجوه لبغداد ننتبه الى رمز جديد أو موقف جديد لم نكن نتوقف عنده كثيراً، إنه عالم الحلم المصنع، أو ليس الحلم تماماً، إذ هو حالة التهويم، أو الترنيق، إنها الحالة التي يكون فيها الانسان بين النوم واليقظة، فإذا لم يكن مرتبطاً بدوام، أو عمل إجباري يجعله ملزماً بالاستيقاظ في وقت محدد ـ أهي إشارة الى حالة العطالة التي يعيشها المثقف اليساري في عصرنا ـ وترك نفسه يهوم بين النوم واليقظة، في تلك الحالة فقط يبدأ دور الحلم شبه المصنوع، وهذا ماسنراه ونعيد اكتشافه في معظم أعمال هلسا. إنه الحلم شبه المصنوع وتأثيره على الشخصية وتفسيراته ومحاولات الاسقاط به ومنه وعليه وله وليصبح محور حياة.

هذا يذكرني كثيراً بالسجناء الذين يطول سجنهم وتنقطع عنهم أخبار العالم الخارجي، فتتمركز وسيلتهم في معرفة العالم الخارجي بقص الأحلام وتفسيرها ومحاولة استشفاف مايجري في العالم ـ الذي لايقبضون على ناصية معرفته ـ من خلال الأحلام وتفسيرها.

في سلطانة ويهمني الحديث عنها قبل الانتقال الى ـ الروائيون ـ نرى المحاولة الاخيرة التي يبذلها ـ هلسا ـ للخروج من عالم غالب ـ إذ يقدم لنا القرية الاردنية في أبهى صورها، في جماليات علاقاتها، في الانثى العظيمة، الأم والمعشوقة، وربة الخصب، عالم رغم أنه مسيحي إسلامي، إلا أنه عالم أردني ليس فيـه تمايز بين أبناء الديانتين، وهذا مانراه كثيراً في قرى حوران المسيحية، والذين كثيراً مايرجعون الى آباء، انقسم أبناؤهم بين الديانتين كما فعلت العائلتان الكبريان في هذه القرية، ويحلو ـ هلسا ـ ويحلو، ويسمو في تقديم هذا العالم الفني الجميل المصنوع ـ كما قلت ـ من صلصال بارد فتنزع من خبايا الذاكرة الباردة، والمصنـوع بأصابع ماهرة جيدة الحرفة تعرف ماتريد، فإذا ما انتقل الى عمان برز ـ غالب ـ والمسمى في سلطانة بـ ـ جريس ـ برز ليحدثنا عن أحزانه وحياته السياسية، بل ويعود بنا في مونولوغات مستقبلية الى القاهرة عائداً بنا الى عالمه المريح، عالم الضحك والسؤال والخماسين ـ عالم غالب ـ

في الروائيون وأنا أعجب لم لم يسمها بالروائي، فليس فيها من روائي آخر غير البطل المعروف ـ طبعاً سيحتج هلسا مذكراً إيانا بمحاولات تفيدة، ولكن تفيدة ظلت شخصية هامشية في هذه الرواية رغم

إحالتها حتى في الرواية الى تفيدة الشخصية الرئيسية في ـ السؤال ـ

أول مايفاجئك في الروائيون اكتشافك أنها الجزء الثاني من رواية السؤال، فها هو يفتتحها بشخصيات السؤال كلهم في السجن يبدأون يوماً جديداً وقاسياً من أيام طحن الاضراس والبكاء على الاطلال ومحاولة التماسك والبحث عما يربطهم بالعالم الخارجي، فإذا ما اتفقنا على أن الروائيون هي الجزء الثاني من السؤال كان علينا العودة الى السؤال قليلاً لمعرفة ما الذي كان يجري هناك، فهاهو مصطفى المثقف اليساري الممنوع من العمل والذي يتقاضى راتبه ليعيش حياة عطالة يقضيها بين عشيقة خفيفة ونضالات سياسية هامشية في محاولة للتماسك بعد انشقاقات الحزب الشيوعي المصري وحل القسم الاكبر منه حزبهم للانضمام الى الاتحاد الاشتراكي. هذه العشيقة الخفيفة سعاد سرعان ماتنتقل علاقته منها الى خالة لها هي تفيدة، وتفيدة هذه شخصية روائية فيها كل الخيال المتمنى للمرأة القوية الصلبة، المرأة الكبرى القادرة على اتخاذ القرارات وتغيير العشاق واتخاذ المبادرة الاولى، وحين يقدمها لنا الروائي، وعلينا أن نتذكر جيداً هذا التقديم لانه حين يقدمها لنا ثانية وحين تصبح المناضلة المثقفة مشروع الروائية، نراه وهو يقلص ابعادها لتصبح نحيلة، هادئة، مترددة المبادرة، ولنعد الى تفيدة السؤال (وراء الباب كانت تقف امرأة فخمة، فارهة، سمينة دون ترهل، ترتدي قميص نوم ضافياً، وكان شعرها ملفوفاً بمنديل أخضر(١)، فمها ممتلىء، فوقه أنف عريض يعطي إحساساً بالحيوية وبقوة متفجرة كامنة (سؤال ص٧١) كان هذا لقاء مصطفى الاول بها، ولم يكن يحلم بإقامة علاقة معها، ولكنها حين تقرر إقامة علاقة معه، ويمضي ليلقاها في الكفتيريا، يراها أول مرة (امرأة لها شموخ ملكة واعتدادها) سؤال(ص١٧١) فإذا ماتطورت العلاقة معها وتزوجها ورأيناها ابنة الشعب التي تعلمت وتثقفت وخالطت المناضلين، وأرادت أن تصبح روائية أو مثقفة ككل من حولها رأيناها (كانت تفيدة الجديدة قد ازدادت طولاً، مستحيل. كل ماهنالك ان سمنتها القديمة انتهت، أصبحت رشيقة، ليس هذا كل شيء، صوتها تغير. لم تعد تتحدث بتلك النبرة القاطعة السريعة، ملابسها أيضاً تغيرت. قال لنفسه وهو يصارع خيبة الأمل: لقد أصبحت من عالمنا) روائيون ٤٤

إن صورة ابنة الشعب العبلة المتقحمة المريدة القادرة الفاعلة ها هي تتضاءل وتتحل حين تصبح من طبقة المثقفين المترددين النحيلين الحالمين، بل وحتى المترددين جنسياً، فهم منشغلون في عالم الافكار أكثر مما يجب. هذه الصورة تتناقض مع عالم المثقفين الشيوعيين كما قدمهم لنا في ـ غالب ـ مصطفى ـ ايهاب ـ نادية ـ زينب. فيما بعد. الغارقين في طاحونة عواطف مغرمة بالتحليل لانهائية. لماذا؟ هل يريد هلسا أن يقول لنا إن الخارجين من الطبقات الشعبية لممارسة النضال هم الاكثر قدرة على التكيف مع الانهيارات والتعامل معها من المثقفين الذين حين ينهار المركب الذي بنوه من أفكار يتمزقون وينهارون وليصرخوا مع ايهاب بطل ـ الروائيون قرب نهاية الرواية مخاطباً نادية بطلة الضحك. ومؤكداً لنا أن ايهاب الروائيون هو غالب الضحك ليقول: (نادية. هل كنا نعلم ونحن نبني أحلامنا في الخمسينات أنا سنتحول الى مخصيين مومسات في النصف الثاني من الستينات) روائيون ٣٤٦

هذا الرأي يمكننا أن نؤكده بمشهدين آخرين من السؤال، فالسفاح الذي سيكتشف في نهاية (السؤال) عن ضابط مباحث منحرف والذي أقلق المدينة بجرائمه الجنسية سنرى ان الانسان الوحيد الذي

انتصر عليه كان تفيدة، ورغم أنه قتل وشوه عدداً من النساء والرجال الا ان تفيدة تفلح في التغلب عليه ووضع وسادة على رأسه لخنقه ـ وكان يمكن لها ان تخنقه وتريح البلد من أذاه ـ لو لم يدخل فجأة ـ المثقف ـ مصطفى، فيشوش تركيزها ويفر السفاح تحت أنظار مصطفى والمثقف الآخر الذي يكثر التحدث عن أميركا.

فيما بعد يتزوج مصطفى وتفيدة، ويكون الحمل الوحيد المخصب الذي نسمع عنه في كل روايات ـ هلسا ـ السياسية هو حمل تفيدة من مصطفى، ولكن رواية السؤال تختتم بالقبض على مصطفى ورفاقه وايداعهم في السجن.

بعد السؤال يقدم لنا ـ هلسا ـ ثلاثة وجوه لبغداد وسلطانة فنظن أنه نسي ذلك العالم الذي اختتمه بدخول المثقفين الشيوعيين السجن، وإذا به يفاجئنا في ـ الروائيون ـ بأبطال السؤال كلهم يفتتحون معه الرواية وهم في السجن. هذا السجن الذي سيبدو لنا أزلي الملامح، وكل شيء جميل في حياة بطل ـ هلسا ـ يبدو (كضوء الغروب عندما تراه منعكساً على مئذنة في خلفيتها وعلى وجه السماء هلال تتوسطه نجمة) هذا المشهد الذي يتبدى للسجين من باحة سجن القلعة حين يرى مئذنتي مسجد محمد علي سيتكرر كثيراً في روايات ـ هلسا ـ (خماسين. سؤال. روائيون).

يبدأ الروائي روايته وهو يقدم لنا شخصياته بدءاً من مصطفى الخائف على تفيدة أن تنزلق في احابيل العاملين في الفن مستغلين غيابه، الأمر الذي سيجعلنا نطمئن الى أن مصطفى سيكون بطل الروائيون كما كان بطل السؤال، ومروراً باسماعيل الارهابي السابق والذي تحول الى زعيم شيوعي، وحسن مريد اسماعيل الخالد ووليد، ووصولاً الى ايهاب الذي لايثير فينا اهتماماً كبيراً في البدء لأن نعرف أن البطل مصطفى، وتتقدم الرواية متحدثة عن أحلام الشيوعيين السجناء وانشقاقاتهم ورغبتهم بالتوحد ثانية عند الخروج من السجن، ويقدم لنا ـ هلسا ـ شخصية جديدة في كل فصل مما يجعلنا نطمئن الى تكنيك رواية الشخصيات ولكنه ما ان يدخلنا عالم ايهاب الروائي حتى يعلق ونعلق معه هناك. صحيح انه سيظل يلم بتلك الشخصيات ويحدثنا عنها، ولكنها ستتهمش وتتهمش لتركز الرؤية كلها على عالم ايهاب.

وإيهاب هذا كان قد لقي فتاة اسمها زينب في وكالة لبيع الصور الصحفية فيذكرها فجأة في السجن، وتتحول الى حلم يقظة دائم له، وحين يرسل اليها ضمن بريد السجناء السري تحياته تعاد اليه التحيات مع سلام خاص.

ويفاجأ إيهاب، ويفاجئنا حين يخرج من السجن بأنه الوحيد الذي يجد من ينتظره خارج السجن، تصحبه الى بيته ليكتشف أنها قد استعارت مفتاح البيت من الخادمة، ونظفته وأعدته لاستقبال العائد.

منذ هذا المشهد يبدأ تحول مساق الرواية، فبعدما كانت الرواية تتحدث عن مجموعة من الشخصيات مستخدمة ضمير الهو الحيادي تتمركز محاور الاحداث حول ايهاب وزينب وتأخذ الشخصيات الاخرى بالتحول الى مؤشرات إضاءة لما يجري لهذين الشخصين البطلين العجيبين.

هذا الانحراف في مجرى الأحداث، وهذا الانكسار في مجرى الرواية كثيراً ما نلاحظه في اعمال ـ هلسا ـ الروائية، فإذا ما راجعنا أنفسنا قليلاً واذا تذكرنا رواياته السابقة، أي تاريخه الروائي، وعرفنا ان بطل

رواياته كلها واحد، غالب كان اسمه، ام مصطفى، أم جريس أو ايهاب. واكتشفنا أن بطلاته كلهن امرأة واحدة بغض النظر عن تسميتها نادية كانت، ام تفيدة، أو زينب بطلة، وأثينا هذه، ام بطلة الخماسين واذا ما تقصينا الامر بمزيد من البحث اكتشفنا أن هلسا كان دائماً يحاول أن يخرج من ضمير الآنا المتنكر بالهو الى ضمير الهو المطلق ولكنه كان دائماً يستمتع بالعودة الى فراش الانا المتنكر بالهو المريح. وهذا امر لا ينقص من أهمية غالب هلسا الروائية أبداً، فالرجل معلم كبير من معالم روايتنا العربية المعاصرة، ولنذكر جميعاً ان واحداً من اكبر معالم رواية القرن العشرين ـ هنري ميلر ـ استاذ د. هـ. لورنس، ولورنس داريل وترداليا الخ من يقر له بالاسهام العظيم في بناء الرواية الحديثة. هذا الرجل يستخدم دائماً في كتاباته ضمير الهو، ولكنه يتماهى معها ويتماهى حتى لا تعود تستطيع تمييز الهو من الانا وحتى يدخلك معه في لعبة تواطؤ أن الامر كله مزاح فالشخص المعني هو أنا. هنري.

المهم، هذان القطبان اللذان تدور حولهما روايات غالب هلسا. المثقف اليساري الملاحق برياح الخماسين وخوف العنة ومطاردة البوليس السياسي، والمرأة المثقفة المناضلة، المعطاءة، الجميلة، المشتهاة، المشتهية، والحب المستحيل الذي يبرد ويغطي بشكوك التعامل مع المباحث، والمحاط بالرعب والذي ينتهي دائماً بالعنة ـ المرادف الجنسي للموت ـ والذي ينتهي في روايتنا هذه ليس بالعنة ـ والعماله للمباحث، بل وبانتحار البطل كحل نهائي لهذا الدوران في فلك لعنة هذين القطبين.

في الروائيون وقد نضجت الشخصيات التي عمرها وأطال في عمارتها في رواياته السابقة نجد هذين القطبين وقد تحولا الى كريستال الشخصيات السابقة، تحولا الى شخصيتين روائيتين تراجيديتين تحملان اليك كل القسوة والألم والارهاب والتمزق الذي عايشه جيل الخمسينات والستينات وهو يبحث عن حل جذري ونهائي لمشاكل هذا الوطن العربي الممزق المسحوق تحت طواحين التجزئة والتخلف وضياع الهدف، ولكن هاتين الشخصيتين اللتين أضنى المؤلف التعامل معهما عبر عدة روايات لجعل ايهاب يقول لزينب نقيضته وحبيبته ومدمرته حين يدخل معها الشقة ليفاجأ بالجنة الارضية تتحقق فيها على يد زينب (انني أحلم، ذلك لا يحدث الا في الاحلام ـ ثم يضيف ـ هذا منطق الاحلام) روائيون ص ٥٣.

أترى هذه العلاقة، وهذا العناء كلها ليست إلا احلام يقظة المقهور سياسياً وجنسياً حطت عليه رياح الخماسين ففر منها الى هذا الحلم، ولنلاحظ ان الخماسين ريح غبارية تتسلل من أدنى الشقوق الى أدق الخفايا والتي جعل منها هلسا كما قلنا ـ وقال ـ معادلاً موضوعياً لارهاب البوليس السياسي.تتقدم الرواية حتى الفصل السابع، ولا تتمحور بطولتها لشخصية محددة ولكنه يقدم لنا الشخصيات في القسم الثاني في علاقاتها الباردة بين الازواج بعد الخروج من السجن، مصطفى وتفيدة، وحسن وانصاف مبيناً لنا عدم قدرتهم على الامتزاج مع المجتمع خارج السجن، العلاقة الحميمة والدافئة للخارجين من السجن كانت بين قطبينا الازليين ـ ايهاب ـ زينب المثقف والتجربة.

في هذه الرواية سنلمح بوادر تكنيك جديد عند غالب، انه الايجاز والاطناب فها هو يحدثنا عن لقاء زينب وايهاب في نهاية الفصل السادس، ولكنه جزء من سياق عام في الرواية، وأخيراً يحسم ـ هلسا ـ أمره مقرراً اختيار بطل روايته الجديدة ايهاب متخلياً عن مصطفى، ومعبراً عن هذا الاختيار حين يعطيها فصلاً

جديداً معيداً علينا بإطناب ما أوجزه في فصل سابق ولكنه، دون ان ينسى ان يقدم لنا النذير بنهاية هذه العلاقة المأساوية فها هو ايهاب يقول لزينب في اعجاب كبير (انت بتمتلكي الشيء النادر جداً جداً، القدرة على التنوع والتجدد) ص ٨٩. لماذا يريد التنوع والتجدد الا ليقاوم الثقافة والتردد والتقوقع حول الذات ورثاء النفس الذي وقع فيه هؤلاء الناس، ولكن زينب التي تصفها لنا هنية في ص (١٠٣) بقولها:

(ـ كانت زينب اسطورة في نطاق الحركة الشيوعية، جرأتها وحيويتها كانتا مدهشتين.

ـ وبعدين؟

قالت هنية: وبعدين حصل الانهيار اللي انت عارفه. كان بالنسبة لها اعنف من المعتاد.

ـ جنس وحشيش.

ـ انطلقت بدون ضوابط، وانكشف وجه جديد، وجه السخرية من كل شيء).

زينب هذه تجيب ايهاب على اعجابه بقدرتها على التنوع والتجدد ص (٨٩).

(ـ يمكن. بس ده له تمن باهظ، دفعته، وبدفعه في كل لحظة، ويمكن انت تدفعه).

زينب هذه التي كانت اسطورة، ولم تحتمل هذا الانهيار المخيف في الحركة السياسية التي آمنت بها تحولت فيما بعد الى مومس بإرادتها الخاصة تتردد على بيوت السواح وضباط المباحث (كان للاهانة مذاقها الحريف اللذيذ. ها هي المومس في أحد درجاتها التي يخفيها الزبون عن الاقارب لانها عاره وصنفه الخاصين. قالت لنفسها: هل وصلت فعلاً الى هذا الدرك؟)

ولكن زينب وقبل أن تسقط هذا السقوط تكافح وتصارع لاستعادة براءتها، فهي تعرف ان حمأة الجنس ليست الجواب، فها هي تقول لايهاب بعد اعترافها له بأنها كانت منظمة.

ـ (وبعدين)

ـ سبت. ما فيش أفق. بدل ما نغير العالم، العالم غيرنا. غير الشيوعيين لغاية ما حلوا أنفسهم).

وتجد ايهاب خشبة الخلاص فتتعلق به، ولكنه لا يجد منها الا صخرة المحكوم بالغرق فيغرق ويغرقها معه، وتحاول في لحظات صحو آنية أن تعيد الامور الى نظامها، فتقول:

(احنا تغيرنا فعلاً. أنت بطلت تكتب، وأنا بطلت اقرأ.... الحقيقة انا عمالي بسقط، وعمالي بجرك ورايا.

ايهاب ساخراً ـ والحل ايه يا ماما؟.

زينب بحدة متصاعدة: ايهاب ابعد عني. ابعد عني، انا انسانة مدمرة، عمالي بدمر نفسي وبدمر كل اللي حواليا ص ١٧٦).

ويحاولان مع الجميع البحث عن مخرج من هذا المأزق، فيلجآن الى الحل الذي فكر فيه اسماعيل ومصطفى في توحيد الحركة الشيوعية.

(فكر ايهاب: لقد تغيرت زينب، هاجسان الآن يشغلانها، قيام حزب جديد لا علاقة له بالخطين الصيني والسوفييتي، والحرب التي ترى انها قادمة).

ولنذكر انه يعني حرب النكسة ١٩٦٧، وينتقلون الى سهرة في بيت مصطفى حيث يناقشون احتمالات

الحرب القادمة، وحين يقول اسماعيل: ان الحرب ان وقعت فستكون الكارثة، فيقف الجميع ضده، وتتحول السهرة الى سهرة عادية ليختمها حسن بقوله: يا جماعة. دي ليلة جميلة جداً زي السجن. ويثور الجميع لهذا التعليق، ولكن حس الاقلية المهزومة الملتفة على نفسها تغلبهم، فيأخذون في استجلاب ذكريات السجن ـ الجامع، وتنتهي السهرة بتذكرهم بأن ليلتهم تلك هي ليلة الخامس من يونيو، ويخطىء هلسا بيوم واحد مؤجلاً الحرب يوماً حين يجعلها في السادس من حزيران.

ولكن النكسة أو النكبة، او الهزيمة الفظيعة التي مزقت جيلنا والتي لم يستيقظ منها جيلنا أبداً تبدأ في اليوم التالي في حرب حزيران الملعونة والتي ـ والآن ـ وبعد اثنين وعشرين عاماً يستطيع غالب هلسا ان يسخر منها حين يصف لحظة معرفة الناس بوقوعها فيقول ص ١٣٨ (: وحين تكون المذيعة تصف طريقة إعداد دقية البامية ينقطع البرنامج ليتحدث المذيع عن اسقاط أربعين طائرة اسرائيلية (ويدخل عباس ليسأل: ايه الحكاية. فيه حاجة حصلت)

ـ ايهاب: الحرب قامت.

ـ وصلنا تل أبيب؟

ـ بعد ست ساعات.)

وحين يقولها ايهاب لا يعرف، أو لا يريد ان يكون ساخراً، ولكن سخرية ـ الآن ـ تفرض نفسها حين يرينا كيف استقبل الناس اندلاع حرب النكسة التي هدمت في ساعات صنماً عمرناه وعبدناه ووقعنا تحت اقدامه ننتظر عودة الايام المجيدة لأمية وعباس والفواطم، أيام الانتصارات واحترام الذات، وامتلاك موقع تحت الشمس، ولكنا عوضنا عنها بالايام السود، ايام اجترار الاحزان، والبحث عن تفسيرات لما وقع، وقد كتب الكثير، الكثير عن هذه النكسة فيما بعد، ولكني لم أقرأ مرارة أشد، ولا حزناً أقسى مما سيكتبه غالب هلسا مصوراً التحلل والتفسخ والانهيار لجيل كامل أخلص وأعطى وآمن وصدق ليكتشف ان صنمه الكبير لم يكن الا ركاماً من عجوة منخورة صنعت من كلمات ورصفت من انشاءات وبنيت من خطب جوف غنى لها طويلاً مذيعون عالو الصوت كأحمد سعيد.

حين تبلغ زينب ايهاب بأن الطيران المصري قد ضرب على الارض (واصلا تناول الطعام في صمت، تم تمددا على السرير دون ان يتماسا، شعر الاثنان أنهما يخفيان سراً مخزياً، وفي الصمت المشحون أخذت زينب تبكي) ص ١٤٢.

وتتسرب انباء الهزيمة التي لم يكن يعرفها الا القلائل، ويقول ايهاب (حانعيش ايام صعبة يا زينب) أما هي (جلست وأخفت وجهها بكفيها، وأخذ ايهاب يوجه نداءات للاسرائيليين بأن يستسلموا دون شرط، دايان بالذات يجب ان يضعه على خازوق) وكان هذا من أوائل احلام اليقظة التي أخذ ايهاب يهرب اليها، ولكن الوقائع المرة تحاصر وتحاصر حتى لم يعد لاحلام اليقظة مكان، وتبدأ زينب اليقظة من حلم صوت احمد سعيد لنراها تغرق في قراءة الصحف بكل اللغات الواردة الى الوكالة، ويقول ايهاب

ـ ايه العبارة؟

ـ فاكر ليلة ماكنا سهرانين عند تفيدة؟ فاكر اسماعيل قال ايه، ورد فعلنا كان ايه؟

ـ فاكر.

ـ موش عايزه اكون بلهاء مرة تانية).

ثم يتذكر ايهاب تطوعه مع الفدائيين عام ١٩٥٦ مع نادية التي حدثنا عنها في رواية الضحك (يستعيد صورة نادية في لباسها العسكري، يستعيد ذلك الانفعال، الحب الصافي، الحلم المحصن، والشوق للبطولة، فيدهمه احساس ثقيل يضغط عليه بالبكاء. قال: نادية.

ـ ها هو يندمج في الحلم هرباً من الحاضر، تنظر اليه زينب باستغراب وتقول: اسمي زينب).

وحين تقول: اسمي زينب. تعني ان زمن الاحلام والبطولة والقدرة على الفعل انقضت، وها هو زمن أسود جديد عليك ان تتواجه فيه مع النفس فأكاذيب وخدع الماضي لم تعد تنطلي والهزيمة الوقحة أسفرت عن مؤخرتها أمام الجميع دون خجل، ونبدأ في متابعة تحطم هذين المخلوقين الحساسين الشخصين اللذين حملهما المؤلف كل أحزان جيلنا المهزوم ورسم على ملامحهما كل معانيات تلك المخلوقات الرقيقة المثقفة الحساسة والتي رأينا تساقطها على مساحة الوطن العربي من لؤي كيالي وحتى نجيب سرور وأمل دنقل وأسماء لا تحضرني الآن ويكاد المؤلف ان يعلن: اما الارض فيرثها التماسيح، أما الفراشات والحساسين فوا أسفاه!

لقد تأكد ايهاب وزينب الآن من الهزيمة. ويبدآن بالهرب من مواجهة حقيقة هزيمتهما بالغرق في جنس غير محبوب، جنس مكروه، جنس انتقام ومم؟ من النفس، من الآخر، ام من الحلم المهشم؟ وهكذا نرى ايضاً حسن الارهابي السابق والشيوعي الصلب يقع صريعاً لشهوة مريضة، انماها لديه عزلة السجن حين يحاصره غلام كان قد جذب اليه في السجن، ولكنه سيكتشف فيما بعد ان الغلام كان مأجوراً للمباحث التي ستحاول ابتزازه بهذه الفضيحة ولكنه حين يخرج من المباحث يقوم بفعل ـ محاولة انتحار لاواعية ـ حين يتردد في عبور طريق السيارات عدة مرات مما يعرضه لحادث كاد يودي به، ولكنه لا يموت. بل يطهره هذا الدم من السقطة الفظيعة التي تعرض لها، وعلينا ألا ننسى ان حسن لم يكن مثقفاً، فإذا ما تذكرنا ان من ينجو من المحرقة هم غير المثقفين، حسن ـ تفيده، وان من يحترق بلهب التجربة حتى النهاية هم المثقفون، الفراشات التي تنسحق حين تكتشف ان النور الذي سعت اليه لم يكن الا ناراً حارقة، وحين تعرف ذلك لا تتراجع. بل ـ للأسف ـ تقدم مصممة على ان عالماً عبدت نوره واكتشفت انه نار لا يستحق ان يعاش فيه. أليس هذا ما فعله بطلانا ايهاب وزينب. زينب تتفسخ وتتحلل حين تكتشف انها عاشت في عالم بلا آلهة، وايهاب لم يجد الرد على هذا التحلل الا بالانتحار، اما حسن فيقول (فقدت الثقة، فقدت الامل، يخطر لي أحياناً ان الموت هو خلاصي الوحيد.

قرأ الاهتمام على وجهها، ثم الالم. قالت ببطء وأجفانها ترتعد.

ـ كل ده بسبب خمسة يونيو.

ـ خمسة يونيو كانت البداية، وبعدها كان الانهيار، روائيون ص ١٨٤)

وتتوالى الانهيارات، يتخلى ايهاب عن الكتابة، متنازلاً عن مستقبله الروائي الذي يتحدث عنه الجميع وتنحل زينب، وها هي في مونولوغ من أجمل المونولوغات التي حفلت بها الرواية تقول (عايز تقول اكتر من

كده، اكثر من كده بكتير، انا فعلاً اكتر من كده، أدمنت على الافيون، وبعدين قررت أوقف، قلت انت المورفين جربت متعة المورفين؟ بس خسارة صعب الحصول عليه، جربت الـ L.S.D. اسمعني كويس. ما فيش رد على المجتمع اللي سطحنا، وقتل كل شيء جميل فينا الا بممارسة المتع الجنونية، انا أكتشفت الاكذوبة، في كل مرة نبني اسطورة، بنصدقها، بنكتشف كذبها. بنبني اسطورة تانية بنفس المعطيات، بنكتشف كذبها. دائرة مفرغة بنيناها سنة الستة وخمسين، وسنة التسعة وخمسين لمونا كلنا وحطونا في المعتقل. في المعتقل أيدنا عبد الناصر، يقتلنا ونؤيده، كنا بنقول انه يبني الاشتراكية. حلينا الاحزاب الشيوعية، وحرب السبعة وستين خلال ست ساعات حانكون في تل ابيب، واشتراكية المقاولون العرب (وأخيراً تعلن زينب بيانها السياسي) احنا بنضيع حياتنا في بناء الأساطير والبلادة) روائيون ص ٣٠٥.

ها أنذا الآن وأنا اطالع في هذه الرواية افكر في هذا الجيل الحالم الذي قدم وضحى وآمن وصدق كم حطمته بنى الشرق العفنة في ذبذباتها وسعيها الدائم وراء شيء واحد هو السلطة، السلطة التي لا تملك ولا تريد مشروعاً سياسياً، أو اجتماعياً، او حضارياً، ان كل ما تملكه رغبة واحدة وحيدة البقاء في سدة السلطة وبأي ثمن.

وتتقدم الرواية حاملة معها كريستالي الشخصيتين اللتين أضاع هلسا العمر في بنائهما لتصلا الى قمة نضوجهما في ايهاب وزينب، ونرى انهياراتهما اليومية تتوالى وهما يدوران في أبهاء طاحونة قرع الصدور ومعاقبة النفس على ذنب ارتكبه غيرهما، وبعد حوار طويل بين النديدين - الخصمين - التوأمين - العاشقين تطرح زينب حلها: انهي علاقتي بالرجال عداك. هذا اولاً، ثانياً العود للجذور اقرأ أو اكتب. اقرأ ماركس وهيغل ولينين. اقرأ كل ما قبل ستالين. ستالين هو اللي صاغنا، ومش ممكن تجاوزه الا بمعرفة الاصول ص ٣٠٨.

هذا الحل الذي يبدو معقولاً اليوم بتأثيرات البريسترويكا لا ادري مدى مصداقيته لتلك الفترة. اتراه اسقاط وعي حاضر على ماض؟ الجواب لدى هلسا.

أما زينب وبهشاشتها الفراشية وربما كانت هذه الهشاشة نتيجة للتصدعات العنيفة التي أصابتها أو. . . لهشاشة أصيلة في بناء المثقف العربي تتراجع عن قرارها بالصمود عائدة الى الانغماس الكلي الساخر في عالم معاقبة النفس عبر تدنيس الجسد وإذلاله، وحين تحاور ايهاب غيابياً مبررة ما تصنع تقول:

(انت فشلت في السيطرة على حركة المجتمع كما فشلت مساعينا في تغيير المجتمع، في الامساك بحركته، فشلت يا ايهاب في الامساك بالعالم والسيطرة عليه خلال الرواية، فشل السياسة أدى الى فشل الرواية، فلم يبق الا زينب تسيطر على روحها وعلى جسدها.ص ٣١٠) واذا ما عدنا الى مقولتنا الاولى ان ايهاب وزينب وجهان لعملة واحدة وانهما توأمان يعاقبان نفسيهما على جريمة ارتكبها غيرهما في حق الوطن فهمنا الحمأة التي طرحا نفسيهما فيها في صوفية مازوكية تذكرنا بحفلات جلد النفس وتمزيق الجلد والبكاء على جريمة ارتكبها آخر ضد آخر في زمن آخر.

ويحاول كل من ايهاب وزينب إقامة علاقات اخرى ليخرج من أتون هذه العلاقة المدمرة فيخفقان مدركين ان قدرهما واحد، وبعد رحلة طويلة من الاذلال والسخط والاحباط يعبر عنها ايهاب (تعرفوا ايه

هي أزمتي الحقيقية، ازمتي هي الحياة في بلد رئيسها السادات. تفاهته لا تجعلنا نشعر انه حتى عدو، هذا هو القهر الحقيقي أن يكون عدونا تافهاً). بعد هذا الاحباط والاخفاق والشعور بالتفاهة يتأمل زينب التي (وقفت أمام المرآة تنظر الى جسدها العاري. كان ايهاب يطالع جسدها العاري بدهشة ويتساءل: ما الذي فعله السواح وضباط المباحث بهذا الجسد) وكان له ان يسأل: ما الذي لم يفعله السواح وضباط المباحث بهذه الفراشة الحالمة أخته وتوأمه وعذابه.

بعد هذا السؤال المتاح الختامي يكتشف ايهاب الا فائدة من أي شيء و(مد اصبعيه في الجيب العلوي. واخرج الورقة التي تحتوي على حبتي السياناید. . . . . وضع الحبتين في فمه، وشرب كأس البراندي حتى آخره،

عندما عادت زينب من الحمام أدركت من النظرة الاولى أنه ميت.)

وهكذا ينهي غالب هلسا آخر رواياته وأكثرها عذاباً ونضجاً مسجلاً في تاريخ الرواية العربية ملحمة بؤس حزين جارح ممزق للقلب لجيل انتوى وأراد، وضحى، وحلم لينتهي كما يقول ايهاب بـ (مخصيين ومومسات) ولم يعد امام ايهاب من حل للخروج من هذه الدوامة العفنة الا الانتحار الجميل. الاحتجاج على عالم لا يستحق مثل هذا البطل الانيق الفارس المتقدم على عصره.

غالب هلسا اسمح لي ان اشد على يدك، فلقد كتبت ملحمة جيلنا التي لم نكتبها، وعشت ما لم نعشه، وقلت ما لم نعرف كيف نقوله حين كتبت هذه الرواية الجميلة الروائيون.

ثقافة

مدن فلسطين في رحلات الأقدمين

خير الله سعيد*

لعبت سواحل بلاد الشام تاريخياً، دوراً ذا أبعاد استراتيجية في الفتح الاسلامي، نظراً لمقابلتها مدن وحواضر الافرنجة، وكان أغلب سواحل بلاد الشام تخضع للحكم البيزنطي، لذلك وحه عمر بن الخطاب [٤٠ ق.هـ - ٢٣ هـ[1]، [٥٨٤م - ٦٢٤م] عنايته الى هذه الاماكن، ما أن تسلم خلافة المسلمين سنة ١٣ هـ[2] إلا أنه باشر بفتح الأراضي الفلسطينية، في بداية عام ١٥ هـ، حيث تشير كتب المؤرخين[3] الى أن جيوش المسلمين توغلت في بلاد الشام مطاردة جيوش الروم، حتى أن قائدهم هرقل قد أيقن أنه راحل عن بلاد الشام بلا عودة، فقد عرف عنه، أنه كلما حجَّ بيت المقدس فخلّف سورية، وظعن في أرض الروم التفت قائلاً: عليك السلام ياسورية تسليم مودّع لم يقضِ منك وطره[4] وغادرها دون عودة، فيما كانت جيوش المسلمين تمتد بفتوحاتها داخل بلاد الشام فانصرف أَبو عبيدة وخالد بن انوليد الى حمص، فيما نزل عمرو بن العاص وشرحبيل على بيسان وصالحية الاردن، وأوعز الى معاوية بأن يسرح الى قيسارية[5] فيما أقدم أهل إيليا «بيت المقدس» الى عمر بن الخطاب وهو في باب الجابية بدمشق وصالحوه على الجزية وفتحوها له[6] وكذلك فعل

---

* باحث في التاريخ والفولكلور من العراق.

أهل الرملة. فصارت فلسطين نصفين، نصف مع أهل إيليا ونصف مع أهل الرملة، وهم عشر كسور، وقد كانت فلسطين وقتذاك، تعدل الشام كله[7] وأمرَّ عليها علقمة بن حكيم / الرملة / وعلقمة بن مجزز / إيلياء، وقد شخص عمر بن الخطاب بنفسه من باب الجابية حتى بيت المقدس، ودخل المسجد ومضى نحو محراب داود، وصلى به ثم حدد لهم القبلة فيه.[8]

هذا الاستعـراض التاريخي يقدم لنا صورة واضحة المعالم عن أهمية بلاد الشام عامة، وفلسطين خاصة، حيث نرى مباشرة الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه للوقوف على فتحها، وإضفاء روح الاسلام عليها ومناسكه فيها، وهو أمر له دلالته الروحية والايديولوجية، فلقد أراد الفاروق[9] أن يثبت عملياً روح التسامح الديني الاسلامي من جهة، ومن جهة أخرى، أراد المحافظة على قدسية هذه الاماكن، في سياقها التاريخي، باعتبارها أرضاً للأنبياء، ومهبطاً للرسل. فلقد جاء في الكتاب الذي صالح فيه أهل إيلياء «بيت المقـدس» أمـور تؤكد هذا المسعى الاسلامي، بشخصية الخليفة ذاته، باعتباره رجل الدولة الاسلامية الأول، تقول وثيقة الصلح: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر، أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لاتسكن كنائسهم ولاتهدم، ولاينتقص منها ولامن حيزها ولامن صليبهم، ولامن شيء من أموالهم، ولايكرهون على دينهم، ولايضارَّ أحد منهم، ولايسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود».[10]

بهذا التحديد، يكون عمر بن الخطاب قد شرَّع لأهل بيت المقدس، أموراً دينية خاصة بديانتهم كمسيحيين، من أهل الكتاب لهم حق التعايش مع المسلمين من منطلق العرف السائد، وقتذاك، والذي يعـامل البلاد المفتوحة حكما معاملة خاصة لذلك نصت الوثيقة على المحافظة على ممتلكاتهم، ومناسك عباداتهم، ولايكرهون في الانخراط لدين آخر، بما فيه الدين الاسلامي، وهو أمر يشير الى الأفق السياسي البعيد لدى الخليفة الثاني، على اعتبار أن الديانات السماوية، يمكنها التعايش بسلام واطمئنان بل رمى عمر بن الخطاب الى هدف أسمى وأبعد هو روح التسامح الديني في العقيدة الاسلامية، يضاف الى ذلك، أنه أدرك ما لليهود من خطر على أهل بيت المقدس، وهو مايشير الى أن أهل إيلياء، قد طلبوا ذلك منه، عند قدومهم اليه، وهو في باب الجابية، لذلك احتوته وثيقة الصلح، وأدرجته كبند مُصالح عليه. وليس ذلك فحسب بل سمحت الوثيقة للذين يودون السفر الى بلاد الروم بالسفر فلقد أورد بنداً يقول «ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلّي بيعهم وصُلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصُلبهم حتى يبلغوا مأمنهم.[11] وهنا يتوضح أفق الرؤية السياسية في وثيقة الصلح، فهذه العبارة الأخيرة تشير بوضوح الى «الحرية السياسية» لأهل بيت المقدس.

وعلى هذا المنوال، كانت تكتب شروط الصلح في بقية مدن فلسطين، وقراها، وهذه النقطة، تفتح لنـا الأفق للاستطراد التاريخي، على اعتبار أن العامل السياسي، كان انعكاساً للعامل الديني، برؤيته الايديولـوجية، آنـذاك، وعـلى ضوء العقيدة، كانت تحدد أفق الشريعـة لذلـك اصطبغت معالم المدن الاسلامية المفتوحة برداء ديني اسلامي ظلّت محافظة عليه في صيرورتها التاريخية حتى اليوم.

ونـظراً لأهمية بيت المقدس بخاصة، ومدن فلسطين بعامة، بالنسبة لأهل المشرق والمغرب، من

العرب والمسلمين، فصاروا يقصدونها للاطلاع على معالمها الأثرية المقدسة، والتعرف على أبعادها التاريخية والاجتماعية، وماطرأ عليها من تبدل الأحوال عبر الأجيال المتوالية، وقد حفلت كتب الرحالة والجغرافيين العرب على وصف دقيق لمعالم تلك المدن الفلسطينية نحاول هنا ـ في هذه الدراسة قراءتها على ضوء معطياتها التاريخية والسياسية.

١ ـ آثار فلسطين في مرحلة «ناصر خسرو»

ناصر خسرو (٣٩٤ ـ ٤٨٠ هـ) رحالة مشهور، وشاعر متفلسف من فارس، اسماعيلي الانتماء، وهو واحد من مشاهير الدُعاة الاسلاميين في الدعوة الاسماعيلية[١٢] اجال االبلاد الاسلامية تطوافاً. ووصفها بشكل دقيق، وتعد رحلته من أقدم الرحلات المعروفة في التاريخ الاسلامي، إبّان العهد العباسي، تقع حوادث الرحلة بين سنة ٤٣٧ هـ ـ ٤٤٤ هـ أي قبل رحلة ابن جبير بأكثر من مائة سنة، ابتدأ رحلته في يوم الخميس السادس من جمادى الآخرة سنة ٤٣٧ هـ[١٣] من مدينة مرو في خراسان، مروراً بأذربيجان وأرمينية والشام وفلسطين ومصر والحجاز ونجد وجنوبي العراق، ثم العودة الى ايران منتهية، بمدينة بلخ في خراسان[١٤] في هذه الرحلة الجميلة والمضنية يتحدث «خسرو» عن فلسطين ومدنها، بادئاً دخوله الى مدينة صور، حيث كانت آنذاك تابعة الى الحكم الفاطمي في مصر، من الناحية السياسية والى الاردن من الناحية الجغرافية[١٥] تبعد صور عن صيدا اللبنانية، على حسب تقدير ـ خسرو ـ خمسة فراسخ، وهي ساحلية على البحر المتوسط، بنيت على صخرة «أرخبيل» امتدت في الماء، بحيث أن الجزء الواقع على اليابس من قلعتها لايزيد على مائة ذراع، والباقي في ماء البحر، هنا أوضح خسرو بأن المدينة، هي قلعة بالاساس، ذات شأن حربي، حيث امتداد أغلب جسمها بالبحر، ثم يستطرد خسرو في وصف هذه المدينة فيقول: والقلعة مبنية بالحجر المنحوت الذي سُدت فجواته بالقار، حتى لايدخل الماء من خلله، ومساحتها تقدر بألف ذراع مربع وأربطتها[١٦] من خمس أو ست طبقات وكلها متلاصقة، وفي كثير منها نافورات، وأسواقها جميلة كثيرة الخيرات.[١٧]

لم يقف ـ ناصر خسرو، عند هذا الحد في وصف هذه المدينة (القلعة) بل أشار الى طابعها الاسلامي وموقعها الجغرافي، ثم يستدرك أمراً هاماً يوضحه في سياق شرح الواقع الفكري ـ الايديولوجي ـ في تلك الفترة، حيث يشير الى أن معظم سكان صور من الشيعة، والقاضي هناك رجل سُني اسمه ابن أبي عقيل[١٨] وهذه الملاحظة الدقيقة، تشير الى التعايش المذهبي، دون حرج ولا مباغضة، وتلك مسألة تاريخية، عُرفت بها فلسطين قاطبة دون غيرها من بقية الأجناد والأمصار، وظلت هذه المسألة قائمة حتى اليوم. ومن جميل الوصف لصاحب (سفرنامه) لهذه المدينة إبراز طابعها الاسلامي وطقوسه فهو يشير الى أنه بنى على باب المدينة مشهد به كثير من السجاجيد، والحصران والقناديل والثريات المذهبة والمفضضة، ويضيف: وصور مشيدة على مرتفع، وتأتيها المياه من الجبل، وشيد على بابها عقود حجرية يمر الماء فوقها الى المدينة، وفي الجبل وادٍ مقابل لها، إذا سار السائر فيه ثمانية عشر فرسخاً ناحية المشرق بلغ دمشق.[١٩]

يتقدم رجلُ القافلة «الخسروية» بمحاذاة شاطىء البحر، راسماً خطاً بيانياً لمسار الرحلة، ومبنياً بمعرفة

الحاذق العارف، أهم مدن فلسطين، التي كانت قائمة في ذلك التاريخ، ومواقعها، والفواصل التي تبعدها عن بعضها البعض، فهو ينتقل من مدينة صور الى عكة، يقول «خسرو»:

بعد أن سرنا سبعة فراسخ من صور، بلغنا عكة، وتكتب هناك «مدينة عكة» وهي مشيدة على مرتفع بعضه مرتفع من أرض وعرة وبعضه سهل، ولم تشيد المدينة في الوادي المنخفض، مخافة غلبه ماء البحر عليها، وخشية أمواجه التي تقع على الساحل[٢٠]. هنا يتضح الموقع البحري لهذه المدينة، وملامحه الجغرافية، وقد كشف لنا هذا الرحالة، معرفة أهل هذه المدينة بتضاريس الأرض وتقلبات البحر، لذلك اختاروا مكانها المناسب في تلك البقعة، ثم يأتي ليشرح طابع المديني الاسلامي، فيقول: ومسجد الجمعة في وسط المدينة، وهو أعلى مبانيها، وأعمدتها كلها من الرخام، ويقع قبر النبي صالح (ع) خارجه، على يمين القبلة. هنا نتلمس البعد التاريخي العميق لهذه المدينة، فهو موغل بالقدم، فقبر النبي صالح، هو الشاهد التاريخي العميق على ذلك، واللطيف والهام في أمر هذا الرحالة النابه. أنه يتطرق الى ميثولوجيا هذه المدينة، كإحدى المقومات الفكرية في رؤيتهم والفولكلورية في تاريخهم، وهذه الالتفاتة تؤكد خاصية متميزة لشعوب هذه المناطق من بلاد الشام والهلال الخصيب، حيث أنها تشترك في أكثر من قاسم ميثيولوجي، يتداخل ويتواشج مع بعضها البعض. يقول ناصر خسرو[٢١]:

يقال إن آدم كان يزرع هناك ـ أي في ساحة مسجد المدينة ـ ثم ينتقل الى وصف معالم المدينة ومواقعها ومواصفاتها الجغرافية، ونشاطها التجاري فيقول: ومسحت المدينة فكان طولها ألفي ذراع وعرضها خمسمائة، ولها قلعة غاية في الأحكام يطل جانباها الغربي والجنوبي على البحر وعلى الأخير ميناء، ومعظم مدن الساحل كذلك، وهي تشبه «الاسطبل» وظهرها ناحية المدينة، وحائطاها داخلتان في البحر، وعلى امتدادهما مدخل مفتوح طوله خمسون ذراعاً، وقد شُدت السلاسل بين الحائطين ولهذه السلاسل، أهمية اقتصادية، على مايبدو حيث أن نشاط المدينة التجاري يكون من جهة البحر لذلك أوجد أهل عكة هذه السلاسل للسيطرة على مرور السفن الداخلة والخارجة الى الميناء يضاف الى ذلك أن لهذه السلاسل أهمية عسكرية حيث أنها «تشد حتى لايستطيع عدو أن يقصدها بسوء» وتسقى هذه المدينة من عين ماء تسمى «عين البقر»[٢٢] تقع عند الباب الشرقي من المدينة، يحددها خسرو بـ «نزول ست وعشرين درجة، ويضيف: ويقال إن آدم هو الذي كشفها وكان يسقي منها بقرته ولذا سميت عين البقر[٢٣]

تميزت مدينة عكة بكثرة مشاهد الانبياء ـ في ناحية المشرق منها، على الجبل المؤدي الى الرملة[٢٤] تنسب المدينة الى «عكْ» باني المدينة، وهو أحد الأولياء والصالحين، كما يقول خسرو، وقد زار هذا الرحالة، قبره هناك، هو وبعض القبور والمزارات، تقول رواية «ناصر» ثم بلغت قرية تسمى «بروة» وزرت قبر عيش وشمعون عليهما السلام، ثم واصلت السير الى قرية أخرى تسمى «أعبلين» وبها قبر هود ـ ٤ ـ ثم يممت وجهي شطر الجنوب فبلغت قرية تسمى «حظيرة» وفي الجانب الغربي منها وادٍ به، عين ماء عذب تخرج من الصخر.[٢٥]

ولاينسى رحالتنا هذا تذكر أسماء القبور والمشاهد التي يتبارك بها أهل عكة من مثل «ذي الكفل» وغيره، محدداً المواقع الأثرية وإيغالها في القدم، وإيجادها في تلك البقعة، الأمر الذي يضرب بجذوره

العميقة على أصالة ونسب هذه الأماكن المقدسة.

يقول: وقد بني أمام عين الماء تلك، مسجد على الصخر / انظر الملامح الاسلامية على المكان / به بيتان صخريان، فوقهما سقف من الحجر أيضاً، وعليهما باب صغير، يستطيع الزائر دخوله بصعوبة وهناك قبران متجاوران، أحدهما قبر شعيب - ٤ والثاني قبرابنته التي كانت زوج موسى - ٤ - ويشير- خسرو - الى أهمية هذه المواقع الدينية وأثرها على أهل المدينة، حيث يقول: ويُعنى أهل هذه القرية بهذا المسجد عناية فائقة من تنظيف وإنارة وغير ذلك[26] ثم يبدأ يرسم لنا بقية خطاه، في تلك المدينة وقراها، فمن المسجد نحو قرية اسمها «اربل» في ناحية القبلة منها جبل في وسطه حضيرة بها أربعة قبور لاربعة من أبناء يعقوب، إخوة يوسف - ٤ - ويضيف خسرو وذهبت من هناك فرأيت تلاً من تحته غار فيه قبر أم موسى - ٤ - فزرته ثم خرجت فبدا الي وادٍ في آخره. بحر صغير طوله ستة فراسخ وعرضه ثلاثة وماؤه عذب ولذيذ، وغربيه تقع مدينة طبرية وتعرف في هذا البحر كل مياه الحمامات وفضلات المدينة.[27]

يلاحظ أن المعالم الاسلامية للمدن في فلسطين تجلب الانتباه للداخل اليها للوهلة الاولى وهو ماعكسته / سفرنامه / على لسان ناصر خسرو اضافة الى وجود الكثير من مقابر الأنبياء والأولياء، الأمر الذي يؤكد هذه الارض مقدسة فعلاً في وجودها التاريخي. في طبرية يشاهد - ناصر خسرو - سور حصين، يبدأ من شاطىء البحر ويمتد حول المدينة والطرف المحدود بالبحر لاحائط له، وبها مبان كثيرة في وسط البحر، وقاعة صخرية، وقد شيدت هناك مناظر على رؤوس أعمدة رخامية أساسها في الماء، وفي بحر طبرية سمك كثير، ومسجد الجمعة في وسط المدينة، وعند بابه عين ماء، بُني عند رأسها حمام ماؤه ساخن، فلا يستطيع مستحم أن يصيبه على جسده من غير أن يمزجه بماء بارد ويقالَ إن الذي بناه ابن داود[28]

هذا الوصف يؤكد خصوصية كل مدينة من مدن فلسطين فهذه المدينة تشتهر بسورها وتلك بعيونها وأخرى بسمكها ورابعة بحماماتها، ولهذا الأمر دوره الحضاري في النظرة الى الأبعاد الميثولوجية والسسيولوجية، كون هذه المدن لها صفاتها المميزة حضارياً. للأثر التاريخي القديم حضوره الدائم في المدن الفلسطينية، وقد شاهدنا ذلك كثيراً في الصفحات السابقة، وهو أمر تشترك فيه أغلبية المدن، فطبرية هي الاخرى، تشمخ بآثار أوليائها وأنبيائها، ومعالمها الدينية والاسلامية فلا تكاد هذه المعالم تنسى من ذاكرة الرحالة المبكر، ناصر خسرو يقول؛

وفي الجانب الغربي من مدينة طبرية مسجد اسمه مسجد الياسمين، وهو مسجد جميل، في وسطه ساحة كبيرة، بها محاريب، وحولها الياسمين، الذي سمي به المسجد وفي رواق بالجانب الشرقي قبر يوشع بن نون، وتحت هذه الساحة قبور سبعين نبياً - ع - قتلهم بنو اسرائيل[29] ثم ينتقل خسرو الى وصف معالم المدينة الأخرى وآثارها الجغرافية والتاريخية فيقول: وجنوب طبرية بحر لوط، وهو مالح المياه، ويصب به ماء بحر طبرية، وكانت مدينة لوط تقع على شاطئه، ولم يبق منها أثر قط. وعن هذا الموقع ينقل صاحب (سفرنامه) أساطير ومعتقدات أهل طبرية تمت بصلة الى موروثهم الديني وهذا البحر، ومايتناقل عنه من اعتقادات بشأن زراعة الأشجار وطرق مكافحة آفاتها، يذكر: وسمعت من إنسان أن في بحر لوط شيئاً كالحجارة السوداء، غير صلب يشبه البقر يخرج من قاعه، فيأخذه السكان ويقطعونه، ويحملونه الى المدن

والولايات، ويقال إنه إذا وضعت قطعة منه تحت شجرة يمتنع الدود عنها، من غير أن يمس جذعها أذى منه فلا يتلف الشجر[30] مما تحت الارض من دود وحشرات، وقد أشار خسرو بذكاء الى هذه النقطة الميثولوجية الهامة بإشارته (والعهدة على الراوي)[31] فهو هنا اكد على الاسقاط الشفاهي للميثولوجيا في تفكير أهل طبرية، ثم يضيف تأكيداً لهذا البعد الفولكلوري: وقيل كذلك إن العطارين يستخدمونه لأنه يبعد دودة تصيب البذور اسمها النقرة[32]

وثمة ملاحظة هامة أخرى، لأهل هذه القرى والمدن، لاتغيب عن رحالتنا ناصر خسرو، ألا وهي، صناعاتهم الشعبية، ذلك الموروث الهام، الذي يعطي خصوصية محليّة لكل منطقة، حاملاً معه، عاداتهم وتقاليدهم، وهذا الموروث في لحظة تاريخية يُمثل هوية دالة على مجموعة اثنية أو قومية، لذلك كان خسرو بارع الدقة في التقاط تلك الموروثات الشعبية، يقول: وفي طبرية يصنعون الحصير، ومنه حصير الصلاة[33] وهنا أوضح بهذه الصناعة التأثير الايديولوجي - الديني - على وعي الصُناع، حيث خصصوا جزءاً من صناعاتهم لحصران الصلاة» وبذا تكون هذه الصناعة، دالة تاريخية، وايديولوجية وذات مضمون فولكلوري يميّز هذا الشعب، أو تلك المجموعة عن غيرها، ولغرض توكيد هذه «المحلية» في الصناعة الشعبية فانه يشير الى ثمنها - وقتذاك والعملة المتداولة، يشير الى ذلم بقوله:[34]

«الواحد منها - يقصد حصران الصلاة - بخمسة جنيهات مغربية». ثم يبدأ فيحدد الملامح الأثرية ومعالم البيئة الأخرى. كوجود قائم في صيرورته التاريخية. يقول[35] ويقع قبر أبي هريرة[36] خارج المدينة (طبرية) ناحية القبلة.

ومن طبرية، تقود خطى الرحالة الى قرية تسمى «كفر كنة» بجانب هذه القرية، تل بنيت على قمته صومعة جميلة بها قبر النبي يونس - ع - وعليها باب متين، بقربه بئر ماء عذب. ومن هذا الموقع يعود الرحالة ثانية الى مدينة عكا، ومن هناك، يتابع رحلته الى «حيفا» تلك القرية - وقتذاك - الواقعة في طريق في رمل، يستخدمه الصياغ العجم والمسمى بالرمل المكي[37] هنا، بدأ خسرو، بإعطاء الصفة العامة المميِّزة لبيئة حيفا الطبيعية، وتلك مسألة هامة من الناحية الجغرافية والتاريخية. وهو بهذه الاشارة أعطى المفتاح للولوج لصناعة أهل هذا المكان، يستطرد: وحيفا مشيدة على البحر، وبها نخل وأشجار كثيرة، وهناك عمال يصنعون السفن البحرية المسماة بالجودي.

لقد حدد الرحالة هنا، التطور الصناعي لحيفا، «صناعة السفن» ووضح معالمها الزراعية، وعلى هذا يمكن اعتبار المدينة ذات نشاط هام وواضح، في تلك الفترة - نهاية القرن الرابع الهجري.

ومن حيفا، بعد مسيرة فرسخ واحد، يصل هذا الرحالة الى قرية «كنيسة» ويمر من عند وادي التماسيح، وهو يجتاز الى مدينة «قيسارية» تلك المدينة التي تبعد عن عكا سبعة فراسخ، في هذه المدينة الساحلية، تبدأ ملامح التطور الزراعي، للأشجار المثمرة واضحة للعيان، بحيث تزدان صورتها وشاطىء البحر، للناظر القادم حتى أن وصفها بدأ يخلب وجدان ناصر خسرو، فيقول عنها، هي مدينة جميلة بها ماء جارٍ ونخيل وأشجار النارنج والطرنج، ولها سور حصين، له باب حديد، وبها عيون ماء جارية، ومسجدها الجامع جميل، ويرى المصلون البحر، ويتمتعون به وهم جلوس في ساحته (يقصد ساحة

المسجد) ثم يشير الى وجود الكثير من أشجار التين والزيتون وهو بطريقة الى مدينة «كفر سابا أو كفر سلام»[38]

لقد استهوت المدن الفلسطينية، نفس هذا الرحالة الشاعر، فراحت تجذبه بسحرها الأخّاذ، فهو يزور مكاناً ويعود اليه ثانية، بعد مدة وجيزة، حتى إنه يستخدم أحياناً تاريخ وصوله واليوم الذي يحلّ فيه في ذلك المكان يقول: وفي يوم الأحد غرّة رمضان «مارس» بلغنا الرملة،[39] حيث كانت رحلة المجيء اليها من قيسارية التي تبعد عنها ثمانية فراسخ، في هذه المدينة، ساعة وصول الرحالة تبدأ تباشير الربيع في الافق، فالمطر يغسل المدينة، ذات الأبنية الرخامية، والألوان المتعددة، فتخرج نضيرة للعيان، بعد يوم مطير، فيسيطر سحر المدينة على رؤية الرحالة فيقول: هي مدينة كبيرة، بها سور حصين من الحجر والجص مرتفع ومتين وعليه أبواب من حديد، ومن المدينة الى شاطىء البحر ثلاثة فراسخ، والماء هناك من المطر، ولذا فقد بني في كل منزل حوض لجمع مياه المطر، فيبقى ذخيرة دائمة، وفي وسط مسجد الجمعة أحواض تملىء بالماء فيأخذ منه من يشاء - ومساحة الجامع ثلاثمائة قدم في مائتين[40] وثمة التفاتة معرفية - جيولوجية - يثيرها ذهن هذا الرحالة النابه، ويدونها تقول تلك الالتفاتة: «وقد كتب أمام الضفة، أنه في الخامس عشر من شهر محرم سنة ٤٢٥ هـ (ديسمبر ١٠٣٣م) زلزلت الأرض بشدة هنا، فخربت عمارات كثيرة ولم يُصب أحد من السكان بسوء»[41] وتغري معالم المدينة «خسرو» ويجلب انتباهه كثرة الرخام، فيتحدث: وفي هذه المدينة رخام كثير، قد زينت معظم السرايات والبيوت بالرخام المنقوش الكثير الزينة، ويقطع الرخام بمنشار لاأسنان له وبالرمل المكي، ويعملون المنشار على أعمدة الرخام بالطول لا العرض فيخرجون منه ألواحاً كألواح الخشب، وهنا ركز صاحب سفرنامة - على صناعة المدينة «صناعة الرخام» كميزة لها عن بقية المدن، ثم يستطرد بحديثه عن المدينة قائلاً: ورأيت هناك أنواعاً وألواناً من الرخام من الململع والاخضر والاحمر والاسود والابيض، ومن كل لون. ثم يستدرك أهم الحمضيات فيها فيقول: وفي الرملة صنف من التين ليست أحسن منه في أي مكان، يصدر منها الى جميع البلاد، ولايكتفي - خسرو- بهذه التحديدات والمواصفات للمدينة، بل يشير الى اهميتها التاريخية والجغرافية، وماتمثله في وجودها يقول: وتسمى مدينة الرملة في الشام والمغرب فلسطين[42] وهذا التحديد الجغرافي للمكان له الأهمية لمعرفة وجه الراحل اليها من المشرق او المغرب.

وقبل وصوله الى بيت المقدس وهو النقطة المركزية في رحلته، يستعرض ناصر خسرو الأماكن والبقاع التي يمر عليها، والواقعة بين مدينة الرملة وبيت المقدس فيذكر قرية خاتون وقرية العنب، ويجلب انتباهه النبات البري «السّذاب» المرافق بكثافة للطريق ثم يبدأ بالارتفاع صاعداً هضبة سهلية من صخر وتراب، وعلى رأس جبل في هذه الهضبة يقع بيت المقدس، وقد وصلها الرحالة في الخامس من رمضان سنة ٤٣٨ هـ الموافق ١٦ مارس ١٠٤٧م فيحل رجاله هناك قائلاً: كان قد مضى على خروجنا من بلدنا سنة شمسية، وطوال رحلتنا لم نقر في مكان قط، ولاوجدنا راحة كاملة. ولهذا المكان أهمية خاصة في المشرق العربي والاسلامي، فأهل الشام وأطرافها، على حد تعبير - خسرو - يسمون بيت المقدس «القدس» وهو مكان مقدس يحتل أهمية دينية بارزة في اعتقاد المسلمين فهو أولى القبلتين، وثالث الحرمين فالناس في هذا الصقع من بلاد الشام يذهبون الى القدس في موسم الحج، لاسيما الذين لايستطيعون الذهاب الى مكة فيتوجهون

الى الموقف لأداء الشعائر، ويضحون بأضحيتهم في العيد.[43] يحضر لبيت المقدس، سنوياً، في ذلك الاوان، أكثر من عشرين الف شخص[44] لتأدية مراسم الحج في أوائل ذي الحجة، مع أبنائهم، وهذا العدد من المسلين، وحدهم فيما يأتي من الروم، كثير من النصارى واليهود لزيارة الكنيسة والكنيس[45] هناك، ويشير الرحالة الى وجود الرسالتين في بيت المقدس ذات الصفة الجبلية والبساتين في ذلك المكان كلها أشجار زيتون وتين وغيرها، تنبت بغير ماء، نظراً لاعتمادها على المطر[46]

والزراعة هنا، تلعب دوراً رئيسياً في الاقتصاد الاقليمي لبلاد الشام قاطبة، الامر الذي أوجد عائلات تجارية، تقوم بعملية التمويل لتلك المنطقة، يقول خسرو والخيرات بها - يقصد بيت المقدس - كثيرة ورخيصة، وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين الف مَن[47] من زيت الزيتون، يحفظونها في الآبار والأحواض، ويصدرونها الى اطراف العالم.[48] هنا، نستطيع تحديد الاهمية الاقتصادية للقدس، باعتبارها مركزاً عالمياً لتصدير الزيت والزيتون مثل العصور الاسلامية الاولى، أي حتى قبل مجيء ناصر خسرو الى هذه الديار، فقد أشار خسرو ذاته في سياق حديثه عن عدم حدوث قحط في بلاد الشام، الى ان أحد الثقات حدثه عن ولي رأى في منامه النبي محمد (ص) فقال له: «ساعدنا في معاشنا يارسول الله» فأجاب النبي - ع -: «على خبز الشام وزيته» وهذا الخبر يؤكد أهمية القدس - تاريخياً - من الناحية الاقتصادية، إضافة الى أهميتها الدينية والحضارية،[49] وسوف نقوم بدراسة خاصة عن «بيت المقدس» ضمن هذه السلسلة من المقالات، لأنها من الآثار الهامة في رحلات الجغرافيين العرب والمسلمين وغيرهم. لذلك سوف لانتطرق الى الحديث عنها في رحلة ناصر خسرو في هذا المقال.

يستأنف - خسرو رحلته من بيت المقدس الى بقية أراضي ومدن فلسطين، فضمن المحمول الايديولوجي في فكر - خسرو - يسقط على ذهنه أولاً الآثار الدينية فيعزم على زيارة مشهد (ابراهيم خليل الرحمن) - ع - فيزوره في غرّة ذي القعدة سنة ٤٣٨ هـ / ٢٠ ابريل سنة ١٠٤٧ م، حيث يقع هذا المشهد على بعد ستة فراسخ عن بيت المقدس، وضمن هذا الامتداد الجغرافي - الطبيعي تنتشر قرى كثيرة وزرع وحدائق وشجر بري لايحصى من عنب وتين وزيتون وسُماق. وتستوقف قرى الفراديس الاربعة هذا الرحالة، فيثنى عليها بالوصف قائلاً: على فرسخين من بيت المقدس، تقع هذه القرى، بها عين وحدائق وبساتين كثيرة، سميت بالفراديس لجمال موقعها[50] ومن بيت المقدس وعلى مسافة فرسخ واحد، يقع هناك مكان، يعظمه النصارى كثيراً ويحجون الية، يسمى «بيت لحم» زاره - ناصر خسرو - في رحلته هذه، بنفس اليوم الذي وصل به الى بيت المقدس.

وكما أشرنا في صفحات سابقة، من أن الابعاد الدينية، في المنظور الايديولوجي الاسلامي، يشكل زاوية هامة في رحلة ناصر خسرو، لذلك نراه يطنب في وصف الاماكن والاثار ذات الابعاد الروحانية، فما ان وصل قبر الخليل ابراهيم. حتى بدأ ينقل اسم المكان على ألسنة أهل ذلك المكان فيقول: يسمى أهل الشام وبيت المقدس هذا المشهد «الخليل» ولايذكرون اسم القرية التي هو فيها[51] والخليل عند ياقوت الحموي[52] «اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب بيت المقدس بينهما مسير يوم، فيه قبر الخليل ابراهيم - ع - فيه مغارة تحت الارض»: يصف خسرو المكان «المشهد» أنه يقع على حافة القرية من ناحية

الجنوب، والمشهد يتكون من بناء ذي أربع حوائط من الحجر المصقول طوله ثمانون ذراعاً وعرضه أربعون وارتفاعه عشرون، وثخانة حوائطه ذراعان، وبه مقصورة ومحراب في عرض البناء، وبالمقصورة محاريب جميلة بها قبران رأساهما للقبلة. وكلاهما من الحجر المصقول بارتفاع قامة الرجل،الايمن قبر اسحاق بن ابراهيم والآخر قبر زوجته[٥٣] ثم يسهب بشرح بقية المكان. ذاكراً قبور الانبياء وزوجاتهم المدفونين في هذا المكان، وبعد هذا الوصف للاماكن المقدسة، يعرّج الرحالة ـ ناصر خسرو ـ على زراعة البلد، مشيراً الى ان هناك الشعير هو الزراعة الغالبة، والقمح قليل، والزيتون كثير ومن ثم يشير الى بعض عادات أهل الموضع. حيث أنهم كانوا يعطون الضيوف والمسافرين والزائرين الخبز والزيتون، ثم يستعرض بعض الاعمال هناك، من قبيل أن الطواحين تديرها البغال والثيران لطحن الدقيق، ثم يشير الى عادة أخرى كإحدى تقاليد أهل ذلك المكان، ألا وهي أنهم يعطون من يصل هناك رغيفاً مستديراً وطبقاً من العدس المطبوخ بالزيت وزبيباً كل يوم» وهذه العادة ـ كما يقول خسرو ـ بقيت من أيام خليل الرحمن عليه السلام حتى الساعة[٥٤] وفي بعض الايام يبلغ عدد المسافرين خمسمائة فتهيأ الضيافة لهم جميعاً.

هذه النقطة، هامة جداً، من الناحية التاريخية، حيث تشير الى خاصة فولكورية تشبث بها العرب دون سواهم في تلك المناطق، ألا وهي ـ إكرام الضيف ـ وهذه العادة الحميدة، تحمل في تجلياتها، الروح الانساني السامي، امتدت مع تاريخهم منذ البدايات الاولى للتكوين البشري، كمجتمعات اثنية، تناقلت موروثاتها عبر مختلف الأجيال والعصور فليس اعتباطاً تأتي إشارة خسرو ـ في هذه الرواية ـ بل هو توكيد وتأصيل الى عادات وتقاليد مجتمع متماسك، يؤمن بالقيم الاخلاقية، ناظم إنساني، تحدد مسيرته التاريخة على هذه الارض، وضمن تكوينه الاجتماعي كخاصية اثنو ـ قومية في تلك البقعة من الارض، محددة في زمان ومكان. أنهى ناصر خسرو زيارته الى بيت المقدس وقصد الحجاز ماشياً في منتصف ذي القعدة سنة ٤٣٧ هـ أول مايو عام ١٠٤٧م.[٥٥]

توضح رحلة ناصر خسرو الى مدن فلسطين عدة أمور على المستوى التاريخي والانثربولوجي أهمها مايلي:

١ ـ اشتراك العام بالخاص من خلاُل المكان، وذلك يبرز واضحاً في الابنية ذات الطراز الاسلامي، ومن خلال العادت والتقاليد وطرق الزراعة.

٢ ـ تمتد الابعاد الانتروبولوجيةفي عمق المجتمع بجذور تاريخية، قديمة جداً توضحها طرق التعايش الاجتماعي والمسلكية اليومية في حياتهم، ويتوضح هذا في فولكلورهم في العادات والتقاليد.

٣ ـ بروز الجانب الايديولوجي ـ الديني ـ على صعيد الطابع العام للمدن، فالمسجد الجامع. هو النقطة المركزية، والشاخص الارأس لها تلتقي حوله ويكون تأثيره واضحاً في طقوس الناس ومناسكهم الدينية.

٤ ـ تميزت كل مدينة بخصوصية معينة، امتكلت خصوصيتها المحلية من خلال أهلها. وانعكس ذلك في صناعاتهم، وانتقال هذه الصناعات معهم حيثما حلّوا أو رحلوا.

٥ ـ شخصت الرحلة، الوجود التاريخي لقدسية مدن فلسطين، حيث ذكرت أسماء كثيرة وشواهد

عدة لقبور الأنبياء والاولياء.

٦ ـ أرخت الرحلة الى وجود حالة متطورة في تجارة الفواكه والحمضيات، لاسيما الزيت والزيتون والتين، وربطت هذه التجارة مدن فلسطين مع مدن بلاد الشام الامر الذي يوضح وجود علائق تجارية تميز بلاد الشام عن غيرها.

٧ ـ أوضحت الرحلة بجلاء، تعايش الديانات السماوية الثلاث في أراضي فلسطين، كبيت المقدس، وبيت لحم وغيرها من المدن، رغم أن الرحلة أبرزت الجانب الاسلامي واثارة إضفاء الروح الاسلامي على هذه المدن.

٨ ـ تاريخية أسماء المدن حافظت على وجودها الزماني والمكاني واحتفظت بأسمائها الاسلامية، بدءاً من فتح بيت المقدس أيام عمر بن الخطاب عام ١٥هـ، وحتى اليوم.

٩ ـ أوضحت الرحلة، الابعاد الروحية والزمنية لبيت المقدس، وأشارت الى موقعه وتأثيره التاريخي، في هذا الجانب، على المسلمين، وبقية الملل المذهبية من الديانات الاخرى.

---

١ ـ الزركلي ـ الاعلام ٥/ ٤٥ ـ دار العلم للملايين ـ ط٥ ـ بيروت ١٩٨٠م.
٢ ـ الطبري ٣/ ٤٢٨ ومابعدها أحداث سنة ١٣ هـ تحقيق محمد أبو الفضل ـ ابراهيم ـ منشورات دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.
٣ ـ الطبري ٣/ ٦٠٢ ـ ٦٠٣ ومابعدها
٤ ـ الطبري ٣/ ٦٠٣.
٥ ـ راجع أحداث سنة ١٥ هـ ـ المصدر السابق ٣/ ٦٠٣ ـ ٦٠٧.
٦ ـ الطبري ٣/ ٦٠٧ وانظر فصل وثيقة الصلح التي كتبها عمر بن الخطاب في ٣/ ٦٠٩
٧ ـ المصدر السابق ٣/ ٦٠٨.
٨ ـ الطبري ٣/ ٦١٠
٩ ـ راجع مادة ـ فرق في اللسان.
١٠ ـ الطبري ٣/ ٦٠٩.
١١ المصدر السابق.
١٢ ـ انظر د. مصطفى غالب اعلام الاسماعيلية ص ٥٦٢ ـ ٥٧٢ منشورات دار اليقظة العربية ـ بيروت ١٩٦٤م.
١٣ ـ المرجع السابق: ص٥٦٤.
١٤ ـ مقدمة د. عبد الوهام عزام لرحلة ناصر خسرو «سفرنامة» ترجمة د. يحيى الخشاب ـ ط١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م.
١٥ ـ انظر ياقوات الحموي معجم البلدان ٣/ ٤٣٣ ـ مادة صور دار صادر ودار بيروت ـ طبعة سنة ٣٧٦ هـ/ ١٩٥٧م.
١٦ ـ اربطتها ـ جمع اربطة ـ الاماكن التي يلازم بها الثغور وهي مواضع لربط الخيل أيضاً ـ انظر اللسان/ ربط/ ومعجم قف اللغة/ ربط/.
١٧ ـ سفرنامة ص١٥.
١٨ ـ نفس المصدر والمكان.
١٩ ـ نفسه.

٢٠ - سفرنامة ص١٥

٢١ - المصدر السابق.

٢٢ - انظر - ياقوت - معجم البلدان ٤/ ١٧٦ - مادة - عين يقول عنها عين البقر قرب عكا يزورها المسلمون والنصارى واليهود ويقولون إن البقر الذي ظهر لآدم فحرث عليه، منها خرج، وعلى هذه العين مشهد ينسب الى (علي بن أبي طالب).

٢٣ - سفرنامة ص١٦.

٢٤ - يوصف ناصر خسرو - ذهابه الى تلك «الشاهد» مشيراً الى وجود قطاع طرق في الطريق راجع ص١٦.

٢٥ - سفرنامة ص١٦.

٢٦ - المصدر السابق ص١٧.

٢٧ - نفس المصدر.

٢٨ - نفسه.

٢٩ - سفرنامة ص١٧.

٣٠ - تشكل هذه الأساطير والمعتقدات ثوابت أساسية في الفولكلور الفلسطيني المتناقل شفاهيا وهذه المصادر التي نعتمدها - هنا - تؤكد هذا البعد الميثولوجي فلا صحة لما تدعي الصهيونية، بأن لها فناً وتاريخاً وفولكوراً في هذه الارض.

٣١ - سفرنامة ص١٧.

٣٢ - نفس المكان.

٣٣ - نفسه.

٣٤ - نفس المصدر ص١٨.

٣٥ - سفرنامة ص١٨.

٣٦ - أبو هريرة اسمه عبد الرحمن بن صخر الدوسي، ولد سنة ٢١ ق. هـ وتوفي سنة ٥٩ هـ صحابي جليل كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له. أسلم سنة ٧ هـ وصحب الرسول محمد (ص) وروى عنه ٥٣٧٤ حديثاً. انظر في ترجمته أعلام الزركلي ٣/ ٣٠٨ ط٥ بيروت ١٩٨٠.

٣٧ - سفرنامة ص١٨

٣٨ - نفس المكان.

٣٩ - ص١٩.

٤٠ - سفرنامة ص١٩.

٤١ - نفس المصدر.

٤٢ - نفسه.

٤٣ - ذات المصدر ص ١٩ - ٢٠

٤٤ - سفرنامة ص٢٠.

٤٥ - ورد في نص ناصر خسرو «الكنيسة والكنيس وهو تصحيف والصحيح ما اثبتناه لان الكنيس متعبد اليهود والكنيسة متعبد اليهود والنصارى انظر المعجم الوسيط مادة (كنس).

٤٦ - سفرنامة ص٢٠.

٤٧ - المن: وحدة قياس للمكاييل، والمن رطلان - لسان العرب مادة منن.

٤٨ - سفرنامة ص٢٠.

٤٩ - نفس المصدر.

٥٠ - نفس المصدر. ص٣٢ - ٣٣.

٥١ - سفرنامة ص٣٣.

٥٢ معجم البلدان ٢/ ٤٦٨ طبعة لايبزج سنة ١٨٦٧م، وفيه يشير ياقوت الى ان اسم المكان الاصلي حبرون، وقيل جدي، قيل ان الخليل اشترى من عفرون بن صوحار الحثي موضعا بأربعمائة درهم فضة. ودفن فيه سارة وقد نسب اليه قوم من أصحاب الحديث، وهو موضع طيب، نزه، روح، أثر البركة ظاهر عليه، ويقال أن حصنه من عمارة سليمان بن داوود وفي موضع اخر يشير ياقوت الحموي أن تميم الداري قدم على النبي محمد (ص) في قومه وسأله ان يقطعه حبرون، فأجابه وكتب له كتاباً نسقه «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماأعطى محمد رسول الله صلعم لتميم الداري وأصحابة. اني اعطيتكم بيت عينون وحبرون والمرطوم، وبيت ابراهيم بذمتهم وجميع مافيهم عطية بت ونفذت وسلمت ذلك لهم ولاعقابهم بعدهم ابد الابدين فمن أذاهم فيه أذى الله، شهد أبو بكر بن أبي قحافة وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب. راجع - معجم البلدان ٢/ ١٩٥ طبعة لايبزج.

٥٣ - سفرنامه. ص٣٣

٥٤ - المصدر السابق، ص٣٥

٥٥ - نفسه، ص٣٦

مصادر بحث مدن فلسطين في رحلات الاقدمين

١ - الطبري محمد بن جرير الطربي تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.

٢ - الزركلي - خير الدين الاعلام ط٥ دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٠

٣ - د. مصطفى غالب أعلام الاسماعيلية منشورات دار اليقظة العربية بيروت ١٩٦٤م.

٥ - ناصر خسرو - سفرنامة - ترجمة د. يحيى الخشاب، ط١ مطبعة لجنة التأليف والنشر القاهرة ١٣٦٤هـ.

٦ - ياقوت الحموي معجم البلدان طبعة دار صادر دار بيروت بيروت ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م. وطبعة لايبزج سنة ١٨٦٧م.

٧ - المعجم الوسيط باشراف عبد السلام هاورن - طبعة مصر عام ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠م.

٨ - لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت ١٩٥٥.

خريطة فلسطين ووسائل ايضاح على ارض الواقع

جان الكسان*

هناك سلسلة من الخرائط، ينشرها اصحاب الدراسات العربية، حول واقع المخططات والاطماع الصهيونية في الوطن العربي، وكأنها «وسائل ايضاح» مدرسية، لاثبات وتأكيد هذه الاطماع، وكأنَّ خمس حروب، وسلسلة الاعتداءات اليومية، والاف الشهداء، لاتكفي لأن تكون شواهد، أو «وسائل ايضاح». .

مرة. . نشرت احدى المجلات العربية تحقيقاً حول مشروع «الوطن اليهودي» الذي يتحول الى مشروع «امبراطورية». . وكان التحقيق «مدعماً» بسلسلة من الخرائط كما يلي:

١ ـ خارطة فلسطين عام ١٩٢٠، عند بداية الانتداب الانكليزي، وتحتها شرح يقول: «عندما كانت فلسطين كلها عربية». .

٢ ـ خارطة مذيلة بشرح يقول: «الدولة اليهودية، والدولة العربية حسب مشروع التقسيم عام ١٩٤٧.

٣ ـ خارطة لواقع المنطقة بعد عدوان حزيران ١٩٦٧.

٤ ـ خارطة مذيّلة بشرح يقول: التوسع الاسرائيلي ١٩٦٧ ـ ١٩٨٢.

٥ ـ خارطة بعد الاحتلال الاسرائيلي للشريط الحدودي من ارض لبنان. .

نقول «الاحتلال» لأن تقويم المخطط الصهيوني انتقل من الهجرة، الى التسلل، الى الاحتلال، فالاستيطان. . فالتوسع. . ومن هنا كان قول كريستوفر هينشانز في مقال نشرة في مجلة «سبكتنتز» البريطانية في اعقاب الغزو الصهيوني ارض لبنان: «ان عملية غزو لبنان تفسر تأجيل اسرائيل وضع خطوط نهائية لحدودها». . ولم نستغرب هذا الكلام يومئذ ـ استناداً الى مؤشرات الواقع ـ بعد ان اعتبر العدو الصهيوني دماء الاسرى العرب، وسكان الجنوب شيئاً من «مخزون بنك الدم» الاسرائيلي، فقد سحبت كميات كبيرة من دماء هؤلاء المواطنين العرب ليحقن بها الجرحى من ضباط وجنود الجيش الاسرائيلي. . ولم يكتف العدو

* ناقد سينمائي وصحفي وروائي من القطر السوري.

الصهيوني انذاك ـ ان كنا لانزال نذكر ذلك ـ انه عمد ايضاً الى قطع اشجار بياراتهم عن طول الطريق بين صور وصيدا، بحجة ان الفدائيين يختبئون خلف هذه الاشجار، ويقومون بعمليات مباغتة ضد جيش «الدفاع الاسرائيلي» ثم تبين ان سبب قطع مليون شجرة حمضيات، كان اعتزام العدو المحتل اغراق الاسواق اللبنانية ـ والاسواق المجاورة بالشيكل الاسرائيلي بدل الليرة اللبنانية، وفتح مكتب لشركة «العال» في صيدا، وفتح خط سياحي بين لبنان «واسرائيل» واقامة التحصينات في لبنان، واغراق أسواقه بالبضائع الاسرائيلية، وقيام البحرية الاسرائيلية بتحويل خط سير السفن القادمة الى مينائي صور وصيدا الى ميناء حيفا. . اضافة الى السبب المهم الاخر، وهو سحب مياه الليطاني. وقد اكد الدكتور توماس ستاوفر، الاستاذ الزائر في كلية الاقتصاد بجامعة هارفارد في دراسة عن السيادة الاسرائيلية على المياه العربية في المناطق العربية المحتلة، ان سيطرة «اسرائيل» على نهر الليطاني تؤمن لها على الاقل ٨٠٠ مليون متر مكعب من المياه تزيد الاستهلاك الخاص لها الى حوالي ٥٠٪. .

واذا كانت عملية النهب هذه، تأتي في الدرجة الثانية، بعد القمع الوحشي لدرجة القتل. الذي تمارسه السلطات الصهيونية ضد انتفاضة الاهل، فإن استراتيجية الاحتلال والعدوان، تتكامل فيها البنود، ومنذ هولاكو حتى بيغن، ومنذ هتلر حتى شارون كانت أقلام المؤرخين ترتجف هلعاً، وهي تسجل مقهورة صفحات سوداء للجرائم المرعبة التي ارتكبها هؤلاء السفاحون وامثالهم بحق البشرية، بحيث تصبح هذه الصفحات السوداء لطخة عار ابدية على جباه مجرمي التاريخ. . هؤلاء الذين دانتهم الأمم والشعوب، واصبحت سيرتهم اشارة الى حالات شاذة خارجة على جميع القوانين البشرية، خاصة وان منطق الحياة والتطور والقانون والحضارة، هو الذي يقرر النهايات المأساوية لهؤلاء المجرمين.

واذا كان التاريخ عبرة، فإن أمثال هؤلاء عادة لايعتبرون بالتاريخ، خاصة اذا كانوا من الذين قفزوا الى مواقع السلطة بمزيد من الجرائم، كما هو واقع الامر بالنسبة لقادة الكيان الصهيوني، الذين تسللوا الى فلسطين، ليشكلوا عصابات القتل والاجرام، ويرتكبوا جرائمهم الوحشية بحق اصحاب البلاد. وبدعم من بريطانيا الاستعمارية ثم من امريكا الامبريالية، وليحولوا هذه العصابات بالدعم الامبريالي نفسه، السياسي والعسكري والاقتصادي، الى كيان عنصري يحمل اسم «الدولة» ويدعي اصحابها أنهم «بؤرة الحضارة الحديثة في الوسط العربي المتخلف». .

هل هي مصادفة ان يكون جميع القادة الاساسيين في «اسرائيل» مسؤولين سابقين في عصابات الارهاب التي ارتكبت، منذ الاربعينات حتى الآن، سلسلة من الجرائم بحق ابناء الشعب العربي، بحيث أصبح سجل جرائمهم في فلسطين والاقطار العربية المجاورة، يفوق حتى جرائم ومجازر النازيين في الحرب العالمية الثانية. .

من هنا، كان لابد من مجابهة نوعية لهذه الجرائم، تتجاوز المجابهة السابقة في اطار هذه النوعية، وعلى الرغم من ان انتفاضة الحجارة هي في موقع «العتبة» من الكفاح المسلح، الذي هو عتبة أخرى بالنسبة للحرب النظامية التقليدية، الا انها في الوقت نفسه تحول اساسي في صراعنا المصيري مع العدو الصهيوني الممتد على مدى اربعة عقود من الزمن. . فلم يحدث في التاريخ الحديث ان خاض شعب من الشعوب

اربعين عاماً متواصلة من النضال اليومي ضد الاحتلال . .

وإذا كان اعداء الامة العربية يظنون أن الشعب العربي الفلسطيني قد تطامن على جراحه اليائسة بعد هذه الاعوام الطويلة، وبعد عدة حروب دامية لم يكن فيها حسم نهائي، فإن الجيل العربي الفلسطيني الجديد الذي يخوض اليوم معركة الحجارة، يؤكد ان القضية لم تمت، بل انها ماتزال مستمرة في القلوب والسواعد، حتى يفرض اهل الحق الحلّ العادل في تحرير ارضهم، وفي نيل حقوقهم، وفي اقامة دولتهم على ارض آبائهم واجدادهم . .

ومادامت الانتفاضة تصعيداً في النضال وفي المجابهة، فإن انعكاساتها على الانتاج الابداعي، لابد ان يكون مؤثراً وفاعلاً، ذلك لان هذه القضية هي همنا الاول، وهي جرحنا المؤرق. وهي المحور الذي تلتقي حوله اعطاءات الابداع لدى الكتاب والفنانين الملتزمين بقضايا امتهم، فلا مكان لأدب مترف في حياتنا المليئة بالغبار والمآسي وصنوف العدوان . .

اما هذا التأثير فقد يكون آنياً ومباشراً، وقد يكون على المدى الطويل . . قد يظهر في زاوية او مقال، وقد ينضج من خلال قصّة او قصيدة . .

اما بالنسبة لي ـ واسوق هذا على سبيل المثال، ومن خلال استفتاء شاركت فيه حول الموضوع، فإلى جانب بعض الكتابات الاعلامية المستوحاة من الانتفاضة، كانت هناك قصة ترغي في وجداني منذ الايام الاولى للانتفاضة . . كنت أحاول، ومن خلال ايقاع متواتر ـ ان ارصد مراحل الصراع العربي ـ الصهيوني على مدى اربعة عقود من الزمن بنوع من استرجاع مكثف في الذاكرة، ومن خلال تداعيات في ذهن فدائي «متقاعد على الرغم منه» يعلن عن مرارة واقعه، وهو يرى نفسه في حال تؤكد اننا كنا «ننظم الشعارات ونعد جنازات الشهداء» حتى بدأت انتفاضة الحجارة التي احس بها «تقتلع منه العين والكبد» لتدعو الى الصحوة الجديدة . . وهذه هي قصتي الاخيرة «سلمى والحجارة» . .

ان الكتابة الابداعية من وحي الانتفاضة ظاهرة صحية، وتفاعل مطلوب بين القضية وبين اصحابها، ان كانوا مواطنين او مقاتلين او ادباء او فنانين . .

على ان الملاحظة التي لابد من الوقوف عندها، هي ان الكثير مما كتب عن الانتفاضة اتسم بطابع العجلة او «السلق» ان صحت التسمية، فالكتابة في مثل هذا الموضوع يجب الا تكون نوعاً من (رفع العتب)، او اللحاق بركب الحداة والمنشدين، ذلك لأن هذا العدد الكبير من الانتاج بشكل خاص، ادى الى نوع من التراكم الكمي الذي يفتقر الى العمق والحرارة، ـ ولأقول الصدق ـ ذلك لان صدق النية وحده، لايكفي في مجال الابداع الادبي والفني . .

الكتابة الابداعية ليست «موضة» وليست فقط «مناسبة» فما كتب عن القضية الفلسطينية حتى الان، يشكل اكداساً مكدسة، ولهذا فإن أية اضافة، حتى اذا كانت جديدة ومستوحاة من هذا الحدث الهام، يجب ان تكون اضافة نوعية فاعلة ومحرضة، ليس مجرد اوراق جديدة، تضاف الى ركام الاوراق الكثيرة التي تنام على رفوف المكتبات، بدل ان تنتفض في الرؤوس والصدور والسواعد . . اضافة إلى ارض الواقع، ترسم ـ على الواقع ـ الخريطة الحقيقية والكاملة لفلسطين.

تراث

فكرة الصراع في الاغنية الشعبية

محمود مفلح البكر*

كان قدر الكنعانيين منذ فجر التاريخ أن يكونوا محاربي الخط الأول، ومتلقي أشدِّ الصدمات، لموقع بلادهم المنفتح على البحر والبر، غرباً وشرقاً. فأيةُ حربةٍ تُوجَّهُ إلى مصر، أو إلى عمق بلاد الشام، أو شبهِ الجزيرة العربية. . لابد أن تصيب فلسطين، وشعبَها أولاً.

ودائماً كانت الحضارة العربية الكنعانية المتكاملة والمتماسكة، تتجاوز المحن، وتنتصر، فتلتهم الغزاة، وتذيبهم، أو تردهم من حيث أتوا، بعد أن فتحوا أعينهم على حضارتها المتطورة، فاستلهموا منها ما استلهموا، ليعيدوا تشكيل فكرهم بناء على شوامخها(١).

ويجب التنبه جيداً إلى أن الهجمة الصهيونية الحالية لايربطها رابط بالعبرانيين الذين تسللوا إلى بلاد كنعان في نهايات الألف الثاني قبل الميلاد، لأن هؤلاء العبرانين فرع من فروع الآراميين الساميين، ولغتهم هي الآرامية وقد قدموا إلى فلسطين متسللين من أطراف الهلال الخصيب الشرقية (ولقد دام التسرب البطيء إلى البلاد مدة طويلة لعلها استمرت قرناً أو قرنين، ومما يثبت صحة هذه الفرضية القائلة بأن سيطرتهم على فلسطين كانت بفعل تجمعهم البطيء المتسلل. . أنه لم ترد أية إشارة هامة إليهم في أي نص بعد استقرارهم في فلسطين)(٢).

---

* باحث في الفولكلور من فلسطين

اربعين عاماً متواصلة من النضال اليومي ضد الاحتلال . .

واذا كان اعداء الامة العربية يظنون أن الشعب العربي الفلسطيني قد تطامن على جراحه اليائسة بعد هذه الاعوام الطويلة ، وبعد عدة حروب دامية لم يكن فيها حسم نهائي ، فإن الجيل العربي الفلسطيني الجديد الذي يخوض اليوم معركة الحجارة، يؤكد ان القضية لم تمت، بل انها ماتزال مستمرة في القلوب والسواعد، حتى يفرض اهل الحق الحلّ العادل في تحرير ارضهم ، وفي نيل حقوقهم ، وفي اقامة دولتهم على ارض آبائهم واجدادهم . .

ومادامت الانتفاضة تصعيداً في النضال وفي المجابهة، فإن انعكاساتها على الانتاج الابداعي، لابد ان يكون مؤثراً وفاعلاً، ذلك لان هذه القضية هي همنا الاول، وهي جرحنا المؤرق. وهي المحور الذي تلتقي حوله اعطاءات الابداع لدى الكتاب والفنانين الملتزمين بقضايا امتهم، فلا مكان لأدب مترف في حياتنا المليئة بالغبار والمآسي وصنوف العدوان . .

اما هذا التأثير فقد يكون آنياً ومباشراً، وقد يكون على المدى الطويل . . قد يظهر في زاوية او مقال ، وقد ينضج من خلال قصّة او قصيدة . .

اما بالنسبة لي ـ واسوق هذا على سبيل المثال، ومن خلال استفتاء شاركت فيه حول الموضوع ، فإلى جانب بعض الكتابات الاعلامية المستوحاة من الانتفاضة، كانت هناك قصة ترغي في وجداني منذ الايام الاولى للانتفاضة . . كنت أحاول، ومن خلال ايقاع متواتر ـ ان ارصد مراحل الصراع العربي ـ الصهيوني على مدى اربعة عقود من الزمن بنوع من استرجاع مكثف في الذاكرة، ومن خلال تداعيات في ذهن فدائي «متقاعد على الرغم منه» يعلن عن مرارة واقعه ، وهو يرى نفسه في حال تؤكد اننا كنا «ننظم الشعارات ونعد جنازات الشهداء» حتى بدأت انتفاضة الحجارة التي احس بها «تقتلع منه العين والكبد» لتدعو الى الصحوة الجديدة . . وهذه هي قصتي الاخيرة «سلمى والحجارة» . .

ان الكتابة الابداعية من وحي الانتفاضة ظاهرة صحية، وتفاعل مطلوب بين القضية وبين اصحابها، ان كانوا مواطنين او مقاتلين او ادباء او فنانين . .

على ان الملاحظة التي لابد من الوقوف عندها، هي ان الكثير مما كتب عن الانتفاضة اتسم بطابع العجلة او «السلق» ان صحت التسمية، فالكتابة في مثل هذا الموضوع يجب الا تكون نوعاً من (رفع العتب)، او اللحاق بركب الحداة والمنشدين، ذلك لأن هذا العدد الكبير من الانتاج بشكل خاص، ادى الى نوع من التراكم الكمي الذي يفتقر الى العمق والحرارة، ـ ولأقول الصدق ـ ذلك لان صدق النية وحده، لايكفي في مجال الابداع الادبي والفني . .

الكتابة الابداعية ليست «موضة» وليست فقط «مناسبة» فما كتب عن القضية الفلسطينية حتى الان، يشكل اكداساً مكدسة، ولهذا فإن أية اضافة، حتى اذا كانت جديدة ومستوحاة من هذا الحدث الهام، يجب ان تكون اضافة نوعية فاعلة ومحرضة، ليس مجرد اوراق جديدة، تضاف الى ركام الاوراق الكثيرة التي تنام على رفوف المكتبات، بدل ان تنتفض في الرؤوس والصدور والسواعد . . اضافة إلى ارض الواقع ، ترسم ـ على الواقع ـ الخريطة الحقيقية والكاملة لفلسطين.

فكرة الصراع في الاغنية الشعبية

محمود مفلح البكر*

كان قدر الكنعانيين منذ فجر التاريخ أن يكونوا محاربي الخط الأول، ومتلقي أشدَّ الصدمات، لموقع بلادهم المنفتح على البحر والبر، غرباً وشرقاً. فأيةُ حربةٍ تُوجَّهُ إلى مصر، أو إلى عمق بلاد الشام، أو شبهِ الجزيرة العربية. . لابد أن تصيب فلسطين، وشعبَها أولاً.

ودائماً كانت الحضارة العربية الكنعانية المتكاملة والمتماسكة، تتجاوز المحن، وتنتصر، فتلتهم الغزاة، وتذيبهم، أو تردهم من حيث أتوا، بعد أن فتحوا أعينهم على حضارتها المتطورة، فاستلهموا منها ما استلهموا، ليعيدوا تشكيل فكرهم بناء على شوامخها[١].

ويجب التنبه جيداً إلى أن الهجمة الصهيونية الحالية لايربطها رابط بالعبرانيين الذين تسللوا إلى بلاد كنعان في نهايات الألف الثاني قبل الميلاد، لأن هؤلاء العبرانين فرع من فروع الآراميين الساميين، ولغتهم هي الآرامية وقد قدموا إلى فلسطين متسللين من أطراف الهلال الخصيب الشرقية (ولقد دام التسرب البطيء إلى البلاد مدة طويلة لعلها استمرت قرناً أو قرنين، ومما يثبت صحة هذه الفرضية القائلة بأن سيطرتهم على فلسطين كانت بفعل تجمعهم البطيء المتسلل. . أنه لم ترد أية إشارة هامة إليهم في أي نص بعد استقرارهم في فلسطين)[٢].

* باحث في الفولكلور من فلسطين.

أما (العبيرو) الذين ساهموا بتشكيل الدولة العبرية لأول مرة فقد (كانوا متمردين إرهابيين ينتمون الى مجموعات تعبر من مصر إلى أرض كنعان، وكأنهم نواة لتمرد أعم وأشمل، فاجتذبوا إلى صفوفهم بعض العصاة والخارجين على القانون من كل جنس ولون)(٣).

وعلى أية حال (فالعبيرو يرجعون دون أدنى شك إلى أصول سامية لاتنفك تجوب أطرافَ الهلال الخصيب بدءاً بالعموريين، وانتهاء بالآراميين، ولكنهم ينتمون إلى تلك الشريحة الاجتماعية التي لم تجد أرضاً لها فاضطرت إلى عرض خدماتها المأجورة في المجالات الزراعية لدى الخاصة، وفي الأشغال الشاقة للدولة، وإذا لم يجدوا مايعملون فيه لجأوا إلى تأليف عصابات للسطو والنهب)(٤).

فأية رابطة بين هؤلاء (العبيرو) أو (العبريين) وهم جزء من شعوب المنطقة، وبين أناس ينتشرون في أنحاء الأرض لاتربطهم رابطة قومية، أو لغوية، أو جغرافية، أو ثقافية؟

إن الدراسات الأثرية التاريخية الحديثة، ورغم انحياز الكثير منها الى الفكر الصهيوني، تنسف المقولات الصهيونية جملة وتفصيلاً، وتسهم في تفسيخ هذا الكيان ورفضه. وهو مايجعلنا نؤكد أن الهجمة الصهيونية الشرسة ليست إلا حركة استيطانية، توسعية، عنصرية تقنعت بقناع ديني حسب الطريقة الصليبية. ومثل سابقتها استنفرت وتستنفر المرتزقة، والمغامرين، والمجرمين الجنائيين، والمتنكرين لمبادىء شعوبهم، وأوطانهم. وقيمها الوطنية والأخلاقية. دافعة بهذا الخليط غير المتجانس إلى أرض فلسطين، وهو غير متفاهم إلا على أمر واحد. إنه العدوان، وشحنُ الفتن، وخلقُ بؤرِ التوتر، وتفجيرُ الصراعات لا في فلسطين، والمنطقةِ العربيةِ، وإنما في العالم أجمع خدمة لأهدافها العدوانية، وطموحاتها.

وقد أدرك الشعب الفلسطيني العربي نوايا التحرك الصهيوني منذ بداياته، وربط بينه وبين الغزو الصليبي في القرون الوسطى، وفهم الصراع فهماً استراتيجياً، يعتمد على تجربته الخاصة، غير المعزولة عن عمقها القومي.

فمجريات حملات الفرنج وآثارها مازالت ماثلة في الأذهان، فقطعان القتلة، والأمراءُ الطامعون، والمرتزقةُ اندفعت إلى فلسطين تحت قناع حماية المسيحيين في الشرق، وسرعان ماكشفت هذه القطعان حقيقتها بنفسها منذ الأيام الأولى بممارساتها الاجرامية، والسافلة، التي لم ينج منها مسيحيو الشرق، مما حدا بهؤلاء الى الاستنجاد بالمسلمين ليخلصوهم من بني دينهم مما يثبت أن القناع الديني لهذا الغزو الفرنجي كان واهياً، ولم يخفِ الاطماعَ الاقتصاديةَ للفقراء، والتوسعية الاستيطانية للأمراء.

وكان على الشعب العربي الفلسطيني أن يخوض صراعا دامياً، استمر حوالي (٣٠٠) سنة قبل أن يتمكن صلاح الدين الأيوبي ـ الذي تتلمذ عسكرياً على يد نور الدين محمود ـ من تهشيم أطماع الفرنج في (حطين)(٥).

والذي يميز الحركة الصهيونية عن سابقتها الفرنجية هو تركيزها على طمس الهوية الحضارية للشعب الفلسطيني، أو بكلام آخر بتر جذور هذا الشعب، وإفراغه من حضاريته.

فهذا الصراع إذن يجري في محورين هما:

١ ـ الصراع على الأرض.

٢ ـ الصراع الحضاري.

وهما متداخلان أشد التداخل، وماتقديم أحدهما على الآخر إلا بهدف تسهيل الدراسة. ولن نخوض في هذا الموضوع إلا بمقدار ماطرحته الأغنية.

١ ـ الصراع على الأرض

تميز شعور المواطنة في فلسطين بالرحابة، وكان لحرية التنقل من مَصْرٍ إلى مَصْر، ومن بقعة إلى بقعة أثر هام في تعزيز هذه الرحابة، كما كان لموقع فلسطين الذي يربط جناحي الوطن العربي الكبير أثره الأهم. وحتى فترة قريبة كان مدلول صفة مصري، أو سوري، أو عراقي، أو فلسطيني.. يختلف كثيراً عن مدلولها الحالي الذي تقزم بعد أن تصلبت الحدود الاستقلالية المصطنعة.

وعلى سبيل المثال فالبدوي كان يرى أن من حقه التنقل من حدود اليمن الى العراق، وسورية وفلسطين، ومصر.. دون أن يسأله أحد عن هويته، أو قصده، أو يحدد له مدة إقامته، ولاننسى العادة العربية التي لايُسألُ الضيفُ بموجبها عن اسمه مدة ثلاثة أيام من إقامته، وبعد الأيام الثلاث له الحرية في البوح أو الامتناع، ولأجل هذا اصطدم (الرولة) بالفرنسيين عند وصولهم إلى البادية السورية قادمين من شبه الجزيرة العربية إثر قحط في بدايات هذا القرن(٦).

وسيتضح لنا من خلال النصوص التي بين يدينا أثر هذه الروح الرحبة في النضال الوطني الفلسطيني، فهي لم تنظر إلى فلسطين إلا باعتبارها أرضاً عربية، من واجب، بل من حق أي عربي الدفاع عنها، ولذلك عندما اتقد الكفاح المسلح في فلسطين ضد الانكليز، والمستعمرات الصهيونية، هرع الرجال العرب كالعقبان من مختلف البقاع العربية للمشاركة في هذا النضال.

وهذه الروح امتداد للروح المحركة لحروب التحرير العربية التي انطلقت راياتها من الحجاز مستلهمة توجهات القائد الفذ محمد بن عبد الله (ص)، وتجلت بوضوح أيضاً في حركة المجاهدين إبان هجمة الافرنج على البلاد العربية في القرون الوسطى، فكان هؤلاء المجاهدون يقاتلون سنة في فلسطين، وسنة في الاندلس لايمانه بأن التفريط بشبر في أي مكان تفريط بشرف الأمة.

وفكرة الصراع على الأرض بين سكانها الأصليين وبين الغزاة مهما تلونت أساليبهم، وتبدلت أقنعتهم، ليست جديدة، والتنبه الشعبي للأطماع الأجنبية كان عميقاً، ومبكراً، بل حاضراً دائماً منذ القدم.

ومن (الحروبيات) التي شاعت في القرن التاسع عشر، وربما قيلت قبل ذلك، واستمرت تتردد في القرن العشرين هذه الحروبية(٧).

ياديرتي جنة نعيم
تركي والماني يريدها

فهذه الحروبية تعبر عن حس مواطنة عالٍ، ورحب، يرى في بلاده جنة لايفرط بها، مع الادراك

أن هذه الجنة مطموع بها من قبل الأتراك والألمان، وغيرهم. . وأن تقال هذه المعاني في (حربة) يرددها الرجال أثناء المسيرات في زفة العريس، أو في الطريق إلى بيت الفرح، أو قبل خوض معركة. أو بعد خوضها، وكذلك في الاحتفالات الوطنية. . أن تقال أثناء هذا كله فإنها تعبر عن حالة الاستنفار الشعبي الدائم، الذي نجد مظاهر التعبير عنه متنوعة، وكثيرة.

فعندما بدأ تمديد الخط الحديدي عبر وادي اليرموك ليربط فلسطين بدمشق، توجس الناس من قدوم مرحلة جديدة من الصراع على وشك الاندلاع، ومن هؤلاء الذين توجسوا الخطر الشاعر ماضي ابو خويصة، الذي وقف يرقب ورشاتِ العمل الأجنبية، والخيام المنصوبة، وعرباتِ القطار، وينصت إلى صوت البوق، وانفجارات الألغام. ومن (قبزة ثريا)[8] المطلةِ على ملتقى نهري اليرموك والاردن راح ماضي يقرأ الأفق، وينطق نبوءته المذهلة التي مالبثت أن تحققت، دون أن يشهدها[9].

البارحة والخلايق رقودِ ... عيني سهاره ماطبقت الاجفان[10]
ياونتي ونة طعين بعودِ ... باقصى ضميري جايدٍ مطرقَ الزان[11]
علي يامشكاي صابني لهود ... من شوفة الببور والقلب وجلان[12]
جروا الحبل والمهنذر يقودِ ... تولوا الديره بطوط وعمدان[13]
واشوف يم الغور صار المدود ... واشوف يم الغور خيمة وصيوان[14]
حس اللغم يشدا قضً الرعودِ ... وصم الصخر بوجوههم راح كتان[15]
جتنا عساكر مالها عدودِ ... نامسة وفرانسه وجنب طليان[16]
(.) ... واحدهم يترم تقل شيطان[17]
تحذروا ياناس حكمنا صاير يهودي ... تحذروا ياناس تاري الدهر خان[18]
(واويل) سباع البرهي والأسود ... كان حكم بها الحصيني مع سرب ويوان[19]

الشاعرُ ماضي ابو خويصة في وقفته تنبأ بانحسار الدولة التركية، وبدء الهجمة الأوروبية الشرسة، والمهاجم الجديد خبيث متآمر مثل (الشيطان) ماكر خداع مثل (ابو الحصين) يتأبط خططا تدميرية معتمداً على مجموعة من المتآمرين الاتباع (سرب ويوان) يروجون له أفكاره، ويمرّرون خِططه.

ويل للشرفاء من هذه الأمة إن تحكم بمصيرها (ابو الحصين).

إننا نجد في قوله (ماضي) قراءةَ مستقبل، أكثرَ مما هي نبوءة، وقد اعتمد في قراءته على معطيات واقعية، ربط بينها بذكاء، وخرج بنتائج منطقية، بدت لبعضهم في حينها ضرباً من الرجم في الغيب.

ومن هذه المعطيات تزايدُ اهتمام الغرب بالمنطقة، وكثرة السياح الأجانب، وانتشارُ أخبارهم، والتحركاتُ اليهودية الصهيونية، وفسادُ الجهاز الاداري التركي، ومواقف القادة الأتراك، ثم تمديدُ الخط الحديدي ذاته فيما بعد. .

وقد كان الناس في هذه المرحلة يتلقطون الأخبار المتسربة من دمشق وبيروت، ومصر، واستنبول، ومن البحر كذلك، ويتناقلونها بسرعة، وحرارة، ودائماً كانت ترد أنباء جديدة، وكما يقول المثل (مافيه دخان

من غير نار).

إذن كان الاحساس بالمتغيرات عاماً، وحالة التوجس سائدة، والحذر يزداد مع كل معلوماتٍ مستجدة.

أما عمقُ الرؤية، وشموليتها، وقدرتها على السبر، فيكمن في تحويل هذه المعطيات المتناثرة المتداخلة، الغائمة، والمتقطعة، إلى رموز واضحة، تُحمَّلُ على خارطة محددة، تتيح للناظر أن يقرأ مجريات المستقبل، وكأنها تحدث أمامه.

استطاع (ماضي) أن يضع كل معلومة في مكانها الصحيح، وقد اعتمد على رؤيته الثاقبة، في وصل ما انقطع من السلسلة، وبمحاكمة بارعة استطاع أن يزيح الضباب عن الأيام القادمة، ويحدد خط مجرياتها العام، بل استطاع أن يستشف بعض التفاصيل.

ومما تبيَّن لماضي أن الدولة التركية إلى زوال، وأن هجمة صليبية جديدة قد ثار غبارها وراء الافق، وأن هذه الهجمة ستجد بعض المتعاونين يسهلون لها المهمة، وأن هؤلاء الأذناب ستكون لهم يد في مجريات الأحداث، وأن المستفيد من مجمل التطورات هم (اليهود)(*) الذين ستكون لهم صولة.

وبما أن الهجمة غربية استعمارية توسعية، فإننا نرجح أنه عنى بـ (اليهود) يهودَ الغرب، المشاركين في هذه الهجمة. بل نكادُ نجزم بهذا، لأن اليهود في فلسطين حينذاك لم يكونوا يشكلون أي خطر على الاطلاق، وماهم إلا فئة من بنية المجتمع العربي الفلسطيني.

ومما يؤكد هذا التوجه أن علاقات صداقة، وتعاون كانت قائمة بين اليهود الفلسطينيين وبين غيرهم من المواطنين، وهناك علاقات من هذه كان ماضي يعرفها حق المعرفة.

أية عين امتلكها هذا الشاعر لترى مستقبل الأيام بهذا الموضوع؟!

إنها عين الشعب التي لاتكذِبُ نفسها، ولاتفقد حسها مهما اضطربت الرياح.

مالبثت فكرة الصراع أن تعززت بعد افتضاح الدور الانكليزي الذي وفَّر التغطية الكافية للهجمة الصهيونية، بتسهيل هجرة المغامرين، والحالمين، والمغرر بهم من قبل قادة الصهيونية وحماية المستوطنات التي يقيم فيها هؤلاء القادمون الذين سرعان مايُسلحون، ويُدربون، ويُعبؤون بالعدوان، وحبِّ القتل، والتلذذ بالجريمة الذي تجلى في مجازر ١٩٤٨.

أصبح تهديد الأرض في العشرينات جلياً، فأمام الأعين قوىً غازيةٌ تحتال بكل الوسائل لامتلاك قطعِ الأرض وتحويلها إلى معسكرات، ثم توسِّعُها باغتصاب قطعٍ جديدة بالقوة تحت عين الحماية البريطانية.

ومنذ بداية العشرينات بدأ الروح الشعبي بالتأجج، وانطلق كثير من الرجال الى الجبال، ليواجهوا المستعمرات الصهيونية، والقوات البريطانية بأسلحتهم البسيطة، ورغم تسمية (قطاع الطرق) التي سعت الادارة البريطانية الى الصاقها بهم، ورغم بعض الهفوات والأخطاء، فإنهم رجال رفضوا أي وجود أجنبي في بلادهم، ولم يحتملوا أن يُهدِّد ترابُ وطنهم، وبما أنهم لم يمتلكوا تدريباً عسكرياً فقد اعتمدوا على أساليبهم الخاصة.

وحول تسهيل الهجرة الى فلسطين، وغضِّ الطرفِ عن عمليات تهريب الأسلحة، والمعدات للمستعمرات الصهيونية التي تتم بمعرفة المندوب السامي، يقول الشاعر نوح ابراهيم موجهاً كلماته الى المندوب السامي الجنرال غرينفليد ووكهوب:

يافخامة المندوب السير غرينفل وكهوب
انت عارفنا مظلومين
ويدك تسكتنا بالطوب؟!(*)
في مدة هالخمس سنين فوضوك ع فلسطين
طارت حقوق العرب وقويت الصهيونين
انفتحت ابواب الهجرحتى صرنا مهددين[20]

واستعمال الشاعر كلمة (الصهيونين) يدل على وعي سياسي متقدم وادراك شعبي عام بأن أرض فلسطين مهددة من قبل الحركة الصهيونية مباشرة رغم الوجود البريطاني، وهذا مادفع الشعب الفلسطيني إلى الاستنفار العام، فهبت المظاهرات والاضرابات، متحدية قوانين الانتداب البريطاني. ومن الاضرابات المشهورة إضراب عمال ميناء يافا، إثر اكتشافِ عمليةِ تهريب أسلحة إلى المعسكرات الصهيونية في خريف (١٩٣٥) والذي قال فيه نوح ابراهيم[21]

تحيا رجال البحرية من اسلام ومسيحية
بحرية يافا البواسل اصحاب الهمة العلية

***

تحيا بحرية يافا رجال النخوة المعروفة
اظهروا مدة الاضراب شهامةَ عظيمة موصوفة
وعطلوا كلَّ الاعمال واعطوا مثل لحيفا
رفعوا راس الأمة ومشيوا بأول صفوفه

***

في الاضراب ضحوا كثير واجهوا الأمر العسير
وكانوا مثل للجميع من كبير ومن صغير
ست اشهر صبروا ع الجوع رفضوا الربح الوفير
والمثل يحكي ويقول الشرف عند الفقير

ومن كلمات نوح ابراهيم نتلمس أموراً هامة منها:

أولاً: أن الصراع لم يكن دينياً وإنما هو صراع على الأرض، بين مواطنين وبين محتلين وغزاة، بدليل

وقوف المسيحيين.

الفلسطينيين الى جانب أبناء وطنهم ضد السياسة البريطانية المتواطئة مع الصهيونية، والمتسترة على أعمالها.

ثانياً: أن المقاومة الشعبية الفلسطينية كانت في تلك المرحلة ذات بعد طبقي يؤكده بوضوح كما تؤكده نصوص أخرى فالعمالُ، فقراءُ الشعبِ الفلسطيني، هم الذين تقدموا الصفوف بجرأة لينتقلوا بذلك الى الصدام المباشر مع القوات البريطانية التي تحمي الغزاة، وأن يستمر اضرابهم ستة أشهر فهذا دليل طاقة نضالية عالية، وصبر عظيم، فكم تحملوا خلال هذه المدة الطويلة هم، ونساؤهم، وأطفالهم من الجوع، والضيق؟! لقد صمدوا بشرف غير منتظرين المساعدة من أحد.

ثالثاً: لم يكن عمال الميناء هؤلاء الى طليعة قطاع واسع من الشعب الفلسطيني، هو الغالبية، مما يعطي لتحركهم عمقاً شعبياً تجلى في التعاطف الشعبي، والمؤازرة الكبيرة مما كان يبشر بتأجج كفاح مسلح واسع النطاق.

ويتضح أن الادارة البريطانية في فلسطين أدركت أبعادَ هذا التحرك العمالي، وتطوراته المحتملة، لذلك واجهت إضراب العمال العرب بالقمع، والارهاب، في محاولة لتركيع المناضلين وتمرير المخططات الصهيونية، لكن الاعتقال، ونسف البيوت، وحرقها بما فيها من أثاث، لم يوهن عزيمة العمال، وإنما زادهم صلابة، وإصراراً:

بيوتهم نسفوها رجالهم حبسوها
ماظل حيلتهنم شي أطفالهم شتتوها
كل هذا وهمَّ صابرين ع العهود محافظين
وان نادت فلسطين بالارواح يفدوها[22]

والمطالب الوطنية واضحة، أعلنها الشعب الفلسطيني منذ البداية وهي، وقفُ الهجرة الى فلسطين، ومنعُ بيع الأراضي، ولاغنى عن الاستقلال الذي لاكرامة للوطن والشعب بدونه كما يؤكد هذا الشاعر المناضل نوح ابراهيم في خطاب الى الجنرال (دل) القائد العام للجيش البريطاني في فلسطين:

بدنا تفهم بريطانية حتى تكافينا شره
وتصافي الأمة العربية بمنع البيع والهجرة
ان كنت عاوز ياجنرال بالقوة تغير هالحال
لازم تعتقد أكيد طلبك صعب من المحال
لكن خذها بالحكمة واعطينا الثمن (بالحال)
ونفذ شروط الامة من حرية واستقلال[23]

فالشعب الفلسطيني أدرك المؤامرة منذ بدايتها، فحملة شراء الارض بواسطة السماسرة، لصالح الوكالة اليهودية، وجلبُ مزيد من المهاجرين الاوروبيين، يعني إفراغ فلسطين من سكانها العرب، وإحلال مستوطنين أوربيين محلهم. إنها محاولة واضحة لامتلاك الأرض. وهذا نوح ابراهيم يعلن بلسان شعبه:

فلسطين قضيتها زي الشمس مفهومة
الصهيونية اغتصبتها وبدها تعمل حكومة[٢٤]

هذه الكلمات قيلت في الثلاثينات، والجملة التقريرة (الصهيونية اغتصبتها) تشير بوضوح إلى أن الصهيونية قد حققت خلال السنوات القليلة الماضية، مكاسب كبيرة، في ظل الحماية البريطانية، وسيطرت على مساحات الارض العربية، تتيح لها أن تشكل فيها جيشاً توكل إليه مهمة توسيع الدائرة في اغتصاب مزيد من الارض، تمهيداً لاقامة دولة صهيونية.

إنه إذن صراع محتدم بين الشعب صاحب الارض، وبين غزاة حملتهم رياحُ المؤامرة من وراء البحار، وهو صراع على الارض والوجود معاً، ولابد فيه من التضحيات، وهل أغلى من أن يضحي الانسان بدمه كما عبرت عن ذلك الأغنية:

يمه يايمه أوعي تنهمي فدا للوطن ضحيت بدمي
مع القرايب واولاد العم شباب الوطن لاتهتمونه[٢٥]

وهناك كلمات مشابهة قيلت على لسان أحد المناضلين الثلاثة، فؤاد حجازي، ومحمد جمجوم، وعطا الزير الذي أعدموا في سجن عكا عام ١٩٣٠ بعد اشتراكهم في مظاهرات، وأحداث ١٩٢٩ التي عمت فلسطين، بعد محاولة صهيونية للسيطرة على الحرم الشريف في القدس، وقد سعت الادارة البريطانية من وراء هذه الاحكام الى كسر شوكة العرب.

وفي الاغنية يوصي المناضل المتجه الى المشنقة أخاه بالعناية بأمه، كما يوصي أخته بأن تتجاوز أحزانها، لأن دم المناضلين منذور لفلسطين، ولاخير في دم لاينذر لقضية كبرى:

خيي يايوسف وصاتك أمي
أوعي يا أختي بعدي تنهمي
ولأجل الوطن هدرت دمي
كله ع شانك يافلسطينا[٢٦]

منذ البداية أدرك الشعب الفلسطيني خطورة المؤامرة، وأبعادها لذلك وطن نفسه لخوض صراع

طويل، وأن تستطيع الصهيونية نتيجة ظروف دولية وعربية وفلسطينية أن تحقق موطىء قدم لها في فلسطين لايعني أبداً نهاية الصراع، لأن فلسطين ليست بلا شعب، وبالتالي فأي محتل لايجد الهناءة في إقامته، ولابد أن يحزم أمتعته في النهاية:

صهيوني ارحل عنا هذا الوطن وطنا
ما اظن انك تتهنا في أراضي فلسطين[٢٧]

ورغم قومية الصراع التي وعاها الشعب الفلسطيني، وأكدتها الاغنية باستمرار، إلا أن هذا الشعب لم ينتظر (الفزعة) واعتبر الكفاح فرض عين.

انه الصراع الحتمي الذي سكنت فكرته المواطنين الشرفاء كلَّهم. فحين تُسحب الأرض التي تقف عليها من تحت قدميك، وحين تطرد من بيتك، ليسكنه مهاجرٌ من أوروبة جاء فاراً بعد أن تآمر على وطنه هناك، أو حباً بمغامرة تجعله بطلاً، أو سعياً وراء حلم بائد أدخل الى دماغه على أنه حقيقة، وحين تُدمر قريتك بالجرافات لينتصب مكانها صنمٌ لاله لاتعرفه، وحين تصادر أراضيك، وترابك الوطني، وذكرياتك لتصبح مستعمرة لأغراب لايفهمون لغتك، ولاتفهم لغاتهم.. وحين تُحول أغصان زيتونك الى مشانق يعلق بها أبناء حيِّك ليدب الرعب في قلبك، وقلوب أطفالك..

حين يكون الامر كذلك فهو بالتأكيد ليس خلافاً على سلطة، أو حول مصلحة، أو قضية ما، وإنما هو الصراع الأكبر الذي استوعبه عز الدين القسام، الشيخ الذي جمع في شخصه كثيراً من مقومات القائد الثوري، وخاضه بشرف كما خاضه الكثيرون قبله، وبعده، وهم يدركون أن الموت أقرب اليهم من حبل الوريد وفيه، وفيهم يقول تلميذه نوح ابراهيم:

عز الدين ياخسارتك رحت فدا لأمتك
مين بينكر شهامتك ياشهيد فلسطين
أسست عصبة للجهاد حتى تحرر البلاد
غايتها نصر أو استشهاد وجمعت رجال غيورين
ضحيت بروحك ومالك لاجل استقلال بلادك
العدو لما جالك قاومته بعزم متين
ما احلى الموت والجهاد ولاعيشة الاستعباد
جاوب رجال الامجاد نموت وتحيا فلسطين[٢٨]

ورغم الحزن الشديد الذي ألم بالشاعر لاستشهاد معلمه في الكفاح إلا أنه لم يضعف أبداً، بل على العكس ازداد صلابة في مواقفه الوطنية، قاطعاً عهداً على نفسه:

الجسـسم مات والمبـدا حي والـدمـا ماتـصـير مي
منعـاهـد الـله ياخـي نمـوت موتـة عز الـدين

وقد صدق الشاعر المناضل وعده، فلم تمض سنتان على استشهاد القسام حتى لحق به سنة ١٩٣٧ في معركة بطولية في الجليل، وقد مات وهو يحتضن سرّيسة من سرّيس فلسطين، وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره، لتتحد روحه بخضرة هذه الارض الى الابد، الارض التي عشقها الشعب الفلسطيني منذ القدم، ومازال يتحد بها جيلاً بعد جيل.

---

١ - راجع (صلوات وحكايات وأساطير حثية) اعداد: د. ليانا جاكوب روست. تعريب: قاسم طوير.

٢ - فلسطين أرض الرسالات السماوية. تأليف: روجيه غارودي. ترجمة: قصي أتاسي - ميشيل واكيم. ص ٦٧ - ٦٨.

٣ - فلسطين - المصدر نفسه.

٤ - فلسطين - المصدر نفسه.

٥ - انظر (الصليبيون في الشرق) تأليف: ميخائيل زابوروف. ترجمة: الياس شاهين.

٦ - الخيام السود. تأليف: كارل الرضوان. ترجمة: عبد الهادي عبلة. منشورات دار قتيبة. دمشق. الفصل الخامس عشر.

٧ - (الحروبي) ؟و (الحربي): لون من الغناء الجماعي الذي يؤديه الرجال في المسيرات، والرقصات الحماسية، لرفع المعنويات، وهو متعدد الأوزان والالحان.

٨ - القبزة: ذورة التلة. ثريا: اسم امرأة، ومن العادة تسمية الاماكن بأسماء أحداث، أو أناس اشتهروا بشيء ما.

٩ - توفي الشاعر بين عامي ١٩٠٧ - ١٩٠٩ فالعام غير مؤكد بالضبط، وهو من قبيلة بني كلاب، قال فيه الشاعر الشيخ راجح السريع: «أنا نقع وماضي نبع» والنقع: الماء القليل المتسرب الى حفرة. واذا عرفنا أن (راجح) ثر القول ويكاد حديثه ان يكون شعراً، فإننا ندرك بذلك مدى شاعرية ماضي خاصة وأن (راجح) شاعر جاد، وجريء على قول الحقيقة، مهما بدا التواضع في قوله. وهذه القصيدة الوحيدة التي وصلتني من نتاجه، وهي منسقة من عدة روايات أتمها رواية (محمد المبارك) والمعلومات المحيطة بأجواء القصيدة وظروفها كثيرة، ومتواترة.

١٠ - الخلايق: الناس، رقود: نيام. سهاره: ساهره.

١١ - الونة: الانة، الواحدة من الانين، العود الرمح. ضميري: يقصد (صدري).

جايد: بالغ، هنا. المطرق: العصا الطويلة المرنة، والمقصود هنا الرمح. إن أنيني في هذه الليلة تشبه أنين من أصابه رمح نافذ، بلغ أعماق صدره، والاشد من ذلك أنها تتجاوز الجسد الى أعماق الضمير.

١٢ - علي: أحد مرافقين كانا مع الشاعر، وبعض الروايات تقول أنه أخاه. مشكاي: من أشكو إليه، ولا يشكى إلا لأقرب المقربين. هود: أحمال هم تقصم الظهر. شوفة: رؤية. الببور: القطار. وجلان: مهموم، مستنفر: وغاضب، والمعنى: أبوح لك يامن أشكو إليه همي انه أصابني مايصيب الجمل حين تحفر الاحمال الثقيلة لحم ظهره، وهذا كله من رؤية القطار، وهاهو قلبي مستنفر.

١٣ - الحبل: حبل القياس، أو الديكامتر. المهنذر: المهندس.

تولوا: استولوا، الديرة: المنطقة أو البلاد التي يعيش فيها المرء. طوط: بوق، عمدان: أعمدة الهاتف.

١٤ - يم: جهة، المدود: التقدم، الصيوان: خيمة مستديرة.

١٥ - حس: صوت، يشدا: يشبه، وفي اللسان: (شدوتُ الرجلة فلاناً: شبهته إياه) قض الرعد: صوته العنيف. بوجوههم: أمامهم. راح: صار.

١٦ - نامسة: النمسا.

١٧ - لم أعثر على الشطر الاول، يبترم: يفتل، أو يلتف بسرعة وخبث تقل: مثل.

١٨ - تحذروا: احذروا. صاير: بمعنى سيصير. الحكم: يعني السيطرة السياسة. تاري: كلمة شائعة تقال أحيانا (ترى) أو (تري) وجميعها بمعنى (يُرى أن) !و (نرى أن). خان: في رواية ثانية (فان) وتعني: تردّي، ومعنى البيت: احذروا أيها الناس، فالزمن يتردى، وهو غادر لاشك، وهما هي النذر بهجمة غريبة، ستحكم اليهود على هذه المنطقة.

١٩ - واويل: إضافة من قبلي لسد الثغرة، الحصيني الثعلب. ويوان: جمع واوٍ، أحد بنات آوى، والتعبير مجازى.

* من المنطقي ألا نطالب الشاعر الشعبي التفريق بين اليهودية كدين، وبين الصهيونية كحركة استطيانية توسعية في تلك المرحلة.

٢٠ - صور من الادب الشعبي الفلسطيني توفيق زياد ص٤٢.

* المدفع.

٢١ - المصدر نفسه ص٥١ ونوح شاعر من شركس الجولان في سورية.

٢٢ - المصدر نفسه ص٥٢

٢٣ - المصدر نفسه ص٤١

٢٤ - المصدر نفسه ص٥٠.

٢٥ - مجلة «عالم الفكر» مقالة «الاغاني الشعبية المناضلة» لعبد اللطيف البرغوثي العدد الثاني ١٩٨٧ ص٢٤٥.

٢٦ - ديوان الشعر الشعبي - نمر سرحان ص٩٠.

٢٧ - عالم الفكر - مصدر سابق - ص٢٤٧.

٢٨ - صور من الادب الشعبي - مصدر سابق - ص٣٩ - ٤٠

«المقاومة» في الحركة الفنية في سورية

ملاحم الثورة والشهادة في أعمال خالدة

«الفدائي» بين التصوير «الواقعي» و«الاسطوري»

خليل صفية*



«سأقاوم» للفنان نذير نبعة

يكشف تاريخ الحركة الفنية في سورية عن حقيقة مفادها، ان الفنان العربي السوري كان من أوائل الفنانين العرب الذين عبروا عن نكبة فلسطين، فثمة لوحات أنجزها الفنانون الرواد من وحي النكبة مابين عامي ١٩٤٨م - ١٩٥٠م، نذكر منهم «أدهم اسماعيل - صبحي شعيب - سعيد تحسين - محمود حماد - ميشيل كرشه.. وغيرهم».. ومع انطلاقة الثورة الفلسطينية «كانون الثاني ١٩٦٥م» أعطى الفنان العربي السوري التعبير عن الثورة أهمية خاصة.

ومنهم من وجد فيها المخلص «الاسطوري» والمقاتل «الخارق» وخاصة بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧م، وحين نحاول أن نؤرخ لما ظهر من انتاج فني حول الثورة فسنجد أن هذا الانتاج قد توزع على عدة جوانب جمالية «تسجيلية» و«واقعية» و«تعبيرية» و«سيريالية» و«رمزية».. وينسحب هذا التنوع على

* ناقد في الفن التشكيلي من فلسطين.

المحتوى.. من تصوير المقاتل بواقعية طبيعية، أي تصوير المقاتل كإنسان يجوع ويعطش.. يأكل ويحب ويفرح ويحزن.. يجرح ويستشهد، الى تصوير المقاتل كإنسان اسطوري - تماماً كما في الخيال الشعبي ونسيجه حول «عنترة» و «الهلالي» مروراً بتصوير ماهو قدسي «المقاتل كقديس» وعلى صعيد آخر توزعت اهتمامات الفنانين من تصوير عدة لوحات الى اقامة معرض فردي خاص أو جماعي الى الاستمرارية في الانجاز.. في التعبير، منذ انطلاقة الثورة الى الآن، كما في تجارب «نذير نبعة - برهان كركوتلي - خزيمة علواني - فاتح المدرس.. وغيرهم»، لذلك كله قام اتحاد التشكيليين الفلسطينيين بتكريم من استمر في التعبير من خلال تنسيبه للاتحاد كعضو شرف.

وفي بحثنا عن المقاومة في الحركة التشكيلية في سورية لن نحيط بكل ماظهر من انتاج، لكننا سنتناول مانراه متميزاً، وسنبحث في التجارب المتنوعة في المضامين والجماليات والرؤية، وهنا تحضرنا تجارب تمثل مختلف الأجيال والاتجاهات الفنية، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر انجازات: «برهان كركوتلي - نذير نبعة - نعيم اسماعيل - خزيمة علواني - الياس زيات - لؤي كيالي - ممدوح قشلان - فاتح المدرس - مروان قصاب باشي - أحمد الأحمد - محمود جلال - ليلى نصير - عبد القادر ارناؤوط - أحمد دراق السباعي - نشأت رعدون - عيد يعقوبي - غسان السباعي - عبد المنان شما - غازي الخالدي - جريس رحمة - نعيم شلش - جورج جنورة - جريس سعد - نذير اسماعيل - خليل عكاري - أنور دياب - عبد الرحمن الموقت - عبد الرحمن مهنا.. وغيرهم»

ويمكن أن نقف أولاً عند تجربة رائدة ومتميزة للفنان نذير نبعة الذي شارك في المعرض الاول للكرامة وكان من أوائل الفنانين الذين أقاموا معرضاً فردياً خاصاً يعبر عن الثورة، واستمر في تعبيره وصولاً الى تصويره لشهداء الثورة، وفي معرضه الخاص الذي رعته وزارة الثقافة جاء في كلمة الوزارة: «هذا المعرض ميثاق يضعه المناضلون الفدائيون لتحرير الأرض العربية من رجس الصهاينة الآثمين.. هو ميثاق لك أيها العربي وميثاق منك، فأنت حيثما كنت شريك في النضال حتى النصر» وقدم «نذير» معرضه في كلمة معبرة ومختصرة الى صديقه المقاتل الفلسطيني «مازن» الذي استشهد في عملية بطولية: لم يمت صديقي «مازن».. لم يمت.. فالعيون التي تحدق دائماً في الشمس، لايمكن أن تموت.. سقط «الخضر»،، سقط «مارجرجس» ولكنه لم يمت.. سيشق قلب الليل يوماً، ويعود مثل فجر ابلج»، ولاجديد اذا قلنا ان المعرض مثل أول صيغة تعبرية متطورة وبعيداً عن المظاهر التسجيلية، رغم اعتماد الفنان لعناصر الموضوع الواقعية.. وكان «الخط» الرسم هو اللغة الوحيدة للتعبير عن وهج العواطف وشدة الانفعالات، وأخذت عناصره الواقعية بعداً جديداً حين وظفها توظيفاً تعبيرياً ورمزياً وخاصة «المقاتل والمرأة وأشجار البرتقال والزيتون والمنازل الشعبية والطيور.. والادوات المستخدمة في الحياة اليومية، ووصل في مراحله التالية الى صيغة واقعية شاعرية فيها ماهو قدسي، وخاصة لوحاته حول شهداء الثورة. ومن أبرزها «ثلاثية الشهيد» التي نرى فيها تعبيراً متميزاً لشهداء فلسطين ولشهداء الأمة العربية.

وأخذت التعبيرية مداها في تصوري المقاومة كشكل ومحتوى في تجربة الفنان فاتح المدرس الذي قال: «بعد نكسة حزيران كنت أرسم وجوهاً لاتعرف الابتسامة وكنت حزيناً، وفي بعض الحالات الانفعالية



«لن ننساك ياشهيد» للفنان برهان كركوتلي



«مقاومة» للفنان بسام صباغ

كنت أرغب أن أذهب وحدي وادمر مااستطيع من هذا السرطان «الكيان الاسرائيلي» وكنت لااشعر بالفرح او الكبرياء القومي الا عندما أرى وأسمع مايقوم به الفدائيون الفلسطينيون العرب من بطولات رائعة وتميزت تجربته في تصوير الفدائي في شكل جديد بحيث تحول الى جزء من أرضه التي يقاتل من أجلها ويضحي ويواجه ويستشهد في سبيل تحريرها. وهكذا قدم لنا صورة جديدة اسطورية «غير مألوفة» لكنها عكست مضموناً واقعياً.

واستخدم الفنان برهان كركوتلي «أقام عدة معارض فردية عن الثورة الفلسطينية داخل سورية وخارجها» الجماليات الفولكورية الى جانب عناصر الموضوع «المقاتل - البندقية - أشجار البرتقال - المدن الفلسطينية» وصولاً الى توظيف «المرأة» توظيفاً يرمز للثورة، وعبر عن الشهادة في أعمال متميزة، وهنا نذكر لوحاته «الثورة الفلسطينية - مقاومة - فدائي - لن ننساك ياشهيد - فدائيون - عائد الى فلسطين. وغيرها» وهو الذي قال عن الفدائي: «بدون هذا الفدائي أشعر كرسام بالعزلة والاختناق ويفقد الفن وجهه وجماله وفرحه.. ان الفدائي هو أخي.. وبندقيته تفجر للفن كل الكنوز الحضارية والتراثية والانسانية التي بدونها يصبح الفن شجرة يابسة.. وانتصار الثورة الفلسطينية هو المفجر لاشعاع الانبعاث الحضاري والثقافي العربي الجديد». وصور «الياس زيات» وجهي الواقع. الألم والأمل مستخدماً الرمز ضمن عالم تعبيري شاعري قدسي فيه الكثير من روحانية الأيقونة لاتقنيتها، ففي لوحة «انطلاقة» اعتمد على أقل عدد ممكن من العناصر التعبرية، ورمز بالفتاة الى الثورة.. وفي لوحة «مدينة الشمس» صور مأساة القدس تحت الاحتلال وصور الطيور العائدة المقاتلة - إن جاز لنا التعبير - كرمز للثورة وكذلك الحصان الذي استخدمه في لوحات أخرى كرمز وحتمية العودة وهذا ما أكده في لقاء لنا معه: «أنا أرسم الانسان الذي يحمل غصن الزيتون والحصان العربي الذي يقفز الى المستقبل أو الطائر الذي يطير الى أرض الزيتون «العودة» الى فلسطين.. الحصان والطائر لكن بأسلوب آخر في لوحاتي هما رمز للثورة الفلسطينية وللعودة». ونرى الحصان كرمز للثورة لكن بأسلوب آخر «رمزي» في تجربة الفنان خزيمة علواني الذي صور في البداية المقاتل الفلسطيني على حصانه العربي ثم صور المرأة كرمز للثورة، وأخيراً استخدم الحصان كعنصر أساسي ووحيد للتعبير عن الثورة. وهكذا جرد عناصره من لهجتها المحلية لكن لامن واقعيتها. وبذلك وصل الى رؤية شمولية متميزة، وحول هذه المسألة قال لنا: «في تجربتي أحاول أن أكون شمولياً، بحيث تصلح لوحاتي للتعبير عن الثورة الفلسطينية والثورة العربية ضد الصهيونية والامبريالية والاستعمار والتخلف، وبالتالي تمس هذه اللوحات كل حركات التحرر في العالم. ومنذ عودتي من ايطاليا الى الآن تجد ان كل ماأنجزه يعبر عن القضية. في البداية كنت أرسم الثائر الفلسطيني والعناصر الفلسطينية المتميزة، ثم أصبح الحصان رمزاً للثورة، والحصان كعنصر رمزي وتعبيري وجمالي يتجاوب مع أحاسيسي وانفعالاتي.»

وتألق الفنان الرائد النحات والمصور محمود جلال في منحوتاته حول القضية الفلسطينية مستخدماً عدة أساليب للتعبير، ففي تمثال «فدائي» الذي يمثل شكلاً سيريالياً رمزياً دمج الفدائي بالقنبلة، أولنقل ربط صلابة الحديد بصلابة المقاتل في توحده بالأرض والوطن.. وكان من أوائل الفنانين الذين وجدوا في الوحدة العربية طريقاً يقود الى التحرير كما في تمثال «الاتحاد» الذي يعكس حقيقة مفادها ان قوة القوى والجماهير

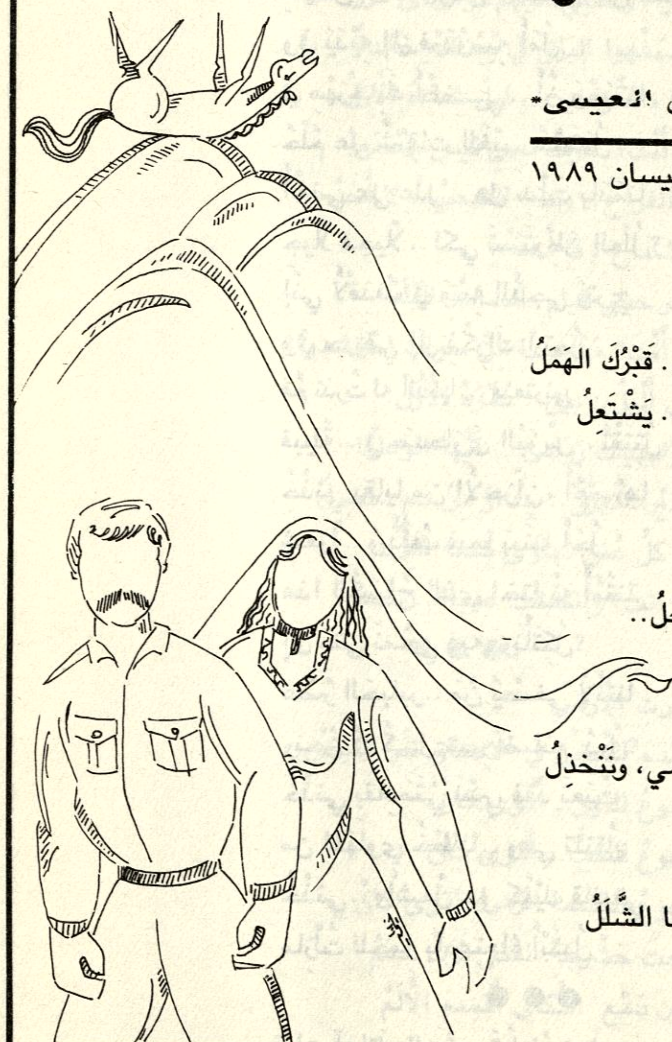
العربية تكمن في وحدتها. أما الفنان ممدوح قشلان فاتجه الى التحليل الهندسي الذي وجد فيه بعضهم شكلاً من أشكاله التكعيبية، وشكلاً من أشكال البحث عن مادية الأشياء وجوهرها. إلا أن التبسيط الهندسي في تجربته كان ومازال يرتبط بالانفعالات والعواطف، بمعنى أننا أمام صيغة تعبيرية تعتمد على التحليل الهندسي وأحياناً العضوي كشكل من أشكال التحرير والتبسيط الذي يقود الى تعبيرية خاصة، وهذا مانجده في لوحاته حول الثورة الفلسطينية والشهداء والانتفاضة ومختلف الموضوعات الفلسطينية، ويعتبر الفنان عبد القادر ارناؤوط رائداً من رواد الملصق السياسي في الحركة الفنية. رائداً كرس العديد من ملصقاته للتعبير عن جمالية الثورة ونازية الغزاة المحتلين الصهاينة الذين ارتبطوا في مصلقاته بالامبريالية الامركية والنازية وعبر رموز تصل الى الناس في هذا العالم وعلى اختلاف ثقافاتهم. وعبر «البورتريه» وجدت الفنانة ليلى نصير متنفساً للتعبير عن بطولات المقاتل وأساطيره المعاصرة وعن الشهداء الذين وهبوا في استشهادهم الحياة للآخرين، وكانت ملصقات شهداء الثورة مصدراً هاماً من مصادرها التعبيرية، ولم تترك تقنية إلا واستخدمتها لخدمة محتواها وخصوصيتها التعبيرية والجمالية. وأفاد الفنان جورج جنورة من الأيقونة للتعبير عنوالثورة وربطها بالتراث مؤكداً على ماهو قدسي وروحاني ووصل الى مرحلة تميزت باللوحة الملحمة التي تجمع بين عدة مشاهد في عمل واحد عدة حالات انسانية تكشف اخيراً عن عالم قدسي يربط الواقع بالاحداث المماثلة تاريخيا وبالصراع من جانبه الواسع، وهكذا حقق تميزه عبر خصوصية استخدامه الرموز التراثية والمعاصرة في آن واحد وهكذا نكتشف مدى ارتباط الفنان العربي السوري بالقضية الفلسطينية وتعبيره عن الثورة وعبر مختلف التقنيات الفنية والاتجاهات الجمالية، مما يؤكد لنا اخيرا الوعي القومي والانساني الذي يتمتع به ويعكسه في انجاز جمالي متميز.

شعر

انفض رمادك وانهض!

سليمان العيسى*

في مهرجان الزبيري.. نيسان ١٩٨٩



انفضْ رَمادَكَ وانْهَضْ.. قَبْرُكَ الهَمَلُ
يَرْمي على جانِبَيْهِ المَوْتَ.. يَشْتَعِلُ
أتْلوكَ لَحْناً..
فيخضَرُّ العَذابُ عَلَى
فَمي..
وأهْمِسُ: في انشودتي رَجُلُ..
هذا «جحيمُك»(١)
مازلْنَ نُصارعُهُ
نَمْشي على الحَسَكِ الدَّامي، ونَنْخذِلُ
نَقومُ. نَسْقُطُ،
نَسْتَجدي مَصارعَنا
وَمْضاً، ويُزْهِرُ في أقْدامِنا الشَّلَلُ
أنْفُضْ رَمادَكَ..

* شاعر عربي معروف من القطر العربي السوري.

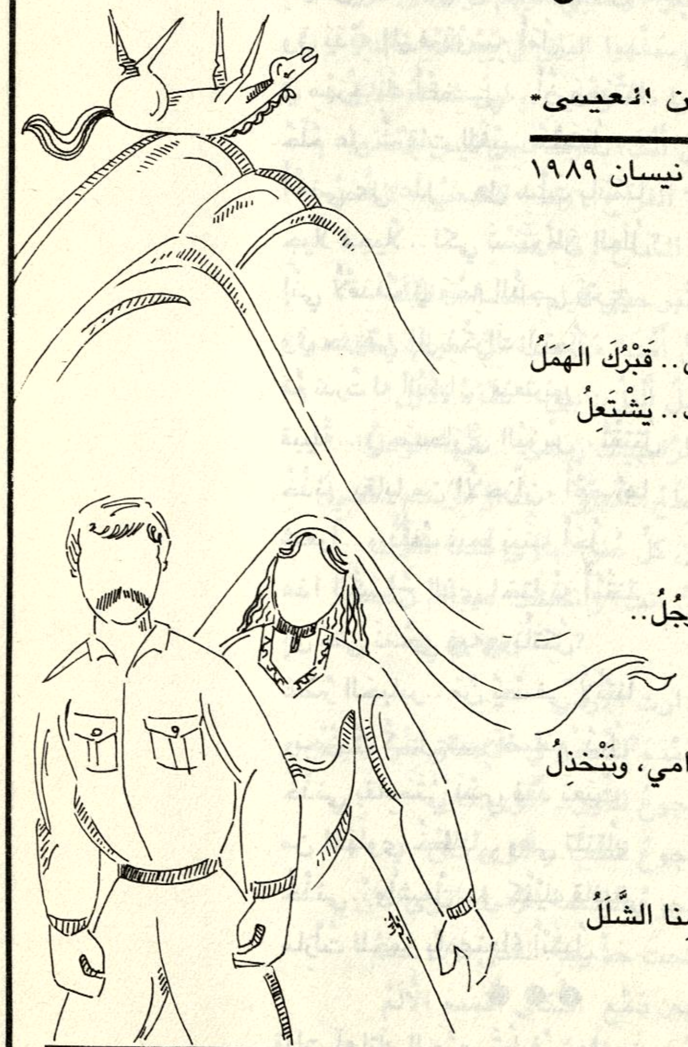
العربية تكمن في وحدتها. أما الفنان ممدوح قشلان فاتجه الى التحليل الهندسي الذي وجد فيه بعضهم شكلاً من أشكاله التكعيبية، وشكلاً من أشكال البحث عن مادية الأشياء وجوهرها. إلا أن التبسيط الهندسي في تجربته كان ومازال يرتبط بالانفعالات والعواطف، بمعنى أننا أمام صيغة تعبيرية تعتمد على التحليل الهندسي وأحياناً العضوي كشكل من أشكال التحرير والتبسيط الذي يقود الى تعبيرية خاصة، وهذا مانجده في لوحاته حول الثورة الفلسطينية والشهداء والانتفاضة ومختلف الموضوعات الفلسطينية، ويعتبر الفنان عبد القادر ارناؤوط رائداً من رواد الملصق السياسي في الحركة الفنية. رائداً كرس العديد من ملصقاته للتعبير عن جمالية الثورة ونازية الغزاة المحتلين الصهاينة الذين ارتبطوا في مصلقاته بالامبريالية الامركية والنازية وعبر رموز تصل الى الناس في هذا العالم وعلى اختلاف ثقافاتهم. وعبر «البورتريه» وجدت الفنانة ليلى نصير متنفساً للتعبير عن بطولات المقاتل وأساطيره المعاصرة وعن الشهداء الذين وهبوا في استشهادهم الحياة للآخرين، وكانت ملصقات شهداء الثورة مصدراً هاماً من مصادرها التعبيرية، ولم تترك تقنية إلا واستخدمتها لخدمة محتواها وخصوصيتها التعبيرية والجمالية. وأفاد الفنان جورج جنورة من الأيقونة للتعبير عنوالثورة وربطها بالتراث مؤكداً على ماهو قدسي وروحاني ووصل الى مرحلة تميزت باللوحة الملحمة التي تجمع بين عدة مشاهد في عمل واحد عدة حالات انسانية تكشف اخيراً عن عالم قدسي يربط الواقع بالاحداث المماثلة تاريخيا وبالصراع من جانبه الواسع، وهكذا حقق تميزه عبر خصوصية استخدامه الرموز التراثية والمعاصرة في آن واحد وهكذا نكتشف مدى ارتباط الفنان العربي السوري بالقضية الفلسطينية وتعبيره عن الثورة وعبر مختلف التقنيات الفنية والاتجاهات الجمالية، مما يؤكد لنا اخيرا الوعي القومي والانساني الذي يتمتع به ويعكسه في انجاز جمالي متميز.

شعر

انفض رمادك وانهض!

سليمان العيسى*

في مهرجان الزبيري.. نيسان ١٩٨٩



انفضْ رَمادَكَ وانْهَضْ.. قَبْرُكَ الهَمَلُ
يَرْمي على جانِبَيْهِ المَوْتَ.. يَشْتَعِلُ
أَتْلوكَ لَحْناً..
فيخضَرُّ العَذابُ عَلَى
فَمي..
وأَهْمِسُ: في انشودتي رَجُلُ..
هذا «جحيمُك»(١)
مازِلْنَ نُصارِعُهُ
نَمْشي على الحَسَكِ الدَّامي، ونَنْخذِلُ
نَقُومُ. نَسْقُطُ،
نَسْتَجدي مَصَارِعَنا
وَمْضاً، ويُزْهِرُ في أَقْدامِنا الشَّلَلُ
أنْفُضْ رَمادَكَ..

* شاعر عربي معروف من القطر العربي السوري.

مازلْنا على عَطَشٍ
للضَّوْء.. تَخفى لَيالينا وتنتعلُ..
نَهْرُها.. تتحدَّانا فَواجِعُها
لادَمْعَةٌ نَقَعَتْ غُلاًّ، ولا طَلَلُ

●●●

اِنْهَضْ.. ابا الوَطَنِ المسلولِ من سَقَرٍ
وفي يَدَيْهِ إلى فِرْدَوْسِهِ أَمَلُ
في مِهْرَجانِكَ أَغْضـي.. أَنَّ وَحْدَتَنا
حُلْمٌ على شُرُفاتِ الغَيْبِ مُحْتَمَلُ
أُغْضي على عِلَلي.. هل سُلِّتْ يادَمَنا
جيلاً فجيلاً.. لكي تَسْتَوطِنَ العِلَلُ؟
إنّي لأقْذِفُ في وَجْهِ الدُّجى وَتري
وفي حريقي إلى ذِكْراكَ أرتحِلُ
هَمٌّ نذرتُ له الدُّنيا... فبعثرني...
قبيلةً.. في صَحارَى البُؤس ، تَقْتَتِلُ
خُذْني بقايا من الأحزان، أَعْصِرُها
شِعراً.. وَيدْلُفُ فيما بَيْنَنا أَجَلُ
هذا الكُساحُ الذي اختارتْه أُمَّتُنا
إلى مَتى نَمَحّي فيه، ونأْتكِلُ؟
عَصْرُ الجَبابر.. مَنْ يُصْغي لأَنَّتنا
ونحنُ في كُـل شبرٍ ضائعٍ دُوَلُ؟
خُذْني بقادِمَتَيْ نَسْرٍ، فقد تَعِبَتْ
من المَهاوي خُطانا.. وهي تنتقلُ
خُذْني.. وأشعِلْ على كفَّيْكَ قافيتي
مازِلْتُ للجمرِ ياصنعاءُ أَبْتَهلُ

●●●

قرأتُ آهاتَكَ الحرَّى تَطُوفُ بها
على تُخُومِ الدُّنَى، تَعْيا بكَ السُّبُلُ

ولم يُدَحْرِجْكَ لاجوعٌ ولا ظَمأُ..
فكم سقى الأرضَ من أوجاعِهِ بَطَلُ
أَمامَكَ اليَمَنُ الدَّاجي وثورتُه
وفوقَ عُنْقِكَ سَيْفٌ سَلَّهُ «هُبَلُ»
يَهْوي رِفاقُكَ فوقَ النِّطْعِ ، تَرسُمُهُم
شعراً، وتمضي اليهم، والرَّدى غَزَلُ
كَمْ سَفَّهوا البَرْقَ في يُمْناكَ: خالدةٌ
دنيا «الطَّواغيتِ»، ليلٌ شاءَهُ الأزَلُ
مَنْ أَنْتَ؟ عازفُ لحنٍ ليس يَسْمَعهُ
إلاَّ الفراغُ.. وهذا الشعبُ.. لا أَحَدُ
في الساحِ ، لا أَحَدُ..
لِلْقَبرِ حتى قيامِ الساعةِ البَلَدُ
مَنْ أَنْتَ؟ مَنْ حفنة مِنْ حولكَ احْتَشَدوا؟
الليلُ أَلْيَلُ.. باقٍ.. عُمْرُهُ الأَزَلُ!
والرَّاسياتُ رَواسٍ .. أَيُّها الوَعِلُ!
اِنْطَحْ.. تَمزَّقْ.. جدارٌ مِنْ دَمٍ خَضِلُ
من كلِّ عُنقٍ تهاوى تحته ثَمِلُ
مَنْ أنتَ؟ وانطبقت عمياءُ.. تتّصل

●●●

وَدارتِ الأرضْ
ودَمْدَمَ النَّبضُ في الأعماقِ تلْوَ النَّبضْ
الجوعُ للنور.. أقوى كانْ
الجوعُ للحُبِّ.. أقوى كانْ
الجوعُ للبَسمةِ الزهراء أقوى كانْ
وتحتَ حَشْرَجَةِ القَتْلى ثَوَتْ حُمَمٌ
وبينَ دَمْعِ الثَّكالى أقسَمَ الأَلَمُ
أَنْ ليسَ يَهْزِمُ..
عنيدةً كانتِ الأحْلامْ

مُخيفةً.. كانتِ الأنغامْ
دَمُ الثلايا.. نشيدُ الزَّحْف والعَلَمْ
دَمُ الذين تَحدَّوْا.. والسلاحُ فَمْ
يقولُ شعراً.. يُغنّي.. يركعُ العَدَمْ
على قَصائده.. تستيقظ الرِّمَمْ
ياموشكيُّ.. أراكَ الآنْ
ياحمد الحورش[٢].. انظُرني.. أراكَ الآنْ
ياكُلَّ مَنْ نَزلوا بالجُثَّةِ المَيْدانْ!
ويَنْبتونَ برامَ الله، في بيسانْ
المِهْرَجانُ لَكُمْ.. والأُغْنِياتُ لَكُمْ..
وبابُ صَنْعاءَ مفتوح لِمَنْ رَحلوا
لابُدَّ منهُ.. ودَقَّ الأرْضَ راجلكُمْ
لابُدَّ منها.. تَساوَى الصابُ والعَسَلُ
تَساوَتِ الكأسُ والساقي.. سنشرَبُها
هذي المنايا.. تساوَى العَلُّ والنَّهَلُ
كانَتْ قيامةُ هذا «الميْت» مُعجزةً
كانَتْ حكايتنا بالدمِّ تَغْتَسلُ
كانَتْ...
وأَشْرَقَ بالنَّجوى.. سَنُكْمِلُها
هذي الطريق.. ولم أسْأَلْ: متى نَصلُ؟
دَمُ الزُّبيريِّ لم يَسألْ: مَتى نَصلُ؟

●●●

ياأنْت، يا «جِفْنَةَ الفخَّار»[٣]، كَمْ حُطِمَتْ
على يدَيْك صُخُورٌ. وانْطوَى جبلُ!
ولم يَكُنْ جَبلاً..
لكنَّهُ «وَثَنٌ»
ألقي به اليَمَنُ
في قعر هاويةٍ..

واستَيقظَ الزَّمَنُ
وانْداحَ صَوْتُ أبي الأحرار في غَدِهِ
وهَبَّ شَعْبٌ على أصْداءِ مُنْشِدِهِ
يَقُولُ: إنّي هنا..
في قَبْضتي كَفَنُ
مُمَزَّقاً.. وبأخْرى طابعاً وَطَنُ
يَبْني.. ويهْدِمُ حُراً.. إسْمُهُ اليَمَنُ
أنْظره ياشاعري.. باركَهُ يَشْتَعِلُ
بارِكْهُ.. يُزْهِرُ في أقدامِهِ الشَّلَلُ

●●●

أبا صَلاة نعيم.. او صَلاةِ جحيمْ!
آتيكَ.. يذبحني عِشْقُ حَملْتُ.. قديمْ
طالَ المخاضُ، أبا الأحرار، خَلَّفَنا
على الرِّمال «بُراقُ العَصْرْ»
إلى متى تَمْضَغُ الأغلالَ أجْيالُ؟
ويحمِلُ العِبءَ، كُلَّ العِبءِ، أطْفالُ.
يُلقُونَ بالحجَرِ..
يُزَحْزِحُونَ جبالَ العار بالحَجَرِ
إلى مَتى؟ ياجَناحَ النَّسرْ!
أحْرَقْتُ مِثْلَكَ ضَوْءَ العُمرْ
لم يُجْدِني الشِّعْرُ، إنْ أجدَى لديكَ الشعرْ
أهيمُ وَحْدي.. على الصَّحراء
والحبُّ زادي، وأنتِ الدَّربُ ياصنعاءْ
أمْشي.. وأبْحَثُ عن بَرقٍ بليلِ القهرْ
والعمرُ.. ياحَسْكَ الأيَّامِ.. آهِ العُمرْ
لم يبتدِىءْ.. ماتَ.. لم يُولَدْ..
ضَبابُ مُرّ..
أشُدُّ عينيَّ فيه..

تَنطَفي الشُّعَلُ
يَأْساً.. ويُوقدها ياشاعري رَجُلُ..
يَموتُ مِثْلَكَ.. مِفْتاحُ الضُّحى رَجُلُ

صنعاء ـ نيسان ١٩٨٩

---

(١) اشارة الى ديوان الزبيري: «صلاة في الجحيم».

(٢) الثلايا والموشكي والحورش من اوائل شهداء الحرية في اليمن.

(٣) الجفنة: وعاء من الفخار.. وكانوا يرددون في عهود الظلام البائد «هل تستطيع الجفنةُ أن تكسر الجبل»
والعبارة من كتاب «الزبيري ضمير اليمن الثقافي والوطني» للدكتور عبد العزيز المقالح.

شعر

مدينة الرماد

علي سليمان*

- ١ -

أنامُ على حُلُمٍ من رَمادْ
وأَصحو على حُلُمٍ
من حَجَرْ،
وَتَقْتادُني الطُرُقاتُ، الى حُلُم يابسٍ
في حقول المَطَرْ.
أَنامُ وأَصْحو،
فَلا الصَحْوُ، يُخْرِجني من سُباتِ
الدروبْ
ومَنْ شَلل الريح والضوءِ
والاتجاهْ،
ولا النومُ، يُطفىءُ ذاكرتي
وَيوقفُ، نَزْفَ مُخيِّلتي
وَيُخرجني من مَتاهةِ صَحوي،
ولا الحلمُ، يَنْقلني من جحيمي
وَيَفْصلُني عَن رَمادي
ويُبعدَ جِذْعي عن هوّةِ
الذكرياتْ
أنامُ وأَصْحو وأَحْلَمُ
خارجَ نَوْمي
وخارجَ صَحْوي
وخارجَ حلمي
أَبحثُ عن مَوضعي
في رَماد المكانْ،

---

* شاعر وكاتب له عدة مجموعات شعرية ودراسات ثقافية وسياسية.

تَنطَفي الشُّعَلُ
يَأْساً.. ويُوقدها ياشاعري رَجُلُ..
يَموتُ مِثْلَكَ.. مِفْتاحُ الضُّحى رَجُلُ

صنعاء ـ نيسان ١٩٨٩

---

(١) اشارة الى ديوان الزبيري: «صلاة في الجحيم».

(٢) الثلايا والموشكي والحورش من اوائل شهداء الحرية في اليمن.

(٣) الجفنة: وعاء من الفخار. وكانوا يرددون في عهود الظلام البائد «هل تستطيع الجفنةُ أن تكسر الجبل»
والعبارة من كتاب «الزبيري ضمير اليمن الثقافي والوطني» للدكتور عبد العزيز المقالح.

شعر

مدينة الرماد

علي سليمان*

- ١ -

أَنامُ على حُلُمٍ من رَمادْ
وأَصحو على حُلُمٍ
من حَجَرْ،
وَتَقْتادُني الطُرُقاتُ، الى حُلُم يابسٍ
في حقول المَطَرْ.
أَنامُ وأَصْحو،
فَلا الصَحْوُ، يُخْرجني من سُباتِ
الدروبْ
ومَنْ شَلل الريح والضوءِ
والاتجاهْ،
ولا النومُ، يُطفىءُ ذاكرتي
وَيوقفُ، نَزْفَ مُخيّلتي
وَيُخرجني من مَتاهةِ صَحوي،
ولا الحلمُ، يَنْقلني من جحيمي
وَيَفْصلُني عَن رَمادي
ويُبعدَ جَذْعي عن هوّةِ
الذكرياتْ
أنامُ وأَصْحو وأَحْلَمُ
خارجَ نَوْمي
وخارجَ صَحْوي
وخارجَ حلمي
أبحثُ عن مَوضعي
في رَماد المكانْ،

شاعر وكاتب له عدة مجموعات شعرية ودراسات ثقافية وسياسية.

أُمسك في زَمَنٍ،
هَرَبَتْ مِنْهُ أبعادُه
فأسقطُ منْطفئاً
في أحتراقِ المكانْ
وأسقط مشتعلاً
في أنطفاءِ الزَمان..!
واقف في مَتاهةِ صَحْوِيَ
فوقَ حبّةِ حُلمي
وَحبّةِ دَرْبي
وَجُنةِ أغنتي
أتَنفّسُ صَمْتي
وأحسو اشتعالي
أُسند عُريي على شَجَر
النار
وَصَمتي على هوّةِ الخوف
آوي الى جَبَلٍ
أغْرَقَتْه سُيولُ الرمادْ
فآنسَ في عتمةِ الصَمْتِ
ضوءاً كذوباً
وأفقاً كذوبْ
واقفٌ في ظِلال الرمادْ
أحتمي باحتراقي
أرقبُ كيفَ نغادرُ داخِلنا وأوْجُهنا
وأحلامنا
كيفَ تُقامُ المتاريسُ مابينَنَا
وبينَ هواجسِنا
كيفَ نُخْفي حرائقَنا برمادِ الأجنة والنبت
والصُبحِ.

كيفَ بالموتْ، نخفي بقايا
الرماد.
في خراب العروق
وبينَ بقايا الرمادْ.
أبحثُ عن حُلُم لم يَصِلْه التلوثُ
عن بذرةٍ، لم يسدَّ رمادُ
الخَراب تنفُسها
وعن أوَجه لم يُذِبْها
«أسيدُ» الرِّياءِ،
وَعَنْ شفةٍ لم تَعُدْ مشجباً
وعن قَلَم لم يعُدْ
مَصْيَدة..
في رَماد الغُصون
وبينَ رُكام الخرائبِ
أبْحثُ عن غَضَبٍ
وَعَنْ لهْفةٍ
وعَنْ نأمة.!
أبحثُ عَنْ قَلَم لايَبيعُكَ
للمخبرينَ
وعن صاحبٍ لم يُبللهُ روثُ
المطامعِ
عن مَلْجأ في خَرابِ المشاعرِ
عن خربةٍ
في رَماد الخَرابْ..
في انغلاق المدى،
وفي شَلَل الريحِ والاتجاهِ..
أرفعُ حُلمي وذاكرتي
في رَماد الجهاتْ

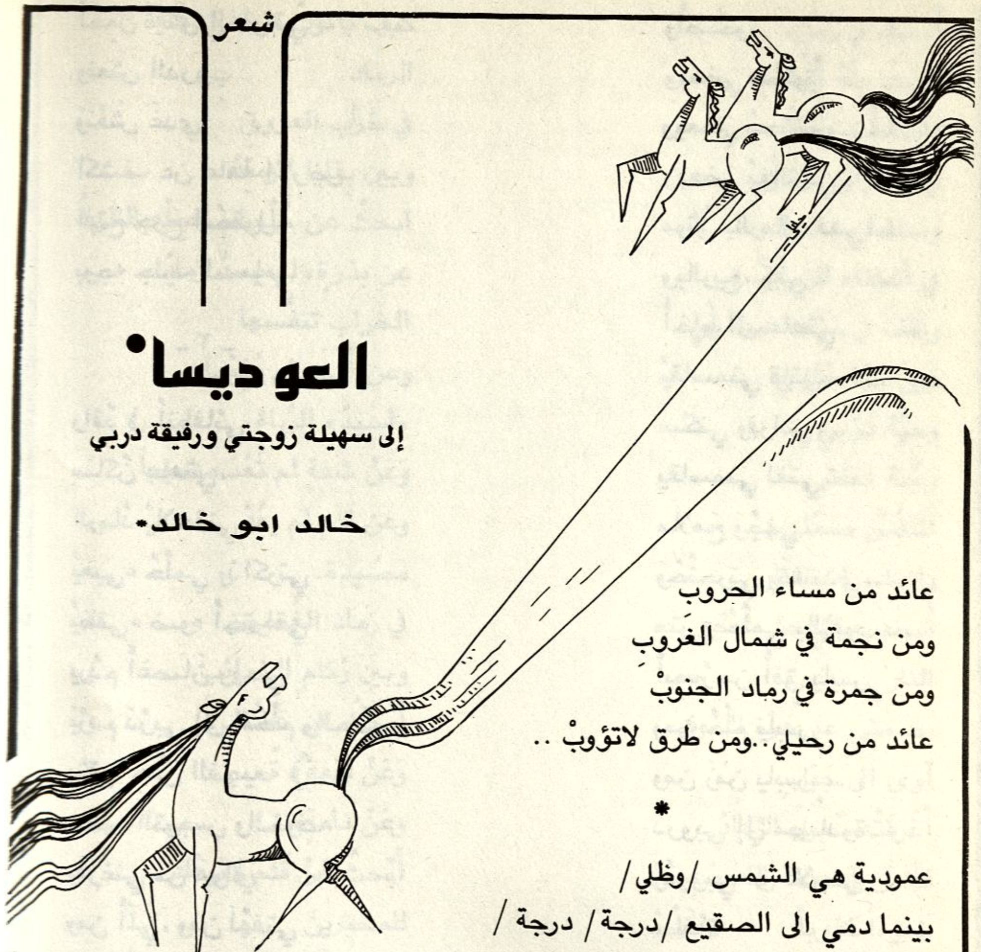
أحْمل نَعْشَ السواقي
ونعشَ الدروبِ
وَنَعْشَ غدي
أكشف عن عاهةِ الأرضِ
أفتح جرحَ الحُقولِ
بوجه جليد السماء..

_ ٢ _

راقدٌ في أنطفائي
ساكنٌ عاهتي،
الرمادُ يُلاحقني
يُعبىء حُلْمي وذاكرتي
يُطفىء ضوء أحتراقي
يردُم أغصانَ روحي
يَرْدمُ دَرْبي إلى الحُلْم والحبِّ
يثقب حِسَّ الفجيعةْ فيَّ
وحسَّ التوجس والخوف،
يفرغني من هَواي
ومن ألَمي، ومن لَهْفتي
ومنْ شَهواتي..
وَيُغْرقني في انكسارِ
غُصوني
وفي قاعِ مَوتي..!
موثقٌ بأنطفاءِ الجهاتِ
أتدثرُ صَمتي
أمشي على جُثّتي
أقتاتُ من عاهتي
أسالم قَيدي

وأَصْحو،
وبعضيَ محترقٌ
وبعضيَ مُحتضر
وبعضيَ يُغادرني..
موثقٌ بالرمالِ فمي،
وبالريح، كَفّي
أخاطُ الى عاهتي
يُقاسمني قاتلي
سكني وفراشي،
يقاسمني لغتي،
ملامحَ وَجْهي
وَحُنُجرتي وَنَشيدي..!
مترع حُلْمي بالثقوب
أبصرُ من أفقٍ يابسٍ
ومن حُلُم يابسٍ
ومن زَمَنٍ يابسٍ..
دُروبي إليَّ مصادرة
وَدُروبي الى الأرضِ
مُطْفَأة
ودروبي الى الله مُغْلقةٌ
وَدُروبيَ نَحْوكَ مُوصَدَةٌ
وَدُروبي الى الأمسِ والغدِ
ممنوعةٌ.
مُطْفأ في أُحتراقي
غارقٌ في سباخِ
البلاد
ويسألني،
أين ثوبُ الحدادِ؟!

شعر



العوديسا •

إلى سهيلة زوجتي ورفيقة دربي

خالد ابو خالد *

عائد من مساء الحروب
ومن نجمة في شمال الغروبِ
ومن جمرة في رماد الجنوبْ
عائد من رحيلي..ومن طرق لاتؤوبْ..

*

عمودية هي الشمس /وظلي/
بينما دمي الى الصقيع /درجة/ درجة /
وواقف هو المكان/
واقف تحت قدميّ/
وفي عقارب الساعات / تحملني الرياح /أرحل وحدي/ القرى في جسدي / والمدن المدمّرة التي لم تتبع أنبياءها/ وبعيدة هي الآلهة/ بعيدة هي نجمتي.. والحنين قهوة/ ونبيذ/ ورائحة تاريخ..وجغرافيا.. ووحيدون هم الأنبياء../وغرباء../

*

● نشيد واحد من عمل شعري طويل تحت عنوان العوديسا
* شاعر من فلسطين وله عدة مجموعات شعرية.

عائدٌ والدروب موزعة والرؤى ..
والمدى متعبٌ.. والصدى ..
موغل في الردى ..
والحجارة ماطرةٌ ويدي أبدعت قمراً من قذيفتها.. أو..
ومن خمرة الظلِّ..
من وجع الطّلِّ.. قبل السقوط على العشبِ..
قبل الصعود الى الغيمِ ..
من برزخ بينَ.. بينْ
ومن خيمة كالجناح الكسيرْ..
ومن حقل أسئلة.. وجواب أصيلْ
عائد ويدي وردةٌ..
ودمٌ..
ونخيلْ..
عائد في الصهيلْ

*

ويتبعني الغبار الدائم/ غريباً/ ومنتشراً كأجنحتي الرصاصية/كالطرق العديدة/ ضائعاً/ ومختلفاً/ كالطرق الوعرة/ منتشراً من أول الماء/ الى آخر اليابسة/ الى البيارق المحترقة في القلب حيث يذهب الغبار/ والدم الذي يفجر الصور في الصاعقة/ والنواعير/
وحده الغبار مني / والرحيل/ ومخلفات القتلى/ ولا أعرف الجهات/.

*

طافح وشتاءٌ يجسّدني
وبعيد انا في مدار الجزائر.. معتقلٌ في أظافرها..
ورق في مصارفها.. أو ذهبْ..
فضة أو حطبْ ..
بينما قمري في وليمتهم.. والمساء دمي..
أو من الماء سُورته ..

وصغيري يبعثر جمرته.. ويرى..
ان من يعبثون بخبزي.. وخمري.. لصوصٌ
وأيديهم جَرَبٌ.. وحديدٌ..
وأعينهم من صديدٍ..
يرى انني مغرق في البعيد.. وملتجىءٌ للعبيدِ..
فيلجأ للصخرِ
والبحرِ
والرملِ..
يقرأ أني اغتربتُ.. وأضرب في التيهِ..
مرتحلاً حول روحي.. وأعمى..
ولا صوتَ..
صمتٌ.. سوى صورتي في مداخل بيتي..
تمرُّ سريعاً.. وتخبو.. وتشرقُ
في شجر من حِريقٍ
أرى ولدي يستدير الى حكمةٍ
فيناورهم..
ثم يأتي الى الناس..
يرمي لهم قلبه.. وأساه.. وأغنيةً
ثم يمضي الى البحرِ..
يفتح فيه حواراً..
يعبئه البحر بالموج.. أو بالنشيجِ..
فيهدر في وجه من يولمون.. على قمري..
ثم يبحر نحوي..
أنا في الجزيرة ياولدي.. آه.. ياولدي
صرخت أمه «وردي» آه.. ياولدي..

*

القصف وحده يعرفها../وطقوس القتل.. /

في القرى /والمخيمات/ ومدارس الاطفالِ
المقاومة/
الطرق أبداً مغلقة/
وأبداً مفتوحة بالمنجنيقات الصغيرة/
والمنشورات../
وجسدي عائد في موكبه /الى المنحنية
على نولها /وحجارتها/
ولدُها الوحيد محاصر في المداخل/ والممرات
الصعبة /بينكم/ وماهو بينكم/
منكم هو /وليس معكم/
محاصرٌ بالابيض /والأسود/ في غياب
قوس قزح/ وحضور كوفية/ وضفائر/
حلم طالع من فوهة بندقية صدئة/.
ومن فوهة بندقية جديدة/
ومن حجر صوانٍ /لم يجمّل نفسه أمام مرآة/
وآتيك ياولدي.. فانتصب في دمي..
انقسم الجيش.. والناسُ.. واقتتلوا..
انكفأتْ مدن خلف ردِّتها..
مدن أخلفتْ وعدها..
فانتشرتُ وحيداً ومنكسراً..
عائداً في مدى الماء والدمِ والبحرُ في داخلي
والصراعُ.. وماساً أصير.. فأجرحُ
وجه الفضاء.. وانهض بيني وبين السماء
دماءٌ.. وقصف.. يحاصرني الوحش..
أنهضُ..
أسحبه من نواصيه..
أغرقهُ
وأمدُّ ذراعاً الى الأرض تنجدني..

فانام على ظل زيتونةٍ
لاتخبىء أعداءها.. بينما حلم كالندى..
ماثل في يقيني..
فأصحو على صوت طيف.. ونخلة..

*

يطلع من أصابعي/ ومن لحمي/ يطلع من قراءة سوط/ وكتابة حربة/
ومن عتمة الزنازين /يخرج/ بين رصاصتين وقذيفة غازٍ /وأسلاك مشحونة/
تجفف الدم /والدموعْ/ الانسجة/ والعلاقات/ البشر/ والافكار/ والحنون/ في
المعتقلات المسيّجة/ والمفتوحة على جحيم المواسم التي تقلع الاطفال من اسرتهم
صدفةً/ وبرصاص القنص/
ليولدوا مرة اخرى/ كابتسامة/ وعزاءٍ/

*

عائد فيك
لاسفن في الخليج
ولاشجر مثمرٌ
أو جيوش مجرّبة..
أو بلاد تلوحُ
ولا شيء غيرُ الجروح على جسدي..
قرية.. قرية.. رايةً.. رايةً..
والقروحُ..
ولاشيء.. غير رحيلٍ سيفضي الى خيمةٍ.. ورحيلْ..
فانتبه يافتى.. وانتبهْ..
فالحصار الذي في دروبي توجه نحوك..
بالجند.. والكلمات..
احترس في الرماد.. وفي الخبز..
ياولدي.. واحترس في النباتْ..
عائد فارفعي نذرنا..

وانشريه على السارياتِ..
جبيني وداع جديدٌ.. يؤدي وداعاً قديماً..
وأدخل في هجمة.. وردى..
خبأتني لعينيك رمانة النارِ
في طعمها المرّ..
ثم افترقنا.. وقلت سأصطاد قلبي في المرة
القادمة..

*

في الرماد الذي خلفه القصف/ أعود..
مخلفاً ورائي السعداء في الحانات/ والفنادق
السياحية من أغادير/ الى طابا/ الى لبنان/
الى المقاصف المؤسسة على الحجارة الحضارية
وألواح الرُّقُم الآجرّية/ والأعمدة التي تنام/
أو تموت واقفة وسط الصحارى/ والقلاع العامرة بالمجد القديمْ/

*

جرس في الفضاء على موعدي..
ورياح على جسدي.. وأضيء..
انني الآن أرفع فأسي/ وأهوى على شجرٍ يابسٍ
وأشدّ القلوع الى نجمتي.
مدركاً أنها القارعة..

*

المستنقع ممتد/ والمساءات الرياضية/ وعباءات
الطحالب /والرماد/ الرماد/ الرمادُ

*

الذي خلفَ القصفُ
والعسفُ

إني أرى طالعي.. في إناءٍ من الدم والزيتِ
في الرقص والموتِ
في خطوتي.. عائدٌ.. في غيابي الأليمْ..
عائد في صباح التراب الحميمْ..
ولست بميتٍ.. ولا مستحيلْ..
ولا انت راوحت بين الرحيلِ.. وبين الرحيلْ
عائد ولدي الآن في عرق الضوءِ..
يركض في صحوة الشمس..
هاجسة كحنين السهول الى الغيم في القحطِ
أو كجنون الصحارى لوهمٍ من الظل..والماءِ
أو كاشتعال الذهول قبيل اليقينْ
عائد ولدي كانفجار الخيولْ
عائد في الصخورْ

*

وننتظر كل على حافة/
أنت تطرزين ثوبك الفلسطيني/
وأنا أغني/
وعلى قلبي تصحو الكتب الثلاثة/
كتاب النيل/ وكتاب البحر والأرض/ وكتاب الحروب القادمة../
وأنت الفاتحة للنيل /والبحر/ والأرض/ والحروبْ/
لم يندب أي منا الآخر/
ولم يراسله بالمراثي/ او يعد للحداد ثيابه/
وجلده /ملامحه/وأغانيه/ والعصافيرْ/
تجهشين فتجهش الجبال/
والسهول/
والأنهار
والبيوت الصغيرة

والمخيمات
والأزقة
وأطفال الفقراء/ والحجارة الغنية بالينابيع/ والمناجم/
يجهش العشب/ والشجرْ..

*

أرى مطراً..
وأرى طرقاً..
وأرى شجراً..
وأرى غيمة خبأت رعدها..
وأرى...
ان موتاً يحمل موتاه فوق الجمال الصبورةِ..
يمضي الى مشهدٍ لايجيءُ..
ويفضي الى زمن لايضيءُ
ويدخل في الموت دون وداعٍ..
يراوغ بعضاً من الوقتِ..
لكنه يتوارى على صفحة من سماءٍ..
تؤدي له طقسها..
ثم تفتح كهفاً بلا ذاكرة..

*

وأناديك/
أنت بين خيط الحرير/ والابرة/ والصبي
الواقف ظهراً الى البحر/ وصدراً الى الرشاشات/
أطلقي اذاً أغنيتين/
واحدة باجنحة فراشة/ أخرى بأجنحة قلبْ/
أرد لك صوتي في المسافة

*

وأدعوك ناطرتي

وأسمي الرحيل اياباً
اسمي الدروب عتاباً..
وموتي ذهاباً..
أعدّي لي الشمع.. والمائدة..
فلي من يديك عشائي الذي لن يكون الأخيرْ..

*

وأربعون مسافة هي الفاصلة بين عاشقينْ/
أربعون من أمراء الحرب/
بين العقدة الأولى/ والمرفأ/
بين الحجارة /والاهداف/
أربعون يحتشدون في ذاكرة الحجرْ/
في الوطن المشغول بعدّ الأيام/
والقتلى /والجرحى/
والمعتقلين/
أربعون/..
والعلم الفلسطيني لايترجل من فضاءاته/ أو من الزنازين/
وينفتح المشهد على حمامة بيكاسو/
في الملصق النازف دماً/.
وشقائق/
وركاماً في المدى المجدى للجرافات/

*

بأي الحكايات ابدأ..
أو انتهى..
عائدٌ من مرايا الخديعةِ..
من دفتر الوجدِ..
من قمر الرعدِ..

من رؤية الوعدِ..
من خبر عممته الاذاعات عن مقتلي.. في كتاب الرحيلْ..
ترى ايقظتني القناديلُ
أم صحوة الموت
متصلَ الروحِ.. مرتعشاً تحت صمت الكواكبِ..
والماءِ..
والبرتقالْ..
عائدٌ.. من خطوط الزوالِ
استند في عظامي
استندتُ
تراني على لوحة في الجدارِ
على برهة في القفارِ
على موجة من حجارتها..
أو تراني..
غريباً كظلي على البابِ..
في فسحة الضوءِ..
ظهري الى زمن موغل في الترابِ..
وصدري يحارب من ساحة في الخراب
الى ساحة في اليباب.

نيسان ١٩٨٩

شعر

أناديك .. من جمرة الذاكرة

صالح هواري*

إنَّهُ قَمَرُ الجُرْحِ يَصْحو
ويَحْرِقُ طيرُ الرَّماد تعاويذَهُ في الرَّمادْ
يا عصافيرَ غزَّةَ لا تذهبي اليومَ للمدرسةْ
واحملي بدلَ المحفظةْ
صرَّةً من هموم البلادْ
لَقد أَقبلوا ..
أقْبلي أنتِ .. سدِّي الطريقَ عليهم
وردِّي الرصاص إلى نحرهِ
أحرقي الموج في بحرِه
أكَل الصَّدأُ العربيُّ مَرايا دمي
أيْنَ أدْعوك !! لا بيتَ لي
أشتهيكِ ... فيجمعُ قلبي لكِ الحُبَّ
والحَبَّ ، والحنطةَ الساخِنَةْ
فاعذريني ..
يَدي عِنْدَ باب يَديك قصيرةْ
وَنَخْلة عَيْني بَصيرةْ
أسيرُ إليك .. ويَسْند قلْبي
عَمودٌ من الريح مائلْ
أحاولُ .. لكنَّني لا أقومُ
أقومُ ... وَلكنَّني لا أُحاولْ
دَمي يَفْركُ الآنَ أجفانه كي يفيقْ
والغَمامُ العتيقْ
يحفرُ البرقَ فيَّ عميقاً عميقْ
كيفَ آتي إليك .. وأسلاكُ هذا الزمانِ
تُزنِّرُ خَصْر الطريقْ !!! :

* شاعر من فلسطين له عدة مجموعات شعرية.

يحدُّ دمائي مِن الشَرْق ناعورةُ
تَحْتفي بي لِتَسْرقَ مائي
مِنَ الغَرْب بئرٌ مِن الغدرِ
يَرْعى به سَمَكُ الأقرباءِ
مداخنُ عطرٍ ملوَّثةٌ عن شمالي
أميلُ جَنوباً .. يكهربني نهرُ عينيكِ
أنتِ الجنوبُ
وأنتِ الجنونُ
وملْحُ المواويل في الخاصرَهْ
آنَ أنْ تصلَ القاطرَهْ
الندى يختلي بالبنفسجْ
يا غزَّةُ الصابرَهْ !!!
غرِّدي فوق نخلةِ قلبي المتوَّجْ
بأحجارِك الثائرهْ
طاعنٌ في اغترابي أنا
وأناديكِ من جمرةِ الذَّاكرهْ
فاسكنيني حمامةَ نارٍ
على سيف منقارها حجران :
على قمرٍ يتنازلُ عن ضوئهِ للغزاةِ حجرْ
وعلى صاحبٍ باعني في الظلام حجرْ
آنَ أنْ تصل القاطرهْ
والندى يختلي بالبنفسجِ
أنتِ الجنوبُ
وأنتِ الجنونُ
ومصباحُ قلبي
إلى الناصرَهْ

١٩٨٨/٨/١٩

شعر

قصائد

محمد لافي*

رأس السنة

وحيدا ترتّب قبوك
تقترح الكأسَ
والنخبَ
والطاولَهْ
تعدُّ الثواني،
الدقائقَ
يكتملُ العدُّ
ولم يطرق الباب منهم أحدْ
وحيدا تمرّ الوجوه بكأسِكَ
ليس سوى جرس الوقتِ يختصر الاسئلَهْ
جميعهمُ فُرطوا ليلهم ـ أيها المتفرّد ـ
في دفتر العائلَهْ

دمشق ١/١/١٩٨٩

حصار

وتقلب دفتر يومكَ
نفسُ المدى
نفسُ هذى التفاصيلِ
نفس الاماسيِّ

* شاعر من فلسطين له عدة مجموعات شعرية.

نفسُ الصباحاتِ
نفسُ الشوارع والشرفاتِ
الخطىٰ
والمقاهي
الوجوهِ
الحوارِ السياسيِّ
نفسُ الصدى
حالة مرهقَهْ
ترفع الوقت والروح والشعر للمستجدِّ
تلوبُ
تلوبُ
تلوبُ
ولاتكسر الشرنقَهْ

دمشق ٦/١/١٩٨٩

سقوط

كنت أقراه ككتابْ
ذلك الشاعر المنحني مثل قوس الغيابْ
أوّل الامر كان يعدّ سفالاتِهِمْ
نقطةً
نقطةً
ويراجعها في الحوارات فاصلةً
فاصلَهْ
آخر الامر اسلمهم روحَهُ
مطلقا طيره للتوابيتِ
محتفلاً بالسقوطِ واعماله الكاملَهْ

دمشق ١٠/١/١٩٨٩

راية

هكذا شرّقوا
غرّبوا
شمّلوا
ارتجلوا سورة الارض وارتحلوا
ركبوا العرباتْ
هكذا كسرت حلمهم في يديك الجهاتْ
هكذا دارت الدائرَهْ
هكذا غادروكَ وماخلّفوا في العشاء الاخيرِ
سوى رايةٍ للفراغِ
على مَدْرجِ الذاكرَهْ

دمشق ١٩٨٩/١/١١

خصوصية «١»

ابي ليس هذا اعتذاراً
وليس انكساراً
ولا صفحة في سجلّ الحدادْ
ركضت وراء البنادقِ
والشعرِ
والناسِ
لابنة عمي تزوّجتُ
لاني المسيرة درباً قطعتُ
ولا وطنا قد وصلتُ
وباع دمي رائدي بالمزادْ

دمشق ١٩٨٩/١/٢٠

خصوصية «٢»

ابتي في الهزيع الاخير من العتبِ
استنطق الكامن الان فيكْ
كيف فصلت قبل الرحيلِ
على شرفات البكاء بنيكْ
واحدٌ صوّب القلب نحو كروم الخليلِ
وضيعه في الحوار الدليلُ
ومازال يركض في لعبة الجزر والمدّْ
واحد ظلّ يمسك قوس العشيرةِ
يبرى سهام التفاصيلِ
حتى برته التفاصيل وانهدّْ
واحد ظلّ يلهث خلف الرغيف المخاتلِ
حتى انتهى خطوه لعباءات كهان نجدْ

دمشق ١٩٨٩/١/٢٣

تنبيه

حينما تقرأ الخارطَهْ
حينما تقرأ المدن الساقطَهْ
حينما يكسر الوقت في الفضاءَ
وسارية العلم الوطني
حينما تستدير قليلا لتبكي عليّ
انتبه جيداً
وتذكر فتى واحداً
وقّعَ الرفضَ في دفتر الجوقة الهابطَهْ

دمشق ١٩٨٩/١/١٢

يوميًا تصعد نفس الخشبةْ
ترتجل الوقتَ
النصَّ
الكورسَ
والجمهور الغائبَ
تلعب نفس اللعبةْ
يوميًا تتكرر في مسرحك الايامْ
تجمع اقمار الروح صباحاً
ومساء تفرطها الريحْ
وتظلُّ على الميناء تلوّحُ
ثم تلوّحُ
ثم تلوّحُ
حتى يفرطَك التلويحْ
وتنامْ!

دمشق ١٣/١/١٩٨٩

الى احمد يوسف داود

في الحراب المعممِ
حيث قصائدنا تقفُ
في السقوط المعممِ
حيث اندحار الكمين الاخيرِ
المغني الاخيرِ
العواءِ الاخيرِ
سنعترفُ:
نحن لانحتمي بالكتابة لكننا ننزفُ

دمشق ٢٤/١/١٩٨٩

أنت الجذر والتاريخ

طلعت محمود سقيرق*



هو الحجرُ
يهب.. يطير
ينتشر..
اذا ما شئتَ
ينفجرُ
ولايذرُ
فأنتَ الجذرُ والتاريخُ
لون الأرضِ
طعم الأرضِ
روحُ الأرضِ
عِشْق الأرضِ
أنت النبعُ والموالُ
أصل الأصل.. والخيَّالُ
والمطرُ
فأشرعْ سيفكَ الحجريَّ
سدد رمحكَ الحجريَّ
طيِّر سهمكَ الحجريَّ
قاتلْ سوف تنتصرُ
وحاربْ سوف تنتصرُ

* * *

* شاعر من فلسطين له عدة مجموعات شعرية.

يوميًا تصعد نفس الخشبَةْ
ترتجل الوقتَ
النصَّ
الكورسَ
والجمهور الغائبَ
تلعب نفس اللعبَةْ
يوميًا تتكرر في مسرحك الايامْ
تجمع اقمار الروح صباحاً
ومساء تفرطها الريحْ
وتظلُّ على الميناء تلوّحُ
ثم تلوّحُ
ثم تلوّحُ
حتى يفرطَك التلويحْ
وتنامْ!

دمشق ١٩٨٩/١/١٣

الى احمد يوسف داود

في الحراب المعمم
حيث قصائدنا تقفُ
في السقوط المعمم
حيث اندحار الكمين الاخيرِ
المغني الاخيرِ
العواءِ الاخيرِ
سنعترفُ:
نحن لانحتمي بالكتابة لكننا ننزفُ

دمشق ١٩٨٩/١/٢٤

أنت الجذر والتاريخ

طلعت محمود سقيرق*



هو الحجرُ
يهب.. يطير
ينتشر..
اذا ما شئتَ
ينفجرُ
ولايذرُ
فأنتَ الجذرُ والتاريخُ
لون الأرضِ
طعم الأرضِ
روحُ الأرضِ
عِشْق الأرضِ
أنت النبعُ والموالُ
أصل الأصل.. والخيَّالُ
والمطرُ
فأشرعْ سيفكَ الحجريَّ
سدد رمحكَ الحجريَّ
طيِّر سهمكَ الحجريَّ
قاتلْ سوف تنتصرُ
وحاربْ سوف تنتصرُ

* * *

* شاعر من فلسطين له عدة مجموعات شعرية.

هو الحجر
وكفك تصنع التاريخَ
تكتبهُ...
تسطِّرهُ
بقافلةٍ من الشهداءِ..
والشهداء
تعطيه الصباحاتِ التي تأتي
بلونِ الشمسِ والبرقوقِ والزعترْ
وحينَ ينوِّرُ الحبَقُ
بين العينِ.. والخدينِ
يأتلّقُ..
وحينَ الجدُّ ينهضُ في صباح الخيرِ
مسكونا بضحكته
وروعته...
يعانق دفتر الأجدادِ.. والأحفادِ
مَنْ كانوا سياجَ الروح في عكا
زهورَ الارض في حيفا..
ويضحكُ حينما الحجرُ
يصولُ.. يجولُ... ينتشرُ
يهدُّ الظلمةَ السوداءَ يمحقها
ينادي: كفُّكَ التاريخُ
فاضربْ سوفَ تنتصرُ
وقاتلْ سوفَ تنتصرُ
وحارب سوف تنتصرُ

* * *

هو الحجرُ
وسيفكَ قامةُ الاشجارِ
عمر الارضِ
عرض الارضِ
عمق الارضِ
سيفك دفقة الموّالِ
والأشعارِ
أغنيةٌ
وجوهُ الأهلِ في الميناءِ
عرس الطرحةِ البيضاءِ
لهفتنا..
وسيفك كل ما في القلبِ
حرقتنا
وتنتصرُ
على السجان والعتمهْ
على الغربانِ.. والغرباءِ
والظلمهْ
وتنتصرُ
أابعكَ التي شدَّتْ
على الاشجارِ واستدَّتْ
سننتصرُ
فأنت الضوءُ والميلادُ
أنت الشمسُ
أنت نهارنا القادمْ
فقاوم يا أخي قاومْ
ستنتصرُ
وتنتصرُ
وتنتصرُ

١٦/١١/١٩٨٨

شعر

الانكسار

محمد الكيش*

قبل أن تطوحك البلادة بعيداً،
بشمس النسيان
قبل أن تسلك طريق الاستكانة،
ثم لا تعود،
قبل أي شيء
تكسر.
والا.....
سوف تهجنك الحواشي،
تهين سلالتك المنقرضة
تحقر أوجاعك الأرض.
وتنبذك شريداً.
تكسر.
ليس من شجر في هذا البراح.
يسند الظهر.
ليس من ظل في وهدة الفقد،
تتفيأ.
ليس من صدر ان حاصرتك الرياح،
أو داهمتك الغربة،
على خفقة تنهمر.

* شاعر من الجماهيرية.

هو الحجر
وكفك تصنع التاريخَ
تكتبهُ...
تسطّرهُ
بقافلةٍ من الشهداءِ..
والشهداء
تعطيه الصباحاتِ التي تأتي
بلونِ الشمسِ والبرقوقِ والزعترْ
وحينِ ينوِّرُ الحبقُ
بين العينِ.. والخدينِ
يأتلّقُ..
وحينَ الجدُّ ينهضُ في صباح الخيرِ
مسكونا بضحكته
وروعته...
يعانق دفتر الأجدادِ.. والأحفادِ
مَنْ كانوا سياجَ الروح في عكا
زهورَ الارض في حيفا..
ويضحكُ حينما الحجرُ
يصولُ.. يجولُ... ينتشرُ
يهدُّ الظلمةَ السوداءَ يمحقها
ينادي: كفُّك التاريخُ
فاضربْ سوفَ تنتصرُ
وقاتلْ سوفَ تنتصرُ
وحارب سوف تنتصرُ

* * *

هو الحجرُ
وسيفكَ قامةُ الاشجارِ
عمر الارضِ
عرض الارضِ
عمق الارضِ
سيفك دفقة الموّالِ
والأشعارِ
أغنيةٌ
وجوهُ الأهلِ في الميناءِ
عرس الطرحةِ البيضاءِ
لهفتنا..
وسيفك كل ما في القلبِ
حرقتنا
وتنتصرُ
على السجان والعتمهْ
على الغربانِ.. والغرباءِ
والظلمهْ
وتنتصرُ
أابعكَ التي شدَّتْ
على الاشجارِ واستدَّتْ
سننتصرُ
فأنت الضوءُ والميلادُ
أنت الشمسُ
أنت نهارنا القادمْ
فقاوم يا أخي قاومْ
ستنتصرُ
وتنتصرُ
وتنتصرُ

١٦/١١/١٩٨٨

شعر

الانكسار

محمد الكيش*

قبل أن تطوحك البلادة بعيداً،
بشمس النسيان
قبل أن تسلك طريق الاستكانة،
ثم لا تعود،
قبل أي شيء
تكسر.
والا.....
سوف تهجنك الحواشي،
تهين سلالتك المنقرضة
تحقر أوجاعك الأرض،
وتنبذك شريداً.
تكسر.
ليس من شجر في هذا البراح.
يسند الظهر.
ليس من ظل في وهدة الفقد،
تتفيأ.
ليس من صدر ان حاصرتك الرياح،
أو داهمتك الغربة،
على خفقة تنهمر.

* شاعر من الجماهيرية.

إذن؟
فيما هذا السأم الذي لايحد.
لملم أوجاعك،
وانشر ظلالك بعيداً،
ثم تكسر.
الموتى سيرقصون رعباً منك،
أنت القادم الوحيد للحياة،
تلحق بك الأرض، والشجر،
والبحر ينكفىء في جسدك.
يصرخ الموتى:
أي بحر لعين يلج بحرنا،
يجرجر وراءه كل هذه السحب المرعبة.
أي فرح يهطل من جنوبنا،
لحظة الإنكسار.
أي عظةٍ مرهبةٍ.
تلك التي تسبغ مجدنا المنحسر.
تكسر،
فرحك واه،
وليلك طويل.
وذلك الجاثم في سقيفة العمر،
لن يحيد طيبة،
ان لم تتكسر.

○
ولما رأيت الباب قد حيل دونه.
تكسرت باسم الله فيمن تكسرا.

«الطفيل بن عمرو»

شعر

الأرض مداي الصغير

«مقاطع من حياة غجري»

محمد وحيد علي*

طفولة

لم تمزّقْ عليَّ الشجرْ
لم تبعثرْ عليَّ الدموع
ولم تغتسلْ من عيوني المليئةِ بالحلمِ
والفاجعةْ...
قريتي
بقيتْ هادئةْ
تتنفّس صوتي البعيدْ!...

★★★

وكنتُ رأيتُ الحصى لؤلؤاً
والتراب ذهبْ!...
صعدتُ إلى الحلمِ في قمّة الموتِ
لكنّني...
هل أرى كوّةً في الظلامْ
أو ندىً في حطبْ؟!...

★★★

---

* شاعر من سورية

إذن؟
فيما هذا السأم الذي لايحد.
لملم أوجاعك،
وانشر ظلالك بعيداً،
ثم تكسر.
الموتى سيرقصون رعباً منك،
انت القادم الوحيد للحياة،
تلحق بك الأرض، والشجر،
والبحر ينكفىء في جسدك.
يصرخ الموتى:
أي بحر لعين يلج بحرنا،
يجرجر وراءه كل هذه السحب المرعبة.
أي فرح يهطل من جنوبنا،
لحظة الإنكسار.
أي عظةٍ مرهبةٍ.
تلك التي تسبغ مجدنا المنحسر.
تكسر،
فرحك واه،
وليلك طويل.
وذلك الجاثم في سقيفة العمر،
لن يحيد طيبة،
ان لم تتكسر.

○
ولما رأيت الباب قد حيل دونه.
تكسرت باسم الله فيمن تكسرا.

«الطفيل بن عمرو»

شعر

الأرض مداي الصغير

«مقاطع من حياة غجري»

محمد وحيد علي*

طفولة

لم تمزّقْ عليَّ الشجرْ
لم تبعثرْ عليَّ الدموع
ولم تغتسلْ من عيوني المليئةِ بالحلمِ
والفاجعهْ...
قريتي
بقيتْ هادئهْ
تتنفّس صوتي البعيدْ!...

★★★

وكنتُ رأيتُ الحصى لؤلؤاً
والتراب ذهبْ!...
صعدتُ إلى الحلمِ في قمّة الموتِ
لكنّني...
هل أرى كوّةً في الظلامْ
أو ندىً في حطبْ؟!...

★★★

---

* شاعر من سورية

لم أكن أعرفُ الفرقَ بين السماءِ
وبين المياه
ولم أتذوّقْ بهاء الجنونِ
على صدر عاشقةِ الماءِ
كنتُ أسيلُ بروحي على العشبِ والطيرِ والكائناتِ
أموتُ وأحيا
وما بين موتين لي غيمةٌ استريح عليها
ولي أرض «زيتونةِ المستراح»...
يا أبي:
أيها القرويّ المبعثر بين المساءِ
وشاهدةِ القبر:
فتّشْتُ عن قمر القمحِ
أو وطن الصّبحِ
لكنّني ما وجدتُ سوى فسحةٍ من متاه!...
أنا ابنكَ الضال يا والدي
ليس في وطني فسحة بائرهْ
فلماذا نظلّ نفتّش عن لقمةٍ في الدماءْ؟!...
يا أبي:
لماذا غضبْتَ عليَّ
حين وزّعتُ أوردتي في الجهات؟!...
وحين صرختُ على صدرِ عاشقتي،
ها هنا اللهُ
ثم بكيتُ؟!!...
يا أبي: الآنَ ليس لنا القمحُ
ليس لنا الماءُ والطيّبات
فدعني أصاهل حلميَ في كلّ شيءٍ
أراهُ يقود إلى أيّ ضوءٍ!...

حبّ

أنتِ أوصلتني للكمال
أموتُ وعينايَ لا تبصران هنا،
غير هذا الدمار...
ولا شيء يشعل روحي
ولا شيء تشعلُ...
يلزمني ألف عامٍ
لأخرج من دهشتي
أو أعود كما كنتُ،
لا أعرفُ الفرق بين السماء
وبين المياه...
انشداهٌ عنيفٌ يهدّ حواسي
وها جسدي نجمةٌ في يديكِ
اقذفيهِ إلى البحرِ
أو علّقيهِ على دائرهْ...
فأنا منذ موتي البعيد البعيد أحبّكِ
لستُ أبوحُ ولكن تعويذتي وصلاتي أحبّكِ
فلتجمعيني
انشطرتُ وضعتُ
ولي أمنيهْ،
أن أموتَ على راحتيكِ!...
رأيتكِ في نوميَ الأمسَ
كنتِ تطيرينَ فوق البحار
وتأتينَ أو تذهبين!...
أضعتُ رؤايَ
وفرَّ أمامي الدخان
أفقتُ أعدُّ زئير دمي

تتلاطم في بحرهِ أحرفٌ أربعةْ:
ترابٌ، هواءٌ، ونارٌ وماء
هو العالم الآن مختزلٌ في حنيني إليكِ
ولكنني أستفيقُ،
لأدخل كابوس يوم جديد يباعدني عنكِ
ها جسدي عنوةً يدخل الليلَ في فسحات النهار:
ظلامٌ، وجوهٌ يكفّنها البَلَهُ الأزليُّ
وأرضٌ أرى خيط ضوءٍ رقيقاً على شعرها
هل تضيء؟!!...

مدى ١

ليلٌ خريفيٌّ
وبحر الروح أزرقُ
ضفّةٌ أولى لترقص في مسارحها الحبيبةُ
ضفةٌ أخرى لقامتهِ الطريةِ
تنحني وتراً
وتعزف نجمتين،
طراوةَ الجسد الحليبْ!...
ثمرٌ تدلّى من سما اثنى
أيعرفُ أيَّ أرضٍ أينعتْ فيها؟!...
هو الغجريُّ يقرأُ كفَّ عاشقةٍ
فيعشق أرضها وسماءها
ويحطُّ في فيءٍ عظيمْ...
هي غيمةٌ طوراً
وطوراً من تراب
وهو الجميل يغطُّ في شركِ الهوى
ويظلُّ يرعبه الرحيلْ!...

مدى ٢

ليلٌ، سماءٌ خاويةْ
وعروشُ اسمنتٍ على الرئتين...
عتمٌ طافحٌ بالفاجعةْ
وطنٌ على نخلٍ
ونخلٌ لا يضيء العينَ
هل من عاشقةْ،
تأتي!...
سلامٌ للهواء
ألم يزل ملك الفضاءِ الرحبِ؟!...
قبلة عاشقةْ،
للوردةِ الحمراء
هل ما زلتِ تنتظرينَ جمهرةً من العشّاقِ؟!...
زنبقة لروحكَ حيث سرتَ
وحيث متَّ
وحيث يلفظك الطغاةْ
وقبرَهْ،
لديكَ حين تعانقانِ على الخرائب
زهرةً وجديلتَينْ!!...

مدى ٣

سأنامُ في بريّة الليلِ الفسيح
سأغمضُ القلب النحيلَ على الهواءْ
وأعدّ ايقاعاً من الأبنوس يدنو منْ حطامي
عشتُ أكبرَ من دمي ورؤايَ،
أكبر من جنونِ الحلمِ في عدمٍ

ولم أبلغ سلامي...
هل هي الأرض الصغيرةُ أقفلتْ عينيَّ؟!...
أم أن السماءَ خبتْ
وضيّعني الخواء؟!!...

محطّةٌ اخيرةَ

طيرٌ على شجر السماء،
يحطّ في ولهٍ
يرى بحراً من القاماتِ
بحراً من خيولٍ راقصةْ...
هذا العلوُّ يجيءُ في صخبٍ مهيبٍ
والصنوبر يستحمُّ بزغْرداتِ الريحِ
يا طيرَ الهوى:
سلّمْ على امرأةٍ هناكَ
وحطّ بين حمامتين!...
يا طيرُ: مَنْ منا يروحُ
ومن يجيء
ومن يطيرُ
ومن يموت؟!...
يا طيرُ: طرْ
طرْ في سما انثاكَ
وادخلْ في علوّكَ
كلّ ما في الارضِ من عشقٍ لديكْ
لا يستطيع الموتُ أن يعلو إليكْ!!!...

ملتقى
ابو سلمى الاول
للشعراء الشباب
«٢»

نشرنا في العدد السابق «١٣» من الكاتب الفلسطيني طائفة من قصائد الشعراء الشباب التي القوها في الملتقى الخاص الذي أقامته لجنة العمل النقابية للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين. وننشر في هذا العدد الرابع عشر طائفة أخرى من تلك القصائد.

التحرير



ولم أبلغ سلامي...
هل هي الأرض الصغيرةُ أقفلتْ عينيَّ؟!...
أم أن السماءَ خبتْ
وضيّعني الخواءُ؟!!...

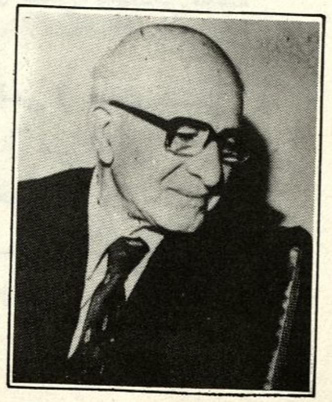
محطّةٌ أخيرةَ

طيرٌ على شجر السماء،
يحطّ في ولهٍ
يرى بحراً من القاماتِ
بحراً من خيولٍ راقصةْ...
هذا العلوُّ يجيءُ في صخبٍ مهيبٍ
والصنوبر يستحمُّ بزغْرداتِ الريحِ
يا طيرَ الهوى:
سلّمْ على امرأةٍ هناكَ
وحطّ بين حمامتين!...
يا طيرُ: مَنْ منا يروحُ
ومن يجيء
ومن يطيرُ
ومن يموت؟!...
يا طيرُ: طرْ
طرْ في سما انثاكَ
وادخلْ في علوّكَ
كلّ ما في الارضِ من عشقٍ لديكْ
لا يستطيع الموتُ أن يعلو إليكْ!!!...

ملتقى ابو سلمى الاول للشعراء الشباب «٢»

نشرنا في العدد السابق «١٣» من الكاتب الفلسطيني طائفة من قصائد الشعراء الشباب التي القوها في الملتقى الخاص الذي أقامته لجنة العمل النقابية للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين. وننشر في هذا العدد الرابع عشر طائفة أخرى من تلك القصائد.

التحرير



شعر

فلسفة مهترئة

سليم مصطفى النفار

الحياة عَبثٌ، السعادة ماوراء البحر، والموتُ بِدْء الحياة
فَعمَّ تفتش يافتى
الدرب موحشٌ إلى عنقي، ومبادئي شوكٌ
فَعمَّ تفتش؟
إني فتشت عن نفسي في غرفتي الثكلى
في جدار منزلٍ هالٍ على الطرقِ
في شتى صور العصر فتشت... فتشت
آملُ أن أجدُ متسعاً لرفاة شهيدٍ يعلو
وضلوعٍ كسرها البحرُ
آملُ أن أجد..

لكني وجدت متسعاً لرفاة ضميرٍ يخبو
ياهذا.. ياقلبي.. ياقلب الانسانيةِ الوجعى!!!
أداءُ العصر أن نحيا رفاةً فوق الطريق؟
في شتى صور العصر فتشت
وجلستُ مع الليل../ أتوحد فيه.. يتوحد فيَّ
أفرغ آهاتي
وأعود ثانيةً.. أتقمص حلماً
راودني الدهر بأكمله
آهٍ يا للمهزلة
إني أضحكُ من نفسي وعليها
فالحلم الطازج في فكري
جَفَّ في أوردة الشرق
عبثاً تحاول يافتى
فالصمت لايجلب سوى صمتي
أتأمَّلُ.. أتفكر..
رُبَّ أخٍ يمدُّ يد العون
رُب جارٍ يزيل ستارَ الليل
رُبَّ.. رُبَّ..
فتصيح حجار جداري: ياهذا.. ياهذا!!
إصْحُ
إن جمار الاسفلتِ لاتحمي الاسفلت
ياهذا
دموعي ضاق بها الخد
أشرعتي ضاق بها اليَمُّ
فَعَمَّ تفتش يافتى؟!!!
الحَدُّ؟
ليس هناكَ الحدّ

فلسفةٌ مهترئة
تستنبط أُسَّ قواعدها من مقتل عشقي
من شتى صور العصر
المفروضة طوعاً أن نحياها بلا قسرٍ
إن كانت هذه فلسفتي.. فلأُحرَق
ولتُحرق أشرعة الشرق
بنيان تخلفنا نبنيه بعرق الجهل
نزرعه ألغاماً في الطرق
وعلى أجنحةِ السرعة يأتينا
في قنينة نفطٍ من أُمراء النفط
فعَمَّ تفتش يافتى؟؟
عن خزيٍ يقبع تحت عباءات الله؟
أم أنك تبحث عن سوطٍ يقبع في رئتي؟
ألست تدري؟
ولستِ أدري عَمَّ نبحث يافتى في هذا الكون!!
الوحل ردائي،
والوحلُ دائي
والله يقبع مقموعاً تحت عباءات الله
عفوكَ ربّي..
عفوكَ ربّي.. كنتَ على قلب الصحراء
كنت على جهة القلب
وأنا مازلت أتأمل أن أحيا في كوخٍ
يجمع نثاري
أتأمل مازلت
مازلت أتأمل...
أتأمل مازلت
...مازلتُ ١٩٨٧/١٠/٢٠

شعر

احجار كريمة

اياد عاطف حياتلة

اكليلُ غارٍ، ياسَمينةٌ، زَنبَقةٌ/
وردٌ على الشرفاتِ يَبكي/ المآذن تستجير بربِّها/
طيرٌ يغرِّدُ صوته مبحوحٌ/
وَحمامةٌ ترنو الى كل الجهات ولا أحدٌ/
فَتعودُ تدفُنُ رأسَها وَتنوحُ/
ليلٌ خرافيٌ يخيِّم/ والمداخل مُغلقةٌ/
البحرُ أسودُ/ والمخيِّم يونُسٌ في بطن حوتْ/
وَدَمٌ على الجدران يَرسُم صورتي/
الموت عرسٌ/ والقيامةُ قائمةٌ
وعروبةٌ دَفنت مروءَتها وما في حلقِها إلّا البياناتُ الـ تُهدِّدُ
أو تندِّدُ والسُكوتْ
ولايموتُ ولايموتْ/ يَغفو وينهضُ من جَديدْ

وَتراً سيفتتحُ النَّشيدْ
قمراً له الاكوانُ تسجدُ تستضيء به البيوتْ
ولايموتُ ولايموتُ/ يغفو وينَهضُ مِنْ جَديدْ
وَشماً سَتَنقُشه الصَّبايا فوقَ أذْرعِهنَّ أجملَ أوسمة
قلماً سيرسمُ للصهاينةِ الغزاةِ الخاتمةْ
ولايموتُ ولايموتْ
لدماه رائحةُ البنفسجِ وَالحَبَقْ
للنوّر في عينَيه مُعجزة الكواكبِ والشَّفَقْ
امٌ تزغرِد في ألقْ
حجرٌ بيمناها لمن روحَ الطفولةِ يقتلونْ
وَشارةُ النصرِ المُضيئةُ باليسارْ
حجرٌ يفكُّ عنَ الشبابيكِ الملونةِ الحصارْ
حجر لمن خبزَ المخيم يسرقونْ/ حجرٌ لهمْ
شبحاً سيجعل بالهَم أبداً قَلِقْ
ناراً ستحرق كلَّ انظمةِ الوَرَقْ
ولدٌ يموتُ ولايموتْ
امٌ تزغردُ في ألقْ
هذا الزمان طويلُ نحن وراءكم/ لَنْ نَستريحْ/
مادامت الدّنيا عَمالقةً تُسمِّينا
ويزهر سرُّها فينا/ وَتُهدينا حَجرْ
هذا الزمان طويلُ نحن وراءكم
كل المداخل مغلقةْ
كل المخارج مغلقةْ
اين المفرُّ.. ولا مَفرْ
هذي جَسارتنا تُلاحقِكم تؤرق نومَكمْ
هذي مَنارَتنا تُقاتلكم وَتُعلن مَوتكمْ
هذي حِجارتنا الكريمةُ سوف نهديها لكمْ

فَكَمْ مُتْنا.. لِنَرسُمَها
وَكَمْ ذُقنا المرارة كَيْ نؤلفَّها/ نزخرفَها/ نصنِّفَها
فَلا تستعجلوا/
وتخيَّروا الحجرَ الذي تبغونَ
يأتيكمْ.. ويرضيكمْ
وَعلى مقاسات الرِّكابِ يُفصِّلُ مِشنَقَةْ

* * *

حجرٌ يهيِّيء شمعتين الى الصباحْ
تهتزُّ من خوفٍ له العتماتُ
ترتعدُ الرياحْ
ويجيء في وجلٍ إليهِ اللهْ
وَيُقَبِّل الكفَّ التي ألقت بِهِ قمراً
لِخاتمةِ الجراحْ
حجرٌ كريمْ
حجرٌ يجيء كما الصراطُ المستقيمْ
هَدياً لمن تاهوا
لادربَ إلاَّهُ
حجرٌ هوَ اللَّهُ
آياتُه، وصِفاتُه، أسماؤه الحسنى، وَرَوْنَقُه العَظيمْ

* * *

حجر يضيء ويشتعلْ
نجماً يُعانق في السّماوات العليَّةِ حَنظلةْ
سَهْماً يواجه في زقاقات المخيّم قُنبلةْ
وَيباغتُ الجيشَ الذي يأتي على عَجلٍ...
..يُجنُّ وَيستعيذُ وَيستعينُ وَلا يَصلْ
جيشٌ يحاصرُ سُنُبلَةْ

حجرٌ سنحمله صليباً ثم نصعد فيه نحو الجُلْجُلَةْ
وَبهِ سنختصرُ الطريقْ/ ونودِّع الحزنَ العتيقْ
وَنغادر الوجعَ الشّتائي المغلغلَ في العيونِ وَنَقْتُلَهْ
حجرٌ به ستسافر الأجيال صَوبَ الفجرِ
تسرق من ليالي قَهرَها ضوءَ النهاراتِ الجميلةِ
والشّموس المُقبلةْ
حجرٌ سنعلنهُ على كلِ الطوائف كعبةً.. وَنُبَجِّلَهْ
ونهيمُ عشقاً في عبادتهِ
ونزرعُه على صدر المخيم رايةً
وعلى مزارات الذين مضوا نعدُّ له الولائمَ
الخنادقَ/ السواعدَ/ الوصايا/ القصائد/ البنادقَ/
الحمائمَ وَالقُبَلْ
حجرٌ تجَمّعَ في جَسدٍ
جسدٌ تكاتفَ واتحدْ
سَقط الشهيدُ وما ابتعدْ
كلماتُه ظلَّت ترنُّ إلى الأَبدْ
الارضُ نعرفُها
ونعرفُ كمْ فدائياً تَلِدْ
قُم ياولَدْ
هذي الطريقُ فَلا تَمدْ
هذا اوانك فاستَعمِدْ
إحمل حجَرْ
واضرب حجرْ
هي رميةٌ أخرى
وَيخضرُّ الشَّجَرْ

٨٨/٣

شعر

الشفق

كمال سحيم

-١-

عند الشفقِ الأولِ بانتْ
تتلو أشياءَ لا تُفهمْ
منها:
صحراءُ تتحضّرْ
عُشبٌ يحملُ ورداً أحمر

-٢-

عند الشفقِ الثاني جَلَسَتْ
قرأت..
رسمت..
تعبتْ
نامتْ
باحت بالسرِّ، وماخافتْ

-٣-

امرأةٌ في حجمِ الدنيا
تحملُ أشياءَ عربيّةْ
قامتُها نخلٌ يتطاولْ
زنداها مليون مقاتلْ
لوّحتُ لها..
ياسيدتي
البحرُ، سكونُهُ يُغرقُنا
والسهلُ، صفارهُ يَفْضَحُنا
والجبلُ، لانملكُ جبلاً
قطعونا حتى أرجُلِنا

-٤-

عند الشفق الثالث وقفتْ
تتلو معجزةَ التاريخ
تصرخُ بالرّيح العربيّةْ
مَنْ يغزو أرضَ المرِّيخ
فالأرضُ احترقتْ كالجمرةْ
والشمسُ انطفأتْ جذوتُها
والرحمةُ سقطتْ من قلبي
والغُرْبةُ صارت عنواني
والشهوة منِّي لاتُخطىء
مَنْ يُحضرُ سيّدَ أحلامي

ياقممَ البركانِ الأحمرْ
لأبوحَ اليومَ بأسراري
عند الشفقِ الرابعِ سارتْ
نحوَ بلادٍ في القضبانْ
جَمَعَتْ حولَ صلابةِ عودي
بعضَ الخسِّ! سنحرّرُها
قُلتُ: مُحالٌ ياسيدتي
زمني هذا صعبٌ جداً
قبلَ شروقِ الشمسِ سآتي
وتقابلني.
قلتُ: وماذا بعدَ مجيئي
قالت: اسمع،
هذا العامُ
سنبدأ حبّاً
.. نرسمُ لوناً
نشرقُ شمساً
قلتُ:
وماذا يعني هذا؟
غضبتُ.. غضبتُ
غضبتْ مني
صرختْ، أغربْ..
أغربْ عنّي
كيف تلوكُ الشمسَ أمامي،
وتقبلُني..
طعمُكَ هذا
ريحُ خنازيرَ بريّةْ
أغربْ عنّي

أغربْ عنّي

-٥-

عند الشفقِ الضائعِ تركتْ
كلَّ مدائحِها العذريّةْ
وحروفُ العربيةِ كانت
سرَّ دفاترِها الغزليّةْ
ما أروعَ عشقكِ ياامرأةً
سكنتْ في حَلْقِ البشريّةْ
انتفضي..
فالشفقُ الضائعُ
ماعاد غروباً أبديّاً
ماعاد الحزنُ وماعادتْ
أرضي أطلالاً مرثيّةْ
سأزيّنُ صدرَكِ بالمرمرْ
وأصومُ لعشقكِ كنبيّ
وأنادي في كلِّ العالمِ
مَنْ شاهدَ صرحاً لصبيّةْ
حاورتُ مفاتنَها حتى
أدمنتُ هواها الأزليّ
ونثرتُ جدائلَها بحراً
يتهادى شفقاً دمويّاً
وعرفتُ، بأنها قد ذابتْ
عشقاً بالأرضِ لأخبرها
عن شبحٍ أخفى الحريّةْ
ضنكى ياحلوةَ أعيننا
كلُّ الطرقاتِ العربيّةْ

١٢/١٠/١٩٨٧

اشعار مترجمة

من الشعر الفيتنامي

فيتنام الدم والزهور

للشاعر الفيتنامي
توهوو

ترجمة
سهيلة منصور

العطش الحارق لمئات السنين المنتظرة
واليوم يصل الفرح اشبه بالحلم
السماء هادئة وزرقاء
ووجه الارض هادىء كطفل نائم
...الحب الكبير اقوى من النار والفولاذ
وساحة المعركة هذه في قلوب كل الرجال
في المطر او الشمس تظل الارض جميلة ومستديرة
فالحياة تحبنا، ومن أجل الحياة يجب ان ننتصر
ايتها الاخت الصغيرة التي في الحداد لاتبك، مع ذلك
ايتها الاخت الصغيرة رحل ابوك ورحلت امك
فالدموع المتدفقة سوف تلطخ وجه العدو
وعليك ان تستهدفي رأس القرصان «اليانكي»
لاحزن للمرء ليحتفظ به.
فهذا استغلال لكل الجنس البشري.
ايا فيتنام.. الن يضيء هذا الدم وهذه الزهور
الايام القادمة.. وتزيد من جمال الوانها؟
ليس من السهل ان تلتئم هذه الجراحات،
ونصف جسدك لايزال في الالم ياوطني.
لكن موسم الفرح قد هل ربيعه.

ياقمَ البركانِ الأحمرْ
لأبوحَ اليومَ بأسراري
عند الشفقِ الرابعِ سارتْ
نحوَ بلادٍ في القضبانْ
جَمَعَتْ حولَ صلابةِ عودي
بعضَ الخسِّ! سنحرّرُها
قُلتُ: مُحالٌ ياسيدتي
زمني هذا صعبٌ جداً
قبلَ شروقِ الشمسِ سآتي
وتقابلني.
قلتُ: وماذا بعدَ مجيئي
قالت: اسمع،
هذا العامُ
سنبدأ حبّاً
.. نرسمُ لوناً
نشرقُ شمساً
قلتُ:
وماذا يعني هذا؟
غضبتْ.. غضبتْ
غضبتْ مني
صرختْ، أغربْ..
أغربْ عنّي
كيف تلوكُ الشمسَ أمامي،
وتقبلُني..
طعمُكَ هذا
ريحُ خنازيرَ بريّةْ
أغربْ عنّي

أغربْ عنّي

- ٥ -

عند الشفقِ الضائعِ تركتْ
كلَّ مدائحِها العذريّةْ
وحروفُ العربيةِ كانت
سرَّ دفاترِها الغزليّةْ
ما أروعَ عشقكِ ياامرأةً
سكنتْ في حَلْقِ البشريّةْ
انتفضي..
فالشفقُ الضائعُ
ماعاد غروباً أبدياً
ماعاد الحزنُ وماعادتْ
أرضي أطلالاً مرثيّةْ
سأُزيّنُ صدرَكِ بالمرمرْ
وأصومُ لعشقكِ كنبيّ
وأنادي في كلِّ العالمِ
مَنْ شاهدَ صرحاً لصبيّةْ
حاورتُ مفاتنَها حتى
أدمنتُ هواها الأزليّ
ونثرتُ جدائلَها بحراً
يتهادى شفقا دمويّا
وعرفتُ، بأنها قد ذابتْ
عشقاً بالأرضِ لأخبرها
عن شبحٍ أخفى الحريّةْ
ضنكى ياحلوةَ أعيننا
كلُّ الطرقاتِ العربيّةْ

١٢/١٠/١٩٨٧

من الشعر الفيتنامي

فيتنام الدم والزهور

للشاعر الفيتنامي
توهوو

ترجمة
سهيلة منصور

العطش الحارق لمئات السنين المنتظرة
واليوم يصل الفرح اشبه بالحلم
السماء هادئة وزرقاء
ووجه الارض هادىء كطفل نائم
...الحب الكبير اقوى من النار والفولاذ
وساحة المعركة هذه في قلوب كل الرجال
في المطر او الشمس تظل الارض جميلة ومستديرة
فالحياة تحبنا، ومن أجل الحياة يجب ان ننتصر
ايتها الاخت الصغيرة التي في الحداد لاتبك، مع ذلك
ايتها الاخت الصغيرة رحل ابوك ورحلت امك
فالدموع المتدفقة سوف تلطخ وجه العدو
وعليك ان تستهد في رأس القرصان «اليانكي»
لاحزن للمرء ليحتفظ به.
فهذا استغلال لكل الجنس البشري.
ايا فيتنام.. الن يضيء هذا الدم وهذه الزهور
الايام القادمة.. وتزيد من جمال الوانها؟
ليس من السهل ان تلتئم هذه الجراحات،
ونصف جسدك لايزال في الالم ياوطني.
لكن موسم الفرح قد هل ربيعه.

واخمدت اليوم نيران المعركة
اما الغابات والجبال فسوف تستعيد خضرة التحرير
ترفقي يامياه الميكونغ
وأجري معك أوحال العفن
والاسلاك الشائكة التي تمزق الوجوه والقلوب
اننا نعود الى انفسنا نحن اطفال هذا الوطن
ويختلط الدم بالدم احمر كُزُنْجُفْر*
ويا «سايغون» ويا «هوي» ان الغد آت
والشعب يعيد وحدته وعظمته في الوطن الواحد

---

* الزنجفر: صبغ كبريتور الزئبق لونه قرمزي.

تو هوو

(ولد عام ١٩٢٠)

اسمه الحقيقي: نغوين كِمْ ثانه. ولد في قرية فولاي (في مقاطعة ثوا ثين السابقة وسط فيتنام). كان والد تو هوو موظفا في دائرة البريد، يحب الشعر الصيني الكلاسيكي والشعر الفيتنامي الشعبي. اما والدته فكانت ابنة مثقف جاءت من قرية صغيرة قرب هوي، حيث ظل الشاعر تو هوو مرتبطا بها طيلة سني طفولته. وكانت هي التي ايقظت باغانيها وهدهداتها حساسية الشاعر لجمال الاغاني الشعبية.

عرف تو هوو، وهو في السادسة عشرة من العمر حيث كان بالكلية في هوي، بنشاطه الفعال في منظمة الشبيبة الشيوعية. ثم انضم الى الحزب الشيوعي، وهو في الثامنة عشرة، وسجن عام ١٩٣٩ حيث أرسل الى عدة سجون، تمكن اثناءها من الهرب عام ١٩٤٢. وظهرت قصائده الاولى في هانوي وسايغون، والتي غالبا ماكانت تُنسخ باليد، او تنتقل شفويا، من خلال قضبان السجن. وفي عامه الخامس والعشرين، واثناء ثورة اغسطس عام ١٩٤٥ قاد التمرد الذي قام في هوي.

عكس شعر تو هوو بعد ثورة اغسطس احداث فيتنام وحياة الفيتناميين، واصبح عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفيتنامي.

يقول تو هوو عن شعره مايلي:

«انني ارتبط بمتطلبات بلدي.. وبمشاكل الناس والحديث عن الابطال، وعن بسطاء الناس ذلك هو اهم مايمسهم فوق كل شيء فالشعر يتحدد بالناس، واذا لم يكن المرء مع الشعب بقلبه وروحه، فكل مايفعله هباء. انا لااكتب قصائد حب مباشرة، ربما لانها ليست من نقاط القوة لدي. هذا بالاضافة الى ان ليس من السهل قول قصائد كهذه، لانها مكررة، والمرء يجب ان يقدم اضافات جديدة، وليس من السهل ذلك ايضا. وعلى اية حال انا افضل هذا النمط من التعابير. انا احب وطني وشعبي واتحدث اليهما كمحب.

اعماله:

١ - فيت باك: مجموعة قصائد من المقاومة الاولى ١٩٥٤.

٢ - جيو لونغ (الريح الكاملة): مجموعة قصائد ١٩٦١.

٣ - را تران (الى الجبهة): مجموعة قصائد ١٩٧٢.

٤ - الدم والزهور: مجموعة قصائد صدرت عن دار النشر باللغات الاجنبية - هانوي ١٩٧٨ والقصيدة من هذه المجموعة.

من الشعر الصيني

قصائد تحت القمر

للشاعر الصيني
لوي فانغ

ترجمة
عباس الطائي

(١)
الوردة الحمراء

واقف على حافة الينبوع المضيء
متأملاً الامواج الصافية
وقد تدفقت باتجاه العالم
رميت وردة حمراء
فازداد العالم جمالاً
واهباً الربيع

(٢)
الشتاء

ثلج ناصع البياض
أوراق مصفرة وداكنه
حضنت صدر الارض
لكن.. دفء قلب صديقي
شعر أن زهور الربيع آتية

(٣)
الشاعر

غربت الشمس بعيده
داهمها هطول المطر بغزارة
والقى قوس السماء ألواناً سبعة

شاعر ماهر اصطاد الغيوم الباكية
على الحياة.. مؤلفاً شعراً سرمدياً

(٤)
الموسيقى

الرأس منحنٍ وانا اصغي للامواج الصوتية
عالم بلا نهايات.. الحياة سرمدية
عبرت حدود القلب
اصغي.. هادئاً.. صافياً
فجأة.. نغم اذهلني
حتى.. اسقط من يدي الوردة
روحي ذهبت صامتة
وذرفت الدموع بغزارة

(٥)
على الجانب الشرقي

شعاع الشمس انساب هذا المساء في قلبي فرحاً
واقفاً بعيداً عن البحر.. وانا اصغي
لالحان السماء المزينة بالنجوم
بالقرب مني رقدت وردة وحيدة
أنا نثرت عطرها الى حلم
آه.. حلم.. حلم..
حلم تحت القمر
هي تبحث عن الامن
وانا أحن الى مسقط الرأس

" عن مجلة الآداب الصينية "

قصة

سونيا والجنرال

اعتدال رافع*

سونيا ذات الفم الأشقر والعينين الواسعتين، لم يسبق لها ان رأت جنرالاً عن كثب أو صافحته، فقط كانت ترى الجنرالات بأبهتهم وعظمتهم في التلفزيون والصور. وكانت تسحرها ملابسهم، وتخلخل لبّها النياشين الذهبية المعلقة على صدورهم بأشرطة زاهية الألوان:

هيبة الجنرالات ووقارهم، وقع أقدامهم الثقيلة وقرقعة أسلحتهم، تبعث الرعدة في مفاصلها بمجرد أن تتخيّل نفسها قريبة منهم، لذلك راح قلبها يدق كالطبول، ويطعج مفاصلها اللينة، بينما كانت تنحرف الى طريق الجنرال بصحبة جارهم اسكندر الصغير.

واسكندر فمه كان واسعاً كالمغارة.

واليتة بارزة ومستديرة.

ثقيلاً كان ذلك المساء ورمادياً كالقصدير، يتفصد عرقاً ولهاثاً، ويجفّ لعاب سونيا من عنف ضربات القلب والعرق الغزير. كانت تجلس الى جانب اسكندر في سيارته السوداء كأنها ذاهبة الى نعيها، هدير محرّك السيارة التي تجهل ماركتها ونمرتها، كان يطغى على هدير قلبها المشحون بالقلق والتوتر.

واسكندر كان قد أعارها فستان ابنته وحذائها كي تظهر بمظهر لائق أمام الجنرال:

ـ فساتين البالية العتيقة صارت غالية، وكذلك الأحذية تضاعفت أثمانها.

قالت لها أمها.

ـ «ألبس العود يجود، وألبس المكنسة تصبح ستّ النساء».

قال لها اسكندر.

وهي رغم نحولها، ليست عوداً أو مكنسة، تليق بقدها كل الملابس مهما كان نوعها.

في طريقها الى الجنرال كانت تمنّي النفس في الحصول على وظيفة محترمة تليق باسمها وشهادتها

---

* قاصة وروائية وصحفية من لبنان.

الجامعية التي حصلت عليها منذ عامين، وهي تمقت الحاجة التي تجبرها على التخلّي عن كبريائها وتدفعها الى سلوك بعيد كل البعد عن طبيعتها. وخلال هذين العامين، كانت قد استنفذت سبلها ومشاويرها. طرقت كل أبواب العمل، ونفد حبرها من كثرة ماتقدّمت بطلبات عمل الى المعنيين، وكان جوابهم في كل مرة، لايوجد تعيين في الوقت الحالي، وماعليها سوى انتظار موعد المسابقات.

الجنرال قبلتها الاخيرة.

قال لها اسكندر وهو يتلمظ فمها الأشقر:

ـ ضعي يديك وقدميك في مياه باردة. الجنرال سيحل لك هذه المشكلة.

ـ ولكني لاأريد أن أتعينّ ضابطاً في الجيش!!

ضحك اسكندر من غبائها. وبانت فجوات أضراسه المخلوعة كحفر ممتلئة بالصديد.

ـ الجنرال لاتقتصر سلطته على الجيش فقط، يمكنه أن يرفع سماعة الهاتف ويعيّنك وزيرة أو سفيرة، وهذا يتوقف على شطارتك وأساليبك في إقناعه.

الجنرالات يبعثون الرهبة في قلوب الرجال..

واسكندر لايبالي، كأن الجنرال أخوه في الرضاعة!

وهي سونيا، تلجم رهبتها، ولاتستطيع السيطرة على انفعالاتها وارتعاشاتها القصوى، يتفصّد منها العرق ويرسم دائرة من الماء على الفستان تحت الابطين:

والفستان ليس لها..

هجم لومها على اسكندر الذي زجّها في موقف صعب لم تتعود عليه، وكان من الممكن ان يوفر عليها كل هذا التعب لو أنه ناب عنها في حلّ مشكلتها وسأل الجنرال التماساً من أجلها. ولكن اسكندر قال لها، ان حضورها ضروري لتؤثر على الجنرال مباشرة.

ـ ماحك جلدك مثل ظفرك.

وهي لاأظفار لها.

الازمات الكبيرة من تراكم الازمات الصغيرة، وسونيا تعتقد ان انفراج ازمة الشرق الاوسط من انفراج ازمتها هي وأمثالها:

تأخر وقت اللوم ولاجدوى من الفلسفة ياسونيا.

انكمشت على نفسها كالعصفور الذي يخبىء رأسه تحت جناحه في العتمة.

سألها اسكندر:

ـ لماذا انت حزينة؟ حريّ بك ان تفرفشي وتضحكي الى آخر الضحك. مقابلة الجنرال فرصة نادرة لايحظى بها سوى السعداء

قالت له: أنا مجفولة.

وظلّ اسكندر يقهقه طول الطريق، ولأول مرة تخيفها ضحكاته.

ترى كيف تمكن من الوصول للجنرال وهو مجرد تاجر صغير وقصير واليته مستديرة ولا جبين

له؟

مثل هذا الأمر ظلّ خافياً عليها، كما انها لاتعرف البتة ان اسكندر كان مخضرماً بالجنرالات والصفقات التجارية الباهظة. كل الذي تعرفه عنه، انه كان يعيش في بحبوحة ورخاء مثل معظم التجار، وكان يتحف أفراد اسرته على الدوام بما خفّت أوزانه وغلت أثمانه.

طلب منها اسكندر ان تحلّ شعرها وتفرده على كتفيها وظهرها، وكانت تحزمه الى الخلف بقطعة من المطّاط على شكل ذيل حصان:

وسونيا ليست بحصان، ولكنها تحب الأحصنة وتقلّدها في أذنابها. فرد الشعر الطويل يعيق الحركة ويسبب الحر بالاضافة الى انعقاد خصلاته وصعوبة تمشيطه. وهو يليق بالصبايا المهفهفات والمدللات. وأبوها «آذن» في مدرسة معاشه على قدّه، يبيع البوشار وسندويش الفلافل للأولاد، كي يتمكن من إعالة أفراد أسرته.

استجابت لرغبة اسكندر، فردت شعرها، وتساقط كالشلال على ظهرها:

ـ هكذا أجمل بكثير، الشعر الطويل تاج المرأة ومن تملك تاجاً مثل تاجك يجب أن تفاخر به ولاتخفيه عن عيون الجنرالات.

شعرها الطويل أيقظ حنينها الى الطفولة.. وعنَّ على بالها الصغر:

ـ عندما كنت صغيرة كانت أمي تغنيّ لي وهي تمشطني:

ياشعر الحلوة طول طول

«ياشعر البشعة أكلته العجول.»

وطال شعري بالأغنية.

ـ الآن كبرت وأصبحت صبيّة حلوة، وعليك ان تكوني لطيفة ومهذبة عندما تقابلي الجنرال. احسني التصرّف وتحلّي بالرقة والأنوثة. تذكري جيداً انها فرصة العمر تدفنين فيها الفقر الى الأبد. الحظ لايدقّ الباب سوى مرّة واحدة.

هزّت رأسها مرغمة، نصائح اسكندر تسبب لها الغثيان والصداع، ومهما ألحّ عليها الحاجة وتفاقم حرمانها لاتستطيع العمل بنصيحة مالم تتجاوب مع مشاعرها ودقّات قلبها.

تذكرت قول أمها:

ـ اليد التي لاتستطيع ان تعضّها، قبلّها وادع عليها بالكسر.!!

كان هذا القول يحيّرها ويشوّش صراحتها ووضوحها، إذ كيف يستطيع الانسان تقبيل يد بعيدة كل البعد عن احترامه وحنانه؟ والدعاء لايسكرها وانما يزيدها قوّة وجبروتاً!!

روضت شفاهها المغمّسة بالحرمان المقرون بالرفض.. كي تنطق بالتهذيب. توسلت الى اسكندر ان يكفّ عن نصحها لأنها تعرف أكثر مما يتوقع، وإذا كان جاداً حقاً في خدمتها، فما عليه سوى أن يكمل معروفه ويساعدها في مسعاها إذا ماتلكأت أو خارت أو ارتجت:

ـ ارجوك ياعمي لاتتركني وحيدة مع الجنرال.. أنا لاأعرفه.

وعدها اسكندر بذلك من طرف لسانه، وضغط بقدمه المفلطحة على البنزين.

فتحت سونيا الشباك علّها تطير منه، وتتحرر من شكوك وأوهام وهواجس تنخرها كالسوس.

اخترقتها النسمات، برّدت عرقها، طيرت شعرها، وأنعشتها. كانت السماء صافية كوجه البحر في ليلة مقمرة. والاشجار تستريح من لهاث الشمس على خضرتها، وصف التلال البعيد ظهر لسونيا كقطيع من النساء الحوامل منذ بدء التاريخ. في الطبيعة ترتاح سونيا ويتحلحل تعبها، تتحرّر من عبوديات وجفلات عتيقة وعريقة، تخضرّ روحها كبرعم ينقط شهداً. الطبيعة تمنحها الامان أكثر من البشر. وفي احضانها الفضفاضة والمشرعة على أنفاس الآلهة، تحسّ نفسها كاملة، العالم من حولها مسخّر لها ومنسجم مع نقلاتها ودقّات قلبها.

باقتراب السيارة من سور بيت الجنرال، زعق زمورها وشلع سونيا من بريّتها الآمنة الى حصار الواقع وجفلاته، اصفر لونها واقشعرت مسامها.

قال لها اسكندر:

ـ الجنرال لطيف وديمقراطي، وليس «بعبعاً» كما تتخيلينه.

رحّب حرس الجنرال باسكندر، فتحوا له باب الحديقة على مصراعية ولم يعترضوا سيارته ابداً. كانوا يرمقون سونيا بنظرات جريئة كأنها عارية من ملابسها.

درب الجلجلة مسامير وأشواك.

ترجّلت سونيا من السيارة ووخزتها قدماها. لم تلاحظ الجمال الذي كان يحفّ بها من كل جانب. حديقة الجنرال كأنها قطعة من الجنّة متماوجة الألوان صداحة الألحان.

مساكب ورود من كل صنف ولون سوّرت بالأشجار. خرير نوافير المياه يمتزج بزقزقة العصافير، مقاعد مصقولة من مرمر أخضر، أراجيح زاهية، وكراسي ومناضد بلون الحليب.

الله خلق الجمال ليستمتع به عباده، وسونيا في تلك اللحظة كانت مقطوعة عمّا حولها، مستغرقة في ذهولها، كالمسبوعة ببول غيلان التاريخ والحاضر، سارت خلف اسكندر مشدودة برسن يحزّ عنقها ويذبحه. تبعته في ممرّ كأنه دغل، وتوقفت حيث توقف امام باب عريض مقابضه ذهبية ويعلوه قوس حجري عتيق برزت منه رؤوس لحيوانات لاحمة. قرع اسكندر جرس الباب وبلمح البصر اختفى بين الاشجار. استوحشت سونيا من الوحشة، ونسيت اسمها والسبب الذي جاء بها الى هذا المكان. غريزة ملحة كالولادة استقرت في كيانها وحرضتها على الهروب، وقبل ان تطلق قدميها للريح فتح الباب وهفّت من الداخل رائحة خمور زخمة. قادها الحاجب الى الجنرال وكان يجلس على كنبة على شكل زورق ويرتدي جلابية بيضاء موشّاة بخيوط ذهبية. الكنبة ذكرتها بنوح.. وتمنّت أن يغرقها الطوفان مع العالم.

مدّت يدها المرتعشة الى الجنرال دون أن تحييّه، وقال لها أهلاً. شدّها وأجلسها الى جانبه.

والجنرالات في الجلابيات مثل بقية الناس لايبعثون الرهبة، وتلك الملابس المطرزة بالنياشين والتي يظهرون بها أمام الملأ هي التي تفخّمهم وتعطيهم حجوماً أكبر من حجومهم الطبيعيّة.

ورغبات الجنرالات أوامر فورية، يدخلون الى اللبّ الموضوع مباشرة دون لف أو دوران، ولايلجأون الى المقدمات والديباجات المنمّقة كتلك التي يلجأ اليها المستلبون لاثبات جدارتهم وأهليتهم من خلال شدّ الانظار اليهم التي تشعرهم بأهميتهم كبشر.

عصر الجنرال سونيا بيديه والصقها بجسده، قرصها من حلمتها وهم بتقبيلها قبل أن يسألها عن اسمها. دفعته بعيداً عنها وصرخت من قاع الغرق:

ـ آخ ياسيدي الجنرال، انك تؤلمني كثيراً، حلمتي من لحم ودم وحليب. . وليست زناداً أو سوطاً. .

وخنقتها الدموع.

والجنرال لاتستعصي على فتوحاته القلاع، وقال في نفسه انها صبيّة خام تتمنع بقصد الاغراء والدلال مثل بقيّة الصبايا اللواتي يفتقرن الى التجربة. وكرر المحاولة أكثر من مرّة، وصدّته كحيوان جريح يدافع عمّا تبقى فيه من دماء ورمق.

نشجت بصوت مبحوح يحمل على اوتاره المخنوقة تضرّعات واستغاثات لانهاية لذعرها. تردّد نشيجها في أرجاء القصر الكبير كمرثية تنعي موت صبيّة.

تراخى الجنرال مهزوماً، وعصر صدغيه بيديه.

ركبه عار لايليق بشرفه العسكري، تذكرّ المعتصم وصرخة تلك المرأة التي استنجدت به، لازالت داوية في اذنيه، الصبية التي تجهش في البكاء الى جانبه هي من بنات شعبه، ومن الجبن ان يقتحمها ويذلها. نهض مستقيماً يحمل على منكبيه ارث الفرسان الذين كانوا يموتون في سبيل حماية أعراضهم:

ـ لاداعي للبكاء يابنتي. .

أشرقت في سونيا شموساً كانت قد غادرتها منذ ان قررت المجيء اليه.

ـ انا إنسان ياسيدي. تستطيع ان تقتلني ولاأحد يجرؤ على محاسبتك. . ولكنه. . جسدي.

مدّ يده الى وجهها ومسح دمعها.

ـ ماسمك؟

ـ سونيا.

ـ أنا إنسان أيضاً ياسونيا.

وراح يكيل الشتائم لاسكندر وينعته بأبشع النعوت ويتوعده بالعقاب.

ولّما نهضت سونيا لتودعه كانت قد بارحتها جفلتها، ولم تطلب التماساً منه كي يوظفها.

قال لها وهو يشدّ على يدها:

ـ اعذريني. . منذ زمن بعيد لم أخض معركة.

١٩٨٩/١/١٠

قصة قصيرة

التهمة

ليلى العثمان*



أركض. . أركض. يسابق عرقي خطوتي، والطريق يمضي من حولي مرتداً، كأنه يهرب مني، لا أنا التي أهرب منه. التراب من تحت أندامي يثور فاراً من لسعة الخطوة، بينما الحصى تئن فتنتقم من سحقي لها، تُسقطني فأتمالك نفسي، وأنتصب ثانية لأكمل فراري. أدلف من شارع إلى آخر وروائح الناس والمحال المكدسة بالفوضى، والقمامات المبعثرة، تصنع أنفي، فينز عطاساً متوالياً يتطاير مع الهواء، ولا أدري أين يستقر.

الصراخ يتعالى، يتفجر من حناجر الرجال والنساء والأطفال الذين لم يرحموا عرقي، وهم يقذفونني بالحجارة وبالمداسات المهترئة، بينما الحلم يتعابث في نفسي، متمنياً لو يُفتح باب مجهول، ويحتوي فزعي، فتبرد النار التي في قدمي حين ألقى صدراً يحضن بؤسي، ويرفض التهمة، ويدافع

* قاصة وروائية من الكويت لها عدد من الاعمال.

ورغبات الجنرالات أوامر فورية، يدخلون الى لبّ الموضوع مباشرة دون لف أو دوران، ولايلجأؤن الى المقدمات والديباجات المنمقّة كتلك التي يلجأ اليها المستلبون لاثبات جدارتهم وأهليتهم من خلال شدّ الانظار اليهم التي تشعرهم بأهميتهم كبشر.

عصر الجنرال سونيا بيديه والصقها بجسده، قرصها من حلمتها وهم بتقبيلها قبل أن يسألها عن اسمها. دفعته بعيداً عنها وصرخت من قاع الغرق:

ـ آخ ياسيدي الجنرال، انك تؤلمني كثيراً، حلمتي من لحم ودم وحليب. . وليست زناداً أو سوطاً. .

وخنقتها الدموع.

والجنرال لاتستعصي على فتوحاته القلاع، وقال في نفسه انها صبيّة خام تتمنع بقصد الاغراء والدلال مثل بقيّة الصبايا اللواتي يفتقرن الى التجربة. وكرر المحاولة أكثر من مرّة، وصدّته كحيوان جريح يدافع عمّا تبقى فيه من دماء ورمق.

نشجت بصوت مبحوح يحمل على اوتاره المخنوقة تضرّعات واستغاثات لانهاية لذعرها. تردّد نشيجها في أرجاء القصر الكبير كمرثية تنعي موت صبيّة.

تراخى الجنرال مهزوماً، وعصر صدغيه بيديه.

ركبه عار لايليق بشرفه العسكري، تذكرّ المعتصم وصرخة تلك المرأة التي استنجدت به، لازالت داوية في اذنيه، الصبيّة التي تجهش في البكاء الى جانبه هي من بنات شعبه، ومن الجبن ان يقتحمها ويذلها. نهض مستقيماً يحمل على منكبيه ارث الفرسان الذين كانوا يموتون في سبيل حماية أعراضهم:

ـ لاداعي للبكاء ياابنتي. .

أشرقت في سونيا شموساً كانت قد غادرتها منذ ان قررت المجيء اليه.

ـ انا إنسان ياسيدي. تستطيع ان تقتلني ولاأحد يجرؤ على محاسبتك. . ولكنه. . جسدي.

مدّ يده الى وجهها ومسح دمعها.

ـ ماسمك؟

ـ سونيا.

ـ أنا إنسان أيضاً ياسونيا.

وراح يكيل الشتائم لاسكندر وينعته بأبشع النعوت ويتوعده بالعقاب.

ولّما نهضت سونيا لتودعه كانت قد بارحتها جفلتها، ولم تطلب التماساً منه كي يوظفها.

قال لها وهو يشدّ على يدها:

ـ اعذريني. . منذ زمن بعيد لم أخض معركة.

١٩٨٩/١/١٠

قصة قصيرة

التهمة

ليلى العثمان*



أركض. . أركض. يسابق عرقي خطوتي، والطريق يمضي من حولي مرتداً، كأنه يهرب مني، لا أنا التي أهرب منه. التراب من تحت أندامي يثور فارّاً من لسعة الخطوة، بينما الحصى تئن فتنتقم من سحقي لها، تُسقطني فأتمالك نفسي، وأنتصب ثانية لأكمل فراري. أدلف من شارع إلى آخر وروائح الناس والمحال المكدسة بالفوضى، والقمامات المبعثرة، تصنع أنفي، فينز عطاساً متوالياً يتطاير مع الهواء، ولا أدري أين يستقر.

الصراخ يتعالى، يتفجر من حناجر الرجال والنساء والأطفال الذين لم يرحموا عرقي، وهم يقذفونني بالحجارة وبالمداسات المهترئة، بينما الحلم يتعابث في نفسي، متمنياً لو يُفتح باب مجهول، ويحتوي فزعي، فتبرد النار التي في قدمي حين ألقى صدراً يحضن بؤسي، ويرفض التهمة، ويدافع

* قاصة وروائية من الكويت لها عدد من الاعمال.

عني دفاع النفس عن النفس. لكن الباب المجهول لايُفتحَ. والصرخات وحدها تفتح في وجهي فحيحها: أمسكوها. . المجرمة. وأنا لست بمجرمة! لم أفعل شيئاً، سوى أنني دافعت عن نفسي. غرزت أظافري المتسخة في لحم وجهه، وكشطت جلده، وتركته سابحاً في الدم. هو الرجل الفاجر الذي نهت رجولته وصورة ابيه يفترس أمه، ماتزال في عمقه. وأنا الطفلة التي توّهتها الأيام. آه لو كانت أمي حضنت رأسي يوماً، وزرعت وردة داخل صدري، لتثمر سياجاً من الشوك، يمنع عني الأذى لكنها لم تفعل. وكان عليّ وحدي أن أواجه هجمة الذئب، وقد اشتعلت حمم في عروقي، فصرت في لحظة نمرة تدافع عن بقائها. عن شيء لاتعلم أبداً أنها اذا خسرته، فإنها تخسر كل العمر. لكنه بالتأكيد يفهم ويعرف ماالذي يريده من جسد طفلة يتوهج بنضارة نادرة. كان الدفاع لمجرد الخوف من غريب من لمسة مليئة بالعنف، فمزقت الوجه ولذت بالفرار.

لم يحم فراري أحد. لا الأم غفرت. . ولا الأب انتفش كطاووس ليهنىء نفسه بطفلته التي ردت عنه العار. كان اللهب يستقر في عينيه. وكانت العصا تنهش الجسد الصغير. وقد امتد رذاذ الألسن عبر الشوارع حتى طرق نوافذ البيت: المجرمة، شوّهت وجه الرجل! والتصقت بي التهمة لصقة أبدية حرّمت عليّ أن أطل برأسي الى الشارع.

تقفز الصورة القديمة تلك أمامي، وأنا أهرع هذه المرة بشكل آخر. فلست تلك الطفلة المنكوبة بأبوين لايعترفان بأن الأبناء زينة الحياة الدنيا، ولست الطفلة التي تهرس تراب الشارع بانتظار الباب الرحيم. بل امرأة تحتويها سيارة فارهة مكيّفة، تسحق عجلاتها وجه الطريق، وتشق الكلمات الظالمة سمعها:

ـ إحضري حالاً. أنت متهمة، والمحكمة معقودة لمحاكمتك.

ترى ماهي تهمتي؟؟ هل لمحوني ليلة البارحة وأنا أدس أناملي في جداول شعره المتموج، ثم ألقي برأسي نحوه فتلتقي شفتانا في قبلة تتدفق حلاوة وصدقاً، لكنني لم أفعل منكراً فهذا الرجل يخصني، ومن حقي أن أقبله متى أشاء وأينما أشاء، حتى وإن كان ذلك في مكان عام، هل يمنعون الحب؟ ألا تكفي ممنوعاتهم التي تبدأ ولا تنتهي؟ أم تراهم قد التقطوا لي صورة تذكارية قديمة بعيون كاميراتهم التي رصدت أولى سني مراهقتي. يوم عرفت طعم القبلة الاولى ذات ليلة ربيعيّة، وأنا في حديقة القصر الكبير، في زاوية ابتعد عنها القمر وضوء الشارع. كانت النسمة باردة تلسع جسدي، وزهيرات الفتنة الصفراء على أغصانها تتلاعب وتتداعب، فتثير الشوق أكثر في نفسي أن يفي الحبيب بوعده، ويسرق نفسه، كما سرقت نفسي من أغلال الدور الرابع، ونزلت أنتظره، حتى إذا أقبل أشرقت الرغبة من داخلي، فاحتواني، هرس زنديّ الباردتين بذراعين لهفتها أكبر من لهفتي فألهب النار في الشتاء المنتظر. هو يقترب رويداً من وجهي. وأنا أرفع جسدي على أطراف قدمين مرتعشين، لأصعد الى شفتيه. وقد تصاعدت أمامي وجوه بطلات قصص كبار الأدباء التي قرأتها. تلك هي لحظة مماثلة أحقق فيها ماحققته الحبيبات.

أخذ يشدني. يقربني اكثر. رائحة الشوق تذيب رائحة زهور الفتنة المتناثرة من حولنا.

أحسست بشفتيه، وهما تقتربان كأنهما صياد يقتحم عالم سمكة نادرة. ثم فجأة التهم شفتي الطازجتين العذراوين التهاماً محموماً. تلك هي القبلة إذن. إعصار فيه القسوة واللذة وروعة الاكتشاف. ليلتها، وبعد أن انسللت من المكان بحذر، وقفت أمام المرآة، لاأرغب في الابتعاد عنها. ظللت أتحسس شفتي المتنعشتين بوداعة، خشية أن يزول نداهما وخدرهما وفرحهما. ووجه الحبيب يتمثل أمامي في المرآة فأقترب أكثر. ألصق وجهي بالوجه الآخر، وأستعيد لحظة القبلة. لم أكن خائفة، فلم أفقد شيئاً عزيزاً، وقد عرفت أن للفتاة ذلك الشيء العزيز الذي لايجب أن تفقده، فقد كان الرجل الذي أحب يعرف سر الحب، ومداه ونقطة التوقف والرأفة. هو ليس كصاحب ذلك الوجه المجدور الذي مزّقته ذات يوم وفررت. انه الرجل الذي يحقق لي السعادة والأمان في وقت واحد. فكيف لاأرضى بهذا الغيث يغسل مواسم الخوف والحنين؟ ويعقد لي في النهار التالي عقداً من زهور الفتنة، يأسر عنقي فيه مبللاً بندى القبلة الأولى التي ربما يأتون اليوم ليحاكموني عليها، أو على قبلتي للرجل الذي يخصني ليلة البارحة؟؟

لو كانت تلك تهمتهم فسأعترف أنني مارست حقي في الحب. وأنني مازلت أمارس هذا الجنون كل يوم، فإن شاءوا فليقطعوا قلبي. . وشفتي.

التهمة المجهولة والمحاكمون بانتظاري. أسرع أسرع في الشوارع العريضة. أين منها ذلك الشارع القديم الذي أسرعت فيه يوماً لاهثة وهاربة، وهو يكتظ بالسائرين والراكضين. الشوارع اليوم فارغة. كل الأجساد مقذوفة داخل السيارات الفارهة. تتسابق وتتزاحم، ولاتترك لحظة سلام واحدة. لاشيء يسالم اليوم ويشعرنا بالأمان، رغم أنهم ـ يضربون بيد من حديدكل من تسول له نفسه أن يعبث بأمن البلاد ـ هاهي الدعوة للمحاكمة تهز أمني، وتعبث به، فأسرع مذهولة ومحزونة ومتسائلة.

لاقاني وجه حارس كئيب. أشار بيده. تحركت الى الأمام. جاء اثنان لايتميزان عنه بشيء. أمرني الأول أن أفتح غطاء السيارة الأمامي. وأمر الثاني أن أفتح الصندوق الخلفي. واقترب ثالث، لاأدري كيف جاء، وجهلته عيناي، فتح الباب واندس في المقعد الخلفي يتلصص تحته. . وينبش الأغراض المتكومة عليه. كتب، ملابس للغسيل، بقايا ألعاب ـ «باربي» ـ محطمة وشرائط كاسيت لأغاني قديمة، لايعرف قيمتها جيل اليوم، وأقراص خبز، وكيس دواء، وآخر به شامبو وعلبة كريم وقلم روج برتقالي.

انتهت العملية، واطمأنت القلوب، فارتفع الحاجز، واستوت الأرض أمامي فدلفت فخورة ـ بمواطنتي ـ الصالحة أبحث عن مكان للوقوف. وقد تراصت قطعان السيارات، تعانقها بقسوة حرارة شمس الصيف.

حين وطئت قدماي مدخل المبنى الكبير، وجدت أحدهم يقطع علي الطريق، يُعرف باسمي، ليتأكد منه، فأومأت له أنني ـ المطلوبة ـ فقادني الى الطابق الأخير من المبنى العظيم، حيث عُقدت المحكمة العتيدة.

وجدت أربعة رجال بانتظاري، يستريحون على الأرائك الوثيرة. أشار أحدهم فجلست بخيبة شديدة، إذ لم يتحرك أحدهم احتراماً ليصافح أو يبتسم. كانت أيديهم تقلب في الأوراق، وهم صامتون. وقد أصابتني منهم العدوى، فلم أجد ماأفعله إلاّ أن أتأمل أشكالهم، وهم كتماثيل من الشمع الأصفر البائت.

ألقت الأيدي بالأوراق. فهالني أن أجد في يد كل واحدٍ منهم مشرطاً حاداً. ينعكس عليه ضوء السقف، فيلتمع أمام عيني. ارتعدت أوصالي، وسرت في عظامي برودة قاسية، كأنها جاءتني من ذلك الزمن البعيد.. البعيد.. الذي شهد اللحظة المرعبة.

هي ذي المشارط في الأيدي. اذن هي المرة الثالثة التي أواجه فيها التهديد بالذبح، بعد كل تلك السنوات الراحلة التي تكرُ الآن مسرعة، وترتدُّ بي الى ذلك النهار الأسود الذي لم تنفه الذاكرة، ولم تفقد صوتاً من أصواته، خاصة صوت أبي الوحشي، وهو يشد أذني بقسوة اعتادها ويصرخ:

ـ هاتوا السكين.

ولاأدري كيف شددت نفسي بقوة ريح مفاجئة، حتى خُيّل إليّ، أنني تركت أذني وحدها دامية، بين أصابع أبي تغور في لحمها.

طارت بي ساقاي النحيلتان، فلم أجد نفسي إلاّ متكورة تحت السرير الخشبي، يهتز ويئز فوق جسدي الذي يرتعش ارتعاشاً ظالماً، دلّ على مكاني، فسحبتني يد جبارة لاتعرف الله ولا الرحمة. وساقتني الى حيث يقف أبي، وقلبي يرفس، وخطوتي على أرض الحوش الترابي تتأرجح وتتعثر وتثير الغبار.

تقابل وجهي المرتجف بوجه أبي الثائر المربد الذي يوزع نظرته بيني وبين حبل غليظ يذبح خيوطه اليابسة بحد السكين، ثم يقذف بها بعيداً. تحسست عنقي اللدن وناجيت نفسي:

ـ هو لن يذبحني اذن. ربما سيشنقني!

لم تتواصل مناجاتي لنفسي. كانت يده أسرع. شدني وقذفني بعنف الى عامود الليوان الذي اهترأت أصباغه. أجلسني وأسند ظهري إليه. ومدّ ساقي المرتجفتين أمامي. فانتبهت أن أظافري طويلة ومتسخة. صرخ في أعماقي رجاء أن يرى أظافري ليعرف أنني طفلة مهملة أحتاج للرعاية والحنان، لا إلى عنف وقسوة. لكنه يركز نظره على الحبل الذي يلفه حولي ويشده. وأنا ذليلة في صمتي لا أجرؤ على إطلاق سؤال مهووس بداخلي، يفسر لي سبب هذا العقاب. فأبي يكره السؤالات أمام قراراته الصلبة، ويعتبرها إهانة لأبوته المتفردة.

انتهى من تقييدي، وأخذ ينفض يده، بعد أن طرق رأسي بالعامود ثلاث مرات، والعيون من حولي تتطلع جبانة لاتمد يداً. ولا تركع توسلاً. كثيرها يبصق حقداً وتشفياً بطفولتي اليتيمة، وقليلها من عيون أخواتي الصغيرات تغدق إحساساً بالحزن والحنان العاجز. أما عينا أبي فلم تتكرما بالنظرة. وآه لو فعل، فلربما تنهار سدود قسوته، اذا لمح الدم يطفر بدل الدموع، والرجفة تكاد تصعق الشفتين الصغيرتين اللتين تخثر فيهما السؤال والألم. لقد ابتعد وصوته الهدّار يهز سكون

الضحى:

ـ لو اقترب أحدكم وسقاها ماءً، فسيكون عقابه أقسى.

لم يكن أقسى من أبي، إلاّ ذلك النهار الذي تآمر عليّ بطوله. وتآزر مع الشمس الصيفية التي نزفت نارها فوق رأسي الذي سقط ذليلاً فوق صدري، والأفق من حولي يضيق، وتنسدل مرايا الجحيم فينشر جسدي بخاره المالح، مختلطاً بمرارة الثغر والدموع والبول الذي تسرب ساخناً. فتنتشر رائحتي منفّرة، والسؤال مطارق تنتشر وتدق في كل فجوة من رأسي:

ـ ماهي تهمتي؟؟

لم أسرق رغم حصار التجويع الذي يمارسونه كل يوم على معدتي الصغيرة فتشتهي حتى حبة تمرٍ في يد متسوّلة، دقت الباب ذات مرة.

لم أكذب، رغم أن الكذب لعبة الكبار المفضلة، ولم أكسر شيئاً ثميناً، رغم أنهم كسروا قلبي منذ تكسرت أعمدة الحياة بين أمي وأبي. ولم أتبول في فراشي، رغم ليالي الفزع وانتظار رشفة ماء أو دواء أو قبلة من شفة الأم. لماذا هذا العقاب إذن: ظل السؤال الحارق يلوب، حتى أنهت الشمس رحلتها المجنونة، وودعت السماء تاركة غلالة حمراء بلون حزني. حينها جاء أبي. اقترب ليفك قيدي، ثم يتكرم عليّ بقطرة ماء رشها كما البصقة على وجهي المحتقن، فلم أتلهف إليها رغم عطشي وجفاف روحي.

لم أصدق أن يدي تحررتا من أسرهما، وارتخت ذراعاي نحو الأرض التي ماتزال تزفر حرارتها. كان الحبل قد حفر خطوطه، وقد تورم حولها وتلوّن بالزرقة الداكنة. نظرت الى الأثر المؤلم، ثم رفعت عيني نحو وجه أبي، متمنية لو أنه لمح مالمحت. لكن نظرته كانت معطلة، وفمه هو الذي نطق:

ـ حتى لاتكرري فعلتك مرة ثانية، وتحرقي ملابس وأشياء عمتك.

شكتني المفاجأة. وأرعدتني الكلمات، وفوجئت بالشرارة تندلع من فمي الجائع:

ـ لا. لا ياأبي أنا لم أفعل.

اتسعت عيناه. خرّ مقرفصاً أمامي بعد أن شد طرف دشداشته، متحاشياً أن تمس البول. وتلهف بالسؤال:

ـ من؟ قولي من الذي فعل؟؟

كان الشك يخامره اذن. فما الذي يدعو طفلة لاشعال حريق في أشياء العمة! ولكن لماذا لم يتأكد قبل أن ينفذ حكمه الصارم. هزني بشدة:

ـ قولي. من الذي فعلها؟؟

أردت أن أنطق. لكن نظرة الجمر الملتهبة في عيني زوجته الواقفة خلفه تربصت باعترافي. نفذت الى حلقي، سدّته بحجر ثقيل. فأخرستني. وتجولت عيناي بوجوه أخواتي، طامعة لو تجرؤ احداهن، وتعلن الحقيقة التي أعلنتها لهن فور رؤيتي لها. لكن الخوف السادر في داخلهن تواطأ

عليّ، وأبي يلطم وجهي مستحثاً :

ـ قولي من؟؟

كان يجأر مثل الريح . لكنها ريح أرحم من تلك التي بانتظاري لو نطقت . وماقيمة أن يعرف وقد تفجر عنفه بجسدي الصغير وانتهى الأمر.

كمشتُ لساني عن البوح بالحقيقة، وكذبت بصوت خفيض :

ـ لاأحد! أنا التي فعلت!

تنهد مرتاحاً ارتياح الظالم الذي يريد أن تأمن نفسه . ابتعد وتركني مهملة في مكاني، تشتعل بداخلي الحرائق، ويثبُ الحريق الأمسي جلياً ومفزعاً، وصوت زوجة أبي يلعلع في أذني :

ـ لو نطقت بكلمة . . فسأحرقك أنت أيضاً.

شاهدت فعلتها كاملة . سترت عليها . فكان عليّ أن أدفع الثمن من طفولتي الغرّة .

نمت تلك الليلة مذعورة وألسنة الحرائق قطيع أحلام تلاحقني . فأفزع، ولا أجد من يهدهد فزعي ويحنو عليه .

هل أحرقت اليوم شيئاً سأحاسب عليه؟؟

لو سألوني سأعترف :

نعم لقد صارت الحرائق إحدى هواياتي . لقد أحرقت جديلة شعري القديمة، حتى لاتذكرني بحقد عمتي التي بترتها من منبتها . وأشعلت النار في رسائل حبيب قديم تجاوز عددها الأربعمائة رسالة، تحكي فصول حياتي ونشوة فرحي، وحبي له . وقد كان بنكاً لآلامي وحكايات عذابي . أحرقتها خشية أن تقع في أيد لاتحترم سريتها، ولامشاعرها البريئة . وأشعلت النار في بوح البكارة الأول، بعد أن تأكدوا من سلامتي، ورفعوا الرؤوس افتخاراً . وأشعلت ومازال أشعل النار في مئات الأوراق التي أودعها بوح نفسي واعترافاتها، ولا أنسى أن أدس بينها وجه زوجة أبي الذي ودع الحياة واستقر في نار جهنم .

هم أمامي الآن، يشعلون النار في ثغور سيجاراتهم الأمريكية، وسيجار الهافانا النادر. يقلّمون الكلمات المعجوجة . ومشارطهم تلتمع أمامي، فأملك الشجاعة التي لم أمتلكها في وجه سكين أبي وأنطق بالسؤال :

ـ ماهي تهمتي بالضبط؟؟

تسابق جميعهم ثم هدأوا بعد أن اتفقت نظراتهم أن ينطق واحد منهم . فتنحنح ومط بوزه ذي البرواز الاسود ـ بلون نظارتيه المعتمتين اللتين تخفيان خلفهما عينين لاتبصران النور إلّا قليلاً . تأتأ بحروف . . ثم نطق جملته :

ـ أنت متهمة باقتناء الأوراق الملونة والأقلام النابضة الجريئة، مما يثير الحواس، ويحرك جمود الأفكار.

كنت متشنجة . وما أن نطق حتى أحسست جسدي يتراخى ساخراً من التهمة، ويخرج صوتي مستخفاً :

ـ هل حرّمتم الكتابة، كما حرمتم الحب؟؟

ضحك أحدهم وكان بارداً رخواً، فبانت لثته المتورمة :

ـ كلاهما خطر تمارسينه .

تماسكت أمام الجواب الأجوف وهمست :

ـ وبدونهما أتلاشى . . وأصدأ .

عطس الثالث . ونتف شعرة من شاربه الشائب بعصبية واضحة . تأملها، ثم نفخ عليها، فطارت في فضاء الغرفة، ولم أتابع سقوطها كما تابعت كلماته :

ـ يمكن للحب أن يكون سرياً .

ضحك الآخرون بمكر. فاستلذ بتجاوبهم معه وأكمل بوقاحة :

ـ ويكون ألذ في مثل هذه الحالة . . أما . . .

انتعش ذو النظارتين، كمن داعبته يد أنثى، وأصدر همهمة سرية، ثم تمالك نفسه، وتابع كلام الآخر، وكأن اتفاقاً مسبقاً قد عقد بينهما :

ـ أما الكلام فهو مسموع ومقروء، وليس من حقك أن تمارسيه علناً .

انتفض الرابع الذي كان يتابع صامتاً، ونطق كفره بشجاعة :

ـ ان لم تتعهدي الآن بمقاطعة هذا الفعل، فنحن مضطرون لقطع يديك .

شعرت بغثيان مفاجىء، وأخذت أتأمل وجوههم المتخشبة وأجسادهم المشوهة المترهلة رغم الأناقة المفتعلة . وجدتني في لحظة أقتحم رؤوسهم الثيرانية . وأدلف إلى حجراتها المغلقة . فأدهشتني كرنفالات العهر الرابضة فيها . الكلمات العارية مأسورة داخل براويز ثمينة، وموزعة على الجدران، أجساد النساء الساقطات اللائي كن بطلات لبعض ماكتبت يفترشن الأسرّة العامرة، وبعضها يتمدد في ـ بانيو ـ الحمامات الأسطورية عاريات ومنفلشات في الماء المعطر، ورغوة كرات الشامبو الملوّن . وفي الزوايا الخافتة حفلات مجون، رقص، وشراب، وحمّى حمراء كالدم . وضحك هستيري سببته حبوب العصر العجيبة يتعالى . . يتعالى، يفر من داخل الحجرات المغلقة . ويأتي إليّ . يدخلني يهز سكوني . فتثور من داخلي قهقهة مجنونة، تنفش نفسها صاخبة كما الزئير. تدك جسر وقارهم المزيف، ترعدهم وتسقط المشارط اللآمعة، ويتناثر معها رماد السيجارات المنتحرة فزعاً .

١٩٨٨/٢/٢



قصة

البلاد

ابراهيم صموئيل*

لم تراوده الفكرة من قبل، يوم كان بائعاً جوّالاً بين القرى، ولا خطرت له على بال اصلاً! هنا فقط، على الجبل مع قطيع اغنام اهالي القرية، رآها تدب، تخرج من بين القطيع وتتبختر امامه مثل امرأة جميلة مغرية، فجأة نبقت أمامه وراودته عن نفسها! من أين أتته هذه الفكرة اللعينة.. لا يدري! ربما خلقتها وحدته في الجبال. أو ربما سرَّ له الصمت بها.. الصمت الطويل الذي يقضيه ساهماً مع الاغنام التي ترعى. بل لم لا تكون الاغنام نفسها قد أوحت له بالفكرة؟ نعم الاغنام. هذا «الحلال» الذي كُلف برعايته، فغلب، منذ ذلك الوقت، عمله على اسمه وبات معروفا، في القرية كلها، بـ«الراعي»؟

أياً كان، فقد كان «حمد العبيدان» ـ وهذا هو اسمه الاصلي ـ مضجعاً على الجبل في ظل حماره، يتأمل القطيع سادراً شارداً، يُحصي اغنام دار حجاج، ودار ابي محمد، واغنام عبد الله ودار حسون.. ويتخيل كم تدر عليهم من البان واجبان وقشطة أو لحوم واصواف مجزوزة.. ثم يوغل في شروده فيتصوركم يجني اهالي القرية من «رزقهم» هذا الذي يقوم وحده برعايته وحمايته.. ثم، بغتة، لمعت الفكرة في ذهنه! نهضت من بين رؤاه واحلامه وتخيلاته لتملأ عليه وحدته. داهمته مثل ثعلب ماكر أو قارب نجاة، فتعلق بها وصارت شغله الشاغل!

قلّب الفكرة على وجوه عدة، فرآها براقة ممتعة ومفيدة. اعادها وفصّل فيها فوجد انها لا تكلفه شيئاً وتكسبه كل شيء. هو الفقير الذي قضى كل سنواته الماضية مهملاً، لا رأي يُسمع له بين

---

* قاص من القطر العربي السوري له مجموعة قصصية

مجالس الفلاحين. واحداً من عباد الله. شجرة في دغل. نعم، تكسبه السطوة على اهالي القرية. خضوعهم له. تقديرهم لدوره في حياتهم ومعاشهم. حاجتهم اليه على الاقل. حاجة كل من له غذاء أو حصة من القطيع الذي يقوم هو برعايته وحمايته.

سرَّ لنفسه مدهوشاً: «كيف لم تخطر لي هذه الفكرة؟!» فاقتنع بما سرَّ لنفسه، ثم قال بصوت بدا له صوت شخص آخر: «فعلاً.. لم لم تخطر لك ياحمد!!» استوى واقفاً قرب حماره وقد سحرته مفاتن الفكرة الجديدة: «نعم جاءت جاءت وحدها».

صحا من شروده، ومضى بفرح ونشاط لم يعهدهما في نفسه من قبل، يهش على اغنام سرحت بعيداً عن القطيع. تمتم ساهياً بعد أن تجمّع القطيع: «هذا القطيع لي» ثم دحرج حجراً بطرف عصاه: «يعني.. كأنه لي» علت وجهه ابتسامة عريضة ولمعت عيناه: «يا سيدي.. بل هو واصحابه لي. نعم القطيع واصحابه. أنا راعي حلالهم.. يعني ارزاقهم في يدي.. اعني تحت تصرفي «تلألأت الفكرة في غنج سافر: «لا، وفوق هذا أنا حاميها! حاميها من الذئاب الكثيرة المنتشرة حول القرية، والتي لو هاجمت القطيع لفطست القرية. طيب. وماذا تساوي القرية دون حلالها؟! مقبرة. حتى أهل القرية.. يموتون جوعاً مثل الكلاب الجربانة!

دنت الفكرة منه وعبقت فيه، فتوغل بها... ثم انحرف باتجاه حافة الجبل.

* * *

في المرة الاولى، حين تدحرجت إستغاثة الراعي متهدجة ثقيلة القرقعة مثل صخرة ضخمة فلتت من عقالها واستقرت في ساحة القرية.. استنفر الفلاحون، وطاروا نحو معاولهم ورفوشهم وفؤوسهم وبـواريدهم، وراحـوا مبعثرين يصعدون الجبل بأرشق مما تفعل الغزلان، ويجدُّون في الوصول الى الراعي والقطيع لحمايتها من انياب الذئاب الشرسة التي داهمت القطيع، كما انبأت بذلك استغاثة الراعي.

غير انهم، حين وصلوا قمة الجبل، رأوا الراعي ممسوس ينطنط ويدور في مكانه، فتقافزوا نحوه، والتفوا حوله يسألونه بهلع عما حدث، وعيونهم تشخص بعيداً نحو الوديان. فأجابهم بانفاس متقطعة مضطربة انه لمح الذئاب تجول هناك، اسفل الوادي، فخاف على القطيع وراح يرميهم بالحجارة حتى فروا ثم التقط انفاسه وتابع: «يعني لولا رحمة الله وعيني الساهرة لعدمتم حلالكم».

فاستداروا، بعد ان اطمأنوا على صحة الراعي وسلامة الاغنام، يهبطون الجبل والسنتهم تسبّح بحمد الله وتدعو للراعي بالقوة وطول العمر. وحده «حسون» كان يتفكر، وقد نأى منفردا، كيف كانت الاغنام تسرح، حين وصلوا الجبل، مطمئنة سادرة، ترعى الاعشاب بكسل وخمول ظاهرين!!

في المرة الثانية، حين تلوّى صياح الراعي زاحفا بين الصخور حتى وصل آذان اهل القرية

وتغلغل في حميتهم كما تفعل نسمة بادرة في حر الحصاد. . . انفرطت حلقاتهم، وتنادوا من كل ناحية، ثم انتشروا بلمح البصر على كتف الجبل مخلفين وراءهم نداءات «حسون» المتكررة المحروقة بأن الراعي كذاب، ونساءهم اللواتي أخذن يجمعن ابناءهن، بينما كان الابناء يحلمون بمشهد جثث الذئاب مدماة باسلحة آبائهم.

غير أنهم لم يلحظوا اعلى الجبل غير الراعي يهوج ويموج بين الاغنام السارحة، فهاجوا وماجوا مثله وهم يصغون لروايته عن الذئاب التي تسللت خفية حتى صارت على مرمى حجر، وفورة كلاب القطيع، واستقتاله في حماية الاغنام ودرء الموت عنها.

بعـدهـا، قفلوا مثقلين متعبين، يجففون خيبتهم وقد لوت رفوشهم ومعاولهم وبواريدهم اعناقها حتى انسرحت مع المنحدر، وراحت وهي تتجرجر خلفهم، تصدر أصواتاً متنافرة، كئيبة، ومنهزمة.

في المرة الثالثة، حيث شقَّ عويل الراعي سماء القرية مثلما يفعل رعد في عزّ الشتاء، وانشعب بين الاهـالي كخيوط البـرق. . إنـبرى شيخ القـرية يدبُّ الهمة في نفوس الاهالي: «الذئاب يا رجـال. . حلالكم يا رجال» بينما تقاطر الرجال ملهوفين من بيوتهم وحقولهم، تتبعهم زوجاتهم خائفات، ويتحلق حولهم اطفالهم المتراقصون المهللون، ويعمُّ القرية توجس وهلع وضجيج أفزع معظم الرجال نحو الجبل، في حين تخلّف بعضهم وهم يشوِّحون بكوفياتهم ويصيحون:

ـ «لك لا تصدقوا. . . لا تصدقوا».

ـ ارجع يا عبد الله الخراف بأمان»

ـ «عقلك صغير يا ضحوان يا مسكين»

ـ «لاتذهب يا مسعود. . . الراعي دجال ونعرفه»

غير ان الـرجـال تدافعوا نحو الجبل، يتعثرون بقلقهم حتى لاح لهم القطيع سالماً يرعى الطمأنينة والهدوء، فهللّوا وكبروا لرجولة الراعي وشجاعته التي انقذت عيشهم من انياب الذئاب.

وحين لووا ينحدرون نحو السفح المتصل بالقرية، كانوا قد حفظوا قصصا وحكايات لا تنتهي عن خوفهم وجوعهم واحزانهم وآلامهم وغيظهم، وعن بطولاتهم التي، لو واجهوا الذئاب، لاجترحوها.

في المـرة الـرابعـة، انتشر في القـرية همس ولغط وهـرج. وفي الخامسة، تسللت نزاعات وخلافات بين الحارات. وفي السادسة، تنافرت الاسر وتنابذ الاخوة والاصحاب والجيران. وفي السابعة، تدافعوا وتصافعوا حتى خوَّن البعضُ البعضَ. . غير أنه ـ في كل مرة ـ كان يأتيهم نداء الراعي مستغيثاً أو متوعداً أو مستجيراً أو مربداً. وهو كانوا ـ في كل مرة ـ يتسلقون الجبل خفافاً مندفعين كأنهم يهبطون، وينحدرون عليه مثقلين منكسرين كأنهم يصعدونه اول مرة.

قصة

ثلاثة أيام في مطار القاهرة:

عبد الكريم عيد*

منذ وصلتنا تلك الرسالة من قريبنا عودة المقيم في رفح سيناء، والتي تتحدث عن انسحاب القوات الصهيونية من المنطقة، بات السفر الى مصر هاجساً من هواجسي، وقد أثارت فكرة زيارة أقاربنا المقيمين في المنطقة الحدودية، الذين مضى خمسة عشر عاماً على آخر مرة شاهدتهم فيها عواطف حنين قوي، كأنهم كانوا ضائعين ولقيتهم فجأة، وخطر لي أن من الضروري أن أشاهد قطعة الارض الصغيرة التي كان والدي رحمه الله قد تركها لنا هناك، واكتشفت أنني شديد اللهفة بعد تجوالي في البلاد على أن أقف فوق قطعة أرض مهما صغرت أحس أنها تخصني وأنني صاحبها.

وجادلتني زوجتي جدالاً خفيفاً قائلة إن رحلة كهذه لا بد أن تكلفنا مبلغاً غير قليل، وستأتي على ما تبقى من مدخراتنا أيام كنت أعمل مدرساً في ليبيا، فأجبتها: إن المال غادٍ ورائح، وإن الارض أبقى من المال، فامتثلت وسكتت لأن لديها بدورها حنيناً نحو الارض، بل لعل رغبتها الانثوية في الاستقرار أقوى وأشد. واستغرق حصولنا على تأشيرات الدخول أكثر من شهرين، وذلك لعدم وجود سفارة لمصر في دمشق مما اضطرنا الى ارسال وثائق سفرنا الى عمان وانتظار رجوعها وقد وضعت عليها سمات الدخول.

هطلت أمطار غزيرة على مدينة دمشق في السابع من تشرين الثاني لعام اثنين وثمانين، وهذا موعدنا للسفر على متن الطائرة اليمنية، ركبنا سيارة من مخيم اليرموك الى مطار دمشق، لم يودعنا

---

* باحث في الفولكلور من فلسطين.

وتغلغل في حميتهم كما تفعل نسمة بادرة في حر الحصاد. . . انفرطت حلقاتهم، وتنادوا من كل ناحية، ثم انتشروا بلمح البصر على كتف الجبل مخلفين وراءهم نداءات «حسون» المتكررة المحروقة بأن الراعي كذاب، ونساءهم اللواتي أخذن يجمعن ابناءهن، بينما كان الابناء يحلمون بمشهد جثث الذئاب مدماة باسلحة آبائهم.

غير أنهم لم يلحظوا اعلى الجبل غير الراعي يهوج ويموج بين الاغنام السارحة، فهاجوا وماجوا مثله وهم يصغون لروايته عن الذئاب التي تسللت خفية حتى صارت على مرمى حجر، وفورة كلاب القطيع، واستقتاله في حماية الاغنام ودرء الموت عنها.

بعدها، قفلوا مثقلين متعبين، يجففون خيبتهم وقد لوت رفوشهم ومعاولهم وبواريدهم اعناقها حتى انسرحت مع المنحدر، وراحت وهي تتجرجر خلفهم، تصدر أصواتاً متنافرة، كئيبة، ومنهزمة.

في المرة الثالثة، حيث شقَّ عويل الراعي سماء القرية مثلما يفعل رعد في عزّ الشتاء، وانشعب بين الاهالي كخيوط البرق. . إنبرى شيخ القرية يدبُّ الهمة في نفوس الاهالي: «الذئاب يا رجال. . حلالكم يا رجال» بينما تقاطر الرجال ملهوفين من بيوتهم وحقولهم، تتبعهم زوجاتهم خائفات، ويتحلق حولهم اطفالهم المتراقصون المهللون، ويعمُّ القرية توجس وهلع وضجيج أفزع معظم الرجال نحو الجبل، في حين تخلَّف بعضهم وهم يشوِّحون بكوفياتهم ويصيحون:

- «لك لا تصدقوا. . . لا تصدقوا».

- ارجع يا عبد الله الخراف بأمان»

- «عقلك صغير يا ضحوان يا مسكين»

- «لاتذهب يا مسعود. . . الراعي دجال ونعرفه»

غير ان الرجال تدافعوا نحو الجبل، يتعثرون بقلقهم حتى لاح لهم القطيع سالماً يرعى الطمأنينة والهدوء، فهللّوا وكبروا لرجولة الراعي وشجاعته التي انقذت عيشهم من انياب الذئاب.

وحين لووا ينحدرون نحو السفح المتصل بالقرية، كانوا قد حفظوا قصصا وحكايات لا تنتهي عن خوفهم وجوعهم واحزانهم وآلامهم وغيظهم، وعن بطولاتهم التي، لو واجهوا الذئاب، لاجترحوها.

في المرة الرابعة، انتشر في القرية همس ولغط وهرج. وفي الخامسة، تسللت نزاعات وخلافات بين الحارات. وفي السادسة، تنافرت الاسر وتنابذ الاخوة والاصحاب والجيران. وفي السابعة، تدافعوا وتصافعوا حتى خوَّن البعضُ البعضَ. . غير أنه - في كل مرة - كان يأتيهم نداء الراعي مستغيثاً أو متوعداً أو مستجيراً أو مربداً. وهو كانوا - في كل مرة - يتسلقون الجبل خفافاً مندفعين كأنهم يهبطون، وينحدرون عليه مثقلين منكسرين كأنهم يصعدونه اول مرة.

قصة

ثلاثة أيام في مطار القاهرة:

عبد الكريم عيد*

منذ وصلتنا تلك الرسالة من قريبنا عودة المقيم في رفح سيناء ، والتي تتحدث عن انسحاب القوات الصهيونية من المنطقة ، بات السفر الى مصر هاجساً من هواجسي ، وقد أثارت فكرة زيارة أقاربنا المقيمين في المنطقة الحدودية ، الذين مضى خمسة عشر عاماً على آخر مرة شاهدتهم فيها عواطف حنين قوي ، كأنهم كانوا ضائعين ولقيتهم فجأة ، وخطر لي أن من الضروري أن أشاهد قطعة الارض الصغيرة التي كان والدي رحمه اللّه قد تركها لنا هناك ، واكتشفت أنني شديد اللهفة بعد تجوالي في البلاد على أن أقف فوق قطعة أرض مهما صغرت أحس أنها تخصني وأنني صاحبها .

وجادلتني زوجتي جدالاً خفيفاً قائلة إن رحلة كهذه لا بد أن تكلفنا مبلغاً غير قليل ، وستأتي على ما تبقى من مدخراتنا أيام كنت أعمل مدرساً في ليبيا ، فأجبتها : إن المال غادٍ ورائح ، وإن الارض أبقى من المال ، فامتثلت وسكتت لأن لديها بدورها حنيناً نحو الارض ، بل لعل رغبتها الانثوية في الاستقرار أقوى وأشد . واستغرق حصولنا على تأشيرات الدخول أكثر من شهرين ، وذلك لعدم وجود سفارة لمصر في دمشق مما اضطرنا الى ارسال وثائق سفرنا الى عمان وانتظار رجوعها وقد وضعت عليها سمات الدخول .

هطلت أمطار غزيرة على مدينة دمشق في السابع من تشرين الثاني لعام اثنين وثمانين ، وهذا موعدنا للسفر على متن الطائرة اليمنية ، ركبنا سيارة من مخيم اليرموك الى مطار دمشق ، لم يودعنا

---

* باحث في الفولكلور من فلسطين.

أحد أو نودع أحداً باستثناء الشيخ جابر الذي أصر على مرافقتنا الى المطار ، وتمنى لنا رحلة ممتعة واقامة سعيدة بأرض الكنانة ، وقفنا في صف لنزن حقائبنا ، وأغلب ركاب هذه الطائرة من المصريين الذين يحملون أمتعة كثيرة وأغطية صوفية ومسجلات ومراوح وبعضهم كان يحمل صناديق تفاح ومواد غذائية ومكانس وكراسي خشبية ، أما حقائبهم اليدوية فهي أكبر من حقائب المسافرين المشحونة ، وحين أنهينا اجراءات الوزن ، وختمنا وثائق السفر اتجهنا الى صالة المغادرة ، فأُعلن عن توجه الركاب الى البوابة الثانية للصعود الى الطائرة الجاثمة قريباً من مبنى المطار ، اصطف الرجال في صف والنساء في صف آخر ، فذهبت زوجتي تحمل طفلاً وتأخذ بيد طفلة ، واصطفت في صف النساء اللواتي خرجن قبلنا الى الطائرة ، حيث كانت الامطار تنهمر بغزارة ، وانتاب الطفلة الذعر حينما أبصرت الدخان ينبعث من مؤخر الطائرة ، وسمعت أصوات محركاتها الصاخبة ، فصرخت صراخاً يسمع بوضوح ، فحملها مضيف وصعد السلم خلف أمها ، ثم لحقت بهم داخل الطائرة ، وجلسنا على ثلاثة مقاعد في المنتصف ، فأعاقت الاجنحة رؤيتنا لمناظر الارض حين الاقلاع ، وكانت السماء ملبدة بالغيوم ، فصعدت الطائرة فوقها مما حجب عنا رؤية أي منظر من المناظر التي شغفت بها في رحلة سابقة ، حين أبصرت بيوت شعر مضروبة في الصحراء المنبسطة الى الشرق من مطار دمشق ، وأمامها الابل والخيول والاغنام ، وحين مررنا فوق البحر خُيّل لنا أننا نرى بواخر ضخمة ، وإذ بها أمواج تتلاطم ، وأحضر المضيفون شطائر جبنة ومارتديلا وقطعة طماطم وحبة زيتون واحدة لكل راكب .

وما أن اقتربنا من الحدود المصرية حتى أبصرنا طائرتين من نوع ميج ، وسررنا لمنظر اليابسة من الجو ، فكانت الطريق تبدو كالثعبان فوقها السيارات كالخنافس ، وطُلب منا ربط الاحزمة والكف عن التدخين استعداداً للهبوط في مطار القاهرة ، وهبطت الطائرة في تمام الساعة الرابعة ، فنزلنا من الطائرة ، ورأينا ونحن على سلمها صفين من الجنود متقابلين عند نهاية السلم بكامل أسلحتهم ، وقد صوبوا بنادقهم تجاه النازلين من الطائرة . وللوهلة الاولى ظننا أن هؤلاء الجنود وقفوا لتحية زعيم سينزل من الطائرة ، ثم ساورنا الشك في أن هؤلاء أُحضروا ليلقوا القبض على أحد من الركاب ، وعرفنا فيما بعد أن هذا اجراء تقليدي عند حضور أي طائرة قادمة من سورية ، وعند نهاية الصفين وقف ضباط في العراء وأمامهم طاولة ليضع عليها المسافر حقيبة يده ، ويرفع يديه للتفتيش الدقيق ويبرز جواز سفره بيده ، وذلك كله قبل أن يحملونا في حافلة مزدحمة الى بوابة دخول المطار ، فاصطف المسافرون وتزاحموا أمام كوات بها ضباط شرطة لختم الجوازات ولاحظت أن الوجوه متجهمة خلافاً لما نعرفه ونألفه عن اخواننا المصريين من بشاشة ومرح ، وحين مددت وثيقتيّ سفرنا قلّبهما الضابط ، ورأى تأشيرات الدخول ، فطلب مني تحويل مائة وخمسين دولاراً عن كل وثيقة بالعملة المصرية من المصارف المجاورة ، فذهبت واستبدلت العملة ، ورجعت لأسلم الوثيقتين ، فاضطررت الى الوقوف من جديد وراء صف طويل ، فتناولهما مني الضابط ، وألقى بهما في صندوق قائلاً : أنتظر اسمك هناك ، مشيراً الى الصالة .

رجعت حيث تجلس زوجتي ممسكة بالطفلين بكلتا يديها ، وهما يرضعان من زجاجتيهما ، وما أن وصلت حتى طلبت مني الطفلة لتذهب الى المرحاض ، فأخذتها الى الزاوية الغربية من الصالة حيث المراحيض ، وللمرة الأولى منذ دخولنا المطار أرى رجلاً يوزع الابتسامات والانحناءات ، ممسكاً مناديل ورق ومشطاً وقنينة عطر صغيرة وصابونة ، مردداً على الدوام : أهلاً وسهلاً . . . ، أدخلت الطفلة الحمام ، فوجدته يغص بالقاذورات ، فأخرجتها لتبول أمامه ، ثم رجعنا ، وناولت الرجل المبتسم ليرة سورية ، وما ان وصلنا الى المقاعد البلاستيكية الصفراء حتى طلبت مني الطفلة العودة ثانية الى الحمّام ، وكأن الرحلة أعجبتها ، ولم أكترث لطلبها .

تعرفت أثناء ترقبي وانتظاري على شاب فلسطيني من دمشق ، كان يبحث عن نقود معدنية ليتصل هاتفياً بصديق له في القاهرة ليسهل عملية دخوله مصر ، فاشتريت له خمسة وعشرين قرشاً بجنيه مصري من احدى العاملات ، فأخذها ووعد الى أن يعطي أسماءنا كذلك لصاحبه دون أن يأخذها منا .

وتمر الساعات بطيئة متثاقلة ، ويتوالى قدوم الطائرات واقلاعها ، فتغص القاعة بالقادمين ويغمرنا سيل جارف من البشر ، مما يضطرنا في كثير من الاحيان لاحتضان طفلينا واخلاء المقاعد الصلبة التي جلسنا عليها منذ الخامسة عصراً ، وحين بلغ بنا الجوع كل مبلغ أخذنا نبحث هنا وهناك عن وسيلة نحصل بها على الطعام ، وأفلحنا عند منتصف الليل في الاتفاق مع عاملة من عاملات التنظيف لتحضر لنا شطيرتين من الفول مقابل جنيهين مصريين ، أما الماء فكنا نحصل عليه بيسر وسهولة من المراحيض ، لنصنع لطفلينا الحليب بعد أن غدت تربطنا صداقة حميمة مع حارس المراحيض المبتسم نظير ليرة سورية وجنيه مصري .

لم يكن هناك شيء متجدد خلال هذا الانتظار اللا نهائي إلا نداءات المذيعة التي تعلن بين الفينة والاخرى عن قدوم أو اقلاع طائرة بصوتها الرخيم الذي يحدث صدى يتردد في الصالة ، لقد هبطت طائرات عديدة من الكويت ولندن وباريس ونيودلهي ، . . ومن أغرب ما سمعنا في تلك الاعلان عن اقلاع رحلة لشركة نفرتيتي المصرية من القاهرة الى مطار اللد ، وعند العاشرة مساء أُعلن عن قدوم طائرة لشركة العال الصهيونية من تل أبيب الى القاهرة ، ومما زاد في استغرابنا الى درجة الذهول دخول طابور من الصهاينة ، وهم يمسحون بأنظارهم أرجاء المطار ، ويلصقون بعض المناظر والرسومات على جدرانه ، وكان بعضهم يرتدي بناطيل قصيرة ، ومعظمهم يعلق آلات تصوير في الاعناق ، تتقدمهم فتاة ملونة الشعر ، دخلت بابتسامة عريضة خالية من الهموم ، وكأنها عائدة من سفر طويل لتقابل أحبة لها جاؤوا لانتظارها ، أخذت تلتقط الصور وتسعى هنا وهناك ، تصور صف القادمين من الامام ومن الخلف ثم من الجانبين ، وكانوا يحملون حقائب كثيرة الجيوب ، وبعضهم يرتدي طاقيات صغيرة جداً وآخرون يرتدون قبعات كبيرة ، وقبل أن تتاح لنا الفرصة لتأملهم جيداً كانت جوازاتهم قد ختمت ، ودخلوا صالة الحقائب تاركين وراءهم أعقاب سجائر متناثرة وأغلفة شطائر مكتوب عليها بالحرف العبري وزجاجات نبيذ فارغة ، فأحضر شرطي أكواباً

من الشاي وناول كل ضابط كوباً ، وقعد الضباط يرتشفون الشاي الساخن .

لقد ملّ الطفلان المكوث حبيسين ، وأفلحا في الافلات من أيدينا بعدما فترت عزيمتنا ، وقلّ اعتناؤنا بهما مع مرور الوقت ، وانطلقا تارة يحبوان وأخرى يسيران جيئة وذهاباً ، وفي احدى المرات وضعت الطفلة يدها على رأس مسافر أصلع بعد أن تأملته طويلاً ، وحذا الطفل حذوها ، فنهرهما الرجل ، فهربا متعثرين بأحد المقاعد ، وأسندتهما امرأة كانت على مقربة منهما ، فذهبت لاحضارهما ، وشكرت المرأة فوجدتها تتحدث باللهجة المصرية ، فسألتها ؟ حتى انت محجوزة لماذا ؟ لقد رأيتك هنا منذ الغروب ، فأشارت بيدها الى رجل يفترش الارض تعلو رأسه طاقية بيضاء أغبرت مما تكاثر عليها من غبار المسافرين فأمست داكنة ، وقد التفّ بجرد أصفر يخاله الناظر اليه تمثالاً اغريقياً في متحف سوسة أو شحات ، يصعب عليك ان تقدّر أن به قلباً يخفق ، وحوله أطفال يتربعون ، أنصافهم السفلى عارية تماماً ، ولم تقطع المرأة الامل ، ولم يتسرب الى قلبها اليأس والقنوط من السماح لها بالدخول لزيارة أهلها ، فهي تهرع الى كل ضابط وقف في الصالة ينادي أسماء المسموح لهم بالدخول كل نصف ساعة تقريباً ، وتتفرس الجوازات التي يحملها ، وتصغي بسمعها رغم أن جوازها مغلف بغلاف أحمر وهي متأكدة من عدم وجوده في يد الضابط ، ومن ثم تعود لتقف على مقربة من زوجها وأولادها ، فسألتها : كم ساعة مضت وأنتم تنتظرون ؟ فردّت بسخرية ومرارة ساعة . . . قل : يوم . . أسبوع . . شهر . . سنة . . ثم أضافت : قدمنا من ايطاليا قبل ثلاثة أيام ، ولم يسمح لنا بالدخول لزيارة أهلي لأن زوجي ليبي ، وترفع يدها الى السماء قائلة : حسبي اللّه ونعم الوكيل ، يحرمونني من زيارة أهلي !!! لماذا وافقوا لنا على الزواج من الليبيين ؟؟!! وانهمرت الدموع من عينيها المتعبتين وأخذت في النشيج .

انتزعني من غمرة هذا المشهد المثير نداء شرطي : من له طفلان صغيران ، وكرر النداء ربما عدة مرّات ، فأسرعت اليه قائلاً : أين هما ؟ وألقيت نظرة الى زوجتي فوجدتها غافية على أحد المقاعد وقد تدلى عنقها ، ولم أبصر عندها الطفلين ، فتشبثت بالشرطي . أين هما ؟ فسار ولم ينبس ببنت شفة ، وتبعته ، ففتح باباً وولجه ، وفتح آخر والتفت إلي قائلاً : دول أولادك ؟ قلت : نعم . قال : ازاي تسيبهم ، دول خارجين الى ساحة المطار الخارجية . قلت : نأسف ونعتذر عن فعلهما الشنيع . فقال : أنت عارف إن دا ممنوع ، وأنت تتحمل المسؤولية مفهوم ؟ قلت : لك الحق ولن يعيداها .

عند الفجر بزغت بارقة أمل إذ دخل رجل يرتدي ملابس مدنية صالة الانتظار يفتش بين الناس ويسأل عن اسم زوجتي ، وطلب منها أن تتبعه لمراجعة الامن ، فأصطحبت الصغير وتركت عندي الطفلة ، وبعد نصف ساعة من دخولها استدعيت كذلك ، فوجدتها هناك أمام غرف التحقيق ، وحين دخولي سئلت : أنت تابع لأي منظمة ؟ فأجبت لست منظماً . ما سبب قدومك ؟ لزيارة أقرباء لي وقطعة أرض في منطقة العريش . هل سبق لك زيارة القاهرة ؟ نعم . هل لك أهداف أخرى من القدوم ؟ نعم ، محاولة التسجيل لمواصلة الدراسة في جامعة القاهرة .

هل تعرف أحداً من ضباط المباحث ؟ لا . أنت لم تقل الحقيقة . فلتعد من حيث أتيت ، ولا مانع من دخول زوجتك والطفلين . فرجوته أن يسمح لنا بالدخول ولو ليوم أو يومين ، لأن زوجتي لا تعرف مكان أقاربنا ، ويتعذر عليها السفر بمفردها والخروج من المطار في هذا الهزيع الاخير من الليل ، ولم يسبق لها دخول القاهرة ، ونحن أنفقنا الكثير لنرى قطعة أرض لنا حرّرت . فنادى المرأة وطلب منها التوقيع عن عبارة كتبها على وثيقة سفرها تقول « رفضت الدخول بناء على طلبها » وقال للجنود : « خذوهم الى النظارة » وكانت زوجتي قد سئلت نفس الاسئلة تقريباً .

اقتادنا الجنود الى غرفة مكتظة بالنزلاء وأغلبهم من الفلسطينيين القادمين من أقطار شتى ، وقسم منهم ممن حوصروا في بيروت وخرجوا على متن البواخر الى اليمن وتونس والسودان والجزائر ، بعضهم يجلس ، وآخرون يقفون ، وبعضهم نيام ، يتوسد بعضهم بعضاً ، وعند مدخل هذا السجن يجلس السجان على كرسي ، وأمامه طاولة تسد باب الغرفة ، أما دورة المياه فالخروج لها بالدور لا بإلحاح الحاجة . قعدنا على مقربة من الباب لاستحالة الدخول بين هذه الكتلة البشرية المكتظة ، وكلانا يحمل بين يديه طفلاً ، ويصرخ الطفلان ، ولم نفلح في استبدال الخرق لهما لتعذر ذلك ، ولنفاد احتياطينا منها .

وبعد برهة أطل أحد الجنود برأسه ونادى : حسين محمد عثمان ، فكرر النداء سجين بصوت جهوري ، فقفز رجل من مرقده الى الخارج ، وجرفنا في طريقه ، فبكى الطفلان بكاءً حاداً من ألم الصدمة بعد أن استسلما للرقاد ، عندها رجوت السجان أن يسنح لي بالخروج لأكلم المسؤول الذي أودعنا السجن كي يرسلنا الى سجن أوسع ، أو يأخذوا المرأة الى سجن نساء والاطفال الى سجن أطفال ولم أفلح في ذلك ، فرثى أحد المحجوزين لحالنا ، وشفق علينا ، فاقترب مني وهمس في أذني : (اديه بغشيش) ، وفرك الابهام بالسبابة ، وعلى الفور أخرجت خمسة جنيهات خفية وانحنيت على الحارس الجالس ، وكأنه عرف ما أريد ، ففتح يده وناولته النقود ، فابتسم ابتسامة خفيفة ، وقال : متشكر ، وقارب بين ركبتيه ، وبعد لحظة وقف وقال : « روح للضابط اللي في الغرفة اللي على الشمال ، واشرح له وضعك يمكن يساعدك » ، فخرجت ، ودخلت على الضابط وقلت له : لماذا تضعوننا في غرفة مليئة بالرجال ، وأنا معي امرأة وأطفال ، اسمح لنا بالسفر الى أي بلد آخر ، نحجز من المطار ونسافر أو أرسلنا الى سجن أوسع ، ونحن لم نقترف ذنباً ، أتينا حاملين سمات دخول ، سأضطر الى قتل المرأة والطفلين اذا لم تنقلها الى سجن نساء ، أنا أفضل قتلهم عن مكوثهم في هذا السجن المزدحم أياماً لا نعرف عددها ، هناك فندق للترانزيت في المطار ، اسمح لنا بالنزول فيه رحمة بالاطفال والمرأة !! ، فقال لأحد الجنود : « ودوه الاوتيل » ولم يزد . فأخذني الى رجل يظلع برجله حين يمشي ، وقال : « البيه يقول يروح الراجل ده مع عياله الى أوتيل المطار » فأجابه : ما فيش وسع ، فلحقت به حين همّ بالانصراف ، وناولته خمسة جنيهات ، فقال : انتظر قليلاً لأدبر لك مكاناً ، فكان يقول كلما مرّ بنا ونحن على باب الزنزانة : أنا فاكر طلبك ، انتظر قليلاً . . . ، وكرر ذلك عدة مرات ، ثم جاءنا وسأل عن أمتعتنا ، فأخبرناه

أنها في صالة الحقائب ولم نرها ، فأمر جندياً ليحضرها لنا ، ووضعها على حاملة ودفعها أمامه ، وصعد بنا مصعد الفندق ، وفجأة وجدنا أنفسنا في مكان دافيء نظيف مفروش بالسجاد . استقبلنا محاسب الفندق قائلاً : سعر الغرفة خمسة وثلاثون دولاراً بالعملة الصعبة ، تدفع مقدماً عن كل أربع وعشرين ساعة ، وقطع لنا ايصالاً ، وناولني اياه قائلاً : انزل لتدفع المبلغ في الصندوق ، دفعت المبلغ وفتح لنا غرفة ، ودخلناها لنستريح بعد عناء طويل وذلك عند الساعة السادسة صباحاً ، واستسلمنا للرقاد ، فأيقظنا دق عنيف متواصل على باب حجرتنا ، فنظرت الى الساعة ، فوجدت عقاربها تشير الى الثامنة ، وأسرعت الى الباب ظناً مني أنهم ربما عادوا فسمحوا لنا بالدخول ، وإذ بي أبصر جنديين يقفان أمام الباب ، فلم يزد أحدهما عن قوله «أهو» وانصرف ، فقلت للجندي الآخر ما الأمر ؟ قال : « تبديل حراسة ، نحن نبدل الحراسة مرة كل ساعتين ، ومش ممكن استلم سمك في بحر ، عايز أعرف على مين حاحرس » فقلت له : « أرجوكم لا تدقوا الباب بهذا الشكل كي لا يفزع الاطفال ، وأنا سأبقى في صالة الاستقبال هذه ، فبإمكانكم مشاهدتي وحراستي عن كثب » ، قعدت على مقعد طويل وثير وقعد الجندي بجانبي ، فسألته بعد أن طار النعاس من عيني عن امكانية الحصول على الشاي ، فقال : الشاي يقدم في المقصف في الطابق الارضي ، ومر أمامنا أحد عمال الفندق ، فطلبت منه أن يحضر لنا طعام الافطار ، فجاوبني : « انزلوا على المطعم » ، فقلت : نريد تناول الطعام هنا في حجرتنا حيث الاطفال نيام ، وناولته عشر جنيهات ، فأحضر لنا صحناً به فول وأربعة أرغفة صغيرة وابريق شاي وأعاد لي خمسة جنيهات .

وعند الثانية بعد الظهر نزلنا الى المطعم في الطابق الارضي يتبعنا جندي الحراسة ، وطلبنا وجبة غداء لاثنين ، وسألنا النادل عن ثمن الوجبة ، فقال : « وجبة الغداء بأحد عشر جنيهاً للفرد الواحد ، أما وجبة العشاء فثمنها ثلاثة عشر جنيهاً » ، وأحضر لنا صحنين من الارز ، وصحنين في كليهما نصف دجاجة صغيرة وقطع من البطاط ، فأكلنا وأطعمنا الطفلين . أما العشاء فكان قطعاً من الجبن وبعض الكعك ، كان بحوزتنا من الشام ، اشترينا الشاي فقط ، وأكلنا كذلك من باقي فول الصباح .

لا يمكنك مشاهدة أي منظر من الفتحة المرتفعة للنافذة ، تظهر فقط بقعة من السماء ملبدة بالغيوم ، وعلى غير العادة بدا الجو بارداً جداً في المطار ، كما سقطت أمطار غزيرة ، والغريب بالنسبة لنا هذا الجوع أو النهم الذي انتابنا فجأة ، ولا أدري ما سببه ، لعله الشعور الذي ينتاب المرء عند دنو نفاد دخانه أو مائه أو زاده .

شعر الطفل ليلاً بآلام حادة ، فشرع في البكاء ، وأخذ يتلوى ، وارتفعت حرارته ، فتقيأ على السجادة سائلاً أصفر مع حبات فول سوداء خرجت احداها من أنفه ، فتحت الباب وسرت في الممر ، فقابلني الحارس قائلاً : « تلزم خدمة » ؟ فقلت : « نريد الطبيب » فرد : « عايز طبيخ » فأعدت : دكتور . . دكتور . فقال : « لا هنا ما فيش دكاترة » ، فذهبت الى مدير الفندق

وشرحت له ما حل بالطفل ، ورجوته أن يتصل لنا بطبيب ليعاين الطفل ونحن ندفع نفقات ذلك ، فوعد أنه سيستفسر لنا من ضابط أمن المطار ، وقال : لكن ليس من العادة حضور طبيب الى الترانزيت ، فرجوته مرة ثانية أن يتصل بالمسؤولين علهم يسمحون لنا باستدعاء طبيب ، فقال : « التلفونات عطلانة » . وأردف : « نعمل ايه » فأعدت مسألة الجندي ، وتمنيت عليه أن يذهب معي الى المسؤول ، أو يذهب بمفرده ، وابلاغه بحاجتنا الماسة الى طبيب ، ولكنه رفض مغادرة المكان ، أو السماح لنا بذلك ، وهو يقول : « ما اقدرش . . . ما تقطعش عيشي » . عندها أحجمت عن طلب الطبيب ، وليفعل اللّه أمراً كان مفعولا ، تجولت في الجناح الذي ننزل فيه ، التقيت بشاب يحمل وثيقة سفر فلسطينية لبنانية ، سألته عن سبب حجزه ، فقال : انه قادم من قبرص ، وهو في الاصل من سكان قطاع غزة ، فقد وثيقته المصرية في حصار بيروت ، واشترى وثيقة لبنانية ، على أمل أن يقابل أهله الذين خرجوا من قطاع غزة الى القاهرة طمعاً في مقابلته بعد أن فقدوا الامل في نجاته ، فسألته وسألت كل من قابلت عن دواء للمغص والقيء ، فلم أعثر على منيتي ، وأشار عليّ أحدهم أن أسأل عن دواء من مشتقات السلفا ، رجعت الى الغرفة خاوي الوفاض ، فشاهدت الصغير وقد احمرت عيناه ، وتوردت شفتاه ، وقد اغرورقت عينا أمه بالدموع ، فتذكرت أساليب العلاج العربي السائد في مجاهل البادية النائية ، تمنيت لو كنا نحمل نبات الشيح أو الجعدة ، ولكن لا تنفع الاماني ، فتذكرت الكي ، وعلى الفور أشعلت لفافة تبغ ، وأخذت منها نفسين حتى غدا رأسها كالجمرة وكويت بها الطفل فوق سرته تماماً ، ولذعته على كعب رجله اليمنى وعلى رسغ يده اليسرى ، فصرخ صراخاً عنيفاً ، وانطلق راكضاً لا يلتفت وراءه ، فلحقت به وأمسكته من يده الباردة المرتجفة ، فصاح : « طبت . . طبت » وأعدته الى الحجرة ، وأمرته الكف عن البكاء ، فسكت وأخذ في النشيج ويشهق بين الفينة والاخرى في محاولة منه لكتم البكاء ، وما هي إلا لحظات حتى نام ، وتفصد جبينه عرقاً ، ونامت أخته وغطت عينيها بيديها وهي تقول لأمها : « أنا ماني مريضة ، أبي ولّع سيجارة » .

كانت فرصة سانحة للمرأة كي تغسل خرق الطفلين وتمسح القيء وتستمع الى أصوات الطائرات الصاعدة والهابطة ، وحين استيقظ الطفل نظر الى أثر الكي على يده وأطال النظر والتدقيق ، وطلب من أمه التي احتضنته فلافل ، فأجابته : « الفلافل في علب العرايس » .

استيقظت المرأة باكراً ، وأزعجها عدم جفاف الملابس التي غسلتها بالامس ، وأخبرتني أنها رأت في المنام الاهرام وتجولت بينها على الرمال البيضاء ، وراعها هرم خوفو من بعيد وظنته في البدء سحابة دكناء ، أما أبو الهول فتخيلت أنه يتحرك ، فقالت ألا يعني هذا أنه سيسمح لنا بالدخول وزيارة هذه المعالم الاثرية ؟ فأجبتها : اني أرى عكس ذلك ، فلن تتحقق لك رؤية الاهرام حقيقة ، فأراك اللّه أياها في المنام .

خرجت للتعرف على الحارس الجديد حيث أصبحت أعرف بدقة متى يتغير ، وكأني عريف حراس يشرف على تبديل نوبات الحراسة ، ثم عدت لأنام بعد أن طمأنته لوجودي ، وقبل أن أغط

في النوم قرع الباب . ماالأمر ؟ قلت في نفسي ، تريثت قليلاً بين مصدق ومكذب ، لأتحقق أهو علم أم حلم ، وإذ به يقرع من جديد برتابة لم أعهدها من قبل ، فتحت الباب فوجدته محاسب الفندق ، ردّ التحية وأردف : « مضى على الموعد المحدد لدفع الحساب سلفاً ساعة كاملة ، ولم أشأ أن أزعجكم ، أعـطيتكم ساعة من الوقت على مسؤوليتي الخاصة ، فشكرته وأخرجت نقوداً ، فقـال : تفضـل هذا الايصـال ، ادفعه في الصندوق واحضره لي مختوماً لأسلمه لمن يستلم مني المناوبة ، نحن هنا نتعامل بالساعة وليس باليوم أو الليلة ، فكل أربع وعشرين ساعة عليك دفع الحساب أو تخرج قبل الموعد بساعة ، فنزلت أفرك عيني الى الصندوق ، وقلت للمحاسب اقطع اجـرة ثلاثة أيام قادمة ، فقال : اقطع فقط يوماً واحداً ، كما هو مبين في الايصال . فصعدت وأعطيت المحاسب الايصال المختوم .

نزلت الى الطابق الاراضي حيث المقصف ، وطلبت ابريق شاي ، فقالوا : أين تجلسون ؟ قلت : في الفندق. فرد البائع : يمنع دخول الشاي الى غرف الفندق ، انزلوا واشربوا الشاي هنا ، ثم اننا لا نعطي أكواباً أو أباريق خارج المقصف ، فعدلت عن شراء ابريق واكتفيت بكوب واحد ، أرتشفته وأنا أقف أمام البائع أنظر عبر الزجاج الى المطر الذي يرشق الزجاج بغزارة وشدة ، وشـاهدت عصافير صغيرة وكأنها في أول عهدها بالتحليق ، تطير في اتجاه المقصف ثم تصطدم بالزجاج ، وتسقط أرضاً وتعاود التحليق والاصطدام في محاولة منها للولوج الى الدفء .

اشتريت أربع زجاجات بلاستيكية صغيرة ، وتوجهت الى بائع الشاي ، فأخذ يكيل بكأس صغيرة ويسكب في الزجاجات الى أن ملأها ، وقال : خمسة جنيهات ، فقلت : هذا مبلغ باهظ . فرد : ثماني كاسات ، قد اكتلتها أمامك ، وهنا التسعيرة واحدة ، تأخذ بيرة أو شاياً أو قهوة أو كولا ، كله بسعر واحد ، الكوب بستين قرشاً واحسب »، واشتريت كذلك أربع بيضات وأربع قطع صغيرة من الخبز الابيض، الواحد منها بحجم البيضة .

بعـد تناول الافطار ، فتحنا حقيبة لنخرج ملابس للطفلين ، لنستبدل ثيابهما ، فأبصرت الـطفلة الهدايا التي اشتريناها من الشام لأقاربنا في مصر ، وهي ملابس للصغار وعباءة وعمائم وابريق قهوة نحاسي ، فتساءلت الطفلة : لماذا لا نذهب لنعطي هذه الاشياء لأصحابها . . . أين هم . . أين بيتهم . . هل هم مسافرون مثلنا ، وارتاعت عندما حاولت أمها أن تلبسها فستاناً كان من المقرر أن نهديه لطفلة في سنها ، فأخذت تصرخ ، « لا هذا فستان عايدة » . على الرغم من أنها كانت تلح علينا لترتديه في الشام ، فكنا نقول لها : هذا ليس لك ، هذا هدية لعايدة ، وحين ألبستها أمها الفستان عنوة شقته بعنف وقطعت أزراره الامامية ، ولم يقر لها قرار الا بعد خلعه .

فتحت المرأة صنبور الماء لتغسل وجه الطفل ، فدهشت حين رأت ماء أصفر ينساب من الصنبور مع رمل خشن لامع ، ونزلنا لتناول وجبة الغداء ، وسألنا عن الطعام ، فأخبرنا النادل أن وجبة اليوم فراخ ومعكرونة (اسباكيته) وكان المطعم غاصاً بالاجانب ، وجلسنا على طاولة في الزاوية الغربية وأطعمنا الطفلين المعكرونة الخيطية الطويلة بأيدينا بعد تنعيمها مما أثار دهشة رجل أجنبي

وزوجته كانا قريبين منا ، فقال لزوجته بالانجليزية انهم من السعودية ، ثم عدنا الى غرفنا دون أن نأخذ نصيبنا من البرتقال ، وخلدنا الى الراحة .

أيقظتنا جلبة وضوضاء تنبعث من الصالة المجاورة، فقلت إنه أمر عابر، اذ أن أغلب نزلاء هذا الفندق من أولئك الذين أجبروا على النزول فيه، إما لتأخر رحلة كانت مقررة أو سجناء مثلنا، فتحت البـاب لأستجـلي الأمر، فرأيت ضباطاً يجوبون الممر، وبعض المدنيين من ذوي الهندام الأنيق، خطوت خطوة الى الخـارج، واذ بضـابط يقترب ويطلب منى العودة الى الغرفة وإغلاق الباب، فسألته عن السبب، فكرر أمره بنبرة آمرة، فامتثلت لأوامره، ورجعت الى غرفتي، وكلي يقين أن انقلابا حدث في مصر، وما هي الا ساعات قلائل ويؤذن لنا بدخول القاهرة، كان الشعور الذي انتابني في تلك اللحظة هو عينه الذي ينتاب المرء حين يستمع الى اذاعة ما فينقطع البث فجأة ويطول الانقطاع، فأول ما يتبادر الى الذهن إنه حدث أمر جلل في تلك الدولة خصوصاً اذا كان الأمر فيه مصلحة للمستمع.

قررت الخروج من جديد متذرعاً بحجة النزول الى المطعم بعد أن هدأ الضجيج وابتعد، فتحت البـاب فشـاهدت رجلا يرتدي ملابس مدنية يذرع الممر أمام حجرتنا، ناداني باسمي، واقترب مني قائلاً: مساء الخير، وسار معي الى أن بلغنا صالة الجناح، وجلس الى جانبي ولديه رغبة عاجلة في التحدث إلي، فبادرته سائلا: ما الذي حدث قبل قليل، أين الحارس ؟ فأمال رأسه وأخذ يسرني وهو يجول ببصره أرجاء المكان، يتوقف عن الحديث عند سماعه وقع أقدام أو أصوات قادمـة، فقال : نزل في الغرفة المجاورة لكم مسافر اسرائيلي قادماً من تايلاند، كان يريد زيارة القاهرة، ولكنه لم يحصل على سمة دخول قبل مجيئه، فقيل له يجب أن تكون حائزاً على تأشيرة من أية سفارة مصرية، فهذا إجراء أمني يخدم مصلحتك أولاً ، وأشاروا عليه بالذهاب الى الوطن المحتل على متن طائرة العال غداً، ومن هناك يحصل على تأشيرة الدخول من سفارة مصر في تل أبيب، على أن يمكث هنا ليلة في فندق المطار مجاناً الى قدوم الطائرة، وأضاف محدثي : نزل في الصباح الى بار المطار فأكل وشرب حتى الثمالة، وعاد الى غرفته بعد أن جال أرجاء المطار، ولاحظ هذا الصهيوني أن جندياً يترقبه ويتتبع خطواته عن بعد، فاحتج على هذه المراقبة، وصرخ في وجه الجندي الذي حاول أن يبرر أن تلاقيهما مجرد صدفة، وأن أحداً لم يكلفه بمراقبته. وأردف محدثي وعلم ضابط أمن المطار ما حدث بين الجندي والصهيوني، فوبخ الجندي لأنه لم يحسن المراقبة بخفية ومهارة، وحين دخل الاسرائيلي غرفته أرسل الضابط حارساً جديداً ليأخذ مكان الجندي السابق، فقال الجنـدي القـديم للجـديد : « انت عارف على مين حتحـرس » ؟ فرد الجـديد :«لا. فقـال الأول : « على اسرائيلي ابن دين كلب، طلعّ دين أمي من الصبح ». فما إن أكمل عبارته حتى فتح البـاب وخرج الاسرائيلي، فلكم الجندي بقبضة يده على وجهه وجذبه من قميصه بيده اليسرى قائلاً : « مين ابن دين الكلب ؟ » فأدهشت المفاجأة الجندي ووقف فاغراً فاه، وهرع مدير الفندق وحاول أن يجد مخرجاً ويقنع الاسرائيلي بأن الجندي لم يشتمه، ويبرر ذلك بقوله : « هو بيقول بيكلمّ

ولم يقل ابن كلب ». فرد الاسرائيلي بعناد: لا : أنا بيعرف عربي أكثر منك وسمعت ما قال، ووصل كبار الضباط ورجال الأمن لتطويق الحادث والاعتذار من الاسرائيلي، واصطحبوه الى صالة الاستقبال في المطار، ومن هناك اتصل هاتفياً بالسفارة الاسرائيلية في القاهرة، وبعد دقائق معدودة قدم الى المطار السفير الاسرائيلي يرفرف على سيارته العلم الصهيوني، وأخذ المسافر معه الى القاهرة. وكان محدثي حريصاً طوال حديثه، يلتفت يمنة ويسرة، وأحياناً يسر القول وتارة يجهر به ويعيد « والله أنتم أولاد حلال » وكانت الأخاديد المتعرجة تعلو جبهته، فلو صدق أصحاب الفراسة من الأعراب الذين يدعون أن كل خط على الجبهة بعشر سنوات لكان عمره يربو على الخمسين عاماً، يبدو مألوف الوجه، وكانت أسنانه الأمامية متباعدة بعض الشيء، مطلية أعاليها بالسواد الفاحم من كثرة التدخين على ما يبدو للناظر اليه. وقال : بعد هذه الحادثة تغير طقم الحراسة، وأصبح من مباحث أمن الدولة، وأنا رقيب في المباحث واسمي الحاج فرج، ثم أخرج شطيرة من سترته ملفوفة بورقة صحف وسلخ الورقة عن نصفها العلوي، ودعاني الى مشاركته، وهو يمسكها بكلتا يديه، فشكرته، وأخذ يقضم بأسنانه الأمامية ويمضغ بها أيضاً، مما يشير الى أنه لا يملك أضراساً داخل فمه، ويواصل حديثه، فتطير نحوى قطع صغيرة تفر من بين أسنانه أحسها باردة على وجهي فلا يكترث كأنه لا يراها رغم أنني أمسحها باستمرار وعلى مرأى منه، وبعد أن فرغ من الأكل عصر الورقة بين يديه ووضعها على طرف طاولة صغيرة أمامه ، وأخرج سيجارة من علبة بجيبه وأشعلها، وأخذ يجذب منها دفعات طويلة، فيخرج بعد فترة خطان متوازيان من الدخان من منخريه الواسعين.

نزلت عند المساء لاحضار وجبة العشاء وإبريق شاي وحليب للأطفال، ورجعت لاتحدث مع الحاج فرج، ووعدني أن يبذل قصارى جهده لتمكيننا من السفر غداً، فقلت : أمن العادة أن يبقى المحجوزون أسبوعاً آخر ؟!، قال : « نعم، قد لا تكون هناك أماكن شاغرة في الطائرة » فقلت : نحن نملك تذاكر عودة الى سوريا وهي مع بقية الأوراق والوثائق عند المباحث، فقال : « يمكن أن تنسى شهراً، انت على بال مين » وأضاف : أنا سأساعدك، آه لو عرفت بموعد قدومك منذ البداية، لكنت سهلت لك الدخول ما دمت تحمل تأشيرة دخول، أنا لي أصحاب فلسطينيون يعملون في الكويت والسعودية، يبرقون لي عن موعد قدومهم، وأنتظرهم في المطار وأدخلهم، ودائماً يحضرون للأولاد بعض الهدايا »، فقلت: « ما دام الأمر هكذا وأنت واسع النفوذ هنا، حاول الآن إدخالنا ونحن نكرمك »، فقال: « فات الأوان، أما خدمتك الآن فهي الهمة لتسفيرك غداً، سأسلم الحراسة الآن الى زميل آخر وأعود غداً لحراستكم ظهراً، نحن مفرزون من مباحث أمن الدولة وهناك عدة أجهزة أخرى في المطار، المخابرات العامة، والاستخبارات ومجموعة ٥٥ ومجموعة ٧٥ وحرس الحدود والمرافيء علاوة على الشرطة وأمناء الشرطة. فرجوت الحاج فرج أن يعمل عليَ تسفيرنا غداً لأن نقودنا نفدت، فوعد خيراً.

قرع باب حجرتنا صباح الأربعاء الباكر، فتحت الباب فرأيت محاسب الفندق يمد ايصالاً

قائلاً إنزل ادفع. فقلت: « نحن مسافرون اليوم » فقال: انتم تسافرون على اليمنية وهي تغادر عند الظهر، يجب أن تدفع أجرة اليوم، فقلت أجرة الساعات الباقية قبل السفر، فرد قائلاً: « ما فيش ساعات تدفع أجرة يوم كامل » فقلت نحن سنرحل. فقال: تفضل اخرج. فقلت: بعد قليل قال: لا دا الوقت. فخرجت وأغلقت الباب وسرت أمامه الى مكتبه ـ وهناك قعدت وقلت له نحن سجناء ولم ننزل بمحض إرادتنا، ونقودنا قد انتهت. فقال : سأنزل عائلة في غرفتكم اذا لم تدفع الآن خمسة وثلاثين دولاراً أو تعاد الى السجن. فقلت سنغادر الغرفة حالاً وعند الثامنة صباحاً أخلينا الغرفة وجلسنا في قاعة الانتظار، وأحضرت وجبة الافطار وما زالت غرفتنا خالية، فأخذت الطفلين ليقضينا حاجتهما في مرحاضها، وعند العاشرة صباحاً دخلت قاعة الانتظار عجوز مع ابنتها الشابة وحفيدتها، وعرفنا من لهجتهن أنهن لبنانيات، فقلت لهن لماذا تنزلن الفندق ؟ فقالت الشابة : « نحن مسافرون الى الهند الى مقاطعة مدراس، زوجي يعمل هناك، وقد حضرنا من بيروت على متن الشركة اللبنانية وسنغادر القاهرة على الطائرة الهندية، سننتظر هنا ست ساعات، حجزوا لنا غرفة على حساب الشركة الناقلة وكذلك أعطونا قسائم لنتناول بموجبها الطعام ». ثم سألتنا عن قصتنا فأخبرتها بما حدث فتعجبت قائلة كيف تمنعون من الدخول وانتم تحملون سمات، يجب أن يدفعوا لكم ثمن التذاكر وكل نفقات السفر، فاستفسرت عن جنسيتنا ـ فأخبرناها بأننا من فلسطين، فزمّت شفتها السفلى. وقالت هل سبق لكم زيارة لبنان. فأجبنا بالنفي ، ثم أمرتها العجوز للذهاب إلى غرفتهن.

عند الواحدة بعد الظهر حضر الحاج فرج مبتسماً ، وقال : الحمد لله على السلامة حللنا المعضلة ، بعد ايه. . . فقلت : بارك الله فيك . قال : بعد عناء شديد حصلنا لكم على اذن المغادرة . وستسافرون على الطائرة اليمنية المتجهة الى دمشق بعد ساعة من الآن . فقلنا : بشرك الله بالخير.

نزلنا إلى قاعة الترانزيت وسلمنا حقائبنا ، وبقيت وثائق سفرنا مع شرطي يرافق الحاج فرج ، وأعلن عن خروج الركاب الى الطائرة اليمنية المتجهه إلى دمشق . فناولت الحاج فرج خمسة جنيهات وناولت الشرطي جنيهاً واحداً هو آخر ماتبقى معنا من النقود المصرية ، وصعدا معنا الى داخل الطائرة وناول الشرطي وثائق سفرنا الى قائد الطائرة اليمني قائلاً : اعطهم الوثائق عند النزول في مطار دمشق ، فغضب الطيار ، وقال : لااتحمل مسؤولية وثائق سفر ، ربما تضيع مني، اعطِ كل وثيقة لصاحبها ، يستحيل أن ينزل رجل وأولاده بمظلة من الجو في مصر ، نحن سنقلع بعد دقيقة من الآن .

وفعلاً أحضر لنا الشرطي وثائق السفر ، ونزل مهرولاً من الطائرة التي بدأت الاقلاع . وقابلنا في هذه الطائرة آخرين ممن سافروا معنا من الشام الى القاهرة قبل ثلاثة أيام وقد أعيدوا الى سوريا ولم يسمح لهم بالدخول إلى مصر . وقال أحدهم : إنه متزوج من امرأة مصرية وله بيت في عين شمس ، ولم يأذنوا له برؤية أولاده وبيته وقال: من رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته .

قصة

الرهان

زكريا شريقي*



في أيام الانتفاضة الفلسطينية العصيبة ، وخلال ثلاثة أيام متتالية . ورد الى احدى المستشفيات اليهودية اربع حالات متشابهة ، أدت الى وفاة الجنود المصابين اثناء الطريق بين مكان الحادث والمستشفى .

« تحطيم في الجمجمة من أحد جوانبها اثر اصطدام جسم صلب بها ، أدى الى نزيف داخلي حاد وشديد في الدماغ ، رافقه شلل كامل ما لبث ان جعل المريض جثة هامدة » .

* * *

منذر الكايد . كان طفلاً صغيراً عندما بدأ يتمرن على استعمال المقلاع مع أقرانه بظاهر القرية . كايد يغرس في الارض عصا بطول الانسان . يضع في أعلاها علبة تنك بحجم الرأس . .

* قاص وفنان تشكيلي من القطر السوري .

ويصوّب حجر مقلاعه نحوها . مرة . . مرتين . . عشرات ، مئات المرات كل يوم . في البدء كانت الفكرة مجرد تسلية . ثم صارت حجراً . . وهدفاً . وراحت الحجر تدور في المقلاع . دورة . . دورتين . . ثلاث . وفي منتصف الدورة الرابعة ، تنطلق الحجر كالرصاصة . . وتقرقع علبة التنك التي بحجم رأس الانسان .

قال الضابط الاسرائيلي : يا منذر الكايد .

ـ نعم ؟

ـ هل توافق ؟

حدّج منذر الكايد الضابط بنظرة باردة مستهزئة . في الوقت الذي كان فيه ذهنه ، وتفكريه ، منصبين عند والده المصاب بشلل نصفي . لم ينبس بحرف .

غمغم الضابط الاسرائيلي بهدوء ، قائلاً :

ـ هذا مقلاعك ، وهذه حجرة صوّان صادرناهما من منزلك . اقتله فأطلق سراحك . . أو . .

. . فكر منذر الكايد بوالده . كان غارقاً في دوامة من الغمّ ، والحيرة « لا ريب ان والدي سيموت دون ان يدري به احد . . » .

قال الضابط : منذر . . هية . . يا منذر ؟

رفع منذر نظره وهو مطرق رأسه . .

أضاف الضابط :

ـ لم يبق غير زميلك هذا حيّاً . لا شهود على الحادث منكم . اقتله . . يموت الحادث معه . او نقتلكما معاً .

يتذكر منذر الكايد كلمات والده : « اذا كان الموت ضرورياً من أجل الوطن ، يجب ان لاتتردد أبداً يا بني . الوطن أولاً ، وقبل كل شيء بما في ذلك الحياة » .

نظر منذر الى زميله ، كان يقف هادئاً . . لا مبالياً . كأن الحديث الذي يدور عنه لا يعنيه . عيناه صافيتان . نظراته عميقة . يغلّفها مسحة حزن ، يرافقها وميض عنفوان . كمنارة في يوم عاصف . في تلك اللحظة بالذات تذكر عيني جارته في المخيم . صبية بلون أحلام الجليل تواعدا على انجاب دزينة اطفال من أجل الوطن . ها هو الآن يراها في عيني زميله . تنظر اليه بحنان يحمل كل أبعاد الحب ، والأمل .

كانت تقاطيع وجهها حروفاً ، ونظراتها كلمات واضحة : « نعم . . لا يمكنك ان تفعل ذلك . . أنت مناضل من أجل الوطن . أنت لست بمجرم . المناضل لا يكون مجرماً أبداً . . ولا عبداً . . ولا فاقد الكرامة » .

همس لنفسه مغمغماً : ووالدي ؟

ـ سأكون الى جانبه .

ـ وأنت ؟

ابتسمت بمرارة . وقالت بلهجة واثقة : والوطن ؟!

فاجأه الضابط قائلاً :

ـ هيا يا منذر . . ماذا تنتظر ؟

نظر منذر الى زميله الذي يساومه الضابط الاسرائيلي على قتله مقابل اطلاق سراحه . انتقل بنظراته نحو الضابط الذي يتحدث الى ضابط آخر . عينا أحدهما ذئبيتان ، جافتان . يحتلّ وجهه انتظار قلق . بينما بدا الآخر بارداً ، جامداً ، وبليداً .

. . . أفكار منذر كانت تدور بين أبعاد الحياة ، وأعماق الموت . بين الحب ، والأمل ، وبين الارض والـوطن . بين والده نصف المشلول ، وحبيبته التي تنتظره عند شفة النهر الذي يخاصر القرية من الناحية الجنوبية . وعندما يصل الى حبيبته ، ووالده ، والوطن . يشعر ان تركيزه بدأ يهتز . . وان أفكاره مشوشة . . تائهة . . هشة ، مريضة ، ومهجورة . تزحف منهكة وراء بقع القرنفل الاحمر التي انزرعت فوق أجساد أقرانه الذين قضوا أمامه .

الضابطان يتهامسان . .

منذر يراقبهما بهدوء . وهو يفكر : « ذلك المهووس . يريدني ان أقتل زميلي ! » . راودته نفسه مراراً ان ينقض على الضابط ويخنقه . تمنى لو يستطيع ان يفعل ذلك . . تمنى . . ولكن الجنود ؟!

لوّح الضابط بالمقلاع يميناً ويساراً . وقال :

ـ انظر . . انظر الى وجه منذر !

ـ ذلك يبدو واضحاً .

ـ لا شك انه فكر . . وقرّر . لاحظ كيف تنتقل نظراته بين المقلاع ، وزميله . ثم التفت الى منذر . وقال :

ـ بقي دقيقة واحدة . هل تسمعني جيداً . . دقيقة واحدة . ثم التفت الى الضابط الآخر . واضاف : » لاحظ . عيناه لا تفارقان المقلاع » .

ـ هذا واضح . . واضح جيداً .

صاح الضابط الاسرائيلي : ايها الجنود استعدوا .

قال الضابط الآخر : يبدو انك خسرت الرهان .

قاطعه زميلة قائلاً دون ان يحيد نظره عن منذر :

ـ ما زال هناك دقيقة .

ـ أقل من دقيقة . . نصف دقيقة .

ـ ولكنها مدة كافية لاتخاذ قرار وموقف .

. . . انتشر الهدوء ، خيّم الصمت ، والترقب . .

صاح الضابط الاسرائيلي : انتهت الدقائق الخمس . . التفت نحو منذر ، ومنه الى الجنود . واضاف : اقتلوه . .

اندفعت خمس هراوات وجنزير حديد نحو منذر . وقبل ان يطاله الاسرع منهم . قال منذر للضابط الاسرائيلي بهدوء :

ـ اعطني المقلاع .

تساءل الضابط الاسرائيلي بلهفة :

ـ هل وافقت ؟!

هام شوق في عيني منذر . . ابتسمت له جارته . امتدّ امام ناظريه حقل من شقائق النعمان بدت فيه حبيبته كفراشة تبتعد ثم تقترب منه . . تدور حوله . . تقترب . . تقترب . تقف على قبضة يده . يغمض عينيه شوقاً . . تطير ، يلحق بها بين الزهرة ، والزهرة . تتوقف عن الطيران . تعود اليه . تقدم له زهرة . تبتسم ، يبتسم . ضحكت ، فضحك . أحسّ بشفافية اللحظة ودفئها . رأى والده يبتسم في الطرف الآخر من الحقل . كان يحمل وردة ايضاً . . وكان يسير طبيعياً .

سأله الضابط : أنت موافق . أليس كذلك ؟!

اجاب منذر بتصميم : اعطني المقلاع .

وقبل ان يتقدم الضابط الاسرائيلي ليناوله المقلاع والحجر . التفت الى الضابط الآخر , وقال : ألم أقل لك ؟

رد الآخر باستسلام : الآن كسبت الرهان فعلاً .

تناول منذر الكايد المقلاع من الضابط . ابتعد مسافة كافية لاستعماله . ولما صار عند رأس مثلث متساوي الساقين بين زميله والضابط الاسرائيلي . ابتسم هذا بارتياح . تقاطيع وجه منذر بدت هادئة ، واثقة وهو يوزع نظراته بين زميله الفلسطيني ، والضابط الاسرائيلي .

قال الضابط الاسرائيلي بلهفة : اعطني . . ناولني .

ـ ماذا تريد ؟

رد الضابط الاسرئيلي بزهو : النقود . . الرهان .

اخرج الضابط رزمة نقود من جيبه . بدأ منذر يدور بالمقلاع دورة . . دورتين . . وفي الوقت الذي تناول فيه الضابط الاسرائيلي النقود من زميله . كانت الدورة الثالثة لحجر منذر في المقلاع . وبينـما كان الضـابط يتمعن في النقود . التفّ منذر في منتصف الدورة الرابعة وصار في مواجهة الضابط الاسرائيلي تماماً .

. . وكـما في الحلم . . في طرفة عين . اصطدمت حجر الصوان برأس الضابط الاسرائيلي وحطمت جمجمته . . وكـما في الحلم ايضاً ، ترنح . . وقع . . استقر على الارض . انتفض مرة . . مرتين . ثم همد في مكانه .

* * *

١٩٨٨/١١/٢٥

قصة

الشنفرى

أحمد عادل أحمد*

ما أن أمال بروحهِ نحو السهوب حتى شعر بالنار التهمت أصابعه، فكعبيه، فساقيه، فركبتيه، فوركيه، فوسطه، فثدييه، فرقبته، وقبل أن يتداعى ويخرّ على الارض جثةً محترقةً، نهض بانفعالٍ خفيٍ ، فدلف نحو البحرِ ودلفته العيون معه!

وغسل وجهه، وحدقت العيون اليه!

وعادَ إلى مقعدهِ، وعادت العيون معه!

ودون أن ينبس ببنت شفة. ودون أن يقول لهذا وذاك: **انني احترق!** مدَ كفه اليمنى إلى جدار الدار، فاحدث ثغرةً باطرافِ أنامله، ومن خلالها نظر إلى السماء والأرض.

وعبرها، لمح الحياةَ والموتَ.

ومنها واليها تجول في المدنِ والأرياف.

وبها استعان بأن يلتهم الأرضَ فالتهما!

وانحنى على البحر فشربه!

وأومأ إلى السماءِ فهبطت!

وحين كان الجالسون عاجزين عن رؤية ماحدث، حدق اليهم بعينينِ جاحظتينِ فقال: تف!

هذا ماحدث في بادىء الأمر. فنهض «الشنفرى» مرةً أخرى. وتخطى في الغرفة من يمينها

---

* قاص وروائي من عربستان

إلى يسارها. فنظر إلى الزوايا والمرايا. وتأمل لوحة العناق والسهب. وتطلع إلى مسلسل التلفاز فمقته. ونظر إلى الناظرين اليه فسبهم:

- أنت الشبيه بخروف اعلاف، منذ أن خرجت من السجن، تحولت إلى رجلٍ بذيء وسخيف، بل ساقط ومتخاذل. تلهث وراء المال بأقذر الطرق. وتبنى حياتك باوسخ الاعمال. فعاشرت المهربين والمخبرين والخونة. . ترتاد المباغي وأمكنة القمار ولاتخجل! وإن أسخف مافيك الآن، تخاف على زوجتك من أبشع الرجال. فسكت برهةً، ثم استأنف كلامه: تعرف لماذا؟ لأنك تشعر بضعفٍ أمامها.

وتشعر بضعفٍ أمام نفسك ايضاً!

وقبل أن ينتقل الشنفرى إلى الآخرين. وقبل أن يبصق بوجه الخروف، قال له: أنت ساقط! فبصق بوجههِ الشبيه بوجهِ دبٍ جبلي. وقال له: من الأفضل أن تموت ياندل، لعل الموت يضع حداً لاعمالك المخزية!

وأنت!

أقصد البقرة الرابضة في المطبخ. صاحبة الذهب المعبأ بالأكياس، والتي نسيت «المعلقات» الآن، وتركت الناس الشرفاء و «الادب المقارن» والتي تتباهي بسقوط زوجها أمام التجار والسفلة. والتي لايهمها من الحياة إلا السرير، وافلام الانحطاط. لا اريد أن أقول طلبت مني فرفضتُ. ولا أود أن أقول بأنني أخطأت بما تصورته فيك قبل أن تخلعي ملابسك، وتركضي في الشارع عاريةً، فتصفقين وترقصين أمام الناس، فتنامين على التراب، وترفعين فخذيك لمن. . . !

وحين كان الصمتُ المريب يخيمُ على المرأتين والرجل الخروف، إذ كان سيف الشنفرى يفرض ذلك. أتكأ الشنفرى على الجدار من شدة الانفعالِ. فتأفف ثم تأوه، وضحك ثم بكى. وسكت ثم صرخ: من أنت ايتها المعزاة الهزيلة. من الذي قال لك أن تسبي المشردين. وتستهزئي بالانبياء والمناضلين. وتقولين لفارغي الرؤوس ولاعبي الورقِ إن «النوّر» هم الذين يسكنون المخيمات! والذين يحملون الكتب! فتضحكين باعلى صوتك. ولاتخجلين من بذاءة لفظكِ. وتخلطين لعاب الفم برفع الثياب. وتهزين الكفل والأكتاف. وتعودين إلى الكلام الوقح مرةً أخرى: عيني يا عيني! يحرسهم النبي ويحفظهم الولي. غدائهم الحمص. وعشائهم الفول. ويريدون منا أن نترك. . . ونقول:

- نعم للصعاليك وقصائدهم!

- نعم للسيف والميزان!

وظل الشنفرى يرعد ويهدر. وظلت المرأة ساكتةً كسكوت الرجل. واستراح الشنفرى بنظرةٍ إلى الطفلة الجميلة. وقارنها بأقواله وافكاره والتفت إلى المرأة الثانية، وشبهها بالبقرة نفسها. وقبل أن ينتقل بحديثه اليها، عادَ الى المرأة الأولى بنفس الحديث: هذه السجادة الثمينة التي تفترشينها

يجب أن تسحب من تحتك، وتعطى لمن يستحقها. والفواكه المكدسة بالبيت، يجب أن تصادر، وتُعطى للأطفال الذين لايحصلون على لقمة الخبز. والأموال المكدسة في الصندوق، سآخذها أنا رغماً «عنكم» وسأبني بها مستوصفاً في قرية «أبي حميضةْ» وسأكتب على بابه:

«بني هذا المستوصف بمالٍ صادره احد الصعاليك من بيت مهرِّب يمتهن التجارة، ويعمل في التجسس والتزوير، وإنه تزوج من إمرأةٍ جعلت منه خادماً مطيعاً. وعبداً خضوعاً. ورجلاً.

ينام وقت تشاء!

ويستيقظ وقت تحب!

فيخرج بارادتها!

ويدخل بارداتها!

فتقول له احيَ، فيحيا!

مت، فيموت!

وحين يعاندها، تصفعه على الوجه فيذعن!!!

وخرج الشنفرى من البيت، دون أن يكلم المرأةَ الأخرى، لأنه واثقٌ من نفسه بأنه سيراها في مكانٍ ما، وسيعطيها الحق الذي تستحقه!

قصة

لحظة بين دمعتين

وجيه عمر مطر*

- هل تذكرني..؟

تجولت في جغرافية وجهها، في تفاصيل حدقات عينيها، وانسللت عبر شق في صدرها، مكثت هناك طويلاً، ولم يعدني الى جليستي سوى حركات في بداية الامر لم افهم لها معنى، حتى انتهيت الى اصابعها وهي **تحتضن** «سيجارة» وأخذ الدخان يتسرب من بين شفتيها راسماً في فضاء المكان اشكالا سوريالية.

- أسفة، هل تدخن..؟

مكثت مع سؤالها على شفتيها زمنا خلته العمر، اذ كنت اراقب نفث الدخان وهو ينبعث بشكل عبثي مستكملا اشكاله السوريالية الذي كان يتبدد كاحلام الاطفال.

لاأدري.. كانت عديدة هي المحطات التي توقفت عندها، كنت كتائه في بلد لايعرف لغتي، لااعرف لغته، فاتسلل عبر الامكنة غير ابه بشيء، ولا انا بعارف اي شيء، ولا الى اين سينتهي بي كل تلك التجوال. وكلما كنت اتعب، ابحث عن مكان استريح فيه من تجوال لايعرف منتهاه.

- هل نشرب شيئاً؟ سألتها

- هل تذكرني؟

خلتها لم تسمع سؤالي للهفة التي فاجأتني بها بتكرار سؤالها، وكأني بها أحسست بشيء

*** كاتب وناقد مسرحي من فلسطين.**

يجب أن تسحب من تحتك، وتعطى لمن يستحقها. والفواكه المكدسة بالبيت، يجب أن تصادر، وتُعطى للأطفال الذين لايحصلون على لقمة الخبز. والأموال المكدسة في الصندوق، سآخذها أنا رغماً «عنكم» وسأبني بها مستوصفاً في قرية «أبي حميضةْ» وسأكتب على بابه:

«بني هذا المستوصف بمالٍ صادره احد الصعاليك من بيت مهرِّب يمتهن التجارة، ويعمل في التجسس والتزوير، وإنه تزوج من إمرأةٍ جعلت منه خادماً مطيعاً. وعبداً خضوعاً. ورجلاً.

ينام وقت تشاء!

ويستيقظ وقت تحب!

فيخرج بارادتها!

ويدخل بارداتها!

فتقول له احيَ، فيحيا!

مت، فيموت!

وحين يعاندها، تصفعه على الوجه فيذعن!!!

وخرج الشنفرى من البيت، دون أن يكلم المرأةَ الأخرى، لأنه واثقٌ من نفسه بأنه سيراها في مكانٍ ما، وسيعطيها الحق الذي تستحقه!

قصة

لحظة بين دمعتين

وجيه عمر مطر*

- هل تذكرني..؟

تجولت في جغرافية وجهها، في تفاصيل حدقات عينيها، وانسللت عبر شق في صدرها، مكثت هناك طويلاً، ولم يعدني الى جليسي سوى حركات في بداية الامر لم افهم لها معنى، حتى انتهيت الى اصابعها وهي تحتضن «سيجارة» وأخذ الدخان يتسرب من بين شفتيها راسما في فضاء المكان اشكالا سوريالية.

- أسفة، هل تدخن..؟

مكثت مع سؤالها على شفتيها زمنا خلته العمر، اذ كنت اراقب نفث الدخان وهو ينبعث بشكل عبثي مستكملا اشكاله السوريالية الذي كان يتبدد كاحلام الاطفال.

لاأدري.. كانت عديدة هي المحطات التي توقفت عندها، كنت كتائه في بلد لايعرف لغتي، لااعرف لغته، فاتسلل عبر الامكنة غير ابه بشيء، ولا انا بعارف اي شيء، ولا الى اين سينتهي بي كل تلك التجوال. وكلما كنت اتعب، ابحث عن مكان استريح فيه من تجوال لايعرف منتهاه.

- هل نشرب شيئاً؟ سألتها

- هل تذكرني؟

خلتها لم تسمع سؤالي للهفة التي فاجأتني بها بتكرار سؤالها، وكأني بها أحسست بشيء

---

* كاتب وناقد مسرحي من فلسطين.

تجاهي. . الا ان. .

ـ ياالله. . . صوت دوي في داخلي لكنه كان مكتوما كقلقي.

الانفجارات كانت اكبر من ان تعطيني الفرصة بالتفرس في وجهها، ولكن الوهلة الاولى بدت جميلة، ولا ادري هل كانت جميلة، ام ان الجفاف يوحي بذلك، وكيف لا، وكنا نعيش وضعا لانعرف كيف الخروج منه، العدو يحاصرنا من الخارج، ودواخلنا محاصرة بالف سؤال وسؤال.

لم أكن وسيما الى الحد الذي يدعوها التفرس بي بتلك الطريقة التي اخرجتني من كل ذلك الحصار.

كانت رائحتي عفنة، وانا هكذا كنت اشتمها، عرق ممزوج بالتراب ورائحة البارود، وذقني غير حليقة، وشعري قد تخربت كل مجموعة منه لوحدها من اثار افرازات الدهون وغبار القذائف.

لم يكن بي شيء يستفز الاخرين سوى عفونتي

ـ انتبهي. . خذي الارض. .

وكانت يداي اسرع من لساني، فاخذتها ولا اعلم كيف كان الوضع خلال لحظات الا بعد زوال اثار الانفجار، رأسها وجزء من كتفها كان تحت صدري، ويدي اليمنى فوق ظهرها والاخرى أحمي بها رأسي من الشظايا.

ـ انهضي. . مجنونة انت؟. .

نظرت الي بنظرات لم افهمها، الا انها كانت تحمل اكثر من وزن كل القذائف ذلك اليوم.

ـ الحمد لله على السلامة. .

كان صوتي هادئا في تلك اللحظة، وعيناي تبحثان عن مكان استريح فيه بين حدقاتها.

اللعنة على البارود والقتال والسلاح. . ولكنه كان جميلاً في تلك اللحظة، أجمل من كل شوارع باريس ولندن.

ـ ماذا كنت تحملين؟

ـ بعض السندويشات للرفاق، وسآخذ بعضها للموقع الاخر.

انسحبت من الموقع بانحناءة من ظهرها تفاديا لرشقات الرصاص، وكنت احميها بعيني. .

اي عبث تخلقه الحرب أحياناً. الموت يزحف اليك في اية لحظة، وفي لحظة، تنسى ان الحرب والموت يتلازمان معك في خندقك، جميل هو الموت احيانا اذا اخترناه، والاجمل ان تختاره، في لحظات لاتستطيع ان تختار الا مااخترت.

حرب، موت، وانفجارات، وانثى تتفجر فيك، هي لحظة الابدية التي تنساق فيها اكثر الاشياء انشدادا الى المجهول، يتسرب اليك عبر فجوات الامكنة المسروقة.

ـ أبو. .وو. . و. . .

الآنين يصم الاذان، والمكان يمتلىء باجساد لاتعرف كيف تنظم رحلات مرورها في هذا الازدحام الخانق. .

نصف رؤيا وكل الاشياء عندي معتمة. تألمت، وشعرت بثقل يكاد يوهن في حتى النظر. . وخطوات تلازمني على نقالة تحمل شيئاً من جسدي، او ماتبقى منه، هكذا تخيلت ان اكون.

كنت اسمع همهمات واصوات لااميز بعضها عن بعض، وبعد ان نقلت الى السرير بلحظات، لم اعد اسمع شيئاً، وغاب عن نظري كل شيء. ولكني احسست بدوران. ولم اعرف من الذي كان يدور، هل العالم حولي، ام اني ادور على نفسي؟. . .وغبت لزمن لااستطيع تحديده، ولكن استيقظت من سباتي الذي حسبته أبديا، على لمسات دافئة رغم برودة «الجبس» واللفافات المعقمة.

ـ الحمد. . الحمد لله على السلامة. .

اي دفء يسري في ثنايا هذا الصوت، اي الم جميل هذا الذي انا فيه؟. . واغمضت عيني وكأني اريد ان احتفظ بهذا الدفء الى الابد. وحاولت ان لاافيق من هذا الحلم الذي اختزل كل الالم، وكل مآسي الحروب. . تحولت في تلك اللحظات في بقاع رسمتها على صفحات ذلك الصوت. .

هي لحظات التناقض التي خلقت كل هذه الجماليات، التي تساوت عندي فيها حركة التضاد، وادخلتني في حقول قزحية، فرسمت لي الوان الخيال من غبار البارود لوحة الازل، وشمخت في نفسي تماثيل صنعتها تلك اللحظات من بقايا الشظايا ومخلفات الة الحرب. . تلك الحرب التي كرهتها وعشقتها. . كيف ولحظات التناقض لازالت ترسم معالم دربي بكل قساوة العواصم المضيافة.

وعندما اقنعت عقلي الذي بقي وحده سالماً لقد احتفظت بكل اسرار الكون واستطعت اختزان اجمل الاشياء في ذاكرتي، فتحت عيني ونظرت حولي بكل مابقي لي من قوة النظر، كان المستشفى يعج بالحركة، ولكنه كان مختزلاً ذلك الشموخ الذي خلت المكان خالياً الا منه، وهي تقف الى جانبي.

ارادت الكلام، ولكني خفت ان نضيع تلك اللحظات التي لم استطع وصفها ببعض الكلمات، نتبادلها بشكل شبه عادي، وكأني كنت مصيبا بذلك فعندما نظرت اليها واشرت ببقايا يدي بعدم الكلام. وبقيت ساهما مع دمعة كانت تترقرق بين جفنيها، ترجمت لي في حينه كل لغات الارض لمعنى الدفء.

واستدارت كي تخفي دموعها، ولكني حرصت ألاّ تفوتني هذه الفرصة، كم كنت انانياً، ولكن. . هي التناقضات التي تخلق اجمل الاشياء.

ـ اين. . كيـ. . ف.

وعادت الى بكل دموعها وغضبها، ومالت علي تبتسم وهي تبكي. . اي مونوليزا، حينها اعترفت ان بعض الاشياء حتى التي نكره، قد تخلق صوراً تعجز عنها أمهر المخلوقات، وحينها ايقنت أن الحرب كانت أكثر مهارة من ريشة وعبقرية ديفنشي في الجوكندا.

ـ أن بخير . .
ـ وهم . . . ابو . . أجا . د . و . .
ـ كلهم . . كلهم بخير . .

لم تستطيع بجوابها ان تخبىء عني مصير الرفاق، وايقنت بأني أحسن حالاً من بعضهم . . ياالمي . . وياوجعي . . كل الاشياء الجميلة لاتدوم . . وخشيت على حالي مع الهة الحرب هذه . . كنت اخشى ان تصبح من مخلفات الحرب وبقاياه .

ـ خذ . . احضرت لك هذا الكتاب . . صدر قبل يومين .
ـ شكراً لك .
ـ لا . . انت اليوم بألف خير . . واخبرني الطبيب ان بامكانك ان تسير، ولكن على عكازك . .
ـ الديك مرآة . .

حسبتها تحمل في حقيبتها بعض ماتحمله النساء، ونسيت انها مولودة في زمن غير عادي، انها وليدة الحرب التي نكره فاصبحت احب الاشياء الي . .

ـ تبدو جميلاً كما كنت . .

ايقنت أن جغرافية وجهي تغيرت، واحسست بثقل بعض الضمادات على مساحة وجهي، واصبح لدي حافز ان لابد ان ارى وجهي . . كنت اخاف هذا الحافز . . احاول طرده ولكنه بقي يطاردني ويحاصرني .

ـ كيف يفعلون ذلك . . سألتها
ـ يقولون أن بيروت قد تدمر .
ـ ولكن ماعجزت الرجال .
ـ انه القرار . . «أجابت»

انهم يقتلونك باكثرماتقتلك الحرب، ويفزعونك باكثر ماتفزعك كل القذائف . . وخشيت ان تنتهي كل الاشياء، وتصبح ذاكرتي انشط من حركتي .

ـ تقرر ان تخرج اليوم الدفعة الاولى .
ـ انه اللجوء .

سألتني كيف التقي بها، فزعت من سؤالها، وارتجفت، اذا كل شيء قد تم، وحتى انت ستدخلين دائرة الذاكرة، .

ان اقوى الرجال لايحتمل كل هذه القساوة . . يسلخونك عن نفسك ويعودون بك الى دوامة العتمة، وكل النوافذ تقفلها دائرة القرار، ويسلبونك حتى عنوانك، . . كيف احتمل كل ذلك؟ . .

على شاطىء البحر تشكلت لوحة الخروج، وكانت تكتمل علاقات الكتل بالفراغ، وتتداخل الالوان وتتنافر، واحزنني ان اشتم رائحة السخرية والرفض من موج البحر الذي يرزح تحت ثقل القوارب المهزومة والمحملة باجساد هي الاشباح اقرب منها الى الادمية، والبحر يضيق

ويضيق حتى خلته اضيق من «طشت» كان اخي الصعير يغتسل به، وخلت حزني لو تفجر لاغرق البحر وشواطئه، ولاستحال لونه من لون غضبي .

كانت تبتعد عني كلما اوغلنا في البحر باتجاه دوامة العتمة القادمة، وكنت اجهد نفسي كي احتفظ بها حية اكثر من اي وقت مضى .

نظرت الى ماء البحر، وخلته خجلا مني، فلايعكس لي صورتي . وتوجهت الى الرفاق فكانت عيونهم اكثر خجلا من ماء البحر الذي يحمل اوزارنا .

ـ ياالله . .

صرخت بكا صمتي، فضجت كل وديان الارض، ، حتى ثنايا صدرها الذي كان اخر محطاتي، ولم يعيدني اليها سوى ضربات اصبعها على السيجارة وهي تنفضها .

ـ نعم . . انك . .

وغرقت باقي الكلمات في اعماق دمعتها التي تسللت من بين اجفانها تسألني وتحاصرني .

ـ لماذا . . ؟

لاأدري . . هل حدثتها؟ ام استطاعت ان تقرأ قلقي، ان تتجول في دواخلي، ان ترسم شكل جنوني . .

حقدت على وجهي الذي اعادني الى ذاكرتها، وتسللت الى عبر خطوط متناقضة . . ولاول مرة رأيته على حقيقته، رأيته في دمعتها التي استحضرت كل عذاباتي وتواصلت مع دمعة كنت اتطهر واغسل كل اثامي بها في عواصم جفت دموعها ونضبت مآقيها .

كنت اسرع من الضوء، واكثر استحضاراً من الذاكرة، قطعت السنوات بلحظة واحدة، واللحظة كانت اقل من أي زمن . . واقصر من مسافة مابين دمعتين . دمعة احرقتني واخرى احرقتني . . لكن انفجارات الدمعة الثانية كانت اقسى وقعا، كانت الانفجارات داخلية . . داخل نفسي وذاتي . حاولت ان احمي رأسي من كل هذه الانفجارات . . فانفلت دون ان اقول شيئا، واردت أن اتجاوز الشارع ونظري اليها، اصطدمت بشيء أخل توازني . . ترنحت . . واخذت اميل ببطء، ولازلت انظر اليها، فتناهى الى سمعي صرخة كادت ان توقظني لولا شدة الصدمة . . تجمع خلق كثير، ولكني ماكنت لاراهم . . وحدها كانت تملأ عيني . . ووحدي الذي كنت احتضنها بكل المتناقضات وبراءة العشاق . .

ـ احبك . .

شخصيات فلسطينية

الدكتور اسحق موسى الحسيني

نصري الجوزي*

ولد اسحق في بيت المقدس سنة ١٩٠٤. تلقى دروسه في المدرسة «الصلاحية» التي اسسها القائد التركي احمد جمال باشا في مدينة القدس. تعلم اللغة العربية وقواعدها بالتركية لأنها كانت لغة التعليم في المدارس الرسمية في فلسطين: وبين السنوات ١٩١٨ - ١٩٢٠ دخل كلية العزيز وبعدها امضى اربع سنوات في المدرسة الرشيدية والتحق عام ١٩٢٣ بكلية الشباب التي عرفت فيما بعد بالكلية الانكليزية.

تتلمذ اسحق في المدرسة الرشيدية وكلية الشباب على علمين جليلين هما: محمد اسعاف النشاشيبي الذي كان يتولى تدريس اللغة العربية ونخله زريق الذي كان يلقب بأستاذ الجيل والاستاذان اسعاف النشاشيبي ونخله زريق علمان من اعلام اللغة العربية وآدابها.

وفي خريف عام ١٩٢٣ سافر الى القاهرة والتحق بالجامعة الأميركية ومكث فيها ثلاث سنوات - من سنة ١٩٢٣ - ١٩٢٦ وبعدها امضى في التعليم سنة في مدرسة الرشيدية ثم قفل راجعا الى القاهرة والتحق بالجامعة المصرية في عهد رئيسها احمد لطفي السيد وامضى اربع سنوات في كلية الآداب في عهد عميدها

---

* من رواد ادب المسرح الفلسطيني ومن معاصري ورفاق الدكتور الحسيني

الدكتور طه حسين، نال فيها شهادة الليسانس في الآداب سنة ١٩٣٠.

وبعد تخرجه من الجامعة المصرية عاد الى القدس ثم شد الرحال الى بريطانيا والتحق بمعهد الدراسات الشرقية ودرس الآداب واللغات السامية على يد استاذه المستشرق الانكليزي هاملتون الكسندر روسكين جيب. وعاد الى القدس يحمل شهادة الدكتوراة من جامعة لندن، وعين استاذاً في الكلية العربية ثم عين عام ١٩٤٦ مفتشاً للغة العربية حتى عام النكبة ١٩٤٨.

عرفته لأول مرة عام ١٩٣٤ وكان قد عاد يحمل شهادة الدكتوراه من جامعة لندن وكان موضوع بحثه «ابن قتيبة» فزرته بصحبة بعض المدرسين لتهنئته على نجاحه الباهر وتمنينا له النجاح الكامل في خدمة اللغة العربية وآدابها. وهو رجل خلوق، مهذب، عالم، سدّ فراغاً كبيراً في عالم الأدب العربي واللغة العربية.

وعندما كان مفتشاً للغة العربية في مديرية معارف فلسطين كان يعقد حلقات واجتماعات مع المدرسين ويحثهم على تسهيل اللغة العربية الى الطلاب، واتباع اساليب جديدة سهلة في تدريس قواعد اللغة العربية، كما كان يستمع الى آراء وملاحظات المدرسين حول المشاكل التي تعترض سبيلهم.

كان دمثا خلوقا محبا للغة العربية وآدابها، متفانيا في عشق فلسطين وتراث فلسطين، يتفانى في تقديم خدماته لمن يطلبها، يعمل دون كلل او ملل ليتوصل الى الاهداف السامية التي يطمح اليها، والمثل العليا التي كرس نفسه من أجل تحقيقها، دون كلل او ملل.

عالج الدكتور اسحق فنونا ادبية متعددة من اقصوصة، وقصة، ومقالة، ونقد وبحث. ومن ابحاثه القيمة التي لايزال يقدرها من سمعها، حديثه في محطة الاذاعة الفلسطينية «هنا القدس» بعنوان «كيف نفهم الأدب» واسوق الى القارىء نبذة من ذلك الحديث الذي اذيع عام ١٩٤٦ حيث قال:

«ان لفظة» ادب في اللغة العربية تحتاج الى تحديد حتى تطابق مفهوم الأدب على الوجه الصحيح. فالعرب حين استعملوا هذه اللفظة كانوا يقصدون بها التهذيب والشاهد على ذلك قول الرسول عليه السلام «أدبني ربي فأحسن تأديبي» وهذا معنى بعيد عن الأدب كما نفهمه اليوم. ثم اطلق العرب هذه اللفظة على درس موضوعات واسعة كاللغة والشعر والانساب. واطلقوا لفظة «مؤدب» على من يعلم هذه الموضوعات، وظلت لفظة أدب مرنة طوال القرون، الى يومنا هذا يختلف فهمها باختلاف الأزمان والأفراد. وكانوا يلتجئون الى اضافتها كي يوضحوا معناها، فيقولون ادب النفس، وادب الكاتب وأدب القاضي وأدب المعلم وما الى ذلك.

الى ان يقول: فالأدب كما يفهمه المحدثون احد فروع الفن الذي يشمل الموسيقى والرقص والتصوير والنحت. وجميع هذه الفروع تنتزع مادتها من الحياة بالاحتكاك بها والتفاعل معها. ومايتنزعه الفن من الحياة هو «التجربة» وبذلك تشترك جميع فروع الفن ثم تختلف في التعبير. فالأديب يعبّر عن تجاربه باللغة، والموسيقي بالألحان، والمصور بالألوان، والنحات بالحجارة. ولكن الأدب يتميز - عن النحت مثلاً - بأنه تمثيل متواصل لحوادث مستمرة، في حين ان النحت يمثل الأشياء في حالة سكونها وفي لحظة واحدة من وجودها. فالشعر تصوير ناطق، والتصوير شعر أصم».

«ويختلف الأدباء في المقدرة على انتزاع مادتهم الأدبية او تجاربهم من الحياة بقدر اختلافهم في الموهبة

الأدبية نفسها، وفي دقة الشعور، وقوة العاطفة، وسمو الخيال. وخير الأدباء من جمع بين هذه الصفات، ووفق بينها، فكانت عاطفته قوية صحيحة، وخياله خالقا، ومعانيه غزيرة. على ان الوصول الى المادة او التجربة هو نصف العمل، والنصف الثاني هو الأداء او قوة التعبير».

ويستطرد الدكتور اسحق:

«وكيف نوازن بين قطعة واخرى؟ هنا موطن الخلاف. ومما لاشك فيه ان الخبراء اقدر من على نقد الأدب وتمييز غثه من سمينه. وكما انا نعتمد في تقديم الرسوم ذوق الرسام المتخصص البارع، كذلك نعتمد في تقويم الأدب على ذوق المتخصص البارع. ويتكون الذوق الفني من ممارسة الأدب ومن قراءته مع حسن السليقة وسلامة الحس». اه وفي سنة ١٩٤٥ وبالاشتراك مع نخبة من الاساتذة والأدباء، تعاون الدكتور اسحق في تأسيس لجنة للثقافة العربية غاياتها: خدمة الثقافة العربية، وتعزيز اللغة العربية وتحبيبها الى القراء، والتعاون مع المؤسسات الثقافية في البلدان العربية. وانتخب الدكتور اسحق سكرتيرا للجنة في القدس. وكان من اعمال هذه اللجنة إصدار «الكتاب العربي الفلسطيني - عام ١٩٤٦ الذي ضم قائمة حيوية بأسماء الكتب التي ألفها او ترجمها عدد كبير من ابناء فلسطين.. وتقول لجنة الثقافة العربية التي نظمت المعرض «انها تشكر الله على ان وفقها الى هذا العمل الذي تعتبره جزءا من واجبها نحو الثقافة العربية في الوطن العزيز. وتتمنى على الله ان يؤتي عملها بأكملها، فيعرف مواطنونا تراثهم الثقافي، وتشتد موأزرتهم في سبيل تعزيزه وتوسيعه. وان كان لها ان تزيد في التمني فانها تتمنى ان يلي هذا المعرض قيام «دار للكتب» في بيت المقدس، تشمل التراث العربي المفرق، وتضم نقاش المؤلفات الأوروبية لتكون منارا للاجيال المقبلة، ومكيناً كلينا للنهضة الفكرية التي اخذت تشرق على العالم العربي».

ومن أعمال الدكتور اسحق الحسيني المميزة: مذكرات دجاجة وقد صدرت في طبعتها الاولى في اب (اغسطس) ١٩٤٣ في القاهرة عن دار المعارف ضمن «إقرأ» العدد (٨) ونال فيها الدكتور جائزة «دار المعارف للطباعة والنشر» بالقاهرة بمناسبة استفتاء اجرته عن احسن كتاب صدر في سلسلة «اقرأ» الشهرية.

وقد كتب لها الدكتور طه حسين مقدمة جاء فيها:

«هذه دجاجة عاقلة جد عاقلة، ماذا أقول! بل هي دجاجة مفلسفة تدرس شؤون الاجتماع في كثير من التعمق وتدبر الرأي، فتصل الى استشكاف بعض الادواء الاجتماعية وتصف لها الدواء. ماذا أقول! بل هي دجاجة شاعرة تجد الم الحب ولذته وعواطفه المختلفة التي تدق احيانا لايهتدي اليها الا الشعراء الملهمون ولايقدر على تصويرها الا الذين اوتوا حظا من سحر البيان بل هي دجاجة رحيمة تعطف على الضعفاء والبائسين وترق للمحرومين وتؤثرهم على نفسها وان كان بها خصاصة، وهي على هذا كله بليغة فصيحة تفكر فتحسن التفكير وتؤدي فتجيد الأداء. ومن المحقق ان هذه الدجاجة تشعر شعور الناس وتفكر تفكيرهم وتعبر عما يعبرون. وقد كنا نظن ان عيوب الناس مقصورة عليهم حين تتصل بالاخلاف الفردية والاجتماعية، فاذا هذه الدجاجة تبين لنا ان عيوب الناس شائعة في نوع من انواع الحيوان هو الدجاج، وان محاسن الناس - وهي قليلة - تشاهد ايضا في هذا النوع من انواع الحيوان وهو الدجاج».

الى ان يقول «ورأينا - وواعجب مارأينا - ان دجاجة فلسطين تجد من حب الخير وبغض الشر والطموح الى المثل العليا في العدل الاجتماعي وفي العدل الدولي وفي كرامة العروبة وحقها في عزة حديثة تلائم عزتها القديمة مايجده كل عربي من اهل فلسطين بل من اهل الشرق العربي كله فليت شعري ايهما ترجم عن صاحبه؟؟ ترجم الدكتور اسحق الحسيني عن الدجاجة ام ترجمت الدجاجة عن اسحق الحسيني؟؟

وقد قدم لها الدكتور اسحق نفسه بكلمة وجيزة قال فيها:

«هذه القصة تصف حياة دجاجة عاشت في بيتي، ووقع بينها وبيني الفة ومحبة فكنت اطعمها بيدي وأرقب حياتها يوما فيوما. والأحداث التي ترزيها وقعت لها بالفعل وهي لاتتجاوز المألوف في حياة الدجاج. ولقد قدر لصديقتي الدجاجة ان تتكلم بلغة الاناسي لما قالت غير ماتقرأ. فأنا - في الواقع - اترجم لك مااوحت به الي. اما عنصر الخيال فيها فضئيل، وهو لايعدو ان يكون تعليقا على هامش الحياة او تحليقا في عالم المثل العليا».

وطبعت للمرة الثانية في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٥٣ كما صدرت في طبعة ثالثة بدون تاريخ.

مابعد النكبة

وبعد النكبة الأولى سنة ١٩٤٨ نزح الدكتور من فلسطين الى مدينة حلب الشهباء ومكث فيها سنة واحدة. ثم توجه الى بيروت عام ١٩٤٩ وعمل استاذا للأدب العربي في الجامعة الاميركية: وفي عام ١٩٥٢ ذهب الى جامعة مكجيل في كندا استاذا معارا للادب العربي من الجامعة الاميركية في بيروت. وهناك القى سلسلة من المحاضرات في الاتجاهات الاسلامية المعاصرة.

وفي عام ١٩٥٥ عاد الى القاهرة ودرّس الادب العربي في الجامعة الاميركية، وفي معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية. وظل يدرّس في الجامعة الامريكية حتى ١٩٦٧ حيث احيل الى التقاعد ولكنه ظل استاذا في معهد الدراسات العربية.

وفي سنة ١٩٦٥ انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعضوا في لجنة البحوث الاسلامية بالأزهر الشريف سنة ١٩٦٦، وعضوا في المجمع العلمي العراقي عام ١٩٦٦.

وفي عام ١٩٧٤ عاد الى القدس وأخذ يعمل على جمع الكتب العربية من المكاتب العامة والخاصة لتكون نواة لمكتبة عربية في بيت المقدس.

وفي سنة ١٩٨٢ انتخب عضوا في مجلس امناء كلية العلوم والتكنولوجيا - جامعة القدس ورئيسا لكلية البنات. وفي سنة ٨٣ حصل على وسام العلوم والفنون من جمهورية مصر العربية.

الدكتور اسحق الحسيني علم من اعلام فلسطين، وأديب من أدبائها، وركن من اركان اللغة العربية، وباحث محقق تشهد له كتاباته ساهم مساهمة فعالة، كالسكاكيني والنشاشيبي وبيدس، في بعث اللغة العربية وآدابها.

وستظل فلسطين الحبيبة تذكر احد ابنائها البررة، الذين حملوا لواء النهضة، واشعلوا مصابيح العلم والمعرفة، ورسخوا فكرة انسانية الانسان وحريته.

من آثاره القلمية:

١ ـ رأي في تدريس اللغة العربية .... ١٩٣٧: القدس

٢ ـ علماء المشرقيات في انكلترا .... ١٩٤٠: القدس

٣ ـ مذكرات دجاجة .... ١٩٤٣: القاهرة

٤ ـ العروض السهل في جزئين بالاشتراك مع الاستاذ فايز الغول .... ١٩٤٥: القدس

٥ ـ فن انشاء الشعر العربي: (مترجم) بالاشتراك مع الاب اسطفان سالم .... ١٩٤٥: القدس

٦ ـ عود السفينة .... ١٩٤٥: القدس

٧ ـ اساليب تدريس اللغة العربية .... ١٩٤٧: القدس

٨ ـ ابن قتيبة (باللغة الانكليزية)

وهو موضوع اطروحته لنيل درجة الدكتوراه في الآداب .... ١٩٥٠: لندن

٩ ـ هل الادباء بشر؟ .... ١٩٥٠: بيروت

١٠ ـ الاخوان المسلمون .... ١٩٥٢: بيروت

١١ ـ الاسلام في نظر الغرب (مترجم عن الانكليزية) .... ١٩٥٣: بيروت

١٢ ـ ازمة الفكر العربي .... ١٩٥٤: بيروت

١٣ ـ الادب العربي المعاصر ١٩٦٣:

١٤ ـ ابحاث في ماضي المسلمين وحاضرهم ١٩٦٦:

١٥ ـ الأدب والقومية العربية ١٩٦٧:

١٦ ـ عروبة بيت المقدس .... ١٩٦٩: القاهرة

١٧ ـ قضايا عربية معاصرة .... ١٩٧٨: بيروت دار القدس

من مذكرات محمد عزة دروزة

محمد عزة دروزة (١٨٨٧ ـ ١٩٨٤) مناضل كبير واحد القيادات الثقافية والسياسية والبارزة لا على الصعيد الفلسطيني فحسب، بل على الصعيد العربي. وله العديد من المؤلفات السياسية والتاريخية المنشورة، والعديد من المخطوطات غير المنشورة، ومنها مجلدات مذكراته...

وننشر هنا فصلاً من مذكراته، التي لم تنشر، وهي تتناول الفترة التي تلت النكبة. وتضم مراسلات بينه وبين الرئيس شكري القوتلي..

(التحرير)

من آثاره القلمية:

١ ـ رأي في تدريس اللغة العربية .... ١٩٣٧: القدس
٢ ـ علماء المشرقيات في انكلترا .... ١٩٤٠: القدس
٣ ـ مذكرات دجاجة .... ١٩٤٣: القاهرة
٤ ـ العروض السهل في جزئين بالاشتراك مع الاستاذ فايز الغول .... ١٩٤٥: القدس
٥ ـ فن انشاء الشعر العربي: (مترجم) بالاشتراك مع الاب اسطفان سالم ...... ١٩٤٥: القدس
٦ ـ عود السفينة .... ١٩٤٥: القدس
٧ ـ اساليب تدريس اللغة العربية .... ١٩٤٧: القدس
٨ ـ ابن قتيبة (باللغة الانكليزية)
وهو موضوع اطروحته لنيل درجة الدكتوراه في الآداب .... ١٩٥٠: لندن
٩ ـ هل الادباء بشر؟ .... ١٩٥٠: بيروت
١٠ ـ الاخوان المسلمون .... ١٩٥٢: بيروت
١١ ـ الاسلام في نظر الغرب (مترجم عن الانكليزية) .... ١٩٥٣: بيروت
١٢ ـ ازمة الفكر العربي .... ١٩٥٤: بيروت
١٣ ـ الادب العربي المعاصر ١٩٦٣:
١٤ ـ ابحاث في ماضي المسلمين وحاضرهم ١٩٦٦:
١٥ ـ الأدب والقومية العربية ١٩٦٧:
١٦ ـ عروبة بيت المقدس .... ١٩٦٩: القاهرة
١٧ ـ قضايا عربية معاصرة .... ١٩٧٨: بيروت دار القدس

من مذكرات محمد عزة دروزة

محمد عزة دروزة (١٨٨٧ ـ ١٩٨٤) مناضل كبير واحد القيادات الثقافية والسياسية والبارزة لا على الصعيد الفلسطيني فحسب، بل على الصعيد العربي. وله العديد من المؤلفات السياسية والتاريخية المنشورة، والعديد من المخطوطات غير المنشورة، ومنها مجلدات مذكراته...

وننشر هنا فصلاً من مذكراته، التي لم تنشر، وهي تتناول الفترة التي تلت النكبة. وتضم مراسلات بينه وبين الرئيس شكري القوتلي..

(التحرير)

(١) نشر هذا المقال في ايلول ١٩٤٨ في جريدة الانشاء التي تصدر في دمشق وفي جريدة العالم العربي التي تصدر في القاهرة.

الاتحاد العربي
هو العلاج السريع لموقف الامة العربية العصيب

كان الهدف الذي استهدفته الحركة العربية منذ دخلت في دور العمل بالثورة الكبرى تحت لواء المغفور له الملك حسين، إقامة دولة عربية مستقلة تضم الحجاز والشام والعراق.

ولم يكن ليخطر ببال احد من رجال هذه الحركة، الشاميين والعراقيين، الذين مايزال كثير منهم أحياء يرزقون. ومنهم من يحمل مسؤولية الحكم، معنى من معاني الاقليمية، او الكيانات المجزأة.

غير ان هذا الهدف اصيب بنكسة أليمة، بسبب الغدر اللئيم الذي وقع من حلفاء العرب، وخاصة بريطانية، التي تعاقدت معهم باسم الحلفاء، بما اشتركت فيه من مؤامرات ضد العهد الذي قطعته لهم، وجعلتهم يريقون في سبيله دماءهم، سواء في الاتفاق على فصل الحجاز والشام والعراق عن بعض، او على تجزئة القطر الشامي الى اجزاء عديدة، ليسيطر على بعضها فرنسة، وعلى بعضها بريطانية، او في اصدار تصريح بلفور، وارتكابها في سبيل تنفيذه افظع الآثام وأخبث المنكرات.

وقد كان من جراء هذه النكسة الأليمة، ان انشغل رجال الحركة العربية عن هدفهم ذاك، بحركات النضال الاقليمي، ضد مامنيت به اقطارهم من البلاء الاستعماري وشروره، وأن انهكت قواهم، واستغرقت اوقاتهم في نطاق الاقليمية سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا، وهو مارمت اليه بريطانية وحلفاؤها الغادرون من مؤامراتهم، ليظل العرب مشتتي الصفوف، منفرطي العقد، منهوكي القوى، وليتيسر لهم بذلك السيطرة عليهم، حسب الخطط الاستعمارية التي رسموها.

على ان هذا لم يكن تاماً نافذاً والحق يقال. فان رجال العرب وخاصة في القطرين الشامي والعراقي، مالبثوا ان اخذوا يشعرون بهذه النكسة وآثارها، ويتحدثون في المخرج من المأزق الذي صاروا اليه وانصرفوا بسببه عن هدفهم، وكان شعورهم متجاوبا. ولقد اجتمع فريق منهم ممن لايزال كثير منهم احياء يرزقون، ومنهم من يحمل عبء المسؤولية، في شتاء عام ١٩٣١، وتذاكروا في الموقف، فجددوا عهد هدفهم الاول بميثاق صرحوا فيه بأن كل تجزئة باطلة، وكل استعمار ظالم، وبأن النضال والعمل الاقليمي لاينبغي ان يصرفهم عن ذلك الهدف والسعي في تحقيقه، وقرروا عقد مؤتمر عربي قومي، يضع الخطط لتحقيق ذلك الهدف. غير ان بريطانية أقامت العثرات في سبيل عقده.

ثم كانت مباحثات «الوحدة العربية» في مصر - وهذا هو التعبير الذي كان يعبر به عن هذه المباحثات - بين مندوبي الحكومات المصرية والعراقية واللبنانية والسورية والسعودية واليمنية والاردنية، وكان الهدف انشاء كيان سياسي عربي موحد بين دول هذه الاقطار، فأسفرت لاسباب خاصة وعامة عن كيان الجامعة العربية، وفق دستور قيل عنه انه ولو لم يحقق الآمال، فانه بداية حسنة، ونواة فيها قوة النمو

والاتساع والسير الى ذلك الهدف.

ومهما قيل في شأن الجامعة تأييدا ونقدا، فانها لم تسر خطوة صحيحة نحو هذا الهدف الى الآن، حتى فيما يتصل بالغاء الجوازات، فضلا عن ماهو أهم من ذلك، مسائل اقتصادية وثقافية ودفاعية وخارجية.

ولقد انصرف معظم جهود الجامعة الى قضية فلسطين، وهي تستحق ذلك، لان فلسطين كانت في تاريخ العرب والاسلام عقدة أعصاب الامم العربية والاسلامية، ومازال تحافظ على هذه الصفة. ولكن النتائج التي اسفرت عنها هذه الجهود التي استغرقت ثلاث سنوات، كانت أليمة جدا، بحيث صار من الواجب على رجال الحركة العربية التفكير الجدي في الوسائل التي تحقق هدفهم الاول، ثم التي تزيل تلك النتائج الاليمة التي جعلت الامة العربية ودولها السبع والجامعة العربية في موقف مؤلم جدا، لاسيما بعد ان تفاقم خطر الصهيونية، وصارت الاقطار العربية، وخاصة المجاورة لفلسطين، مهددة تهديدا مباشرا وسريعا به، فان هذا الخطر المتفاقم يحتاج الى جبهة قوية تقف امامه. وقد ثبت بما لا يتحمل الشك، ان هذه الجبهة لن تكون في نطاق الحالة الراهنة.

والذي نعتقده ان هذه الجبهة لن تكون الا في نطاق الهدف الاول للحركة العربية. واذا كنا نعترف، والاسف يملأ نفوسنا، ان المستعمرين قد نجحوا في خلق ذهنية لاتتحمل الدعوة الآن الى وحدة عربية مطلقة، تتمثل في دولة واحدة، وخاصة في طبقة الحكم والسياسة، في الاقطار العربية، فان الظروف الخطيرة التي تحدق بالامة والبلاد والدول العربية، من شأنها أن تيسر الدعوة الى اتحاد عربي، يشمل الشؤون الدفاعية والاقتصادية والخارجية على الاقل، على ان يحتفظ كل قطر عربي بسلطانه وكيانه محليا. فمثل هذا الاتحاد ينطوي على الجواب القوي للخطر المتفاقم، والوسيلة القوية للتغلب عليه، وانقاذ فلسطين من محنتها به، والمظهر القوي لحيوية الامة العربية التي اخذ الأغيار يظنون انها مفقودة، وعاملوا العرب بما عاملوهم به بسبب هذا الظن، فضلا عن انه تحقيق نوعي للهدف الذي استهدفته الحركة العربية، والذي قطع رجالها على انفسهم العهود بالعمل المتصل لتحقيقه.

واذا كانت الظروف الدولية اخذت تدفع الدول الاوروبية الغربية، وكل منها جنس مستقل، ولغة مستقلة، وتاريخ مستقل الى طريق مثل هذا الاتحاد، والخطر الذي يهددها مايزال في الغيب، وليس هو من نوع الخطر الذي يهدد الامة والبلاد العربية. فأولى بالامة العربية مئة مرة ان تندفع بقوة الظروف الخطرة التي تحدق بها، وبشدة الصدمة الأليمة التي صدمتها في معركة فلسطين، الى هذا الطريق بكل قوة وسرعة لانها امة واحدة ذات تاريخ واحد، وأهداف واحدة، ولم يكن الانفصال الذي عاشت في ظله طبيعيا، وانما هو عمل استعماري ضد مصلحتها، وضد رغبتها وأمنيتها، وهدف حركتها وثورتها.

وانا لنرجو ان تثير كلمتنا هذه الاهتمام اللائق بموضوعها الخطر، فتتناوله الاقلام والاذهان بالتدبر والتمحيص والتأييد، وان يكون الموقف الذي تقف الامة العربية به على مفترق الطرق، حافزا لكل عاقل مخلص ذي شأن سياسي او شعبي في هذه الامة على اختلاف اقطارهم بأن يستوحي عقله وضميره، ويدعو الى تأييد الدعوة الى هذا الاتحاد بالسرعة الممكنة ويسهم في بنائه.

(٢) رسالة الى فخامة الرئيس شكري القوتلي
٢٣ ذو الحجة ١٣٦٧ هـ ـ ١٥ اكتوبر ١٩٤٩ م

تمهيد

هذه الرسائل من رسائل عديدة تبادلها الكاتب مع الرئيس القوتلي. واوردها في المجموعة. وقد جاء ذكر الرئيس في مناسبات عديدة اخرى في المجموعة ايضا، فصار من المناسب والمفيد ايراد كلمة عن صلة الكاتب بالرئيس.

ان هذه الصلة قديمة، ترجع الى زمن حكومة فيصل في دمشق، حيث ذهب الكاتب الفلسطيني إلى دمشق، لتمثيل مدينة نابلس في المؤتمر السوري العام (حزيران ١٩١٩) وبقي فيها الى آخر عهد هذه الحكومة (٢٤ تموز ١٩٢٠). فتعرف الكاتب على السيد شكري القوتلي الشاب القومي الرصين المستقيم، الذي يقرب سنّه من سنّه، والذي كان واياه قبل ذلك، وبدون تعارف، مندمجين في جمعية العربية الفتاة منذ اواخر الدولة العثمانية. وكان التعارف في نطاق اجتماعات هذه الجمعية في عهد حكومة فيصل، فقام بين الشابين انسجام وتوافق وتعاون في مختلف المواقف والافكار، واتسم ذلك بصداقة حميمة. واستمر ذلك بعد عهد حكومة فيصل، وفي فلسطين ثم في سورية، حيث التقيا مرارا واستمرارا. وكان للكاتب لدى الرئيس اثناء رئاسته للجمهورية التي كان يقيم اثناءها في دمشق مقام اثير، حتى لقد كان موضع سره ومستشاره الامين. وكان تعاون وثيق بينهما في التطلعات والخطوات الوحدوية، منذ سنة ٩٤٩، واستمر كل ذلك الى ايلول ١٩٦١ حيث تعكر صفو الصداقة الحميمة، بسبب موقف الرئيس المؤيد للانفصال المشئوم، الذي وقع بين سورية ومصر في ايلول ١٩٦١، وانفرط به عقد (الجمهورية العربية المتحدة) الذي كان له جهد وموقف عظيمان في قيامها قبل اربع سنين. وحيث احزن هذا الموقف الكاتب اشد حزن، وجعله ينقطع عنه بعد موقف عتاب. ولم يعد يراه الى ان توفاه الله تعالى، بعد مدة غير طويلة. رحمه الله رحمة واسعة.

وهذه الرسالة ورسائل اخرى تبادلها الكاتب مع الرئيس كانت في ظرف اقامة الرئيس في القطر المصري بين سنتي ١٩٤٩ ـ ١٩٥٤.

ولقد حركت الاصابع الخارجية العربية والاجنبية حسني الزعيم، رئيس اركان الجيش السوري، فقام في اواخر شهر اذار ١٩٤٩ بحركة انقلابية ضد الرئيس، واعتقله مدة، ثم سمح له بالسفر والاقامة في مصر، بمساع من ملكي مصر والسعودية.

ومع ان عهد حسني الزعيم الذي نادى بنفسه رئيسا للجمهورية لم يطل، الا نحو ثلاثة اشهر، فان اقامة الرئيس القوتلي في مصر طالت الى اواخر عام ١٩٥٤. حيث حركت الاصابع سامي الحناوي، احد كبار ضباط الجيش السوري، فقام بحركة انقلابية ضد حسني الزعيم، واعتقله واعدمه. وقامت تحت هيمنته حكومة مدنية برئاسة هاشم الاتاسي في اوائل سنة ١٩٥٠. ولقد استجابت هذه الحكومة الى حركة ترمي الى اقامة اتحاد بين سورية والعراق. فحركت الاصابع أديب الشيشكلي، احد ضباط الجيش

السوري، فقام بانقلاب ثالث، واعتقل الحناوي وأحبط تلك الحركة. واقدم على اعتقال الوزارة، وعدد من اعضاء المجلس النيابي، واضطر هاشم الاتاسي الى الانسحاب. وحينئذ قامت حكومة عسكرية برئاسة فوزي سلو اكبر ضباط الجيش بالظاهر، وبسيطرة اديب الشيشكلي، اقوى رجال الجيش. وخطا هذا خطوة جديدة في سنة ١٩٥٣، ففرض نفسه رئيسا للجمهورية. وظل يحكم الى اوائل سنة ١٩٥٤، حيث قامت حركة تذمر عسكري مدني جماعية ضد حكمه، اضطرته الى الانسحاب. وعاد هاشم الاتاسي ليكمل مدة رئاسته. وسمح الجو الجديد للرئيس القوتلي بالعودة الى سورية، فعاد في اواخر هذه السنة. وجرت انتخابات نيابية جديدة. ثم ترشح الرئيس القوتلي لرئاسة الجمهورية بعد انتهاء مدة رئاسة الاتاسي، وتم انتخابه في آب ١٩٥٥.

سيدي الاخ الجليل حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، فقد ارسلت اول امس الى فخامتكم كتابا، جوابا على كتابكم الكريم الاخير، وأزجيت فيه تهنئتي بوصولكم الى الوطن العربي العزيز. وقد رأيت ان اغتنم سفر الاخ اكرم بك، فارسل هذا الكتاب، اكرر فيه ابتهاجي بعودتكم موفوري الصحة، ودعائي لله بأن يكون لكم في مقامكم الجديد الراحة وقرة العين، ولأعرض فيه مارأيت من الواجب عرضه، في صدد ماهو دائر عن حديث الاتحاد السوري العراقي.

مما لاريب فيه ان تجدد هذا الحديث في هذه الأونة هو ـ بالاضافة الى اصالة الرغبة فيه في النفوس، على اعتبار انه من غايات الحركة القومية العربية ـ صدى للكارثة الفلسطينية التي هزت كيان العرب العام هزا عنيفا، وافقدتهم الثقة في انفسهم، وجعلتهم يرون الخطر يقترب اليهم، ويعتبرون بالهول الفادح الذي ألم باخوانهم، ولايرون لهم منقذا، ولا أملا في النجاة، اذا ظلوا على حالتهم الحاضرة، وقد نسفت الكارثة كلما علّق على تشكيلة الجامعة العربية من أمل، لتكون وسيلة قوة وتضامن عربي، وأعقبها هذه القطيعة المريرة، والبلية الأليمة، بين الحكومات العربية، فازداد موقف العرب بالداخل والخارج، وأمام الاعداء خاصة سوءاً على سوء وهونا على هون.

ومن المؤسف ان مصر خاصة، هي التي تتبوأ مركز الزعامة في الامة العربية والمفروض انها الاقوى رشدا، والاكثر ادراكا لمدى الكارثة. وقد ظلت مندفعة في عاطفة غضبها مما جرى سواء أكانت على حق ام لا. وكادت تدير للفكرة العربية القومية وغاياتها قفاها، بدلا من ان تكون هي المفكرة في عملية تعاونية أشد. تنعقد لها فيها راية الزعامة الحقيقية، ويزداد مركزها في العرب وفي الخارج علوا، كما يزداد مركز العرب أنفسهم قوة.

ومهما تكن الاسباب التي أدت الى هذه النتائج، وسواء أكانت على علم وبينة وقصد من مسببيها، أم كانت اثرا لضعف البنية القومية، وارتكاس الامة في الجهل، وفساد الجهاز الذي يقوم فيها، وقصر نظر زعمائها وقادتها، وضيق افقهم، فقد أخذ الشعور يقوى بضرورة تغيير الحال. وبكلمة ثانية، بضرورة اجراء عملية ما، تكون كرد فعل لهذه الأثار الاليمة، يعيد بقدر مايمكن الى الامة ثقتها بنفسها، ويجعلها ترى فيه شيئا جديدا، يبعث فيها الامل بالتحسن، واتقاء الخطر المحدق بها من جهة ويهيؤها للانتقام

لشرفها المهان، وكرامتها الجريحة، ووطنها السليب من جهة أخرى.

ولقد كانت بلاد الشام والعراق في الاصل منبت الحركة القومية التي تهدف الى بناء امة واحدة وكيان واحد. ولقد كانت فكرة الاتحاد تتراوح من آن لآخر فيهما، وخاصة في سوريا، في كل مناسبة عصيبة. وانكم لتذكرون فخامتكم ان آخر قرار ختم به مجلس النواب السوري حياته عام ١٩٣٩، هو اعلان الرغبة في هذا الاتحاد. فمن الطبيعي جدا ان تنبثق فيهما هذه الفكرة بعد الكارثة التي ألمت بالعرب. على ان انبثاقها ليس جديدا الآن، بل انه يعود الى بعد الكارثة مباشرة. وأخذ الكثير منا يعيد ويبدي فيه، كما تذكرون فخامتكم. غير ان موقف مصر، وانشلال الجامعة والهزات التي توالت على سوريا في الحقبة الاخيرة، كانت من اسباب اشتداد الرغبة في تحقيقها.

ولقد سنحت الفرصة بهذه العملية، حينما جرت مشاورات الوحدة العربية، اثناء الحرب، وأدت الى قيام الجامعة بميثاقها الضعيف. وكان ممثلو سورية والعراق، يعلنون رغبتهم فيها، واستعدادهم لها. ولكن موقف الملك عبد العزيز ومصر ولبنان - وكل منهم يتأثر باعتبارات محلية وليست قومية. كان حائلا دون تحقيقها اجماعية، كما ان سورية والعراق لم يرزقا العزيمة والاقدام على تحقيقها منفردين، فضاعت فرصة، ربما كانت تحول دون الكارثة الاليمة.

ومهما تكن الملاحظات التي ترد على هذه الرغبة صحيحة كلها او بعضها، فانها كما قلت صدى للكارثة الاليمة التي لامندوحة للعرب من اجراء عملية ما، تكون رد فعل لها. ولاسيما انهم فقدوا كل امل في التعاون واستعادة الامل، في ظل الجامعة العربية على شكلها الحاضر. علما ان هناك مساعي وبحوثا في صدد اتقاء مايمكن ان يرد من ملاحظات او ينتج من مضاعفات. . .

ولقد اندمج في هذه الرغبة جل اخوانكم الذين عملوا في الحركة العربية باخلاص، وكثيرون غيرهم ممن اتصل جهاده وجهوده بجهادهم وجهودهم. كما اندمج فيها جميع احزاب سورية، سواء التي في الحكم او الخارجة عنه. بل ان الخارجة عنه، وأعني الحزب الوطني وبعض اركان مايسمى بالحزب الجمهوري، اشد فيها ممن هم في الحكم.

فالوقوف ضد هذه الرغبة الشاملة ضار بالمصلحة القومية العامة، وفيه تحمل لمسئولية ضياع الفرصة مرةأخرى. واني اربأ بفخامتكم ان تقفوا هذا الموقف. ولاسيما ان لسورية في تحقيقها منافع اقتصادية وغير اقتصادية، اشد واقوى، فضلا عن شعورها بالانفراد في الميدان. وتهددها بالخطر اكثر من غيرها، بسبب هذا الانفراد. بحيث يجعلها ترى في مضادة الرغبة مضادة للصميم من منافعها. فاذا لم تروا تأييداً للرغبة، وبذل التوجيهات المفيدة في وسائل تحقيقها على الوجه الافضل، مع أني اتمنى هذا من كل قلبي، ويشاركني فيه اخوانكم، فالافضل والاكرم على مااعتقد ان تقفوا موقف المرتقب على الاقل.

اقول هذا، وانا لا ادعي ان هذه العملية اذا قدر لها التحقيق، ستكون سحرا، وستنتقل الامة بها في مدى قريب من الحضيض الى الذروة، لان هذا منوط بطبيعة الحال ببنية الامة التي ماتزال ضعيفة جدا، ولكنها على كل حال عملية لامندوحة عنها، او عمّا يماثلها، كما قلت آنفا، كوسيلة الى دفع الاخطار المحدقة بالعرب، وبخاصة بسورية، ثم الى اعادة الثقة وانعاش الامل. وكاعلان للعالم، والاعداء وبخاصة ان

العرب يسيرون في طريق مجد في صدد حماية كيانهم ومستقبلهم وكرامتهم وثأرهم. وليس أحب على النفوس من ان يستطاع حمل مصر على الدخول فيها، بل وتبنيهافيكون حينئذ اتحاد عربي عام بزعامتها ويتحقق الأمل الذي سرنا وراءه اربعين عاما. ويعيد التاريخ نفسه في جهاد الصليبيين الذي كان عاملا في قيام مثل هذا الاتحاد، تحت هذه الزعامة، والذي كان العامل الاكبر في النجاح في ذلك الجهاد.

ويذهب بأسباب المخاوف النفسية التي تساور اناسا كثيرين من رجالات سورية، من مصالح الاسرة الهاشمية الذاتية وكونها الحافز الاقوى في الحركة. ويجعل من الدول العربية المتحدة قوة لها وزنها في ميدان السياسة، ولها مسوغات الاملاء والمساومة المثمرة فيه. واذا كانت دول اوربا المختلفة جنسا ولغة ومصالح وامزجة، تجمعت في اتحاد سياسي واقتصادي وعسكري وبرلماني، لتستعيد نشاطها بعد كارثة الحرب. وتدفع مايهددها من خطر لايزال بعيدا وغير واقعي. فالعرب أولى بمثل هذا من جميع الوجوه وان وقته هو الآن. لأني اعتقد، ويشاركني في عقيدتي الكثيرون، انه سيحال بينهم وبينه بالقوة بعد امد ما. واني لأخشى بل لاكاد اقول ان هناك دسائس وألاعيب يهودية وغير يهودية، هي التي تدفع مصر الى الوقوف موقف المتجهم من مثل هذا المشروع، بل من الحركة العربية، والاندماج فيها اكثر من الضغينة على العراق والاردن والانكليز.

ان هذا ميدان جليل، فيه مجال لجهد ايجابي عظيم النفع. وأنتم أولى الناس به، وأقدرهم عليه.

واني اتمنى من كل قلبي ان تركزوا مساعيكم فيه. وانا واثق انكم تستطيعون ان تبصروا جلالة الفاروق في الموقف، وتقنعوه بالاقدام على الدخول فيه وتبنيه. واذا تم هذا، فانكم تكونون قد اسديتم لفكرتنا القومية العزيزة يدا جديدة خالدة الى أياديكم. وصار في الامكان حينئذ تفادي انفراد سورية والعراق في التكتل، وتفادي ماقد يكون لهذا الانفراد من آثار في الاقطار العربية الاخرى. ومن الممكن حمل الملك عبد العزيز على الحركة في هذا الميدان ايضا.

ومااعرفه من المكانة العظيمة لكم في نفس جلالة الملكين، يبعث فيّ الامل على نجاح هذه الجهود الايجابية التي هذا الظرف أفضل ظروفها، وأضمنها للنجاح فيها.

واني لأرجو ان تقابلوا كتابي هذا برحابة الصدر التي عهدتها في فخامتكم. وان تكون لما جاء فيه من الوقع، ما آمله في عظيم اخلاصكم ووطنيتكم وتجردكم. واسأل الله ان يسدد خطاكم الى مافيه الخير والمصلحة، وان يكلأكم برعايته وتوفيقه.

(٣) تعقيب وتوضيح وتسجيل جهود في سبيل الوحدة ومددها الى ان تحققت الوحدة السورية المصرية

كتبنا الكتاب السابق للرئيس شكري القوتلي، حينما لم يكن امكان للتفكير في عمل وحدوي من جانب مصر او معها. لا من ناحية حكمها القائم، واحتلال الانكليز، ولا من ناحية ضعف الشعور

العربي، والنكسة التي كانت فيها ضد العروبة، بسبب حركات النقب وحرب فلسطين، ومفاوضات الهدنة الانفرادية، مما فصلناه في الجزء الخامس من كتابنا، حول الحركة العربية، الذي صار الجزء الثاني من كتابنا القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها. وكان الظاهر ان الاتحاد السوري العراقي ممكن التحقيق، بل لقد سير فيه بعض الخطوات في نطاق انقلاب الحناوي وقبل انقلاب الشيشكلي على الحناوي.

ولقد جعلتنا الاحداث التي كانت في سنة ٩٤٩، والانقلابات التي توالت على سورية، على مثل اليقين، ان الاصابع الانكليزية هي وراء ذلك. لذلك تحولت أنا عن الفكرة والدعوة الى ذلك. وكان مظهر تحولي ماكتبته في كتابي مشاكل العالم العربي الذي كتبته سنة ٩٥٣، ونشر في سنة ٩٥٤، حيث رشحت مصر لتبني الدعوة الى الوحدة. ثم قوى هذا الاتجاه في وايدني فيه معين الماضي. وصرنا نسعى معا لايجاد جماعة من ذوي المقامات والنفوذ، ومن ذوي الروح القومية والوحدوية في سورية، لتكوين جهاز شعبي، يدعو الى الاتحاد بين سورية ومصر اولا، وكان مما شجعنا على هذا ثورة الضباط الاحرار في مصر، واطاحتهم بالنظام الملكي والاحزاب القائدة في تموز ٩٥٢، واندفاعهم في الاندماج بالعروبة. وقد فاتحنا محمد العايش، احد الاعضاء البارزين في مجلس النواب السوري. وعلي الدندشي أحد الشباب القوميين الوحدويين البارزين، وزميل مثله هو الدكتور سعيد الامام في الامر، واخذنا موافقة على اندماجهم في حركة الدعوة الى الاتحاد المصري الشامي، وعضويتهم في جهاز لها. ثم زرت الدكتور ناظم القدسي، رئيس مجلس النواب في سنة ١٩٥٣ ولطفي الحفار من بارزي رجالات سورية ونوابها، وحدثتهم في الامر. وقد قابلا حديثي باستغراب لان الاذهان كانت متجهة الى فائدة وامكانية الاتحاد بين سورية والعراق وحسب. وحاولت اقناعهما. وتظاهر ناظم بالاقتناع دون لطفي. وحدثت بهجة الشهابي، احد ابرز رجالات جمعية الفتاة، واصدقائنا في الحركة العربية القومية، وكان هو وبعض اشخاص آخرين، منهم الدكتور احمد قدري، وعبد القادر الميداني، من شبابنا القوميين النابهين، ونصوح الايوبي زميله، يتحركون في سبيل تأليف حزب يدعو الى الاتحاد العربي، مبتدئا بالاتحاد السوري العراقي. وقد تجاوبوا معنا، وبخاصة بهجة، الذي كنا دائما على انسجام وتواثق معه. وفي هذه الاثناء كانت حركة الشيشكلي التي ادت الى حل مجلس النواب، واعتقال الوزارة، واستقالة هاشم الاتاسي من رئاسة الجمهورية ثم اعلان نفسه رئيسا للجمهورية، فتوقفت المساعي او تجمدت. الى ان انزاح كابوسه. فعدنا الى مساعينا واخذنا نتكاتب مع الرئيس شكري القوتلي استئنافاً. وفي سنة ٩٥٥ كان حلف بغداد وقامت الجبهة العربية بين مصر وسورية والسعودية ضده وانعقد ميثاق بين الدول الثلاث، لانشاء منظمة متحدة عسكريا واقتصاديا وسياسيا، غير انها كانت دون الاتحاد او الوحدة، فكتبت للرئيس القوتلي، وكان مايزال في مصر، ولصبري العسلي ولصلاح سالم أحد ابرز رجال ضباط مصر الاحرار الذي جاء الى سورية مبعوثا من مصر، لاجل تركيز المنظمة. وكتبت لجمال عبد الناصر كذلك رسائل مفصلة، مبينا للثغرة في كيان المنظمة المتحدة، وداعيا الى الاتحاد الفعلي الاجرائي. ورسائلي هذه سوف ترد بعد ثم عاد

الرئيس شكري إلى سورية وانتخب ثانية للرئاسة فاستمرت مساعينا الى ان تكللت والحمد لله بالنجاح الباهر الذي تمثل في قيام (الجمهورية العربية المتحدة) المؤلفة من سورية ومصر، والذي كان اوسع مما كنا نرضى به، ونرمي اليه، حيث كانت (وحدة) بدلا من (اتحاد).

والحق ان الرئيس شكري القوتلي تجاوب معنا اشد تجاوب وكان يطلب مني ان اضع الخطط والمناهج ليتحدث مع جمال عبد الناصر في نطاقها، حينما يذهب لزيارته. وكان يعود احيانا بشيء من التشاؤم لان جمالا وسعودا في سنتي ٩٥٥ - ٩٥٦ كانا لايتجاوبان معه في صدد وحدة او اتحاد. وكان جمال يتخوف من عواقب الاتحاد او الوحدة الاقتصادية والسياسية. ولقد اخذ تيار الاتحاد مع مصر يقوى في اواخر سنة ١٩٥٥ حتى نفذ الى الحكومة، بفضل توصية الرئيس شكري، واصراره اللذين كانا لي جهد فيهما. وقد انقسم الحزب الوطني الذي كان صبري العسلي رئيس الوزارة سكرتيره العام. غير ان الفريق الذي كان مع صبري، والذي كان متجاوبا مع الرئيس شكري في تشغيل الاتحاد مع مصر، تغلب على الفريق الآخر ذي الميول الى الاتحاد مع العراق. وادى هذا الى مجاراة حزب الشعب للتيار. وكان حزب البعث ايضا متجاوبا معه، فكان لكل هذا اثر قوي في المجلس النيابي السوري، وفي المجلس الوزراء السوري. وحسم هذا المجلس النيابي، فقرر في تموز ١٩٥٦ تبني الدعوة الى الاتحاد، بدءا من مصر، ونال هذا اجماع المجلس النيابي، فلم يكن من الرئيس جمال عبد الناصر الا ان اعلن ترحيبه بالقرار، واستعداده للاخذ به. وفي هذه الاثناء طرأت مشكلة قناة السويس وتأميمها (آب ١٩٥٦) والعدوان الثلاثي الافرنسي الانكليزي الاسرائيلي على مصر، فشغل الناس عن موضوع الاتحاد فترة ما. وكان هذا الاشغال مما هدف اليه ذلك العدوان، على ماذكره ايدن رئيس الوزارة البريطانية في مذكراته حيث قال:

ان من اهداف العدوان الحيلولة دون اتحاد مصر وسورية، تنفيذا لقرار مجلس النواب السوري فلما انكشفت غمة العدوان، وانخذل المعتدون وهدأت الأمور استوثقت المساعي والخطوات في سنة ٩٥٧ حتى وصلت الى نهايتها السعيدة على ماذكرناه في ملحق كتابنا (الوحدة العربية). ولاشك في ان اخفاق العدوان، وارتداد المعتدين أذلة صاغرين، كانا ذا اثر ايجابي قوى في اتمام الخطوة، بالاضافة الى عوامل محلية اخرى. والحمد لله اولا وآخراً.

ولقد كتبنا ملحقا بكتابنا (الوحدة العربية) الذي كتبناه ونشرناه في هذه الظروف، وقد شرحنا في الملحق الخطوات التي انتهت الى هذه النتيجة واوردنا نصوص المواثيق الاتحادية المتفق عليها، كما اوردنا بتفصيل حادث انضمام اليمن الى الاتحاد السوري المصري والميثاق المتفق عليه بصدده وحادث قيام الاتحاد الهاشمي في هذا الظرف الذي ضم المملكتين الهاشميتين العراقية والاردنية، وما اعلن من نصوص في صدد ذلك.

هذا وننبه الى أن هذا التعقيب سجل في الورقة التي كتب عليها مسودة رسالة الكاتب الى الرئيس القوتلي والراجح ان التسجيل كان عقب قيام (الجمهورية العربية المتحدة) بقصد توضيح الظروف والمساعي المبذولة في سبيل الوحدة. ومن الاحداث المثيرة في اثناء قيام الوحدة ماكان من محاولة رشوة عبد

الحميد السراج، احد كبار ضباط الجيش السوري وأقويائهم بقصد تعطيل اعلان الوحدة المذكورة في ظروف الاستفتاء عليها بعملية عسكرية. وقد اذاعت الصحف الخبر ونشرت صور الشيك بمليون جنيه المسحوب من البنك العربي في الرياض لأمر السراج والمرسل إليه من جانب الملك سعود وان كان انكر. وقد سلم السراج الشيك للرئيس جمال الذي امر بقيده لحساب مشاريع خيرية في سورية. ولقد كان الملك سعود متضامنا مع مصر وسورية، ضد حلف بغداد الى مابعد العدوان الثلاثي. ثم انقلب بعد رحلة قام بها الى الولايات المتحدة وصار يسير في فلكها، وكانت ركنا غير رسمي في حلف بغداد.

وقد نشرت الاهرام في عدد الخميس ١٥ شعبان ١٣٧٧ و ٦ مارس ١٩٥٨ تفاصيل هذا الحادث بعنوان اغرب من الخيال، ونشرت صورة الشيك المسحوب من البنك العربي في الرياض على بنك ميدلاند بمليون جنيه لامر السراج.

ولقد قيل ان تيارات في الجيش السوري كانت متعاكسة مع الوحدة وضدها، وان سورية تعرضت لدسائس واصابع اجنبية وتخريبية، بقصد منع وحدتها مع مصر، وضمها الى التاج الهاشمي البغدادي، وان كل هذا مما عجل اعلان الوحدة. وقد يكون هذا صحيحا. وقد ظهرت آثاره فيما كان من موقف سلبي مضاد للوحدة، ترأسه عفيف البزره رئيس اركان الجيش السوري الشيوعي النزعة، وموقف ايجابي قومي ترأسه عبد الحميد السراج. وفيما ظهر من مؤامرات تخريبية غذيت بأموال وسلاح من العراق والمخابرات الاميركية، وكشفت وحوكم رجالها البارزون.

ولكن ليس من شأن ذلك تغطية الجهود والتطلعات المبذولة التي اشتدت في سبيل الوحدة، وبخاصة الوحدة السورية المصرية قبل العدوان الثلاثي على مامرّ شرحه. بل من الحق ان يقال ان المواقف المضادة السلبية انما كانت لتعويق تلك الجهود والتطلعات التي كانت مشتدة.

ولقد كان العدوان الثلاثي الاثيم مناسبة لتداعي رجال العرب القوميين من مختلف الاقطار الى عقد مؤتمر شعبي قومي في دمشق، لمناصرة مصر ضد العدوان واعلان تضامن وتناصر الشعوب العربية، وعقد المؤتمر فعلا في اواخر اب ١٩٥٦ برئاسة السيد حميد فرنجية القومي اللبناني المعروف. وكنت من دعى اليه واشترك في صوغ قراراته التي اعلنت تضامن الشعوب العربية وشدة تطلعها ورغبتها في الوحدة، وبتصميمها على مكافحة الاستعمار. وأدانتها العدوان الثلاثي الأثيم.

ومما يسجل من اثر موقف البعث العربي. فقد كان الرئيس جمال متخوفا من وجود احزاب عديدة في سورية. وكان يسوق ذلك كبوادر لما سوف يعترض الوحدة من عثرات ومحرجات. وكان اهم هذه الاحزاب اذا ذاك بصورة رسمية وعلنية هو حزب البعث العربي الاشتراكي، فبادر القائمون عليه الى اعلان استعدادهم لحل الحزب تيسيرا لقيام الوحدة، وازالة للمخاوف من العثرات والمحرجات. ثم نفذوا ذلك فقرروا تجميد الحزب. وكان لذلك اثر ايجابي في مصر وسورية معا. ولقد اثار ذلك اعجابي واكباري، فكتبت كلمة نشرتها جريدة البعث، سجلت فيها ذلك الاكبار والاعجاب واثنيت على الروح القومية الوطنية الوحدوية التي املت هذا الموقف.

(٤) رسالة الى الكاتب من الرئيس شكري القوتلي

أخي الجليل حفظه الله.

تسلمت كتابيك الثاني ثم الاول، اذ وصلني الاخير متأخرا اما الثاني فهو الذي عليه المعول، وقد شكرت لك دوام حسن ظنك، كما شكرت لك حسن توجيهك في كل ماجاء في كتابك من تفصيل وايضاح. وقد نم كتابك على انك مازلت في الصف الاول بين كل من اخوانك في حسن التوجيه، وانك المرجع الذي كان وما زال اخوانك يرجعون اليه في الازمات، وفي المحن الحالكات. حفظك المولى لامتك قدر اخلاصك لها، وامتعك بالصحة والعافية، وكلأك بعين رعايته، قدر ماهي بحاجة اليك، وإلى ارائك الحصيفة، والى ارشادك السديد. كأني في اليوم الذي تسلمت فيه كتابك الثاني، وهو الذي بعث به الى السيد اكرم من القاهرة، كأني استوحيت عملي وركزت جهدي على ماجاء في كتابك من قبل وصوله بثلاثة ايام، بل كأنك كنت معي وبجانبي، تخط مابحثته هنا مع من يجب البحث معه بشأن زعامة هذا البلد وعروبته وقيادته، والفائدة العائدة عليه من ذلك، والحرص على استبقاء هذه الفائدة، والاستزادة منها، وتقويتها ومايعلق عليه وماينتظر في طيات التاريخ المقبل منه من رجاء وآمال، ومايفضي ذلك كله من حسنات تعود على هذا البلد اولا، وبالتالي على المجموعة العربية بالخير. أقول كأنك كنت معي عند بحث هذا الموضوع بايضاح واسهاب، بل كأني استوحيت ماجاء في كتابك وانت تكتبه، وتخط فيه آرائك السديدة، وافكارك الصائبة، اذ كنت في ذلك اليوم ابدى نفس الملاحظات الواردة في كتابك. اي ان كتابك مؤرخ في ١٥ تشرين الاول، وكان حديثي في نفس الموضوع في اليوم ذاته. وكان في نفس المعنى الوارد في كتابك. وهكذا لم تختلف يوما منذ عرفتك وعرفتني، حتى ان الاتفاق دوما في التفكير وفي وقته ولو كنا على بعد غير قليل، وبعد انقطاع غير قصير.

ان ماجاء في كتابك عن التحالف العام جاء بشكل كأنك امليته بنفسك املاء، وها ان المشروع بعد ان اقر مبدئيا بالاجماع سوف يجري البحث فيه بعد غد بصورة مفصلة، فأرجو الله ان تصفو النيات وتشحذ الهمم والعزائم، للسير في بحث الموضوع، ووضع خططه وصيغه بسرعة وحزم وايضاح وتفصيل. اما هنا فان العزم موفور، والحزم موجود، والسرعة مطلوبة، والخطر المداهم موضوع نصب العين. واكبر دليل على ذلك، واقربه ماجري لاسماعيل صدقي عندما تعرض لنقد المشروع ومالحقه من تأنيب، ادى الى تراجع ملموس ومفضوح. وانك متتبع ولاشك بأن المشروع لقي كل تحبيذ لدى مختلف الهيئات وشتى الاحزاب، مايجعل ذلك مضمونا ومتفقا عليه من الجميع. لهذا ارجو ان نكون جميعا عاملين على تحقيق الفكرة، والعمل على تأمين اخراج هذا المشروع الى حيز العمل التنفيذي باسرع وقت ممكن، وبما يستحقه هذا الموضوع من حزم وعزم، بعد الايمان به، والاعتقاد به كما اوضحتم ذلك في كتابكم، وان العمل بجد على ازالة كل العقبات من طريقه. راجيا من الله حسن الختام، متمنيا ان تجني الامة العربية من وراء هذا المشروع ثمرة يانعة مدعومة بالقوة التي تؤيد حقها، وترد عنها كيد الطامعين، وتدفع عنها ايدي الاغيار المجتاحين.

سلامي وتحياتي اليك، والى الاخوان الاعزاء وخاصة الي ابي الحكم اخيكم، والسيد زهير شبلكم العزيز، حفظكم المولى واياهم، ومتعكم بأتم الصحة والعافية وتولى رعايتكم بالجزيل من عنايته.

اخوكم شكري القوتلي
٦ تشرين الثاني ٩٤٩

(٥) رسالة من الكاتب الى الرئيس شكري القوتلي
٩٤٩/١١/١٦

سيدي الاخ الجليل حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ودعاء الله بأن تكونوا والاسرة الكريمة في خير حال من موفور العافية والراحة.

وبعد فقد تشرفت بكتابكم الكريم وحمدت الله عز وجل على دوام نعمته عليكم بالصحة والراحة والنشاط. ولقد اغتبطت جدا بما افضتم عليّ فيه من حسن ثقتكم وكريم عاطفتكم اللذين كنت ومازلت اعتز بهما. ومما لاريب فيه ان مابيننا من وحدة اخوية ومبدئية ونضالية طويلة كان لها الاثر الكبير في تجاوب روحينا وتوافق تفكيرنا وانسجام اتجاهاتنا، فلسيدى اجزل الشكر والثناء. ولقد حسبت قبل ان يصل الي كتابكم ان لكم يدا طائلة في فكرة الضمان الجماعي التي اقترحتها مصر، لاني على يقين من انكم من أكثرنا تألما مما حل في امتنا من نكبة وهوان ومن اكثرنا يقينا بوجوب تلافي ذلك، والعمل على عملية رد فعل تعيد الى الامة، ثقتها في نفسها وتفسد العار الذي لبسها في شرفها ووطنها، وتهيئها لتوطيد الامور في نصابها الحق في فلسطين ومواجهة الاخطار التي تهددها. ولقد اغتبطت أيما اغتباط حين عرفت اليقين في ذلك، ودعوت الله بأن يكلل جهودكم بالنجاح والتوفيق وان يجزيكم عن امكتم خير الجزاء..

ومما لاريب فيه ان فكرة الضمان اذا أمكن نقلها الى ميدان التنفيذ فإنها سوف تسد الثغرة وتحقق الامل المرجو وتقوى من رابطة التضامن بين جميع البلاد العربية على افضل وجه. غير ان المهم فيها لتحقيق ذلك ان تكون قوية شاملة نصا وروحا وعزما وان لاتستغرق من البحوث والدراسات فيها امدا طوية، واخوف ما يخيفنا ان تخرج ضعيفة متهافتة من حيث النص والمدى والروح، وان تضيع بهجتها في طول مدة الدراسة والبحث؟ فان هذا يؤدي الى فتور العزائم وانكسار الآمال، وانبثاث الهواجس والشكوك في البواعث والخوافي، وفي هذا مافيه من الخطر ورد الفعل. ولاسيما ان عدونا القريب غير غافل عن تقوية نفسه وترسيخ قدمه واستغلال كل فرصة وثغرة ودقيقة، كما ان مركز العرب العالمي سيزداد ضعفا وهوانا اذا ما كانت النتيجة هزيلة. واذا كنا جميعا نفضل الضمان الجماعي على الضمان الثنائي فان الشرط الاساسي هو ان يجيء ذلك قويا وشاملا وسريعا، وان يكون خطوة صحيحة وجريئة الى الاتحاد في الشؤون العسكرية والاقتصادية ـ بحيث يتناول وحدة القيادة ووحدة الاركان الحربية ووحدة الخطط والتنظيم والسلاح والميزانية الدفاعية والتعاون المالي فيه، وبحيث يتناول كذلك نسف الحواجز والعراقيل

امام النشاط الاقتصادي. اما اذا استغرق وقتا طويلا وأسفر عن نتيجة هزيلة مهلهلة فاقدة الروح والحقيقة وليست الا من قبيل المراسم والشكليات فانه يفقد أفضليته، وتصبح سورية مضطرة الى التضامن مع من تستطيع التضامن معه من اقطار العرب تضامنا يضمن ذلك الشرط الاساسي، والذي يرى كثير من اخوانكم ان السبيل اليه هو الاتحاد السوري العراقي لان سورية أشد البلاد تعرضا للخطر ومجالا سهلا في حالتها الانعزالية الراهنة، كما هي أشد البلاد شعورا بألم النكبة وذلتها وحاجة الى الانطلاق وانفتاح الآفاق امام ذلك. ويترتب علينا جميعا حينئذ ان نتضامن في تحقيق هذا الاتحاد وتوجيهه على افضل الوجوه واسلمها.

ان فخامتكم الآن في ظرف ومكان يساعدان على مضاعفة الجهد والسعي في سبيل النتيجة الفضلى الشاملة القوية في اسرع وقت ممكن.

ومادمتم قد خطوتم خطوتكم المباركة وتقدمتم لحمل نصيبكم المفروض من هذا العبء العظيم فقد اصبحتم مناط الامل الكبير في تحقيق الفكرة على افضل الوجوه وفي اسرع وقت ممكن بحيث تجد امتنا فرصة تتنفس فيها بنفس العزة والكرامة. وتستعيد فيها ثقتها في نفسها وليكون لها في الميدان الدولي الذي أخذ التزاحم يشتد فيه، وفي نفس العدو الغادر الذي مازال ينظر اليها نظر الاستهتار والاستهانة الوزن والقوة ولعل من المفيد ان اذكر فخامتكم بهذه المناسبة ان أمد الهدنة بين العرب واليهود والموقوف بسنة واحدة سينتهي بعد اشهر قليلة. وقد اخذ اليهود يهددون من اليوم بانهم يستعيدون حرية العمل ليضمنوا لانفسهم خطوطا اضمن ومجالا اوسع مادام العرب يرفضون المفاوضة معهم لعقد الصلح، او بالاحرى ليغتنموا فرصة تخاذلنا وضعفنا لتحقيق مايستطيعون تحقيقه من مناهجهم. وهم من المهارة والخبث بحيث يسهل عليهم خلق المبررات ولهم من اليد والتأثير بحيث لايصعب عليهم ان يجدوا من يشد أزرهم او يبرر لهم مايريدون ان يفعلوه بل ولقد بدأوا بهذا فعلا من اليوم، فلعل في هذا حافزا على تفسير خطورة الموقف ومضاعفة الجهود وتحقيق الامل المنشود على افضل الوجوه. اخذ الله بيدكم وسدد خطاكم ومتعكم بالقوة والعافية والسعادة.

أخي وزهير يقدمان واجب شكرهما وعظيم توقيرهما والله يكلأكم بعنايته.

(٦) رسالة من الكاتب الى الرئيس شكري القوتلي
ارسلت في ٩٥٤/٤/٢

سيدي الاخ الجليل

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ودعاء الله بأن تكونوا في خير حال.

وبعد فقد كنت مترقبا مالهجت به الالسن من قرب عودتكم ومتريثا في الكتابة اليكم عن ابتهاجي بزوال الكابوس الطاغي الذي اشتد الحنين اليه. ولكن بيانكم الحكيم الرشيد الذي اذعتموه من جديد جعلني اسارع الى ارسال هذه الرسالة معلنا ابتهاجي داعيا الى الله بأن ييسر اللقاء ويجمع بكم الشمل

قريباً في عاصمة العروبة الخالدة حتى يتم ابتهاجنا. وتستمتع روحنا بما فقدته طويلا وعلى مضض من الانس الاخوي الكريم.

وانى لاشاركم فيما يبدو من ثنايا بيانكم من التردد في العودة العاجلة ولاسيما اذا كان سيترتب عليها الانغمار في تيار السياسة المحلية والترشيح للرئاسة العليا الرسمية، لان العناصر الشانئة التي لم تأل جهدها من قبل في الكيد وبث الدعايات ماتزال تكن في صدورها الكثير مما كان يحفزها الى المواقف التي وقفتها، وقد لاتتورع عن اثارة اي حركة ما قد يترتب عليه مايكدر الصفو ويمضّ النفس وتأباه الكرامة. وليس من ريب في صواب وحكمة التروي والتريث حتى تكون الخطوة أمينة من العثار.

وانى لاتساءل بعد عما اذا كان من الضروري ان يترتب على عودتكم ذلك الانغمار، وعما اذا كان ليس من الاكرم والافضل والارشد والاصلح ان تكون عودة الزعيم الكريم ليتبوأ الزعامة الشعبية الكبرى، وليكون المرشد الموجه الذي يغدو موئل الناس جميعهم في الازمات وحلّال المشاكل والعقد في الملمات؟ وإنه ليخيل لي ان الوطن لفي اشد الحاجة الى ذلك كما انه يخيل لي ان مثل هذا الموقف حقيق بأن يحيطكم بهالة من التكريم والسمو والاعتبار تصغر دونها تلك الرئاسة الرسمية؟ ويتيح لكم بأن يكون المرشح الامين المستقيم لهذه الرئاسة هو مرشحكم الذي يظل يستمد منكم الارشاد والتوجيه والقوة.

وانه ليخيل اليّ الى ذلك ان قضية الوحدة العربية التي كانت وماتزال اعز امانينا واقدس مبادئنا لفي اشد الحاجة الى زعيم قوي بارز متمتع بالنفوذ والكرامة والثقة يجمع حوله كتلة من رجال هذه القضية لدرس الخطط والاحتمالات من مختلف الوجوه والعمل لتحقيق تلك الامنية، وهذا المبدأ بكل وسيلة، وانتم لاتجهلون ان وحدة الامم التي سبقتنا انما تمت على يد مثل هذا الزعيم القوي البارز؟ وانكم لهو هذا الزعيم اليوم في الامة العربية الجامع لتلك المزايا. وانكم لتستطيعون لو تفرغتم لهذه القضية المقدسة العظيمة ان تسجلوا لكم اسما نورانيا خالداً بما يمكنكم ان تسدّوه من فراغ وتُسدوه الى الامة العربية من يد في سبيل تحقيق غاية هي الآن اشد ماتحتاج اليه واقوى مافيه حياتها وانقاذها وكرامتها وقوة وزنها وسيرها نحو الهدف الاسمى. وهو تبوء المكانة السامية المرموقة المتناسبة مع امجادها ومركز بلادها الممتاز وغسل عارها الذي اذلها بين امم الارض واستكمال نهضتها في مختلف المجالات، واني لاعتقد انه يوجد في كل بلد عربي رجال عديدون من ذوي البصيرة والمكانة والمبدأ مستعدون للاستجابة اليكم والتضامن معكم في هذه المهمة المقدسة اذا تفرغتم لها ودعوتم اليها. بل اني لأرجح ان رؤوساء العرب الأعلى، سيقبلون على التجاوب مع هذه الحركة اذا ما تزعمتموها، وان في الامة العربية على اختلاف اقطارها من شدة الشعور العام والتحمس لقضية الوحدة مايجعل الامكانيات كبيرة للعمل الناجح في هذا المجال اذا انطلقت الدعوة اليه من سورية البعيدة عن كل ريب، التي ليس فيها من العراقيل والاعتبارات مايقيدها عن الانطلاق الى ابعد الغايات ثم التي هي احق البلاد بحمل هذه الدعوة والعمل لها.

واسأل الله ان ينير طريقكم ويلهمكم مافيه السداد والخير للوطن العربي والامة العربية السورية الحبيبة ولشخصكم الكريم.

(٧) رسالة من الرئيس شكري القوتلي الى الكاتب

حضرة الاخ الكريم حفظه الله.

اهديكم وافر تحياتي وتمنياتي الصادقة راجيا ان تكونوا بصحة وعافية.

وبعد فقد اخذت كتابكم الكريم وشكرت لكم ماجاء فيه من الايضاح والتفصيل وماتلطفتم من حسن الظن ودوام الثقة والمحبة. واني إذ اشكر لكم ذلك ارجو الله ان يهيء لهذه الامة النهوض من العثرات التي المت بها والتغلب على المصاعب التي تعانيها والاخطار التي تحيط بها. وذلك بأن يعمل كل فرد من افراد هذه الامة العربية بنزع الأنانية المتأصلة في الصدور والنزعات الشخصية التي يتمسك بها رجالات هذه الامة. وان يجنح الى المحبة والى الصوفية والى الزهد في سبيل الله وسبيل الوطن كل من اخذ على عاتقه خدمة الامة. وكل من ادعى انه يعمل لمصلحة المجموع. واني موقن بأن قادة الامة او الذين ندبوا نفسهم لخدمة الامة اذا لم يكونوا محبين ويضربون بأنانيتهم عرض الحائط ويطرحون كل مصالحهم الخاصة جانبا، فان الأمة تبقى في تدهورها الحالي في الاخلاق والسياسة وفي كل مقومات الحياة. واننا نرجو للجيل الصاعد المتوثب التحلي بأحسن الاخلاق القومية والسير في خدمة هذه الامة في نشاط وطني وروح تتفق مع مايتطلبه منهم وطنهم من مجد وسؤدد وعزة.

هذا واني اشكر لكم عاطفتكم الكريمة ارجو الله ان يتولاكم بنعيم الصحة ويحفظكم ذخرا لأمتكم.

سررت لوجود الشبل الكريم زهير على رأس عمله في ادارة البنك في طرابلس متمنيا له التوفيق والنجاح. تحياتي للاخ ابي الحكم وسلامي إلى الاخوان الاعزاء والله تعالى يحفظكم ودمتم باحترام.

الاسكندرية ٢٤/ ٤/ ٩٥٤

(٨) رسالة من الرئيس شكري القوتلي الى الكاتب

الاخ الجليل حفظه الله ورعاه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أرجو ان تكون بخير وعافية.

وبعد فقد وصلت إلى هنا في الظرف الذي كانت فيه البلاد مشغولة في نفسها وفي الأمور التي تعلم الكثير منها. ومع ذلك فقد باشرت البحث في موضوع الوحدة ـ وحدة الصف ووحدة القوى والهدف والعمل ـ وعقدنا جلسات طويلة مع اولى الشأن في هذا البلد تزيد على اربع جلسات تناولنا فيها مختلف الاتجاهات وشتى الوسائل لتأمين الوصول الى اقصر الطرق المؤدية الى الاتحاد وتأمين وحدة الاتجاه. وسيعقب ذلك اجتماعات اخرى. واني ربما لااتأخر هنا كثيرا وسأعود بعد ذلك الى دمشق وارجو ان نراكم بخير ونتحدث اليكم بما تسفر عليه اجتماعاتنا هنا من ابحاث وماحققناه من خطى للوصول الى الهدف

المقصود وسلوك الطريق المؤدية الى البدء في العمل لتحقيق الاتحاد على الوجه الاكمل، واني بهذه المناسبة ارجو منكم ان لاتباشروا طبع الكتاب الذي تريدون طبعه الآن والمتعلق بهذا القسم او هذا الفصل من الكتاب ـ فصل عن الاتحاد العربي ـ وارجاء ذلك لحين حضوري لطرفكم والتحدث اليكم بشأنه. لأن في طبعه ونشره في كتاب الآن تضيع الفائدة المرجوة من العمل به ومن تحقيق الفكرة التي لابد اننا واصلون بحول الله الى تأمينها.

فاما انكم ترجئون طبع الكتاب او تؤجلون طبع الفصل المذكور.

ومع رجائي اليكم العمل بذلك اتمنى لكم الصحة والعافية والتوفيق.

والله تعالى يحفظكم ودمتم محترمين.

الاسكندرية ٢٠/١٢/ ٩٥٤

(٩) رسالة من الكاتب الى الرئيس شكري القوتلي

سيدي الاخ الجليل حفظه الله.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ودعاء لله بأن تكونوا على احسن حال.

لقد كنت تلقيت كتابكم الكريم الذي يعد بقرب العودة السعيدة فتريثت في ارسال جواب عليه. ولما رأيت ان اقامتكم طالت رأيت ان ابعث هذه الرسالة.

لقد ابتهجت مما احتواه كتابكم من تطمين وبشرى في صدد المشروع الحيوي للعرب الذي لاعلاج لما يرتكسون فيه بدونه، كما ابتهجت لما لمستموه من رجال مصر من تجاوب معه وسألت الله ان يمدكم بعونه حتى يصل الامر الى النتيجة الايجابية المنشودة.

ان الكتاب لن يطبع الآن. فقد ارسلته الى الادارة الثقافية للجامعة العربية لاني كتبته استجابة لاعلان منها. فاذا حظى منهج الكتاب بقبول اللجنة المحكمة وكان لفخامتكم ملاحظات على بعض فصوله امكن النظر في ذلك حينما يصار الى طبعه.

اني ارى في اجتماع رؤساء الحكومات العربية ووزراء خارجيتها فرصة عظيمة آمل ان لاتكون غابت عن فخامتكم وان تغتنموها اذا كان الظرف مناسبا لتقديم المشروع وتحريكه حركة ايجابية.

اعانكم الله على مافيه خير العرب وسعادتهم وأرانا وجهكم الكريم على أحسن حال في وقت قريب ان شاء الله.

والسلام عليكم وبركات الله سيدي.

٢٥/١/ ٩٥٥





كتب

الانتفاضة الفلسطينية في ثلاثة كتب

عوني الصادق

لم يكد ينقضي العام الاول على اندلاع الانتفاضة الفلسطينية، حتى كانت دور النشر تستقبل وتخرج سيلاً من الكتب والكتيبات، يكفي ليثير دهشة أي مراقب يعرف ضيق سوق الكتاب وشهية القارىء العربي المسدودة. وكل من قرأ بعض ماصدر من كتب، اكتشف ان «الحماس» الذي كان وراء أكثرية هذه الكتب، لم يكن للانتفاضة فيه نصيب كبير، وأنه يدخل في اطار «استثمار الانتفاضة».

لقد استطاعت الانتفاضة ان تخترق الحصار الذي فرضته قوات الاحتلال الصهيوني منذ الأسبوع الأول لاندلاعها، فدخلت بيوتاً في بقاع نائية من العالم، وكانت الصورة الملونة التي نقلتها شاشات التلفزيون ومحطاته العالمية أبلغ من كل الكلام. كذلك حرصت وكالات الأنباء، الأجنبية خصوصاً، على نقل أخبار الانتفاضة يوماً بيوم.

المقصود وسلوك الطريق المؤدية الى البدء في العمل لتحقيق الاتحاد على الوجه الاكمل، واني بهذه المناسبة ارجو منكم ان لاتباشروا طبع الكتاب الذي تريدون طبعه الآن والمتعلق بهذا القسم او هذا الفصل من الكتاب ـ فصل عن الاتحاد العربي ـ وارجاء ذلك لحين حضوري لطرفكم والتحدث اليكم بشأنه. لأن في طبعه ونشره في كتاب الآن تضيع الفائدة المرجوة من العمل به ومن تحقيق الفكرة التي لابد اننا واصلون بحول الله الى تأمينها.

فاما انكم ترجئون طبع الكتاب او تؤجلون طبع الفصل المذكور.

ومع رجائي اليكم العمل بذلك اتمنى لكم الصحة والعافية والتوفيق.

والله تعالى يحفظكم ودمتم محترمين.

الاسكندرية ٢٠/١٢/٩٥٤

(٩) رسالة من الكاتب الى الرئيس شكري القوتلي

سيدي الاخ الجليل حفظه الله.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ودعاء لله بأن تكونوا على احسن حال.

لقد كنت تلقيت كتابكم الكريم الذي يعد بقرب العودة السعيدة فتريثت في ارسال جواب عليه.

ولما رأيت ان اقامتكم طالت رأيت ان ابعث هذه الرسالة.

لقد ابتهجت مما احتواه كتابكم من تطمين وبشرى في صدد المشروع الحيوي للعرب الذي لاعلاج لما يرتكسون فيه بدونه، كما ابتهجت لما لمستموه من رجال مصر من تجاوب معه وسألت الله ان يمدكم بعونه حتى يصل الامر الى النتيجة الايجابية المنشودة.

ان الكتاب لن يطبع الآن. فقد ارسلته الى الادارة الثقافية للجامعة العربية لاني كتبته استجابة لاعلان منها. فاذا حظى منهج الكتاب بقبول اللجنة المحكمة وكان لفخامتكم ملاحظات على بعض فصوله امكن النظر في ذلك حينما يصار الى طبعه.

اني ارى في اجتماع رؤساء الحكومات العربية ووزراء خارجيتها فرصة عظيمة آمل ان لاتكون غابت عن فخامتكم وان تغتنموها اذا كان الظرف مناسبا لتقديم المشروع وتحريكه حركة ايجابية.

اعانكم الله على مافيه خير العرب وسعادتهم وأرانا وجهكم الكريم على أحسن حال في وقت قريب ان شاء الله.

والسلام عليكم وبركات الله سيدي.

٢٥/١/٩٥٥





كتب

الانتفاضة الفلسطينية في ثلاثة كتب

عوني الصادق

لم يكد ينقضي العام الاول على اندلاع الانتفاضة الفلسطينية، حتى كانت دور النشر تستقبل وتخرج سيلاً من الكتب والكتيبات، يكفي ليثير دهشة أي مراقب يعرف ضيق سوق الكتاب وشهية القارىء العربي المسدودة. وكل من قرأ بعض ماصدر من كتب، اكتشف ان «الحماس» الذي كان وراء أكثرية هذه الكتب، لم يكن للانتفاضة فيه نصيب كبير، وأنه يدخل في اطار «استثمار الانتفاضة».

لقد استطاعت الانتفاضة ان تخترق الحصار الذي فرضته قوات الاحتلال الصهيوني منذ الأسبوع الأول لانـدلاعهـا، فدخلت بيوتـاً في بقاع نائية من العالم، وكانت الصورة الملونة التي نقلتها شاشات التلفزيون ومحطاته العالمية أبلغ من كل الكلام. كذلك حرصت وكالات الأنباء، الأجنبية خصوصاً، على نقل أخبار الانتفاضة يوماً بيوم.

وباستثناء عدد قليل من الكتب الصادرة حول «الانتفاضة» فإن الجزء الأكبر جاء نوعاً من «اليوميات» و «نشرات الرصد» التي تصدرها المكاتب الصحفية، وإلا فهي نوع من «القصيد» غير المجدي. وكانت محصلة ذلك أن الكتابة عن الانتفاضة «لم ترتق الى مستوى اللحظة التاريخية الراهنة، او أنها، أقله، لم تفعل ذلك حتى الآن. [لقد] غلب على هذه الكتابات طابع التغني بأمجاد الانتفاضة والتغزل بها، أو طابع تسجيل يومياتها ووثائقها وصورها، أو رؤيتها من وجهة نظر اسرائيلية»(*)

ومن بين الكتب التي وصلتنا اخترنا ثلاثة توقفنا عندها لسببين:

الأول: ان كلًا منها حاول، من موقع صاحبه، ان يتجاوز حدود الرصد والمديح الى مشارف التحليل السياسي، وان يخرج من دائرة «اليوميات» الى منطقة التعميم نسبياً.

والثاني: ان كلًا منها يحمل «موقفاً» يمثل نظرة سياسية للانتفاضة

وهذه الكتب هي:

١) الانتفاضة على طريق الاستقلال الوطني.

عبد الجبار عدوان ـ لندن ـ اكتوبر ١٩٨٨ (٢٢٠ صفحة ـ قطع متوسط)

٢) الانتفاضة الفلسطينية ـ الهيكل التنظيمي وأساليب العمل

ربعي المدهون ـ شرق برس ـ نيقوسيا ـ كانون الأول ١٩٨٨

٣) الانتفاضة الفلسطينية الكبرى (١٩٨٧ ـ ١٩٨٨)

عبد الهادي النشاش

الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ـ لجنة العمل النقابي دمشق دار النديم للصحافة والنشر ـ ١٩٨٨ (١٠٠ صفحة قطع صغير)

لن أعرض لهذه الكتب بالتفصيل أو لكل منها على حدة، بل سأحاول أن أبحث عن «الاجابات» التي قدمتها لأسئلة محددة تظهر كيف فهم كل كاتب طبيعة مايجري تحت عنوان «الانتفاضة» وهذه الاسئلة هي:

١) كيف بدأت الانتفاضة، وكيف استمرت، وماعلاقتها بمنظمة التحرير الفلسطينية؟

٢) ماذا أنجزت الانتفاضة، وماهي الحقائق السياسية التي أكدتها أو كشفت عنها خلال عام من عمرها؟

٣) كيف جرى «استثمار الانتفاضة» ولمصلحة من؟

اولا:

يتفق الكتاب الثلاثة على أن الانتفاضة كانت عفوية في البدء، ولكنها لم تأت من فراغ، ولم تكن مقطوعة او معزولة عن التاريخ النضالي والمقاوم للشعب الفلسطيني، منذ وقوع فلسطين تحت الانتداب البريطاني في مطالع هذا القرن. وفي كل الأحوال، كانت معطيات الاحتلال الاسرائيلي بعد ١٩٦٧، وكذلك معطيات الوضع الفلسطيني في الشتات في خلفية الحدث التاريخي.

يقول عبد الجبار عدوان:

«كانت خلفية السكون بعد النكبة قائمة على عوامل التجربة الذاتية والظروف العربية ذاتياً، كان الشعب مشتت القوى وقيادته انتهت. . وتبنت الدول العربية القضية مؤكدة قناعة الشعب الفلسطيني في نقطة التأكيد على ضرورة الحرب لتحرير فلسطين. . حتى ثبت العكس في هزيمة ١٩٦٧، وتغير الوضع الفلسطيني بالوقوع تحت الاحتلال مباشرة». ثم يقول:

«في العشرين سنة اللاحقات لم ينتفض الشعب الفلسطيني جماعياً، لان طلائعه لجأت لاسلوب الكفاح المسلح وهذا عمل مقنع جداً كأسلوب للتحرير، فكان العطاء الشعبي منصباً على الدعم والتأييد والمشاركة في هذا الاسلوب وانتظار نتائجه. .» (ص ٧)

ويقول عن ظروف المناطق المحتلة عام ١٩٦٧:

«لقد نشأ جيل جديد يشعر بالعبودية التامة والاحتقار من قبل الصهاينة، وفتش عن انجازات الكفاح المسلح فلم يجدها، ولم يصل لآذانه اي ايجابيات عن أفعال عربية رسمية، وشاهد احتلال لبنان على ١٩٨٢. .» (ص .)

ويتابع:

«من الناحية العملية، جاءت الانتفاضة شبه عفوية في التوقيت، بمعنى أنه لم يكن هناك قرار لبدايتها بموعد متفق عليه. .» ولكن التوقيت العفوي للبداية لايعني استمرارها كذلك بل استطاعت المنظمة ان تركب الموجة، لالشيء وانما «بصراحة تامة، كل فلسطيني يعرف ويشعر ان التزام شعبنا بمنظمة التحرير ككل غير نابع من نجاحات هذه المنظمة او حسن ادارتها وتخطيطها، ولكن لانها خير الممكن في الظروف الحالية والقادمة قريباً، ولأنها تمثل للآن فكرة يتفق حولها الشعب الفلسطيني، ولأنها أيضاً وللآن عدوة للولايات المتحدة الاميركية واسرائيل. . [وسيكون] هناك خطر كبير على القضية عندما تميع الفوارق بين المنظمة وغيرها على الساحة العربية والفلسطينية» (ص ٩)

من جانبه، يجيب عبد الهادي النشاش عن سؤال» في أية ظروف جاءت الانتفاضة؟» مستعرضاً الظروف منذ ١٩٨٢ وصولاً الى «قمة عمان» التي أكدت على «خيار التسوية السياسية كحل وحيد ممكن لانهاء ماأسموه النزاع العربي ـ الاسرائيلي» في وقت لايبدو فيه هذا الحل قريباً، وتزداد فيه شراسة «القبضة الحديدية» للعدو الصهيوني، فكانت الانتفاضة حصيلة التفاعل بين الموضوعي والذاتي في لحظة تاريخية.

ويذهب ربعي المدهون مذهب زميليه، فيؤكد ان الانتفاضة اندلعت بعد مرحلة كمية من «اليقظة الوطنية» استمرت في التراكم لعقد من الزمن، جعلت اندلاعها حالة كيفية حتمية موضعياً. ويقتبس من مقال للدكتور موشي شيمش قوله بهذا الخصوص:

«ومن يتابع التطورات الجارية، لن يجد صعوبة في اكتشاف الانقلاب (السياسي) الذي وقع خلال العقد الاخير (من الاحتلال) في اتجاه اضفاء الطابع الفلسطيني على نظام الحياة الاجتماعية والثقافية والتراث الفلسطيني. . كل ذلك يعطي الدلالة على اليقظة الوطنية بين الفلسطينيين عموماً، كذلك على طبيعة ردهم على الاحتلال الاسرائيلي خصوصاً» (ص ١٦)

ثانياً:

«يرصد» الكتاب الثلاثة التصريحات والتقييمات الصادرة عن قادة العدو الصهيوني وخبرائه للتدليل على آثار وانجازات الانتفاضة على الأصعدة: الاسرائيلي والفلسطيني والعربي والدولي. وتحت عنوان «انجازات وتقصير» يورد عبد الجبار عدوان الانجازات التالية:

ـ «تأكدت بالانتفاضة مقولة ان فلسطين هي الساحة الرئيسية للنضال ضد الصهيونية وان هذه الانتفاضة تمهد لشرعية أكبر وأوضح للعمل المسلح من الساحات الأخرى تجاه فلسطين والأرض المحتلة.

ـ «نسفت قناعات بعض الفئات المتخاذلة من المثقفين في الداخل وشرائح منتفعة بامكانية التعايش مع الاحتلال..

ـ «أنهت مظاهر الاحباط واليأس الفلسطينية، واستبدلتها بالاعتزاز بالهوية.

ـ «دثرت الانتفاضة الحلول الاميركية.. وانتهت افكار الخيار الاردني والحكم الذاتي الكامب ديفيدي أو الكونفدرالية أو التقاسم الوظيفي..

ـ «رفضت كل أطروحات التكيف مع الاحتلال..» (ص ٢٢ ـ ٢٣)

أما عبد الهادي النشاش، فيحاول من خلال الرصد أن يلاحق آثار الانتفاضة على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ليؤكد في النهاية على فشل أساليب القمع الصهيوني، وعمق أزمة الكيان الصهيوني.

في هذا الوقت، نجد ربعي المدهون يركز على (التنظيم والبناء التحتي) للانتفاضة كانجاز رئيسي قامت عليه استمرارية الانتفاضة وانجازاتها الاخرى، محاولاً أن «يوضح» العلاقة بين (الداخل والخارج) لينتهي الى القول:

«ادى نجاح القيادة الوطنية الموحدة في تحقيق وحدتها التنظيمية، والشوط الكبير، نسبياً، الذي قطعه تثبيت وبناء أجهزتها التنظيمية التحتية من لجان، الى تمكينها من تركيز استراتيجيتها (للمرحلة اللاحقة) على فك الارتباط الاداري والاقتصادي مع الاحتلال الاسرائيلي والتخلص من هيمنته» (ص ٥٤)

وبينما يرى النشاش فشل «استراتيجية القمع» الاسرائيلية في النيل من الانتفاضة، يؤكد ان ذلك لم يغير شيئاً من الموقف السياسي الاسرائيلي، ويتفق معه زميلاه، لكن النشاش وعدوان يستنتجان من ذلك ان استعداد م.ت.ف للدخول في التسويات السياسية سيعني اجهاض الانتفاضة لان «أي حل جزئي او مرحلي مطروح من الطرف الفلسطيني والعربي لن يتحقق عبر المحادثات، وانما يحتاج لتغيير الموازين بشكل أفضل» كما عبر عن ذلك عبد الجبار عدوان وبينما يعتبر النشاش ذلك «انحرافاً» عن الموقف الوطني، يعتقد عدوان «ان القيادات الاسرائيلية.. لابد وأنها مسرورة جداً لتأكدها ان طرفاً فلسطينياً هاماً هو م.ت.ف، يمكن التعامل معه في النهاية لوقف زحف الانتفاضة بحل سياسي ما» بل ان هذه القيادات الاسرائيلية ـ في رأي عدوان» رغم رفضها للعروض المقدمة من م.ت.ف فهي في الواقع مسرورة لها، كونها تعتبر احتياطياً استراتيجياً ضد الانتفاضة» (ص ٣٣)

الا ان ربعي المدهون يعتقد بأن «استراتيجية القمع الاسرائيلية» عملت على حرمان الانتفاضة من تحقيق أي مكتسبات تدفع اسرائيل الى تقديم تنازلات ولو بسيطة» (ص ٥٨)، فيخلص الى القول بأن «النجاحات التكتيكية لكل من المعسكرين المتصارعين ـ الفلسطيني والاسرائيلي ـ ادت الى خلق مأزق سياسي عام مشترك للطرفين» (ص ٨٨)، ويؤيد ماجاء في مقال نشرته (هآرتس ـ ١٣/٥/٨٨) ومفاده أن الوضع بعد تسعة اشهر من الانتفاضة هو وضع تعادل.

ثالثاً:

في فصل خاص تحت عنوان «الانتفاضة بين الفهم الاستراتيجي والتوظيف المرحلي» يستعرض عبد الهادي النشاش مواقف المنظمات الفلسطينية الرئيسية منذ ١٩٧٠، بعد اندلاع الانتفاضة، كما يستعرض ابرز قرارات المجلس الوطني الفلسطيني، ليوضح، بسرعة، حجم التراجع الذي أصاب مواقف هذه المنظمات، ولينتهي الى القول:

«ان اتجاهات ثلاثاً قد فرزت نفسها على الساحة الفلسطينية:

ـ الاتجاه الاول: ويمثل نهج الانحراف ورموزه، أي القيادة الفعلية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وهو يعتقد أن السبيل الوحيد لحل القضية الفلسطينية، هو ولوج التسوية السياسية، وليس أي خيار آخر. وبالتالي فهو مستعد للاعتراف بالكيان الصهيوني (كان ذلك قبل الاعتراف فعلا).

ـ «الاتجاه الثاني: ويمثله النهج الوطني الفلسطيني الذي يخلو قاموسه السياسي من مفردات التسوية، ويعتقد أن حسم الصراع مع الكيان الصهيوني غير ممكن بالوسائل السلمية.

ـ «الاتجاه الثالث، وتمثله بعض القوى الفلسطينية التي تعتقد بامكانية تسوية سياسية، لكنها تعارض الاتجاه الاول اسرافه في التسوية، وتنكر على الاتجاه الثاني رفضه المطلق لفكرة التسوية من أساسها» (ص ٤٣).

أما ربعي المدهون، فيرى أن «قيادة الانتفاضة لم تتمكن من ترجمة مكتسباتها الى خطوات سياسية محددة..» فالتقطت م.ت.ف فرصتها في الامساك بزمام المبادرة وشنت هجوماً سياسياً واسعاً تحت يافطة (هجوم السلام الفلسطيني) لادارة حملة سياسية واسعة لدعم الانتفاضة وتقصير وصولها الى الهدف..» ويضيف:

«تمثلت حركة م.ت.ف في اطلاق المبادرات السياسية، والاندفاع بقوة نحو اختراق الوضع الدولي لاستثمار نتائج هذه الحركة (و) تنحصر خطوط الهجمة السلمية الفلسطينية في ثلاث محطات رئيسه هي: الوثيقة التي أطلقها بسام ابو شريف.. ووثيقة فيصل الحسيني وتحركات م.ت.ف الدولية» (ص ٩٥).

في نهاية هذا العرض السريع، استطيع ان أقول: لعل الانطباع الابرز الذي يخرج به قارىء الكتب الثلاثة ـ على مافيها من اتفاق وافتراق ـ هو أن الزملاء الثلاثة اسقطوا رغباتهم على وقائع الانتفاضة، الا فيما ندر، ففسروا حيناً وبرروا حيناً، وهناك من «زور» حينا. ولكن بين التفسير والتبرير والتزوير يبقى، مالم يقولوه جميعاً، وهو الأهم

كتب

اسماعيل..

الرواية التي تفجر الخطاب والمنبر

تاليف الدكتور احمد حرب

الناشر ابو عرفه ـ القدس ١٩٨٧

مراجعة: سهيل الخالدي*

● قرأت رواية «اسماعيل» الصادرة عام ١٩٨٧ في وطننا المحتل فلسطين، للدكتور أحمد حرب مدرس الأدب الانجليزي في جامعة بيرزيت كما جاء على الغلاف الأخير. والرواية تتكون من ١٣٤ صفحة من القطع الكبير مذيلة بعبارة انتهى الجزء الاول.

وما أن قرأتها حتى اعدت قراءتها ثانية، فقد خالطني هاجس غريب، فهذه الرواية جميلة، لكنها ليست أخاذة، رواية ليست جذابة ولكنها ساحرة وحشية! فلماذا أفلتت من ايدي نقادنا الذين هم في العادة يحفلون بكل نتاج قادم من هناك؟ هل تجاهلوها لأسباب فنية أم لأسباب سياسية؟ لابد إذن من اعادة القراءة، وأعدت. واعتقد أنني استطعت «بلورة هاجسي» وشعوري، وها أنذا أحاول بسطه الى القارىء.

● اسماعيل هو شاب فلسطيني من قرية العين قرب الخليل يؤمن بالكفاح المسلح طريقاً للتحرير وطرد الاحتلال. ولكنه يصطدم بمجموعة هائلة من المعوقات اولها صديقه هادي الذي يؤمن بالنضال السلمي اضرابات ومظاهرات معتبرا ان المقولات الماركسية اللينينية تدعو الى ذلك وان الشعب لم ينضج بعد للكفاح المسلح، وثانيها امام المسجد الشيخ عبد الله الذي يعتبر النضال السلمي كالكفاح المسلح على حد سواء زندقة والحادا إذا لم يكن من أجل الاسلام، وثالث هذه العقبات والده الذي صودرت أرضه وأعطيت ليعقوب الحاكم العسكري للمنطقة الذي أقام فيها مزرعة وشغل والد اسماعيل فيها.

والعقبة الرابعة هو الحاج مصطفى صاحب محددة الشعب وعميل الاحتلال، والعقبة الخامسة العادات والتقاليد ومايمثلها من مخاتير ووجهاء. واسماعيل هو جندي سابق في الجيش كتبت عليه الهزيمة

* كاتب وروائي من فلسطين.

دون قتال فاحتفظ ببندقيته منتظراً اليوم الذي يستعملها فيه.

ويظل اسماعيل ينتظر، سجن سبع سنوات، لكنه لم ييأس،أبوه يعمل عند يعقوب في المزرعة في ارضه المصادرة، رافضاً ان يبتعد عن تلك الارض، رغم مايجلبه له ذلك الموقف من شبهات حتى من اسماعيل ولده. . . ، يعقوب يسافر لمعالجة ولده ديفيد في أمريكا، اخوة اسماعيل محمد واكرم يذهبان لرؤية والدهما الذي طلب منه يعقوب ان لايغادر المزرعة في غيابه، زوجة يعقوب تقتل اكرم، ومحمد يختبىء هادي يطلب من إسماعيل المشاركة في يوم الأرض، يجري حوار بينهما، يوافق إسماعيل، ويوافق الشيخ عبد الله على المشاركة بعد أن علقه الصهاينة على الشجرة وأهانوه بحثاً عن محمد المختبىء. يعلن الاضراب، وفي الحفل الخطابي تجيء قوات الاحتلال، وتوكل للحاج مصطفى مخاطبة الجمع المحتشد، ينهض أبو إسماعيل فيضرب مصطفى، وتبدأ قوات الاحتلال بحصد المتظاهرين.

ويصمم اسماعيل، ويقتل يعقوب الحاكم العسكري سارق الارض ويقتل الحاج مصطفى العميل، ويتشرد في الوديان ولا أحد يساعده سوى محمود الحلاق الذي يدعي الجنون، المنزل يهدم وتعيد الأم بناءه، واسماعيل يختبىءفيتلقى الأخبار من محمود الذي ينقل اليه مأساة شقيقته أمل التي «يفترسها» استاذها الامريكي في الجامعة ثم الطبيب النسائي الى ان تموت. ويغادر اسماعيل إلى شرقي النهر ليبدأ معه تحقيق ينتهي بأن يطلب اليه اثبات أنه على قيد الحياة، فالسجلات تقول أنه ميت منذ زمن ويؤكد له صديقه «ابو قيس» ان عليه ان يطرق الخزان من جديد.

● إذن فالرواية تحكي لنا عن المجابهة اليومية للاحتلال الصهيوني التي يقوم بها أهلنا هناك على مدار الساعة، فلهذا هي حارة وهي طازجة، وتختار شخوصها لتقدم لنا لوحة اجتماعية سياسية عن هذه المجابهة غير المتكافئة.

وتنتهي الرواية دون أن تحسم أمرها مع أي من جوانب اللوحة هي ؟ فهل الراوية تؤيد أفكار هادي أم أفكار اسماعيل، إنها تراوح بينهما وان ابتعدت مسافة قصيرة عن أفكار الشيخ عبد الله وكأن الكاتب شعر بهذا القصور ففاجأنا بان علينا انتظار الجزء الآخر، وان كنا سنأخذ الرواية كما وصلتنا وسنفهمها كما تطرح علينا نفسها سواء انتهت او كانت أجزاء.

● غير ان ذلك كله ليس هو الهام، فأي كاتب روائي غير الدكتور أحمد حرب من أهل الوطن المحتل يمكنه التقاط الاف القصص والحكايا والبطولات التي تجري في خضم المواجهة اليومية لهذا العدو الصهيوني الفاشي. لكن الهام هو الخطاب الروائي نفسه.

وهنا المسألة برمتها، فقد فجر الكاتب، وأحسبه لايدري ذلك، فجر موضوع الخطاب الروائي العربي كله، سواء كان عند اميل حبيبي وسحر خليفة في الارض المحتلة أو كان عند اي روائي آخر في الوطن العربي كله، وهذا التفجير هو سبب سكوت النقاد عن هذه الرواية على ماأعتقد.

ـ فالخطاب الروائي هنا يتكلم بلسانين، الأول لسان الشخوص وسلوكهم اليومي القصصي الاعتيادي، حيث تسيره اعماقهم، سواء كان ذلك لدى اسماعيل أو شقيقته أمل التي ترفض خطيبها ابن عمها لتقع فريسة لاستاذها الاميركي، أو لدى هادي الذي يتكلم بالماركسية وينتقد الماركسيين العرب وابتعادهم عن

الجماهير التي لايحاول هو الاستماع إلى صوتها الحقيقي، وسواء عند اسماعيل الذي يصم اذنيه عن كل شيء سوى صوت الكفاح المسلح الذي لاينادي به معه سوى محمود الحلاق المجنون صدقاً أو ادعاء.

واللسان الثاني الذي تتكلم به الرواية هو لسان المؤلف نفسه الذي «يحشر» ثقافته «حشراً» سواء في التعليق أو السرد انه يأخذ من أدونيس واشعاره عن اسماعيل الى أن يصل إلى الكتاب المقدس وماتقوله عن ابراهيم وولده، ويأخذ من غسان كنفاني، ورجال في الشمس وأفكاره في الطرق على الخزان، ويأخذ من افكار ماركيوز حول الانسان ذي البعد الواحد و. . و. .

أن كل الافكار التي وردت في الخطاب الروائي العربي حتى الآن أوردها الكاتب أحمد حرب وبحماسة واضحة وهي أفكار يتبناها النقاد والشعراء والروائيون العرب في العادة، وتبناها هو ايضا او لنقل تبنتها الرواية، لكنها أفكار تناقضت جميعها ودون استثناء حتى فكرة العودة الى الخزان والطرق عليه من جديد تناقضت مع شخوص الرواية بمسلكهم اليومي، رغم مايرد على السنتهم. وهكذا انفجر الخطاب ثقافة متعددة ومتنوعة لكنها ليست من هؤلاء الفلاحين البسطاء الذين يقاومون، حتى هادي المثقف لا تحس بانه على قناعة كاملة بأفكاره، والشيخ عبد الله تخلى عنها في لحظة صدامه. بوزول صاحب ماركيوز اختفى بعد ان افترس الفتاة.اسماعيل نفسه قتل الصهيوني والعميل وهرب دون ان يعلم أي أحد على استعمال البندقية، وكأن المسألة برمتها تخصه هو دون الآخرين.

نعم فجرت هذه الرواية الخطاب الروائي العربي لأنها فضحت المغالطة التي يوقعنا بها روائيونا وكتابنا، شخوص في روايات تتحرك وفق ثقافة الكاتب ليقنعنا في النهاية بخطابه الايديولوجي، اما في هذه الرواية «اسماعيل» فلأن الاحداث يومية وطازجة تحركت الشخوص في طريق غير الطريق الذي انطقها بها مؤلفها مقلداً بذلك كل الروائيين كل الكتاب العرب في هذا الزمان الذي يشهد ابتعاداً عن الجماهير عن جمهرة المثقفين بحثاً عن مثقفها الحقيقي، لذلك فإن أحداً من شخوص هذه الرواية لم يستحق أن يكون بطلاً، والنقاد العرب يقفون في العادة مع البطل الروائي، مع المثقف الذي يعبر عن قناعاتهم ويمثل خطاباتهم. وقد فقدوا في هذه الرواية مايقفون معه، وفقدوا مايعارضونه، فصمتوا.

وهكذا تشكل الرواية بمجموعها في رأيي إدانة صارخة وفاضحة للموقف الثقافي لجمهرة «المتكلمين» العرب بما فيهم كاتبها نفسه! كيف؟

اقرأوا معي: نقط سوداء تكاد تمس قزحية العين اليمين ص٨
تعثرت قدماه فوقع مغما عليه ص٦٦
مااقرب اليوم بالبارحة ص١٠٦
نتبذ مكانا قصياً بين الصفا والمروى ص١٠٧

فواضح أنـها اليمنى وليست اليمين، وانها مغمى وليست مغما، وما اشبه وليست ما أقرب، وان ارادها «أقرب» فلتكن الى البارحة، وليس بالبارحة، وواضح أنها المروة وليست المروى!

وهذه هنات غير هينات من «دكتور» في الادب، له روايات سابقة «حكاية عائد» أشار اليها حتى في نصه الروائي هذا، و «نشر العديد من المقالات في النقد الادبي في المجلات المحلية والعربية» كما قيل

على ظهر الغلاف.

● إذن فإنها رواية تفجر حتى نظمنا التربوية والتعليمة ومدى صدق اهتمامنا بثقافة وتعليم أهلنا في الوطن المحتل. وهي في هذا تذكرني بما فعله ذات مرة الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر حين نشر في صحيفته الأزمنة الحديثة رسالة من فتاة في صف البكالوريا مليئة بالاخطاء الاملائية ليحاكم من خلالها المنهاج التربوي في فرنسا. وقد وقف المسؤولون أمام ذلك وقفة جادة وتكونت لجنة لتطوير تعليم اللغة الفرنسية. لقد كان سارتر وطنياً فرنسياً جيداً قبل وجوديته وقبل أمميته، وشارك في مقاومة الاحتلال النازي.

عفواً. . لم أخرج بكم عن سياق الرواية، فقد قلت ان الرواية تفجر مجمل الخطاب الروائي الذي يبثه الروائيون والمتكلمون العرب، وها أنتم ترون أنها تفجره على مستوى سلوك أشخاصها المضاد لثقافتهم الموضوعة على لسانهم، وهاهي على المستوى الاملائي لتشير الى ان في هذه الثقافة خللاً ما، خاصة وان الكاتب لم يستطع الاختفاء وراء الستار. انه على طول الرواية كان حاضرا يدعي الغياب كعشرات بل مئات الروائيين العرب الذين يوهموننا بغيابهم عن الرواية. . لنكتشف في النهاية انهم هناك. . بل ان الذي قرأناه مذكراتهم. نقادنا لايقولون ذلك لانهم جزء من اللعبة وهذه رواية لم يهاجمها أحد من النقاد الذين اعتدنا قراءتهم، لم يمتدحها أحد منهم، فهل هم غائبون؟ سيقولون. . انها هي الغائبة لم تصل.

حسنا هاهي قد وصلت.

هل سيعيد نشرها ناشر ما ليضعها بين أيديهم؟

طبعا لا. . فهي غير مأمونة الريح.

إذن نغطي رأسنا كالنعام ونظل نردد ثقافتنا. . ثقافتنا دون أن نعرف لماذا يهرب شعبنا منا. . ولماذا لم نعد نفهم حتى لغة هذا الشعب.

ربما كنت حادا، ربما كنت جادا،

ربما حملت المسألة أكثر مما تستحق.

ولكن بربكم قولوا الى أي منبر نذهب والمنابر لاتحتمل اخطاءنا الضرورية ولا جديتنا الثقافية ولا حدتنا الوطنية، ولاتحتمل رؤانا غير المجاملة للأعماق. . وهاهو اسماعيل في هذه الرواية يوضح مع رفاق روايته الخطوط التي تفصل بين منابرنا الناعمة اللطيفة المجاملة وبين جماهيرنا الحادة والجادة والتي ترى عمق الاحتلال وابعاده ولا تتعامل مع ديبلوماسية، قولوا لنا اين نذهب حين نرى روائيا فلسطينيا يرسم الحروف غلطاً، فهل المعضلة في لغتنا وتطورها أم في ثقافتنا وضحالتها أم في منابرنا المجاملة ام في نقادنا الصامتين ان كل شخوص رواية اسماعيل يطلبون منبرا، فكلهم قمعوا، لم يقمعهم الاحتلال الصهيوني فحسب، بل قمعتهم ثقافتهم التي بها قمعوا بعضهم. وانا اسألكم معهم الى أين نذهب؟ إن لم تصدقوني. اقرأوا اسماعيل، لانكم اذا واصلتم هذا الخطاب الروائي والسياسي على منابركم، فواحدة من اثنين فإما ان تواصلوه وحدكم، واما سنكسر اقلامنا ومادام هناك روائي مثل أحمد حرب كتب اسماعيل بكل مافيها فعلى الارجح أن أصواتكم انتم ستبح واقلامكم انتم ستكسر، أما نحن فنواصل الكتابة بالقصب كما نواصل الكفاح بالحجر. لقد قال اسماعيل ليعقوب وهو يساومه على الارض «لن اتنازل ولو عن حبة تراب واحدة»!

التقرير الاول

أمسية مكرسة لذكرى الأديبة الراحلة غادة أحمد بيلتو

أقامت لجنة العمل النقابية للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين مساء الثلاثاء ١٩٨٩/١/٣١ أمسية بمناسبة الذكرى الاربعين لوفاة الاديبة غادة بيلتو عضو شرف الاتحاد التي وافتها المنية بدمشق وكانت الفقيدة قد ربطتها بالادب العربي الفلسطيني علاقة حميمة وطويلة من خلال اطروحتها عن المرحوم الشاعر عبد الكريم الكرمي «أبو سلمى» حصلت بموجبها على درجة الماجستير من جامعة دمشق.

وحضر الامسية عدد من أعضاء الاتحاد وأصدقاء الفقيدة وقدمت في الحفل عدة مداخلات سريعة لكل من الاخ خالد أبو خالد والدكتور حسام الخطيب والسيدة نينيت خضور والاستاذ عادل اليازجي. وفي الآتي نصوص هذه المداخلات.

مداخلة الاخ الشاعر خالد ابو خالد

عندما جاءت غادة أحمد بيلتو، الى مقر هذا الاتحاد قبل سنوات، تعرفنا الى فتاة مليئة بالحماس والحيوية، لمشروع هام وكبير على صعيد الثقافة الثورية الفلسطينية..

ولقد كانت غادة، وهي تسمي لنا المراجع التي تبحث عنها أو وهي تسأل عن المراجع التي نقترحها من أجل أن تستوفي شروط بحثها.. فتاة متواضعة وصبورة.. بالرغم مما كان يبدو عليها في ايقاعها السريع للحصول على ما تريد الحصول عليه..

ولقد تتبع اتحادنا بفخر وباحترام كبيرين الخطوات التي كانت غادة تقطعها تحت اشراف استاذها.. الدكتور حسام الخطيب، مدركين معه كم هي هامة رحلة هذه الباحثة الشابة، ليس بسبب من موضوع الاطروحة التي تعدها لنيل الماجستير، فحسب، ولكن بسبب من ضرورة تعميم روح المبادرة الحية التي كانت تتمثلها في اختيارها لعلامة بارزة من علامات التاريخ الثقافي العربي الفلسطيني نعني بذلك... شاعرنا العظيم أبا سلمى..

ويحضرني الآن ملخص أمين للحوار الذي دار بيننا يومها حول سبب اختيارها لهذا الشاعر بالذات فأجابت اذا ما أسعفتني الذاكرة..

بأنها تريد أن تبحث في شعر أبي سلمى، وفي حياته، لتضع أمام العالم صورة لشاعر عظيم.. اذ هي ترى أن الشاعر العظيم مشروط بالمواقف... العظيمة أيضاً..

وأن أبا سلمى يجسد هذه القضية، كما جسدها غيره من أدباء، وشعراء، وفناني العالم العظام..

ولما سألتها عن فاتحة تعرفها به.. أجابت بأن قصيدته... داري.. كانت هي الفاتحة.. التي جعلتها دائماً تتبع انتاجه.. منذ الطفولة.. وحتى سنوات الجامعة..

وأذكر أن غادة.. قد استرسلت في الحديث عن أبي سلمى في الدوائر الفلسطينية، والعربية، والانسانية، وأنها تكبر فيه المناضل الذي قضى كبيراً.. وهو يمشي على قدميه، ملتحماً بالارض.. وبالناس الذين عبر عنهم. وكان الحادي في نضالاتهم المستمرة.. الشاقة.. والمريرة..

ومرت المرحلة التي أعدّت فيها اطروحتها.. وجاء يوم غادة.. للدفاع عن هذه الاطروحة.. فتعرفنا اليها في رحاب الجامعة.. وأمام أساتذتها باحثة جادة.. واثقة. وشجاعة،، تعرف ما كتبت، وتناضل لتبرهن على صحة منهجها.. وصفق لها أستاذها الفاضل، كما صفق لها الجمهور الذي كان معنياً بالموضوع الذي قدمته غادة لنيل درجة الماجستير..

وتمر الايام.. وتخرج علينا غادة باطروحتها مطبوعة عن دار طلاس، كما خرجت علينا أيضاً بقصائد اضافية لديوان أبي سلمى حمل عنواناً هو «الديوان الآخر»..

ولا بأس هنا من القول بأن الشهادة ـ البحث ـ بالاضافة الى الديوان . . هما أهم ما قدم حتى الآن لتخليد شاعرنا العظيم، دون أن يكون هذا الكلام انتقاصاً من الجهود الاخرى التي تناولت أبا سلمى قبل اطروحة غادة . . أو بعدها . .

ومن هنا . . . أرغب في أن أقول بأن رحيل غادة . . المفاجيء . . بالنسبة لنا . . والمبكر، قد فجع اتحادنا بالفعل . . وأحسسنا بالخسارة الكبيرة التي تكبدتها الساحة الثقافية العربية الفلسطينية، برحيلها خاصة، وأننا نعرف أنها كا نت تعد لاطروحة أخرى لا تقل أهمية لنيل شهادة الدكتوراه . .

ولان غادة كانت كذلك . . فقد قرر اتحادنا منحها عضوية الشرف فيه، وهي العضوية التي منحت لعدد قليل من الاسماء، كانت لها مساهماتها ودورها المتميز في حقول الثقافة، والصحافة، والاعلام على صعيد قضيتنا الوطنية . .

أما في هذه الامسية، فيسرنا أن نرحب بالدكتور حسام الخطيب، استاذ غادة الفاضل، كما نرحب برفيق عمرها . . الذي شاركها المعاناة في العمل، والمحنة، الاستاذ عادل اليازجي كما بصديقتها، وزميلتها الفاضلة نينيت خضور لكي يقدموا لنا المشهد الثقافي والانساني الذي بلورته غادة بكفاحها الدؤوب، والمخلص . . مرة أخرى . . نرحب بالدكتور حسام الخطيب فليتفضل .

مداخلة الدكتور حسام الخطيب

أيها الاخوة،

كلهم أعزاء وأحبة أولئك التلاميذ الذين يمرون في حياة الاستاذ، أحياناً مروراً كريماً وأحياناً مروراً نصف كريم . إنهم فلذات أكباد، ومنزلتهم منزلة الابناء، ومصيرهم يؤرق الاستاذ ويهيجه، فان نجحوا وأبدعوا أدخلوا الهدوء والسلام والاطمئنان الى قلبه وان كبت بهم الدروب تفطر قلبه لوعة وأسى . وحتى القلة القليلة منهم التي لا تحفظ وداً ولا تراعي عهداً، فوالله ان مكانها في شغاف القلب يبقى، ولا يسمح لهزة العتاب أن تنال منه . . ولو قيد شعرة .

ومن موقع الحب المطلق هذا يحق للاستاذ من حين لآخر أن يحبّ حالة معينة حباً أكثر، ولكن دون أن يحابي، وأن يؤثر ولكن دون أن يستأثر، ولا أن يصطفي ولكن دون أن يميز، وإلاّ فكيف له أن يؤدي وظيفته الطبيعية في دفع الحياة الى ما هو خير وأبقى ؟ .

وتأسيساً على ذلك، لا حرج في أن أؤكد بملء القلب والفم أن المرحومة غادة بيلتو كانت في صدارة الصفوة المختارة، وكانت حاضرة في حياة أستاذها حضوراً قل أن يجتمع لمثله أسباب . ففي البدء كانت

غادة تلميذتي في قسم اللغة العربية، وكانت تبدي من الجد والاجتهاد والتعلق الاصيل بالمعرفة ما كان ينبيء بأنها آيلة الى مستقبل أدبي رفيع، وأنها سترتاد وتكتشف وتبدع . وفي الوقت نفسه كانت غادة تدرس ابنتي ديمة في سنتها الاعدادية الاولى، وكانت تظهر من محبة تلميذاتها ومن الحماسة لتعليمهن وتربيتهن ومن الحرص عليهن علماً وخلقاً، ما كان يؤكد أنها تحمل في إهابها مشروع مربية قديرة من نوع فوق عادي .

ثم تنال غادة الاجازة في الآداب، مكللة بأوسمة التقدير من جميع أساتذتها، وتتخرج معها آمال كبار في ولادة باحثة أصيلة وناقدة ذات بصيرة . وتختار غادة الشاعر العربي الفلسطيني عبد الكريم الكرمي موضوعاً لرسالة الماجستير وأرحّب أيما ترحيب بهذا الاختيار وبالاشراف عليه . ومنذ البدء تبهرني غادة بما يتفجر في جوانبها من حماسة لشاعرها وموضوعها ومن استعداد لارتياد كل أفق ممكن حتى تكون حصيلة بحثها في مستوى أهمية موضوعها وتعلقها الخاص به .

وهكذا تنعقد بيني وبينها آصرة جديدة تصنف في المرتبة العليا من سلم العلاقة النبيلة الخالدة التي تربط التلميذ بالاستاذ، وتكتمل العلاقة وتمتن وتتخذ بعداً جديداً حين يفاتحني كل من غادة بيلتو وعادل يازجي (وهو الآخر من تلاميذي وأحبتي المبدعين) بعزمهما على الزواج بما ينطوي عليه ذلك من تجاوز لظروف عائلية غير مواتية، وتحدٍ لاعراف وتقاليد وترسبات اجتماعية متمرسة في خنق عاطفة الحب وتعذيب المحبين، كأن عذاب الهوى لا يكفي . وأخيراً ينتصر الاصرار الشجاع والحب النبيل، ويبشر اقتران غادة وعادل بعالم من السعادة فياض وممتد حتى اللانهاية . بالسخرية الاقدار .

وخلافاً لكل ما هو متوقع، وخلافاً لما كان يراودني من خشية، أتى الزواج دافعاً لزيادة جهود الباحثة غادة بيلتو وجديتها ودأبها . كانت تنقب وتبحث وتفاجيء أستاذها كل يوم بجديد، وتلاحقه ليقرأ ما تكتب، وتلح وتلحف، حتى توجت جهودها بالماجستير، وكان من ذلك كتابها أبو سلمى حياته وشعره، وكذلك «الديوان الآخر» لابي سلمى . وبعد الماجستير لم تسترح غادة لحظة واحدة واختارت لرسالة الدكتوراه موضوعاً آخر صعباً هو «الاتجاهات الفنية للشعر الحديث في سورية» جامعة بذلك بين الهم الفلسطيني والهم السوري، وهما وجهان أساسيان في طبيعة شخصيتها .

وقد قطعت أشواطاً لا بأس بها في اعداد هذا البحث . يا الله . كم يستطيع الانسان أن يكون عظيماً حين يشاء وكم يستطيع أن يستسلم للتفاهة حين تخونه الارادة . بعد فجيعة وفاتها علمت من عادل أنها منذ البدء، أي بعد شهور الزواج الاولى، كانت تعلم خطورة الداء العضال الذي أخذ يفترس شبابها الغض . ومع ذلك ظلت مصممة ومندفعة وعملت لدنياها كأنها تعيش أبداً . يخبرني عادل أن آخر زيارة خارجية لها كانت الى دارنا في أمسية جمعت عدداً من الاصدقاء بعضهم حاضر هنا . كانت غادة ذاوية شكلاً، ولكن عالمها الداخلي كان عامراً بالشجاعة والقوة والايمان، كانت تتحدث كأن لم يكن هناك شبح يغتال دمها

وعروقها، وخارت قواها حين همت بالتحرك من قاعة الجلوس الى غرفة الطعام وكانت المسافة خطوتين لا أكثر. ومع ذلك، بعد أن نالت بلغة من الطعام أو بلغتين واستقر روعها، عادت لتسألني عن مصير الفصل الاول من رسالة الدكتوراه: هل قرأته؟ كيف وجدته؟ ما هي ملاحظاتك؟.

واتفقنا على أن نلتقي في أقرب مناسبة لنناقش الفصل. وبعد ذلك كانت أسلاك الهاتف تنوب عن اللقاء، وكانت الرسالة الجامعية موضوع كل مهاتفة، ولم يتح لي الدهر الخؤون أن أراها بعد ذلك.

أيها الاخوة،

ما كنت ممن يقص السير ويروي الاخبار، ولكنن تعمدت أن أُريَ غادة من خلال ذلك الجانب من سيرتها الذي اتصلت به. ان هذه السيرة بوقائعها العارية الصارخة تلخص مأساة الجنس البشري وعظمته كذلك. وهي أبلغ تعبيراً عن حقيقة معضلة المصير الانساني في أية رواية أو ملحمة أو دراما. كل شيء في حياة غادة بيلتو كان ينبىء بأنه ستكون سعيدة هانئة ومثالاً للانسانة التي عرفت طريقها الى مفهوم المشاركة الناجحة بالمعنيين الفردي والاجتماعي. وكل شيء في شخصيتها كان ينبىء بأنها ستكون باحثة مدققة وكاتبة أصيلة وسيكون لها شأن أي شأن في دنيا الادب والابداع. وكل شيء من حولها كان ينبىء أنها متفوقة وصلبة وجادة وجديرة بالحياة وإذا كانت مقولة البقاء للاصلح صحيحة فقد كانت هي الاصلح وهي التي تستحق البقاء. ومن الناحية العلمية الخالصة كانت غادة الأنموذج الذي تقر به عين الاستاذ والذي نفتقده هذه الايام كثيراً في تلك الجموع من الطلبة التي لا تبغي سوى نيل الشهادة بأي شكل وبأي ثمن، وأشهد أن علاقتها بأبي سلمى لم تكن علاقة توسل أو توصل الى رتبة علمية انها كانت علاقة عاطفية وعلاقة وطنية وعلاقة فنية، ولذلك أتت رسالتها اضافة علمية رفيعة المستوى.

أن تخترمها المنون في وسط هذا الخضم الزاخر من توقعات المستقبل، هاهنا لب مأساة المصير الانساني. ان مأساة تواري غادة عن مسرح الحياة لا ينفع فيها نواح ولا بكاء ولا تعزية ولا مواساة، ويجب أن تواجه هكذا بعبوسها وصرامتها وحدتها. وان رفيق عمرها عادل يازجي يتعرض لاقسى امتحان في الاحتمال الانساني يواجهه فرد بعينه، ونحن معه ومع أهلها وذويها نأسى ونأسف ونتلهف ونشاطر الاحزان ونبكي ونتحسر، وأقسى من ذلك كله ندرك في أعماقنا أن الفقد واقع لا راد له وأن السلوان بعيد المنال.

شيء واحد فقط يمكن أن يدخل الى القلوب الحزينة بعض عزاء. هو أن غادة تركت من خلال عمرها القصير الذي لا يتجاوز عمر زنابق الربيع شذى طيباً وقيماً رفيعة، ومثلاً علمياً فائقاً، وبذلك أسست لنفسها عمراً بديلاً، هو حيلة الانسان الباقية ازاء عبث المصير، فالذكر للانسان عمر ثانٍ.

رحم الله غادة وطيب ثراها، وأدخل في قلوب أهلها وذويها معنى الصبر والسلوان. أما الحبيب عادل، فمثلما كان نبيلاً وقوي الاحتمال خلال كل سنوات الازمة الضاغطة، سوف يبقى نموذجاً للنبل والوفاء، وسيتخذ من ذكرى غادة حافزاً للقوة والعطاء.

وثائق وتقارير – وثائق وتقارير – وثائق وتقارير – وثائق وتقارير

مداخلة السيدة نينيت خضور

ربما تخيلت أن أشارك رفيقة عمري الباحثة الراحلة (غادة أحمد بيلتو) في ندوة ثقافية أو جلسة أدبية، ولكن ما تخيلت يوماً أنني سأتحدث عنها، وقد رحلت عن عالمنا، وهي في أوج شبابها. لكنها مشيئة القدر ولا راد لمشيئته.

انها رفيقة الطفولة والشباب، عشنا معاً على مقعد واحد في مدينة القنيطرة في الستينات أجمل سنوات العمر، سنوات، الطفولة، الملونة بعبث الطفولة حيناً، وبالاجتهاد والمنافسة حيناً آخر, تعرفنا مدينة القنيطرة الجميلة بشوارعها وساحاتها ومدارسها، وتألفنا بيوتها وأسطحتها القرميدية، وتذكرنا أشجار الياسمين التي عرشت على أسوارها، والتي كثيراً ما حملنا منها هدايا لمعلماتنا الطيبات.. فلنا في كل ركن ذكرى، وفي كل طريق وقفة، وفي كل صباح حديث لا ألذ ولا أحلى.

لا أدري لم كنا نبدو أكبر مما نحن عليه، وأكثر أهمية، وأحسن تصرفاً؟ أهو صغر المدينة التي لاتضيع فيها الاشياء كما الحال في المدن الكبيرة؟ أم أنها التربية الرائعة التي تلقيناها على أيدي ثلة من المعلمات الفاضلات؟ أم التميز حقاً؟ لا شك أن كل ذلك فعل فعله.

كنا نسابق الصباح الى المدرسة؛ غير عابئين بمطر الجولان الغزير وبرده القارس؛ لنسجل أخبار اليوم على لوحة في فناء المدرسة، وضعت مخصوصة لهذا الغرض، ولازلت أذكر كيف كنا ندوّن باللون الاحمر الاخبار الهامّة، كنبأ عملية فدائية نفذت على بطاح فلسطين الحبيبة. وكنا نبرز أيام الاحتفالات في كل مناسبة وطنية، ولا زلت أذكر كيف كانت غادة تعلو منصدة خشبية لتبدو لكل زميلاتها، ويصدح صوتها بانشاد الشعر والقاء الخطب التي دبجتها لها احدى معلماتها ممن اعجبن بالقائها وفصاحتها وجرأتها، وكنا نخرج في كل مسيرة او مظاهرة، ويعلو صوت غادة كل الاصوات، تهتف بحياة شعبها، وتبارك انتصاراته، وتندد بمواقف الحكام الخونة، وتفضح جرائم المستعمر والصهيونية، ولا أنسى يوم مررنا مصادفة في احدى المسيرات قريباً من بيت غادة، فاذا بكبير اخوتها يفاجئنا ويخطف غادة من بيننا، يريد اقصاءها عن متابعة المسيرة، وهي تقاوم تريد ان تتابع معنا، لقد أمضني الموقف، فسكت عن الهتاف، وسرت لا ادري ماذا افعل، ولكن ما هي الا لحظات حتى رأيت غادة بجانبي تلهث، وتمسح عبراتها التي أشرقت من ورائها ابتسامة انتصار طفولي جميل.

وفرقنا عدوان الخامس من حزيران عام ١٩٦٧، وحرمنا الفرح والالفة والاستقرار وبهجة الاهل، وغدونا مشردتين نازحتين، لا منزل ولا حي ولا ذكريات.. وضعنا في صخب المدينة العاصمة دمشق وزحامها واتساع ضواحيها. ومضت السنون لتجمعنا جامعة دمشق في السبعينات طالبتين في كلية الآداب، ومن ثم في مجال الدراسات العليا. ولا أنسى يوم التقينا أول مرة في دمشق، اذ تعانقنا عناق

اختين حميمتين ، افترقتا طفلتين وأضلت كل منهما معالم الطريق الى الاخرى .

كانت الفقيدة شخصية متميزة ، لم ترضَ ان تعيش على هامش الحياة في الظل بعيداً عن وهجها ، بل اختارت ان تعيش في ميدانها بارزة واضحة ، فاعلة نشيطة ، فهي لا تفتأ ترفع رأسها عالياً تستشرف المستقبل ، وتستطلع الطريق المسافرة اليه . ولعل ابرز جوانب شخصيتها : حبها للعلم والتفوق ، نزوعها للحرية والتحرر ، وطنيتها الصادقة .

فقد ادركت الفقيدة بذكائها المتوقد ، ونظرتها الثاقبة ، ان العبور الى عالم المجد انما يكون من بوابة العلم والتفوق ، فعشقت العلم ، وراحت تعمل على التفوق فيه ، فهي منذ طفولتها لم تقبل التفوق في مادة دون اخرى ، ولم ترض ان تنال رضى معلمة دون ثانية ، بل كانت تنشد التفوق في كل المواد ، وتسعى لنيل رضى كل المعلمات ، وهي اتعس ما تكون حين تنال في مادة من المواد درجة أقل من الدرجة العظمى ولو بشيء ضئيل ، فتبدو مهمومة كئيبة ، ولكن سرعان ما تشرق في عينيها امارات التفاؤل والعزم والتصميم على استدراك ما فاتها في امتحانات لاحقة .

وتكبر غادة الستينات ، ويكبر معها حبها للعلم ، ويزداد العزم والتصميم على اكتساب اعلى مراحله ، حتى انها رفضت في السنوات الاولى لدراستها الجامعية كل من تقدم لخطبتها ، لانها كانت ترى في الزواج قيداً يحول بينها وبين متابعة الدرس والتحصيل العلمي ، ففضلت العلم ، واختارت طريقه ، وراحت ترتقي سلمه ، وتحصد الشهادات الجامعية واحدة تلو الاخرى ، حتى انتهت الى تحضير رسالة (الدكتوراه) التي شاء القدر ان ترحل قبيل انجازها . وحسبها محبة للعلم انها بقيت تكب على الدراسة في جوانب هذه الرسالة حتى ايامها الاخيرة على الرغم من علمها بخطورة المرض الذي تعاني .

ولا شك ان حبها الكبير للعلم ، وتفوقها في مجالاته ، وغوصها في موضوعاته كل ذلك ترك ميسمه على الجوانب الاخرى لشخصيتها ، فتجلى في نزوعها للحرية والتحرر ، وقدرتها على ابداء الرأي الناضج ، يسعفها في ذلك كله ثقة كبيرة بالنفس ، وجرأة في القول ، وعزيمة لا تفل . فقد كان من الصعب حتى في ايام الطفولة ، ان تفرض عليها المواقف التي لا تحب ، او الاشياء التي لا ترغب ، وسرعان ما تبدي الرفض والتمرد ، ولا زلت اذكر موقفاً لها في احد احتفالات الثامن من آذار ، حيث شكلت مجموعة من الفتيات لوحة تمثل علم القطر العربي السوري ، وكنا بين هذه المجموعة ، وحين وزعت الاثواب ، وكان منها الاحمر والابيض والاخضر والاسود ، وكل ترتدي حسب موقعها في اللوحة ، وكان ثمة ثلاث فتيات يرتدين اللون الاخضر يمثلن انجم العلم ، لم يرق لغادة اللون الابيض ، فتقدمت الى المعلمة المشرفة على اللوحة ، وسألتها ان تبدل لها ثوبها الابيض بأخضر بالتبادل مع احدى زميلاتها ممن يرتدين ذلك اللون ، وحين بادرتها المعلمة قائلة ، ومن قال لك اللون الاخضر اجمل من اللون الابيض ؟ ردت غادة : ولكن الاخضر يعني نجماً في العلم واجمل مافي العلم انجمه ، ورفضت ان تشارك في اللوحة ما لم يستجب لرغبتها ، وكان لها ما أرادت . وغادة الطفولة لم تخضع لارادة اخيها الأكبر حين حاول

اقصاءها عن المسيرة ـ كما أسلفت ـ لانها احست ان المشاركة في المناسبات الوطنية واجب عليها كما هو واجب على زميلاتها ، فهذه الشخصية المتميزة والقادرة في طفولتها على الاختيار واعلان الرفض والتمرد بعفوية ـ دون ان تخشى في ذلك لومة لائم ـ لا شك انها قادرة في شبابها على ان تطرح الرأي الذي تؤمن به ، وان تنهج النهج الذي يرضي طموحها بوعي وادراك . فقد نادت الفقيدة الغالية بتحرر المرأة ، ومارست ذلك قولاً وفعلاً ، ولكنه ليس التحرر الشكلي الذي غدا تقليعة من تقليعات الغصر ، وانما هو التحرر الجوهري الاصيل الذي يتحلى بالخلق الكريم ، ويتمسك بكل ما هو أصيل في تراثنا العربي ، وينبذ ما سواه من رواسب عصر الانحطاط والتخلف ، مما يعيق مسيرة المرأة ومشاركتها الايجابية في الحياة ، فهي واثقة دائماً بقدرات المرأة ، وتواقة ابداً كي تأخذ المرأة مكانها الطبيعي الى جانب الرجل في كل مجالات الحياة ، ولا زلت اذكر سؤالها الذي طرحته على ضابط مسؤول في مطار عسكري ، وقد خطب بنا ، اذ كنا يومها في زيارة رسمية للمطار « لماذا لا تفسحون المجال للمرأة كي تقود الطائرة كما يفعل الرجال ؟ » .

ولعل ابرز ما يسطع في شخصية الفقيدة هو ذلك الحس الوطني الصادق الاصيل ، الذي ازكى جذوته كونها ابنة القنيطرة المدينة المتاخمة لفلسطين الحبيبة حيث الاحتلال الصهيوني الذي عانينا من غاراته ما عانينا ، ورأينا من جرائمه ما رأينا وما نرى ، وقد عبرت غادة عن هذا الحس في ايام الطفولة بتواجدها الدائم والنشط في الاحتفالات الوطنية ومشاركتها في المسيرات والمظاهرات ، كنت اعلم ان هذا الحس الوطني الاصيل لن يخبو في يوم من الايام ، ولكنني لم أكن أعلم انها ستترجمه الى عمل فكري ادبي باختيارها شاعر فلسطين الكبير (عبد الكريم الكرمي ، ابو سلمى) ليكون موضوعها ومجال بحثها في رسالة (الماجستير) ولم يكن هذا الاختيار من قبيل المصادفة ، ولا يمكن ان يكون كذلك ، فقد وجدت الباحثة في شخصية ابي سلمى الشاعر المشرد الذي ما فتيء يحن الى الديار ، ويغني للدار ، والتينة الخضراء ، والعين خلف الدار ، وملعبه يوم رفيف المنى ، والبيدر السمح ، والكرم وأفيائه . . ويرى ان ذرة من ثرى الوطن السليب فلسطين اجمل من عروش الدنيا خلف حدودها ، وهو الشاعر الذي ما برح يحكي قصة التشرد ، ويرسم صورة المعاناة ، ويحض شعبه على الاتحاد والثورة ، وجدت في شعره هذا صدى لما كان يعتلج في صدرها ، وهي الانسانة المشردة ، التي حرمت دار الطفولة ومرابعها وذكرياتها ، التي لا تزال تتنفس تحت انقاض مدينة القنيطرة التي احالتها الوحشية الصهيونية دماراً وخراباً ، فكان ذلك سر اللقاء ، ولعله سر نجاح دراستها في الوقت نفسه ، وحسب الفقيدة انها استطاعت ان تنجز بين دفتي هذا العمر الوجيز اثراً علمياً قيماً ، يخلدها من جهة ، ويكسبها شرف الانتماء الفلسطيني من جهة اخرى . ولتطمئن روح الفقيدة في عليائها ، فستظل شخصيتها المتميزة انموذجاً يحتذى لكل نسائنا في التحصيل العلمي والعمل الجاد الدؤوب ، والنزوع الى التحرر ، والوطنية الصادقة .

تغمد الله الفقيدة بواسع رحمته ، واسكنها فسيح جناته ، والهم اهلها وزوجها الوفي واصدقاءها ومحبيها الصبر والسلوان .

والشكر كل الشكر لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الذين تفضلوا باقامة هذه الندوة ورعايتها ، والتي تمثل صورة من صور الوفاء الفلسطيني لكل شخصية تقدم خدمة على طريق الثورة الفلسطينية الانسانية .

مداخلة الاستاذ عادل اليازجي

ايها الاخوة

استهل كلمتي هذه بالشكر للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، على وفائهم للفقيدة بتكريمها بعد الرحيل ، واسمحوا لي ان ابدأ الحديث عن الفقيدة بالعودة الى قصاصات من الاوراق المتناثرة كتبها الى الفقيدة عدد من رفيقات عمرها طفولة وشباباً وبعضهن ممن درسها في مراحل مختلفة من حياتها الدراسية .

تقول احداهن :

فراشة في حقل الحياة انت . . فاحرصي على الا تقفي منها إلا على صالح ومفيد ، فلقد عرفت فيك بحثاً عن الحق ، وثباتاً عليه ، وهذا هو طريقنا ، وهذه هي غايتنا .

وتقول صديقة ثانية لها :

عرفتك لفترة قصيرة ولكنني عرفت فيك الفتاة الذكية المرحة ، الحالمة . .

وتقول ثالثة وهي استاذة للفقيدة :

تذهب الذكريات المدرسية من ذاكرة المدرسة دائماً ، وتبقى شرارات تلهب احساسها وتدفعها الى العام الدرسي الذي قضته . . وانت من اولئك الفتيات اللواتي تبقى ذكراهن في النفوس للخلق الجم الذي تتحلين به ، وللمجد الذي تسعين اليه ، ولهذا الوجه الضاحك للحياة والمتفائل بها .

وتقول صديقة رابعة وهي ايضاً من اساتذة الفقيدة :

عهدتك طالبة مجدة . . مهذبة . . قوية الشخصية . . لن اخاف عليك لانني متأكدة تماماً ان النصر نصيب المجد والمهذب والصبور ، بعد سنوات قليلة ، سنجدك تحتلين مكاناً مشرفاً في خدمة هذا الوطن الحبيب .

وتقول خامسة وهي ايضاً استاذة للفقيدة :

عرفت فيك الاخلاق المثالية ، وقدرت في سلوكك الجد والدأب والمثابرة ، فغايتنا للحياة فتاة آمنت بربها ، بوطنها ، بعروبتها ، بمثلها ، وأدركت بثاقب نظرها عظم المسؤولية الملقاة على عاتقها فأعرضت

عن توافه الامور .

وعملت وتعمل دوماً وابداً في خلق نفسها لتكون مهيأة مستقبلاً لحمل رسالة الوطن وتحقيق امانيه الجليلة .

وانت يا غادة بعقلك الكبير ، وبادراكك الواعي ، وبخلقك المتين ، خير صورة لفتاتنا .

وتقول سادسة :

عرفت فيك الاخلاق المثالية ، والابتسامة الرقيقة المرتسمة دائماً على شفتيك ، واكثر ما اعجبني فيك . هي قوة شخصيتك ، وجرأتك ، وحدة ذكائك ، ونقدك المبدع .

وتقول لها احدى صديقاتها وهي فلسطينية . . قبيل انطلاق الانتفاضة بشهر واحد :

ربما ذهبت في خضم الحياة . .

وربما غرقت في بحرها . .

وعندها لا يبقى لنا الا الذكرى . .

فاذكريني مع اطلالة فجر جديد ، ، مع ثورة شعب جديدة ، شعب يريد الحرية والانطلاق .

صدقوني لم تبالغ واحدة منهن فيما كتبت عن الفقيدة ، فليس لطموحها تخوم ، واشراقة وجهها لم يستطع حتى المرض ، ان يطفئها ، بل غابت عن الوجود حاملة تلك الاشراقة المدهشة الى حيث دار البقاء . . خلق مثالي وثبات على الحق ، وذكاء حاد ، وتهذيب رفيع وقوة شخصية ، واحلام عريضة ، وطموح في حمل رسالة الوطن وتحقيق امانيه الجليلة .

هي ذي فقيدتنا في طموحها وكأنها تريد ان تقبض على الشمس بيمينها ، وعلى القمر بيسارها . . ها هي في تحضيرها لرسالة الدكتوراه ، تريد ان تتقصى مناهج النقد الادبي كلها ، تريد ان تدخل في اعماق المذاهب الفلسفية لترى مدى تأثيرها في حركة الحداثة الشعرية ، وفي شطحات عدد من شعراء عصرنا ، الكلاسيكيون منهم والحداثيون .

قلت لها عندما اختارت رسالة الدكتوراه عن الاتجاهات الفنية في الشعر العربي في سورية منذ الحرب العالمية الثانية حتى اليوم : ان الموضوع كبير ، وشاق ووعر المسالك فاجابت : ومن لهذا الامر غيري طوال حياتي لا اختار السهل ابداً . . وتذكرني باختيارها لرسالة الماجستير عن الشاعر الفلسطيني الكبير عبد الكريم الكرمي ابي سلمى ، فتقول : صحيح انني اخترته لهوى في نفسي اذ كلانا نازح عن تراب ارضه ، لكنني رغبت من خلال هذا الاختيار ان أدرس ادب المقاومة دراسة تطبيقية ، تكون ابعادها دراسة لنضال الشعب العربي الفلسطيني ضد الاحتلال الصهيوني منذ مطلع القرن الجاري حتى ايامنا هذه اذ يرتسم هذا بأبهى صوره في شعر ابي سلمى وفي حياته ونضاله . . وذلك ما تجسد فعلاً في كتابها « ابو سلمى حياته وشعره » .

ان اهمية الموضوع ، ودقته ، واتساعه ، هذه الامور زادت من اصراري على اختياره وتحقيق ما في

نفسي من رغبة في الحديث عن ابي سلمى .. فكان المشوار صعباً لكنني انجزته بنجاح أفخر به مدى الحياة .. ولو كان الامر سهلاً ، وقليل الاهمية لما اخترته .. وانت تعلم ذلك .

وهكذا كان ، فاختيارها لموضوعي الماجستير والدكتوراه ، ينسجم مع الثقة الكبيرة بالنفس ، ومع الطموح المدعم بالعمل الدؤوب ومع الرغبة الذاتية التي تكونت في معترك الحياة بدءاً من الطفولة العذبة الواعية الى نكبة النزوح عن الديار ، فاثبات الوجود تفوقاً في التحصيل العلمي وفي التدريس الثانوي والجامعي ، وفي الذوق الرفيع الذي يتجلى في كل خصوصياتها وبيتها ، واهتماماتها ، وصداقاتها .

صدقوني .. هو جرح في القلب لا يندمل .. ان يخبو ذلك اللهب المشع ، وان تغيب تلك الاشراقة التي ملأت دنياي .. بسمتها للحياة ، لم تكن بسمة لاهية ابداً ، هي بسمة من يريد ان يمتلك الكون كله ، في العقل والقلب معاً ، في البحث والتقصي والعطاء ، ومواجهة التحدي .

وكثيراً ما كانت تقول لي : صحيح ان موضوع رسالة الدكتوراة متاهة حقيقية ، لكنني على ثقة بانني سأترك للتاريخ كتاباً يكون مرجعاً في موضوعه على امتداد العصور .. ولم يثنها المرض ابداً عن البحث والتقصي ، فقد انجزت اكثر من ثلث الرسالة ، والبطاقات الجاهزة ، عددها الف ومئتا بطاقة ونيف ، وضعت فيها كل رأي وجدت انه يسهم في توثيق رأيها النقدي ولو امهلها القدر بضعة اشهر لكانت انجزت الرسالة بكاملها .. ولكنه القدر الرهيب .

ذلك الطموح الفريد ، وتلك البسمة التي لا تغيب عن ناظريّ ، وقلبي تحملني مع اللواعج الى مثواها الاخير .. وهناك :

تسمع الريح حين تصغي حنيناً   من فؤادي على الثرى وشهيقا ..

صحيح ان القلم والمداد هما صلة الوصل بينها وبين الناس جميعاً ، لكن الاهم في حياة الناس دائماً ، هو الانسان في علاقته بالآخرين ، وفي هذا الامر .. بكاها كل من عرفها .. صدقوني .. ان جرحي لا يندمل ابداً .. ليس لما ذكرت فحسب ، بل لانها كانت الحبيبة ، والزوجة المثالية ، وربة البيت ذات الذوق الرفيع المتميز ، وتلك التي لا تغيب عنها كبيرة او صغيرة من امور بيتها وحياتنا فيه .. وذات رأي سديد في كل اعمالي حتى الادبية والاعلامية وفوق هذا وذاك ، تمثلت في شخصيتها صورة المرأة التي تناضل من اجل صنعها في عالمنا المعاصر ، المرأة التي ترتاد المسالك الوعرة ايماناً بمقدرتها ودورها في الحياة وتحقق شخصيتها وكيانها في مجتمعها ، وفي عملها ، وفي أسرتها ، بشكل يفوق صورة المرأة كما ننشدها في ادبياتنا وفي نضالنا السياسي .

كان رحيلاً قبل الأوان ..

قضت ثلاثين عاماً في رحلة التكون ، لتبدأ رحلة العطاء ، وعندما أينع الثمر وآن آوان القطاف ، خطفها الموت ، وغيبها في غياهبه العصية .

لا العقل قادر ان يصدق .. ولا القلب تدركة نعميات النسيان ..

كلاهما يغوصان في بحر الذكريات ، بل في بحر من الاحزان عميق عميق ..

الجرح كبير لا يندمل ..

والقلب هو الجريح ..

رحلت ، وأسلمتني لرحلة الضياع .. لرحلة يمتد طريقها بعيداً في يم هائج من لواعج الذكرى ، وعواصف الاحزان وحرقة الدموع .

كل ذلك يحملني الى مثواها الاخير .. حيث بيني وبينها متر من تراب / متر واحد هو الدهر ، والكون وكل متاهات الفكر والوجود والعدم ، وكل عذابات السنين .. نعم كان رحيلاً قبل الآوان .. نذكرها .. الذكرى تنفع .. وان كانت تنقض على حشاشة القلب الجريح هي ذي صورتها .. لا تفارق البسمة قسمات وجهها .. تبسم للكون العجيب الذي طعنها في الصميم ورماها بعيداً عن الوجود وما اظنها وهي في ذمة الله الا باسمة يتراقص الفرح في عينيها .. فاذكروها .. وابتسموا لها كما احبتكم دائماً وكما عرفتموها ، فالبسمة عنوان محياها .

واذا غالبتكم القصص الحرى فلا تتركوا دموعاً تغيب بسمات الوجوه ، وان كان للدموع حق في مآقينا امام غياب بسمة الكون العجيب .

وشكراً .

التقرير الثاني

اسبوع الثقافة الفلسطينية

في الفترة الواقعة بين ١٢ ـ ٨٩/٣/١٥ أقام الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين فرع سورية ـ بالاشتراك مع المركز الثقافي العربي اسبوعاً ثقافياً في مدينة الحسكة في القطر العربي السوري مكرساً للانتفاضة الباسلة في فلسطين المحتلة، وقد شارك في هذا الاسبوع الشعراء:

خالد ابو خالد ـ محمد لافي ـ نظيم ابو حسان ـ عصام ترشحاني ـ يوسف طافش.

الذين القوا قصائدهم على جمهور واسع في قاعة المركز، كما ألقى القاص احمد سعيد نجم قصة قصيرة في يوم القصة، وقد خصص في الاسبوع يومان للتراث الشعبي حيث تحدث الباحث عوض سعود عوض حول الاغنية الشعبية الفلسطينية في المواسم المختلفة اما في الثاني، والذي كان مكرساً للحديث والحوار حول الانتفاضة الفلسطينية فقد تحدث الكتاب والباحثون، نزيه ابو نضال، وبسام هلسة وماجد كيالي، حول مقدمات الانتفاضة وقائعها وآفاقها.. وكان الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين فرع سورية قد شارك في معرض في المركز مرافق لنشاطات الأسبوع... شارك فيه الفنانون:

- احمد عبد الله
- اديب خليل
- د. احمد النابلسي
- امين الرفاعي
- امين عريشة
- خالد ابو خالد
- زكي سلام
- زهدي العدوي
- سعيد قاسم
- عبد المعطي ابو زيد
- عدنان حيدة
- علي الكفري
- غازي انعيم
- فارس سمور
- فايز عريشة
- ماهر القصير
- محمد الركوعي
- محمد ابو صلاح
- محمد وهيبي
- محمود خليلي
- موفق السيد
- يونس خطاب

التقرير الثالث

اراء.. وأقوال في الابداع العربي

● **آراء.. واقوال في الابداع العربي: زاوية تخصصها «الكاتب الفلسطيني» لأقوال المبدعين العرب أو الاجانب الذين يتحدثون عن الحضارة والثقافة العربية، كما نشرتها لهم الصحف أو المجلات.**

● **وبالطبع فان هذه الأقوال والآراء، لا تعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير، ولكن الكاتب الفلسطيني ليست اكثر من منبر ديمقراطي يهمه أن يصل صوت المبدع العربي الى أقصى مكان ممكن، والى أبعد قارىء ممكن.. من هنا فانه يرى في اعادة نشر هذه الآراء والأقوال، عملية تسهم في هذا الوصول الذي هو حق ديمقراطي لكل مبدع، ولكل صاحب رأي، ولكل إنسان في الوطن العربي.**

الفنان أحمد سالم.. فلسطين قضية وطن واحد وحلم شخصي

قضية فلسطين ليست قضية لذاتها.. ولكنها قضية وطن واحد.. وأظن أنه من النادر أن نجد مواطنا وانساناً فنانا على استعداد أن ينقض هذه المقولة، وان كنا وجدنا أحيانا أن البعض تصور أن محاولة تملق حركة التطبيع قد تفتح له ابواب المجد في اوروبا.

وحتى حينما لجأ ذلك الفنان الى هذا السلوك، لم يكن بسبب قناعة خيانية للقضية، بقدر ما هو هوس وغباء سياسي، ومحاولة للوصول من أقصر الطرق. وفي ما عدا ذلك، فالمد الثقافي والفني مواكب للقضايا العربية بصفة عامه، باعتبارها قضايا وطن واحد. ولفلسطين بصورة خاصة باعتبارها ليست قضية وطن فقط، ولكنها صارت عند كثيرين حلما شخصياً.

هذا بعض ما صرح به الفنان التشكيلي من مصر العربية الى الصحافة، بعد حصوله على الجائزة الكبرى في بينالي القاهرة الثالث هذا العام.

عبد الله خليفه: النقاد العرب يتجاهلون الادب في الخليج العربي

تحدث الروائي البحراني عبد الله خليفه عن الرواية العربية، ومشكلات النشر في البحرين، وعن النقاد العرب واهمالهم لابداعات الأهل في الخليج والجزيرة، في حديث مهم، نشرته جريدة الوطن الكويتية، قال فيه:

... اتجهت الرواية العربية الى اكتشاف الحياة العربية، جذورها، مشاكلها قضاياها، ولذلك ازدهرت الرواية العربية بشكل جد كبير.. فهناك مثلاً روايات حنا مينه التي تعالج سلسلة كبيرة من المشكلات التي يعاني منها المواطن السوري أو المواطن العربي... وخلافاً لما هو معروف سابقاً من أن الشعر ديوان العرب، أصبحت الرواية الآن هي ديوان العرب، أي أن الرواية العربية أصبحت تتجه الى اقتناص الواقع العربي.

نلاحظ عموماً أن النقاد العرب يقللون من شأننا، ويتجاهلون انتاجنا الأدبي في الخليج، مع أنه غني ومتنوع. وذلك لسبب وقوع المنطقة على هامش أحداث الوطن العربي، ولكن الكتاب والنقاد المطلعين على أدبنا، يكتشفون الزخم الذي يميز أدبنا. ومن هؤلاء الدكتور علي الراعي والناقد غالب هلسا.

وعن المشكلات التي تواجه الكاتب في البحرين، قال:

المشكلات الحقيقية تتعلق بقضية النشر. فالعديد من الكتاب لا يجد من يطبع وينشر له كتبه، خاصة، وأن هناك في الخليج عموماً العديد من الكتاب الجدد، يعطون صورة لاعماق ما يحدث، وهؤلاء لا يلقون أي تشجيع.

مستشرق سويدي : الحضارة العربية وأهلها.

خطّأ المستشرق السويدي الدكتور« بنجنت كنوتسون » مدير برنامج دراسات الشرق الاوسط وشمال افريقية «المغرب العربي » في جامعة لند السويدية، المستشرقين الاوروبيين الذين يدرسون اللغة العربية والحضارة العربية بعيداً عن أهلها، بل وبعيداً عن القرآن والاسلام، وقال في حديث مع جريدة الوطن الكويتية « انني انادي دائماً، أثناء القاء المحاضرات التاريخية العربية في السويد، بامكانية التعلم والاكتساب من الحضارة العربية التي تعلق الاهمية الكبيرة على القيم الانسانية، والعلاقات الشخصية، بخلاف الاوروبيين الذين تأثروا بالثورات الصناعية وفقدوا النواحي الروحية » ومع ذلك فان الدكتور كنوتسون أشار في حديثه الى استعراب مسيحيي الشرق.

بعد انتشار الاسلام، وكأنهم لم يكونوا عرباً في الأساس.

غالب هلسا: الكتابة مرض

أعلن الروائي « غالب هلسا » من اسرة تحرير هذه المجلة أنه حين ينتهي من كتابة رواية يشعر وكأن فضيحة قد تمت، وأكد أن تجربته مع الكتابة دلته على أن وظيفة الأدب انما هي ازالة التوتر العصبي.

جاء ذلك في حوار مفتوح في جامعة الكويت حضره جمهور غفير من الأساتذة والطلبة والقراء، وقد انتهى غالب هلسا في هذا الحوار المفتوح الى القول، بأن الكتابة أصبحت لديه حالة مرضيه، اذ لم يعد يهمه سوى أن يبقى في بيته ليكتب.

الباحث خالد عايد : الانتفاضة تجذرت وتصلبت وشروط استمرارها قائمة

نشرت جريدة الوطن الكويتية في ملحقها ليوم الخميس ٩ مارس ١٩٨٩ العدد ٥٠٤٨ لقاء هاماً مع الكاتب الفلسطيني « خالد عايد » المحرر في نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، وذلك لمناسبة صدور كتابه الجديد عن الانتفاضة.

وقال خالد عايد في مطلع تصريحه للوطن، أن كتابه [نهج يرى في الانتفاضة حلقة نوعية متقدمه، في سلسلة النضالات الشعبية على طريق تحرير فلسطين، ولا يرى فيها ورقة مساومة، أو مجرد أداة ضغط في لعبة تسوية سياسية، لا تحرر الأرض، ولا تحقق الاستقلال، وإنما تؤدي الى إجهاض الانتفاضة نفسها.] وعن نظرته الى آفاق الانتفاضة وتطورها قال السيد خالد :

[إن الانتفاضة ـ الثورة اليوم أكثر رسوخاً في التربة الشعبية الفلسطينية مما كانت عليه لدى

اندلاعها قبل اكثر من عام. فهي كادت تتحول الى نمط حياة يومية. الاضرابات الجزئية يوميه، وكذلك المواجهات مع قوات الاحتلال وقطعان المستوطنين، وهي تكاد تكون دخلت كل بيت فلسطيني في المناطق المحتلة، من خلال الشهداء والجرحى والمعتقلين والمبعدين والملاحقين..الخ في مواجهة إغلاق الاحتلال للمدارس. بدأ« التعليم الشعبي » بالانتشار وفي ظل الحصار ومنع التجول وتقلص فرص العمل نشأت الزراعة المنزلية، وعاد البعض الى استصلاح الاراضي التي كانت متروكة بوراً، ونشأت مشاريع إنتاجية تعاونية وجماعية، كما قامت نواة لسلطة شعبية ثورية بديلة عن مؤسسات الاحتلال، تتمثل في « اللجان الشعبية » التي تعم المخيمات والقرى والاحياء، إضافة الى « اللجان الضاربة » نواة الجيش الشعبي كما يشار اليها أحياناً، واللجان العديدة الأخرى التي تعالج مختلف نواحي الحياة، صحة، حراسة، زراعة، تموين، الى ما هنالك... لذلك يمكن القول أن الانتفاضة الثورة الآن تستند الى قاعدة شعبية صلبة، متمرسة، منظمة، قادرة على الاستمرار بالانتفاضة فترة طويلة، بل وطويلة جداً، فالعوامل التي ادت الى نشوب الانتفاضة لا تزال قائمة كلها، واضيف اليها التصليب والتجذير المتواصل لبنية الانتفاضة الداخلية.

واضاف الكاتب الباحث خالد عايد في حديثه يقول:

كل من لديه اطلاع على الوضع في الداخل يمكن ان يرى منذ الان كيف يمكن للخلافات الداخلية ان تشل الانتفاضة وتجهضها، في حال تمادي انصار نهج التسوية في رهانهم على «طبخة الحصى» الديبلوماسية إذ سيضطر هؤلاء امام الابتزازات الاميركية المتكررة والتصلب الاسرائيلي الذي غذته نتائج انتخابات الكنيست، الأخيرة،سيضطرون إلى تقديم مزيد من التنازلات بحكم منطق التفاوض والتسوية نفسه الى حين انفجار الانتفاضة من داخلها.

الشاعر منصف الوهايبي: مطلوب قراءة جادة للشعر العربي الحديث

اعرب الشاعر التونسي منصف الوهايبي لجريدة الموقف التونسية عن اعتقاده بان «الشعر العربي الحديث لم يقرأ إلى اليوم قراءة جادة متأنية برغم شيوع كثير او قليل من الدراسات التي تتلبس بلبوس العلم والحداثة وتدعو الى تخليص النقد من الانطباعية والميول الذاتية.

وقال الشاعر الوهايبي:

النقد مطالب بان يحمي النص مما يمكن ان نسميه مطلق القراءة والتأويل الذي كثيرا مايستخدم في غير ما اجيز له ويتخذ صبغة التحرر الكامل من السياق واكد ان الكتابة لاتتفحص الا من بين ركام التقاليد الأدبية ولاتتأسس الا تحت ضغط التاريخ.

الفنان السوداني صلاح مصطفى: مطلوب تدخل الدولة لحماية الذوق العام

هناك عوامل اخرى دخلت وبدأت تشوش على الساحة الفنية وليس هناك ضوابط تحد من ذلك وليس لدى اي جهة احساس بالمسؤولية لحماية الذوق العام وليس ذلك في السودان وحده فالعالم كله يشهد هذا المأزق وفي خلاصة الامر هذه المسائل تحتاج لضوابط وحماية من الدولة لحماية الذوق العام.

هذا ماصرح به نقيب الفنانين السودانيين السابق الموسيقار والمطرب الهندي صلاح مصطفى في حديث لاحدى الصحف الخليجية ومما قاله الفنان صلاح ان الاغنية في السودان كانت تتألق في اجواء الديمقراطية قبل بدايات ثورتي ١٩٦٤ و ١٩٨٥ ولكن هذا التألق سرعان مايخبو مع تعثر الحياة الديمقراطية ولكنه اوضح «وفي الجانب الآخر لن تجد هناك أغنية سودانية» حببت الى الديكتاتورية وتغنت بها للناس وبالتالي تصبح الأغنية متجاوبة مع النهج الديمقراطي وقضية الحرية بل تعدتها الى خارج النطاق السوداني فهنالك الكثير من الفنانين تناولوا القضية الفلسطينية والبعض الآخر غنى لقضايا التحرر الافريقي، اذن الاغنية السودانية ليست بمعزل ولكن درجة العطاء تتحكم فيها فاعلية الحدث وصموده في الافق والوجدان.

التقرير الرابع

المجلس القومي للثقافة العربية

اجتماعات المكتب التنفيذي وخبراء الابداع

عقد المكتب التنفيذي للمجلس القومي للثقافة العربية اجتماعه الدوري في العاصمة المغربية الرباط ايام ١ ـ ٣ شباط «فبراير» ١٩٨٩ .

وقد تناول الاجتماع خطط العمل والهكيل التنظيمي للمجلس واتخذ القرارات التالية :

١ ـ تقويم خطة ١٩٨٨ ومشروع خطة ١٩٨٩ .

حددت اللجنـة المختصـة ملاحظاتها حول خطة ١٩٨٨ ومشروع خطة ١٩٨٩ ، واكدت بأن لا يقتصر تقييم الكتب على المتواجدين في مقر المجلس .

ب ـ اعتماد القاهرة وبيروت والمغرب اضافة الى روم لطباعة الكتب .

ج ـ ان تكون خطة عام ٨٩ هي انجاز مالم ينجز من خطة عام ٨٨ .

٢ ـ في مجال الاتصـال الثقافي اتخذت اللجنة المختصة قرارات وتوصيات متعددة بشأن متابعة اتفاقيات

عقدت ، وعقد اتفاقيات جديدة مع منظمات ثقافية عربية ودولية .

٣ ـ في مجال الندوات ، أوصت اللجنة بضرورة الاعداد الجيد لموضوع «نحو مشروع حضاري عربي» ، ومتابعة عقدالندوات المقررة والتي لم تعقد .

٤ ـ في مجال الابداع : وفي هذا المجال قيمت اللجنة المختصة ملتقى الابداع الذي عقد في اغادير بأنه كان جيدا وأوصت بتعميم المذكرة المتعلقة به ، كما اوصت بعقد لجنة خبراء بدمشق من ٢٦ ـ ٢٧ مارس اذار ١٩٨٩ لاستخلاص نتائج تجربة اغادير ومواصلة الجهود في هذا الميدان كما اوصت بالشروع في تكوين مؤسسة مشتركة للابداع على ان تكون ذات شخصية مستقلة! وقد عقد الاجتماع وقيّم تجربة اغادير واقر انشاء مؤسسة ابداعية!

٥ ـ كما قدمت لجنـة مختصة عدة توصيات من بينها انشاء وتأسيس فروع للمجلس في الاقطار العربية والمهاجر ، وحددت مهام هذه الفروع .

٦ ـ وقد اقر المكتب التنفيذي لائحة التنظيم الهيكلي ، وعقد مؤتمر فكري في ديسمبر كانون الاول القادم ، واعتبار مجلة الوحدة وحدة منفصلة ضمن اطار المجلس ورفع قيمة مكافآت الكتاب ، واكد المكتب على ضرورة تنفيذ القرارات السابقة ، واعداد تقرير الاوضاع الثقافية في الوطن العربي واعداد تصور عاجل لكيفية اسهـام المجلس في نشاط الامم المتحدة ، خلال عقد التنمية الثقافية ، ومتابعة تنفيذ الاتفاقيات المبرمة ، ومشاركة عدد من الهيئات الشعبية في مشروعات المجلس ، وكذلك اتخذت توصية بضرورة تنفيذ لوائح المجلس ، مما يؤكد شخصية وحضور وابراز السمة القومية لاعماله ، وضبط الوظائف ومراكز العاملين ، والتركيز خلال عام ٨٩ على نشر الكتب والابحاث والدراسات والاهتمام بأعمال المجلس ، وان يتقدم كل عضو في المكتب باسهامات محددة في كل شهر ، وان يلزم اعضاء المجلس بتعريف الرأي العام بانجازاته ونشاطاته .

٧ ـ اما لجنة دراسة مشروع المؤتمر العام المعنون «نحو مشروع حضاري عربي» فقد اوصت بعدة توصيات منها :

ا ـ جمع كل القرارات السابقة حول الموضوع التي اتخذت على مستوى اجتماعات المجلة والندوات .

ب ـ التريث في اقرار عنوان نهائي لهذا المؤتمر .

ج ـ الاكتفاء في المرحلة الراهنة بتفكيك المشروع في صيغة اسئلة اساسية .

د ـ تكليف لجنة علمية باعداد ورقة عمل معتمدة على ملف ندوة العقلانية .

وحددت تاريخ ١٥ مارس ـ آذار ١٩٨٩ كآخر موعد لصياغة هذه الورقة ثم تمرّر للاعضاء لابداء الـرأي والملاحظة ، وقد تم اقتراح اسماء الذين توجه اليهم ورقه العمل والذين سيكونون لجنة تحضيرية للمؤتمر العام يعهد اليها بعد الدراسة انجاز أرضية عملية للمؤتمر وتحديد محاور ولوائح للباحثين والمشاركين على ان تعقد هذه اللجنة اجتماعها الاول بتونس في الاسبوع الثاني من شهر مايو ١٩٨٩ .

هذا وقد انعقد في دمشق في السادس والعشرين والسابع والعشرين من آذار الماضي، اجتماع خبراء الابداع . وقد رأس الاجتماع الأمين العام للمجلس، عمر الحامدي، وشارك فيه ثلاثون مبدعاً عربياً من كافة حقول الابداع الكتابية والسمعية والبصرية، والمسرح، والسينما، والفنون التشكيلية والفنون الشعبية والموسيقى وأساتذة جامعيون.

وقد ناقش المجتمعون ورقة عمل حملت خلاصة وقائع الملتقى العربي الأول للابداع الادبي والفني الذي عقد في أغادير في تشرين الأول من العام الماضي، وهي الوقائع التي نوقشت موضوعاتها في الملتقى.

وقد أكد المجتمعون بعد مناقشات استمرت يومين، في جلسات طويلة، ومتصلة على أهمية الملتقى، كما حاولوا في هذه الجلسات استخلاص النتائج المهمة، والتأكيد عليها على صعيد الابداع من الكتابة الى العمارة.

وكان الملتقى قد انعقد تحت عنوان « الابداع والهوية القومية »، وقد جرى التأكيد في مناقشات الخبراء على الوشائج التي تربط بين مختلف حقول الابداع، ومجالاته، وضرورة تحقيق أقصى قدر من التكامل بين هذه المجالات.. وتعزيز اللحمة التي تربط بين المبدعين العرب، وتوحيد جهودهم وترسيخ مفهوم العمل المشترك بينهم بالاضافة الى استنباط الملامح التي تدل على هويّة حضارية عربية لمختلف أشكال التعبير الادبي والفني. وأن التعامل مع الآخر يقتضي نوعاً من التكافؤ والقدرة على الابداع، وهو لا يمكن أن يتحقق قبل أن تتحرر الشخصية العربية من كل الآثار التي الحقها بها الإرث الاستعماري.. كما أكد المتحاورون على الدعوة الى الرؤية الابداعية النقدية باعتبار أن الابداع في ظروفنا لا يمكن أن يكتسب قيمة إلاّ إذا كان قائماً على النقد وكشف المخبوء، والتمرد على ما هو قائم.

وفي المناقشات التي دارت حول الابداع القصصي والروائي، أن فيها تياراً يطمح الى مجابهة مشكلات الواقع، والتأكيد على خصائص الذات القومية في مواجهة محاولات طمسها، أو قمعها أو تذويبها وأثبتت الكتابة الروائية بأنها بقدر ما تؤسس ذاتها فإنها تؤسس واقعاً نصياً على غرار الواقع الواقعي بكل تشكلاته الاجتماعية والسياسية..

وبرهنت المداخلات حول حركة الشعر العربي الحديث بأنها وليدة سلسلة من المتغيرات السياسية والاجتماعية منذ النكبة عام ١٩٤٨ في فلسطين وانها نمت، وتطورت في أحضان كبريات أحداث الوطن العربي ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣، ١٩٧٦، ١٩٨٢، وعانقت هذه الاحداث عناقاً ابداعياً حميماً أثمر معظم ديوان الشعر العربي الحديث الذي تغلغل فيه الهاجس القومي التحرري الى صميم التجربة الشعرية وتحكم في صياغة رؤية الشاعر ورؤياه الذاتية والموضوعية.. كما أشارت الى الخلل والضعف في بعض ملامح هذه الحركة التي تجعل منها مراوحة في أزمة من نوع المراوحة في حداثة تقليدية، أو تنويع على الذاتي، أو بضعف الذاكرة التراثية في بعض الأحيان.

ولم يختلف المتحاورون على أن الحركة المسرحية العربية في الوطن العربي تعاني من حالة جزر وارتداد وأن

من الضروري تجاوزها بربط المسرح باستراتيجية ثقافية حضارية على المستوى القومي، وعدم الاستغراق في الحديث اليومي، والدعوة الى مسرح صدامي يحقق اتصالاً مع الجمهور من خلال الأعمال المسرحية العربية المشتركة بالاضافة الى الاهتمام بالاجيال الجديدة من المسرحيين، والاعتناء بتقديم التراث المسرحي.. كما أن التأكيد على المناخ الديموقراطي وضرورة تحققه شرط من شروط تطور الحركة المسرحية و ازدهارها.

وبالرغم من أن المناقشات قد سجلت بكثير من التقدير جهود نقاد عرب، استطاعوا أن يستخدموا المناهج الحديثة في النقد بكثير من الاصالة، إلاّ أنها أكدت أيضاً على ضرورة التخلص من المؤثرات الأجنبية في النقد العربي، والتي تنطلق من أفكار جاهزة مسبقة تؤدي الى تأويل النصوص تأويلاً خارجياً.

ولاحظت المداخلات، بأن الفيلم العربي أيضاً يعاني من تأثير الظروف السياسية، وواقع الأزمة التي يعيشها الوطن العربي، وغياب الحريات، وأشارت الى السلبيات التاريخية التي عانى منها، والتي تمثلت بسيطرة الخطاب القدري، بدلاً من الخطاب الارادي والخطاب المثالي، بدلاً من الخطاب الواقعي، وتغييب حقائق الصراع على الأرض العربية كما تضمنت المداخلات اقتراحات بتبادل الخبرات، والمعارف بين السينمائيين ومواصلة الدعوة لرفع الرقابة وانشاء مؤسسة عربية للتوزيع والانتاج، كما أكدت على ضرورة استمرار الدعوة لرفع الرقابة الجمركية على تبادل الفيلم، ومحاربة البيرقراطية في هذه المجالات.. والاستفادة من جهود أندية السينما العربية في كافة الأقطار. وبذل الجهود من أجل رفع الاحتكار الذي يمارسه الموزع الاجنبي على بعض الاسواق العربية. بالاضافة الى تأسيس مركز للتدريب السينمائي.

وكان واضحاً أن المناقشات حول هذا الموضوع قد توصلت الى ادراك مساوىء غياب الديمقراطية وسيادة الرقابة، وهيمنة الدولة القطرية والولاءات السياسية والحزبية الضيقة ودور كل ذلك في خلق الصراعات الهامشية حتى بين التقدميين والوحدويين أنفسهم.

كما لمس المتحاورون، بعض مظاهر القصور الاعلامي بالنسبة لقضايانا المصيرية، خاصة القضية الفلسطينية وأكدوا أن من الضروري التعامل مع الاعلام كمؤسسة دفاعية هجومية في معارك الأمة العربية ضد الامبريالية والصهيونية. وأدانوا ظاهرة الاختراق المستمر، والعميق للانتاج السينمائي والتلفزيوني الذي يمر عبر الأجهزة الاعلامية العربية، مما يترك أثراً مدمراً على الملتقي العربي، فرداً، أو جماعات..

وبالرغم من مجمل الظواهر الايجابية للموسيقى والغناء العربيين إلاّ أن الانحطاط، والتردي هما السمتان البارزتان لهذا الفن في السنوات الأخيرة.. مما يتطلب موقفاً نقدياً صلباً تجاه مجموع الظواهر السلبية في هذا المجال، وأنه لهذا لا بد من تشجيع، وتطوير، بعض التجارب المتميزة والناجحة، مع ما يتطلبه التطوير من اثراء، واغناء لجملة الفنون الموسيقية والغنائية على مستوى الوطن العربي، وفي كل قطر على حدة مما يشترط عملاً جاداً على هذا الصعيد.

وبالرغم من أن الفنون التشكيلية العربية طافحة بالمضمون الذي تغذيه طموحات الواقع العربي، إلاّ

أن الحوار قد أكد على أن مساحة كبيرة من الأعمال التشكيلية العربية تبدو معزولة، وفاقدة الصلة بواقعها العربي ومغرقة في الغربة والتغريب.

ولذا فقد تأكدت للمجتمعين ضرورة تلازم الاصالة والحداثة، وأشار بعضهم الى ضرورة الانطلاق من الفنان الواسطي ونتاجه الموروث لتحديد ملامح أصيلة للفن التشكيلي العربي المعاصر، خارج المؤثر الغربي الذي يجعل من اللوحة العربية ظلاً للوحة الغربية على الرغم من الكفاءة العالية للفنان العربي.

وقد أشارت المداخلات الى أهمية الفنون الشعبية الموروثة، باعتبارها التحاماً تاريخياً موروثاً على مستوى الوطن العربي، يتجاوز الحدود القطرية الى مستوى التجاوب الروحي الذي تكشف عنه معالم الاصالة في هذا التراث بارتباطه بالارض، وتعلق أصحابه بالحرية، وأن هذا القطاع لم يلحقه أي تطوير جدي، وأنه وبالرغم من المحافظة عليه كما هو إلاّ أنه معرض للاندثار بفعل الزمن، أو بفعل عمليات التحديث التي تفقده روحه وأصالته.

وفي مناقشات الخبراء لموضوع العمارة العربية لاحظوا مدى الأخطار التي تلحق بالعمارة العربية ورأوا أنه من الضروري العمل بمختلف وسائل التعبير للوقوف في وجه الكارثة المتمثلة بهدم الاحياء التقليدية في المدن العربية، ودعوا الى ضرورة العودة الى العمارة العربية، وضرورة دمجها في الحياة اليومية للناس ودمج ما يمكن منها في المنشآت العمرانية الصغرى أو الكبيرة.

وفي ختام جلسات الاجتماع ناقش المجتمعون ورقة تتضمن مشروع انشاء شركة للانتاج الفني. تحت عنوان « ابداع » برأسمال قدره عشرة ملايين دولار اميركي ، موزعة على أسهم يملكها المبدعون العرب ، وتكون لانتاجهم الاولوية في التحقيق في اعمال اذاعية ، وتلفزيونية وسينمائية تستطيع ان تنهض بالابداع العربي في مواجهة الانتاج الذي تمارسه الرأسمالية الطفيلية العربية ، او الاجنبية التي تحتل مساحات مهمة من ساعات البث التلفزيوني العربي .

وكان واضحاً منذ البداية ، ان لقاء المبدعين العرب في مشروع انتاجي كبير كهذا يمكن ان يحوّلهم من أدوات عمل في يد شركات الانتاج الطفيلية الى مؤسسة ابداعية عربية موحدة قادرة على الاداء، والفعل بسوية عالية يتطلب تحقيقها جيشاً من المبدعين مبعثراً ، ولا بد من جمعه في اطار عمل مشترك واحد .

خ أ خ

سعر العدد

● لبنان ٢٥٠ ل.ل. ● سوريا ٢٠ ل.س. ● الأردن دينار واحد ● العراق دينار واحد ● الكويت دينار واحد ● الامارات العربية ١٥ درهما ● البحرين دينار واحد ● قطر ١٥ ريالا ● السعودية ١٥ ريالا ● اليمن ١٤ ريالاً ● اليمن الديمقراطية ٦٠٠ فلس ● مصر جنيه واحد ● السودان ٢.٥٠ جنيه ● الصومال ٢٠ شلناً ● ليبيا دينار واحد ● الجزائر ١٢ ديناراً ● تونس دينار واحد ● المغرب ١٢ درهماً ● موريتانيا ١٥٠ اوقية ● قبرص ١.٥٠ جنيه ● اليونان ٣٠٠ دراخما ● فرنسا ٢٥ فرنكا ● المانيا ١٠ ماركات ● ايطاليا ٥٠٠٠ ليرة ● بريطانيا ٢.٥ جنيه ● سويسرا ١٠ فرنكات ● هولندا ١٠ فلورن ● اميركا وسائر الدول الاخرى ٦ دولارات.

مكتب دمشق

الجمهورية العربية السورية - دمشق - الازبكية - ص. ب ٨١٥٧

الثمن ٢٠ ل.س أو مايعادلها